

كون إيغلدن

سادة البراري

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

الجزء الثاني من

السيرة الملحمية للقاتح

المغولي جنكيزخان

رواية



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



www.mlazna.com-RAYAHEEN

سادة البراري

الجزء الثاني من
السيرة الحموية للفتح المغولي جنكيزخان

رواية

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

تأليف
كون إيغلدن

ترجمة
مروان سعد الدين

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة



إلى ابنتي صوفي

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

القسم الأول



"انتهبوا، سيأتي شعب من الشمال، ويصبح أمة عظيمة. سوف يحمل أفراده الأقواس والرماح. إنهم قساة ولا يعرفون الرحمة. سيزار صوته مثل هدير البحر، سيمتطون جيادهم، وكل منهم يعرف موقعه مثل رجل سيخوض معركة".

جيريمايا 50: 41، 42

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

مقدمة



كان خان النيمز عجوزاً، ويرتجف في الرياح التي تهب على التل. بعيداً إلى الأسفل، كان الجيش الذي جمعه يقف ضد رجل يدعو نفسه جنكيز. وقفت أكثر من اثنتي عشرة قبيلة مع النيمز عند أسفل التل بينما كان العدو يهاجم مرة تلو الأخرى. كان الخان يسمع الصيحات والصرخات التي ينقلها إليه هواء الجبل، لكنه كان كفيفاً تقريباً ولا يمكنه رؤية المعركة.

تمتم مجدداً لكاهنه العراف: "أخبرني بما يحدث".
لم يكن كوكشو قد بلغ الثلاثين من عمره بعد، وكانت عيناه حادتين، إلا أن ظلالاً من الشك خيمت عليه.

"سَلِّمْ مقاتلو جاجيرات أقواسهم وسيوفهم يا مولاي. لقد فقتوا شجاعتهم، كما توقعت".
قال الخان وهو يلف رداءه حول جسده النحيل: "لقد منحوه شرفاً كبيراً بإظهار خوفهم. أخبرني عن رجالنا: هل ما زالوا يقاتلون؟".

لم يجب كوكشو لوقت طويل بينما كان يراقب الحشد الكبير من الرجال والحياد في الأسفل. كان جنكيز قد فاجأهم جميعاً، ظهر من المراعي عند القجر على الرغم من أن أفضل المستطلعين قال إنه لا يزال على بعد مئات الأميال. كان رجال اعتادوا على النصر قد ضربوا تحالف النيمز بكل ضراوة، لكن كانت هناك فرصة لصدا هجومهم. لعن كوكشو بصمت قبيلة جاجيرات، التي كانت قد جلبت الكثير من رجال الجبال والذين كان يعتقد أنهم ربما ينتصرون ضد أعدائهم. حتى وقت قصير، كان تحالفهم شيئاً بعيد المنال، ومستحيلاً قبل بضع سنوات؛ وصعد في وجه الهجمة الأولى فقط، ثم بعثره الخوف فتناحرت قبيلة جاجيرات جانباً.

فسيما كان كوكشو يراقب، أطلق لعنة بصوت خافت، وشاهد كيف أن بعض الرجال الذين رتب بهم خائنه قد قاتلوا حتى ضد إخوانهم. كانت لديهم ذهنية قطعان الكلاب، التي تحول وجهتها وفقاً لقوة الرياح.

قال أخيراً: "ما زالوا يقاتلون يا مولاي. لقد صعدوا ضد الهجوم وسهامهم تصيب رجال جنكيز، وتقتلهم".

شبه خان النيمز يديه للتحيلتين معاً، وبانت براجم أصابعه البيضاء.

"ذلك جيد يا كوكشو، لكن ينبغي أن أنزل إليهم لتشجيعهم".

التقى الكاهن العراف نظرة قلق شديدة على الرجل الذي خدمه طيلة حياته.

"استموت إذا فعلت ذلك يا مولاي. لقد رأيت ذلك. سيدافع أتباعك عن هذا التل حتى ضد أرواح الموتى". أخفى خجله. كان الخان قد وثق بمستشاره، لكن عندما شاهد كوكشو أول خطوط النيمز تتداعى، أدرك أن موته قادم مع السهام المتطايرة. كل ما كان يريدُه عندها هو الهرب بعيداً.

تهدد الخان: "لقد خدمتني بإخلاص يا كوكشو. أنا ممتن لك. أخبرني مجدداً الآن صراحة".

سحب كوكشو نفساً سريعاً وصيحاً قبل أن يجيب.

"لقد انضم أشقاء جنكيز إلى المعركة الآن. يقود أحدهم الهجوم على جانبي محاربينا. إنه يخرق صفوفهم". توقف قليلاً، وعض شفتيه. مثل ذبابة تطن في الهواء، شاهد سهماً يتجه نحوهما وينغرس حتى ريشه في الأرض على بعد أقدام فقط من المكان الذي يجثمان فيه.

قال وهو ينهض على قدميه من دون أن يشيح ببصره بعيداً عن فوضى القتل العارمة بعيداً في الأسفل: "ينبغي أن نصعد إلى الأعلى يا مولاي".

نهض الخان العجوز معه، يساعد محاربين. كان وجهاهما خاليين من أي تعبير فيما كانا يشاهدان مصرع أصدقائهما وإخوانهما، لكنهما تسلفا التل عند إيماءة كوكشو، وساعدا الرجل العجوز على الصعود.

سأل بصوت متهدج: "هل قمنا بشن هجوم مضاد يا كوكشو؟". استدار كوكشو وفزع مما رآه. كانت السهام تتطاير في الهواء تحته، وتبدو كما لو أنها تتحرك ببطء شديد. كانت قوة النيمز قد انشطرت نصفين نتيجة الهجوم. كانت الدروع التي أمر جنكيز بصنعها وفقاً لنماذج تشن أفضل من الجلود المدبوغة التي يستعملها النيمز. كان كل رجل يرتدي درعاً حديدياً طويلاً بسماكة إصبع ومحبوكاً بقماش سميك فوق رداء حريري. مع ذلك، لم يكن يستطيع صد ضربة قوية، على الرغم من أنه غالباً ما كان يوقف رأس السهم عن النفاذ. شاهد كوكشو محاربي جنكيز يقاومون عاصفة السهام. تم سحق صفوف مقاتلي قبيلة ميركيت تحت الأقدام، ورمى من تبقى منهم أسلحتهم وجثوا يلهثون بجهد. وحدثهم مقاتلو الأويرات والنيمز نابحوا القتال، ثائرين،

يعرفون أنهم لن يصمدوا طويلاً. كان التحالف الكبير قد تشكل لمقاومة عدو واحد وستنتهي بنهايته كل آمال الحرية. تقلب جاجبا كوكشو، مفكراً في مستقبله.

قاتل الرجال بكبرياء يا مولاي. لن يهربوا من هؤلاء، ليس وأنت تشاهدهم". رأى ستة محارب لدى جنكيز يصلون إلى سفح التل ويحتقون بخبث إلى خطوط الأتباع. كانت الرياح شديدة البرودة على مثل ذلك الارتفاع وشعر كوكشو بالياس والغضب. كان قد قطع شوطاً طويلاً ليلقى الفشل على تل جاف وأشعة الشمس الباردة تلمح وجهه. كل تلك الأسرار التي كان قد اكتسبها من والده، وأضاف إليها، ستضيع بضربة سيف أو سهم تُنهى حياته. للحظة، كره الخان العجوز الذي كان قد حاول أن يقاوم القوة الجديدة في السهول. كان قد فشل وجعله ذلك يبدو أحمق، بغض النظر عن القوة التي كان يتمتع بها من قبل. بصمت، لعن كوكشو الحظ السيء الذي أصابه.

كان خان التيممز يلهث فيما كانوا يتسلقون، ولوح بيد متعبة للرجلين اللذين يمسكان ذراعيه. قال وهو يهز برأسه: "يلغي أن أرتاح هنا".

رد كوكشو: "يا مولاي، إنهم قريبون للغاية". تجاهل التابعان الكاهن العراف، وساعدا الخان على الجلوس على حافة صخرية معشوبة.

قال الخان: "إذاً، لقد خسرنّا؟ كيف يمكن لكلا الجنكيز أن تصل إلى هذا التل إذا لم يكن فوق أجساد التيممز للموتى؟".

لم ينظر كوكشو في عيني التابعين. كانا يعرفان الحقيقة مثله أيضاً، لكن لم يكن أحد يرغب بقول ذلك وتحطيم آخر أمل للرجل العجوز. في الأسفل، كانت الأرض مليئة بأثلاء القتلى، مثل مستند مخطوط بالدم على العشب. كان مقاتلو الأويرات قد قاتلوا بشجاعة وتصميم، لكنهم اتهاروا أخيراً. تحرك جيش جنكيز برشاقة، واستفاد من كل نقطة ضعف في الخطوط. استطاع كوكشو رؤية مجموعات من مئات وعشرات الرجال الذين يتسابقون عبر ساحة المعركة، وفادتهم يتواصلون بسرعة مذهلة. لم يصمد في وجه العاصفة إلا مقاتلو التيممز الذين يتمتعون بشجاعة كبيرة، لكن ذلك لم يكن كافياً. اختير كوكشو لحظة أمل عندما تجمع المحاربون مجدداً عند أسفل التل، لكن تلك كانت مجموعة صغيرة من الرجال المرهقين وتم القضاء عليهم في الهجمة التالية.

نسم كوكشو: "لا يزال أتعابك مستعدين للموت من أجلك يا مولاي". كان ذلك كل ما استطاع قوله. كان الباقي من الجيش الذي بدا ماهراً وقوياً جداً في الليلة السابقة قد تبعثر في الأرجاء. كان يستطيع سماع صرخات المحتضرين. لوماً الخان برأسه، وأغلق عينيه.

قال بصوت أعلى قليلاً من الهمس: "كنت أعتقد أننا نستطيع الانتصار اليوم. إذا انتهى الأمر، قل لأبنائي أن يلقوا أسلحتهم. لن أَدْعِيهم يلقون حتفهم من دون سبب وجيه".

كان أبناء الخان قد لقوا حتفهم عندما اجتاحتهم جيش جنكيز. حتى التابعان إلى كوكشو عندما سمعا الأمر، وكانا بخفيان حزنهما وغضبهما. سحب الرجل الأكبر سناً سيفه وتفتّد نصله، وكانت الشرايين في وجهه وعنقه بادية للعيان، مثل خيوط دقيقة تحت الجلد.

"سأُنْقِل الأمر لأبنائك يا مولاي، إذا سمحت لي بالذهاب".
رفع الخان رأسه.

"قل لهم أن يحافظوا على حياتهم يا موراخ حتى يروا إلى أين بقودنا جنكيز هذا". كانت هناك نموع في عيني موراخ ومسحها بغضب بينما كان يواجه التابع الآخر، متجاهلاً كوكشو كما لو أنه ليس موجوداً هناك.

قال بهدوء: "أحم الخان يا بني". أحنى الشاب رأسه، ووضع موراخ يداً على كتفه، ومال إلى الأمام حتى تلامس الجبينان للحظة. من دون أن ينظر إلى الكاهن العراف الذي كان قد أحضرهم إلى التل، نزل موراخ المنحدر بخطوات واسعة. تنهد الخان، وكان ذهنه مليئاً بالشكوك. همس: "قل لهم أن يسمحوا لتفاتيح بالمرور". شاهد كوكشو أن نقطة عرق تتوقف على أنفه وترتفع هناك. "ربما سيكون رحيماً مع أبنائي بعد أن يقتلني".

بعيداً في الأسفل، شاهد كوكشو التابع موراخ يصل إلى التلة الأخيرة من المدافعين. وقفوا على أقدامهم بحضوره؛ وكانوا رجالاً مرهقين، محطمين على الرغم من أنهم رفعوا رؤوسهم وحاولوا عدم إظهار خوفهم. سمعهم كوكشو يودعون بعضهم فيما كانوا يمشون بخطوات بطيئة نحو العدو.

عند أسفل التل، شاهد كوكشو جنكيز نفسه قائماً عبر حشد من المحاربين، ودرعه ملطخ بالدماء. شعر كوكشو بالرجل يرمقه بنظرة عابرة. ارتعش ولمس مقبض خنجره. هل سيحافظ جنكيز على حياة كاهن عراف كان قد مرّر سكينه على عنق خاتنه؟ كان الرجل العجوز يجلس مطأطأً الرأس، ورفيقه نحيلة تماماً. ربما ستقتل مثل تلك الجريمة حياة كوكشو، فقد كان في تلك اللحظة خائفاً جداً من الموت.

حتى جنكيز إلى الأعلى من دون أن يتحرك لوقت طويل وترك كوكشو يده تسقط إلى جانبه. لم يكن يعرف ذلك المحارب البارد الذي جاء من حيث لا يدري أحد مع شمس الفجر. جلس كوكشو إلى جانب خاتنه وشاهد مقاتلي مؤخر حشد التيممز يلقى

حقيقه. رد تعويذة حماية قديمة كان والده قد علمه إياها، تجعل الأعداء في صفه. بدا أن سماع الكلمات غير المترابطة يخفف من ثوتر الخان العجوز.

كان موراخ التابع الأول في النيمنز، ولم يكن قد قاتل ذلك اليوم. بصرخة عويل، اندفع نحو خطوط رجال جنكيز من دون التفكير بتوفير حماية لنفسه. صرخ مقاتلو مؤخر حشد النيمنز في أعقابهم، فقد تلاشى تبعهم. تسببت سهامهم بفوضى بين رجال جنكيز، لكنهم وقفوا بسرعة وأطلقوا سهامهم بشكل مفاجئ، وكشفوا عن أسنانهم في أثناء تقدمهم. عندما قتل موراخ أول من وقف ضده، حاصره اثنا عشر رجلاً من كل جانب، وجعلوا أضلاعه مخضبة بالدماء من وقع ضربات سيوفهم.

استمر كوكشو في إنشاده، واتسعت عيناه عندما تفخ جنكيز بوقاً وابتعد رجاله عن الناجين اللاهثين من النيمنز.

كان موراخ لا يزال حياً، ويقف مصاباً بنوار. رأى كوكشو أن جنكيز صرخ بوجهه، لكنه لم يسمع الكلمات. هز موراخ رأسه، وبصق دماً على الأرض بينما كان يرفع سيفه مرة أخرى. لم يكن هناك سوى قلة من مقاتلي النيمنز الواقفين وكانوا جميعاً جرحى، ودماءهم تسيل حتى أقدامهم. رفعوا أيضاً سيوفهم، وكانوا يترنحون في أثناء قيامهم بذلك.

صرخ جنكيز: 'لقد قاتلتم جيداً. استسلموا لي وسأرحب بكم إلى نيراني. سأمنحكم ذلك الشرف.'

كثر موراخ غضباً، وكانت أسنانه حمراء. قال: 'أبصق على شرف الذئاب'. جلس جنكيز ساكناً، من دون حراك على جواده قبل أن يهز كتفيه استخفافاً، ويشير بيده مرة أخرى. اندفع الخط إلى الأمام، واختفى موراخ والآخرين في حشد الرجال الذين قضاوا عليهم.

عالياً على التل، نهض كوكشو على قدميه، سكنت أنشودته في حنجرته بينما كان جنكيز يترجل ويبدأ صعود المنحدر. كانت المعركة قد انتهت. كان الموتى بالمئات، لكن الألقا آخرين كانوا قد استسلموا. لم يكن كوكشو يهتم بما حدث لهم.

قال كوكشو بهدوء وهو ينظر إلى أسفل التل: 'إنه قائم'. انكمشت معدته، وارتعشت العضلات في ساقيه مثل جواد يزعجه الذئب. كان الرجل الذي وُجد قبائل السهول تحت راياته يصعد المنحدر لغاية في نفسه، ووجهه خالٍ من أي تعبير. استطاع كوكشو أن يرى أن درعه قد تعرض لضربات كثيرة وأن العديد من قطعه

المعدنية معلق بخيوط. كان القتال صعباً، لكن جنكيز تسلق من دون أن ينس ببنت شفة، كما لو أن الإجهاد لم يكن يعني شيئاً له.

همس الخان، محطماً السكون: "هل نجا أبنائي؟". مَذَّ يده وأمسك بردين رداء كوكشو.

قال كوكشو بنوبة مرارة مفاجئة: "لم ينجوا". تراجعت اليد، وسقط الرجل المعجوز على الأرض. بينما كان كوكشو يراقب، نظرت إليه العينان ذات اللون الحليبي مرة أخرى وكانت هناك قوة بالطريقة التي تماسك بها.

قال الخان: "إذاً، دع جنكيز هذا يأتي. ما الذي يهمني الآن؟".

لم يرد كوكشو، ولم يكن يستطيع أن يشيح بناظريه عن المحارب الذي تسلق السُل. كانت الرياح باردة وتلسع عنقه، وكان يشعر بأنها عذبة أكثر من أي وقت مضى. كان قد شاهد رجالاً يولجھون الموت؛ وكان قد منحهم إياه في طقوس ظلامية، وحرَّز أرواحهم من أجسادهم. كان يرى أن موته قادم مع الخطوات الثابتة لذلك الرجل، وكاد للحظة أن يجازف ويهرب. لم تكن الشجاعة التي ألبقته هناك. كان رجل كلمات وتعاويز، وأكثر إثارة للخوف بين التيمز مما كان عليه والده. كان الهرب يعني الموت المحقق في الشتاء التالي. سمع همساً بينما كان ابن موراخ يسحب سيفه، لكنه لم يشعر بالراحة لذلك. كان هناك شيء مريب بشأن تقدم المدمر بشكل ثابت. لم تستطع الجيوش إيقاقه. رفع الخان المعجوز رأسه وشاهده يأتي، وشعر باقترابه بالطريقة نفسها التي تتلمس فيها عيناها الكفيفتان الشمس.

توقف جنكيز عندما اقترب من الرجال الثلاثة، يحنق إليهم. كان طويلاً وجلده يلمع من السَّهْن وموفور الصحة. كانت عيناها صفراوين مثل عيني ذئب، ولم يرَ كوكشو رحمة فيهما. فيما وقف كوكشو متجمداً، سحب جنكيز سيفاً ما زال يقطر دماً. تقدم ابن موراخ خطوة إلى الأمام ليوقف بين الخالين. نظر إليه جنكيز بغضب شديد، وتوتر الشاب.

قال جنكيز: "انزل عن التل أيها الفتى، إذا أردت أن تعيش. لقد رأيت ما يكفي من أفراد شعبي يموتون اليوم".

هزَّ المحارب الشاب رأسه من دون أن ينس ببنت شفة، وتهدد جنكيز. بحركة سريعة، نحى السيف جانباً، ومَذَّ يده الأخرى في الهواء، ودفع بخنجر في حجرة الشاب. فيما كانت الروح تغادر ابن موراخ، وقع على جنكيز وازعاه مفتوحتان. همهم جنكيز بينما كان يلتقط الثقل ويدفعه بعيداً. شاهد كوكشو الجسد يتحرج ببطء على المنحدر.

بهنوء، مسح جنكيز الخنجر ووضعها في غمد على خصره، وظهر عليه التعب فجأة.

قال: "كنت سأكرم التيمز لو أنك انضممت إلي".

حنق إليه الخان العجوز بعينين خاليتين من أي تعبير.

أجاب بصوت قوي: "قد سمعت رذي. أرسلني الآن إلى أبنائي".

أوما جنكيز برأسه. أنزل سيفه ببطء ظاهر. أزال رأس الخان عن كتفيه، وأرسله يتحرج إلى أسفل التل. لم يرتعش الجسد كثيراً من قوة الضربة وانحنى قليلاً فقط إلى أحد الجانبين. استطاع كوكشو سماع النداء تنقطر على الصخور فيما كانت كل أحاسيسه تصرخ طلباً للحياة. شحب لونه عندما استدار جنكيز إليه، وطلق بكلمات متلاحقة باتسة.

ربما لن تريق دماء كاهن عراف يا مولاي. لن تفعل ذلك. أنا رجل سلطة، وأفهم السلطة. اضربني وستجد أن جلدي حديد. بدلاً من ذلك، اسمح لي بأن أخدمك. دعني أعلن انتصارك".

أجاب جنكيز: "كيف أبليت مع خان التيمز حتى أحضرته إلى هنا ليموت؟".

"ألم أحضره إلى هنا بعيداً عن المعركة؟ رأيتك قائماً في أحلامي يا مولاي. لقد فتحت لك الطريق بأفضل ما أستطيع. أأنت مستقبل القبائل؟ إن صوتي صوت الأرواح. ألق في الماء، فيما تنقف أنت على الأرض والسماء. اسمح لي بأن أخدمك".

تردد جنكيز، وكان سيفه ثابتاً تماماً. كان الرجل الذي يواجهه يرتدي سترة رمادية داكنة فوق رداء وطماقات (أعطية جلدية للسائقين) مشخة. كانت ملابسه مزينة بأشكال من الخيوط البنفسجية التي أضفى لونها أسود تقريباً نتيجة تراكم الدهون والأوساخ عليها. كان الحذاء الذي ينتعله كوكشو مربوطاً بحبل، ومن النوع الذي قد ينتعله رجل إذا قرر آخر مالك له عدم استعماله مجدداً.

على الرغم من ذلك، كان هناك شيء بالطريقة التي تلمع بها العينان في الوجه الداكن. تذكر جنكيز كيف كان إيلوك الذئب قد قتل كاهن والده. ربما كان مصير إيلوك قد تحدد في ذلك اليوم الدموي قبل عدة سنوات مضت. راقبه كوكشو، منتظراً الضربة التي ستنتهي حياته.

قال جنكيز: "لا أريد قاصداً آخر، لدي ثلاثة رجال يدعون أنهم يتكلمون مع الأرواح".

شاهد كوكشو الفضول في نظرة الرجل، ولم يتردد. قال: "إنهم أولاد يا مولاي. دعني أريك". من دون انتظار رذ، مذبذبة داخل سترته وأخرج قطعة رقيقة من القولا

مربوطة كيفما اتفق إلى مقبض بوق. شعر بأن جنكيز رفع سيفه ومد كوكشو راحة كفه الفارغة لإيقاف الضربة، وأغلق عينيه.

بجهد وإرادة كبيرين، تحمل الكاهن العراف الرياح التي تلسع جلده والخوف الشديد الذي يعتصر جوفه. تمت الكلمات التي كان والده قد علمه إياها وشعر بالسكينة تغمره بقوة وسرعة أكبر حتى مما كان يتوقع. كانت الأرواح معه، وقد هذأت من روعه. في لحظة، كان في مكان آخر ويراقب ما يجري.

اتسعت عيناً جنكيز عندما وضع كوكشو الخنجر على ذراعه، وأدخل النصل الرفيع في اللحم. لم تظهر على الكاهن أي علامات ألم بينما كان المعدن يقطع لحمه؛ وراقب جنكيز، مذهولاً، بينما كان النصل يتقّب الجلد إلى الطرف الآخر. أصبح لون المعدن أسود بينما كان ينفرس في اللحم، وطرفت عيناً كوكشو ببطء، بكسل تقريباً، عندما سحب.

راقب كوكشو عيني الخان الشاب عندما كان يُخرج الخنجر، وكاننا مثبتين على الجرح. سحب كوكشو نفساً عميقاً، وشعر بالطمأنينة تزداد حتى لم يعد يشعر بأطرافه. همس، وكان يعرف الجواب: "هل هناك دماء يا مولاي؟".

تقطب حاجبا جنكيز. لم يكن قد أغمد سيفه، لكنه تقدم إلى الأمام ومرّر إبهامه القاسي على الجرح البيضاوي في ذراع كوكشو. أقرّ بتحفّظ: "لا. إنها مهارة مفيدة. هل يمكن تعلمها؟".

ابتسم كوكشو، ولم يعد يشعر بالخوف. كن تأتي الأرواح إلى أولئك الذين لم يتم اختياريهم يا مولاي".

أوماً جنكيز، وتتحّى جانباً. حتى في الرياح الباردة، كانت رائحة الكاهن العراف مثل نيس كبير ولم يكن يعرف ما يفعله بالجرح الغريب الذي لم ينزف. همهم جنكيز ومرّر أصابعه على طول سيفه، ووضعها في غمده. قال: "سأمنحك سنة نحيائها أيها الكاهن العراف. إنه وقت كافٍ لتثبت كفاءتك".

جثا كوكشو على ركبتيه، ووضع وجهه على الأرض. قال والدموع تبلل الغبار على وجنتيه: "أنت الخان العظيم، كما توقعت". شعر بأن طمانينة همسات الأرواح تغادره آنذاك. مدّ رده إلى الأمام ليخفي بقعة الدماء التي أخذت تكبر بسرعة.

رد جنكيز: "أنا كذلك". نظر إلى أسفل التل، إلى الجيش الذي ينتظر عودته. "سيسمع العالم اسمي". عندما تكلم مجدداً، كان ذلك بصوت خافت جداً، وبذل كوكشو جهداً لسماعه.

"هذا ليس وقت الموت أيها الكاهن العراف. نحن شعب واحد ولن تكون هناك معارك أخرى بيننا. سأجمع شعبنا جميعاً. سقع المدن في قبضتنا، وستكون لدينا أراضي جديدة تمتطي جيادنا فيها. ستبكي النساء، وسأكون سعيداً لسماع ذلك".
نظر إلى الأسفل إلى الكاهن الملقى على وجهه، وتقطب حاجباه. "ستعيش أيها العراف. لقد قلت ذلك. انهض من ركوعك، وسر معي".

عند أسفل التل، أوما جنكيز إلى شقيقه، كشيون وخاسار. كان نفوذ كل منهما قد ازداد بمرور السنين منذ بدأوا تجميع القبائل، لكنهما كانا لا يزالان يافعين وابشيم كشيون عندما مشى شقيقه بينهما.

سأل خاسار، وهو ينظر إلى كوكشو ويحنق بردائه للث: "من هذا؟".

أجاب جنكيز: "كاهن وعراف قبيلة النيمز".

فقد رجل آخر جواده حتى أضحي قريباً منهم وترجل، وعينه ثابتان على كوكشو. كان أرسلان سابقاً حداث قبيلة النيمز وعرفه كوكشو عندما اقترب. كان الرجل قتلاً، كما تذكر، وقد تم نفيه. لم يكن مفاجئاً وجود أمثاله بين ضباط جنكيز الموثوقين.

قال أرسلان: "أتذكرك. هل مات أبوك إذًا؟".

أجاب كوكشو، بنبرة غاضبة: "قبل سنوات، يا خاتن العهد".

للمرة الأولى، أدرك أنه فقد السلطة التي كان قد اكتسبها بجهد كبير مع قبيلة النيمز. لم يكن هناك الكثير من الرجال في تلك القبيلة الذين يتجرأون على النظر إليه من دون خفض أبصارهم، خوفاً من اتهامهم بعدم الولاء ومواجهة سكاكينه وناره. قابل كوكشو نظرة الخائن للنيمز من دون أن يرف له جفن. سوف يعرفونه على حقيقته.

راقب جنكيز التوتر بين الرجلين بشيء من المتعة. "لا تعتمد الإساءة أيها الكاهن العراف. ليس لأول محارب ينضوي تحت راياتي. لم يعد هناك نيمز الآن، ولا صلات قبيلة. لقد استحوذت عليها كلها".

أجاب كوكشو مباشرة: "لقد رأيت ذلك في الرؤيا. لقد باركتك الأرواح".

تجهم وجه جنكيز لدى سماعه تلك الكلمات. "كانت نعمة قاسية. لقد تم جمع الجيش الذي تراه حولك بقوة ومهارة. إن كانت أرواح آبائنا تقودنا، فلا يمكنني رؤيتها لأنها رقيقة للغاية".

طرفت عينا كوكشو. كان خان النيمز سانجاً وسهل الانقياد. أدرك أن رجله الجديد لا يقع بالقدر نفسه تحت تأثيره. على الرغم من ذلك، كان الهواء عذياً في رنتيه. لقد عاش ولم يكن حتى يتوقع ذلك قبل ساعة مضت.

استدار جنكيز إلى شقيقه، وصرف كوكشو عن أفكاره.

قال لخاسار: "اجعل للرجال الجدد يقسمون على الولاء لي هذا المساء، عند مغيب الشمس. وزعمهم بين الباقين حتى يشعروا بأنهم جزء منا، بدلاً من أن يكونوا أعداء مغلوبين. افعل ذلك بحرص. لا يمكنني الاحتراس من الخناجر في ظهري".

أحنى خاسار رأسه قبل أن يستدير مبتعداً بخطوات واسعة بين المحاربين إلى حيث كانت القبائل المهزومة لا تزال تجثو.

شاهد كوكشو ابتسامة عطف بين جنكيز وشقيقه الأصغر كشيون. كان الرجلان صديقين وكان كشيون قد بدأ يتعلم كل ما يستطيعه. حتى أصغر التفاصيل ستكون مفيدة في السنوات القادمة.

قال جنكيز، وهو يربت على ظهر شقيقه: "لقد حطمتنا التحالف يا كشيون. ألم أقل ذلك؟ جاءت جيانك المدرعة في الوقت المناسب".

أجاب كشيون، منتشياً بالمدح: "كما علمتني".

قال جنكيز مبتسماً: "مع الرجال الجدد، سيكون هذا جيشاً ينطلق في السهول. لقد حان الوقت لتحديد التدريب، أخيراً". فُكر للحظة. "أرسل فرساننا في كل اتجاه يا كشيون. أريد استطلاع الأرض بحثاً عن كل عائلة متجولة وقبيلة صغيرة. اطلب منهم المجيء إلى الجبل الأسود في الربيع القادم، قرب نهر اونون. إنه سهل منبسّط سيوسع لآلاف من شعبنا. سنجتمع هناك، ونستعد للانطلاق".

سأل كشيون: "ما هي الرسالة التي سأفعلها إليهم؟".

قال بهدوء: "اطلب منهم المجيء إلي. قل لهم إن جنكيز يدعوهم للتجمع. لم يعد هناك أحد يقف ضدنا الآن. يمكنهم أن يلحقوا بي أو أعضاء أياهم الأخيرة ينتظرون ظهور محاربي في الأفق. قل لهم ذلك". نظر حوله برضا. خلال سبع سنوات، كان قد جمع أكثر من عشرة آلاف رجل. مع الناجين من قبائل التحالف المهزومة، كان قد أصبح لديه ضعف ذلك العدد تقريباً. لم يعد هناك أحد في السهول يمكنه تحدي قيادته. أشاح بنظره بعيداً عن الشمس إلى الشرق، وتخيّل مدن تشن الكبيرة الثرية.

لقد أبقوا متفرقين ألف جبل يا كشيون. لقد قاموا باستغلالنا حتى لم نعد أكثر من كلاب متوحشة. ذلك هو الماضي. لقد جمعت الشمل، وسوف يرتعشون خوفاً. سامنحهم سبباً لذلك".

الفصل الأول



في غسق يوم صيفي، امتد معسكر المغول أميالاً في كل اتجاه، وكان النجم الكبير لا يزال يبدو صغيراً مقارنةً بالسهل الذي يمتد عليه في ظل الجبل الأسود. كانت الخيام تنتشر في كل مكان على مذ النظر، وحولها آلاف النيران المشتعلة التي تستخدم للطهو تضيء الأرض. خلف ذلك، كانت قطعان الجياد، والماعز، والأغنام، والثيران ترعى العشب لسد جوعها الدائم. كان يتم سوقها مع بزوغ الفجر بعيداً نحو النهر والمراعي الجيدة قبل أن تعود إلى المضارب. على الرغم من أن جنكيز كان يضمن السلام، إلا أن التوتر والشبهة كانا يزدادان كل يوم. لم يكن أحد هناك قد شاهد مثل ذلك الحشد من قبل، وكان سهلاً أن يشعر المرء بأنه محاصر بتلك الأعداد الكبيرة من الناس. كان يتم تبادل إهانات سرية وعنفية لأن الجميع كانوا يشعرون بالضغط الناجم عن العيش بالقرب من محاربين لا يعرفون بعضهم. في الأمسيات، كانت تقع مشاجرات كثيرة بين الشبان، على الرغم من منعها. كان يُعثر عند بزوغ كل فجر على جثة واحد أو اثنين من أولئك الذين حاولوا تسوية نزاع أو ضغينة قديمة. كانت هناك همسات بين القبائل بينما كانت تنتظر سماع سبب قطعها كل تلك المسافة البعيدة عن أراضيها.

انصبت خيمة جنكيز نفسه في وسط خيام وعربات الجيش، ولم تكن مثل أي شيء شاهده أحد من قبل في السهول. كانت أطول بمرّة ونصف وأعرض بمرتين من الخيام الأخرى، ومبنية من مواد أقوى من شبكات الأغصان الصغيرة للخيام التي حولها. كانت الخيمة ثقيلة جداً ولا يمكن تفكيكها بسهولة، ويتم نصبها على عربة مزودة بإطارات تجرها ثمانية ثيران. عندما يهبط الليل، كان مئات المحاربين يتجهون سراً إليها، فقط لتأكيد ما قد سمعوه.

في الداخل، كانت الخيمة الكبيرة تُضاء بمصابيح شحم الضأن، التي تشع وهجاً دافئاً على قاطنيتها وتجعل الهواء ثقيلًا. كانت هناك رايات حربية معلقة على الجدران،

لكن جنكيز ترفع عن كل ما يدل على الثروة، وكان يجلس على مقعد خشبي قانس. كان لشقاؤه يستلقون على بطانيات وسروج مصنوعة من شعر الجياد، يشربون وينشدون لتعضية الوقت.

كان يجلس أمام جنكيز محارب شاب يبدو عليه القلق، لا يزال يتعرق من الرحلة الطويلة التي كانت قد انتهت به إلى مثل ذلك الحشد. لم يكن يبدو أن الرجال حول الخان يعيرون اهتماماً له، لكن المبعوث كان يعرف أن أيديهم ليست بعيدة أبداً عن أسلحتهم. لم يكن يبدو عليهم التوتر أو القلق من وجوده، وفكر ملياً أن أيديهم ربما كانت دائماً بالقرب من أحد السيوف. لقد كان شعبه قد اتخذ قراره، وكان يأمل أن يعرف الزعماء الأكبر سناً ما الذي يفعلونه.

قال جنكيز: "إذا كنت قد انتهيت من تناول الشاي، سأسمع الرسالة".
أومأ المبعوث، ووضع الكوب على الأرض عند قدميه. ابتلع الرشفة الأخيرة بينما كان يغلّق عينيه ويقول: "هذه هي كلمات بارشوك، خان اليوغر".
تلاشت الأحاديث والضحكات حوله عندما تكلم، وكان يعرف أنهم يصغون جميعاً. ازداد قلقه. "عرفت سروراً عن مجنك، يا مولاي جنكيزخان. كنا قد تعبنا بانتظار أن يعرف شعبنا بعضه ويسمو. لقد أشرقت الشمس، والنهر خالٍ من الجليد. أنت الخان العظيم الذي سيقودنا جميعاً. سأكرس قوتي ومعرفتي لك".
توقف المبعوث، ومسح العرق عن جبينه. عندما فتح عينيه، شاهد أن جنكيز كان ينظر إليه بازدياد، فتقلصت معدته خوفاً.
قال جنكيز: "الكلمات رائعة، لكن أين أبناء اليوغر؟ لقد كانت لديهم سنة للوصول إلى هذا المكان. إذا كان ينبغي علي البحث عنهم...". ترك الوعيد يحوم في الأرجاء.

تكلم المبعوث بسرعة: "يا مولاي، استغرق الأمر شهوراً لبناء عربات السفر. لم نكن قد انتقلنا من أرضنا منذ عدة أجيال. كان ينبغي تفكيك خمسة معابد كبيرة، حجراً إثر آخر، وترقيم كل واحد منها حتى نستطيع بناءها من جديد. تطلبت حمولة واحدة من الرقاع اثني عشرة عربة ولا يمكن نقلها بسرعة".

سأل جنكيز، بعد أن انحنى إلى الأمام مهتماً بما سمعه: "هل تعرفون الكتابة؟".
أومأ المبعوث من دون تفاخر. "منذ سلوات عديدة يا مولاي. لقد جمعنا كتابات الأمم في الغرب، كلما كانوا يسمحون لنا بالمقايضة معهم. خاتنا رجل علم عظيم، وقد نسخ حتى أعمال تشن وكزي وكزيا".

قال جنكيز: "إذا، سأرحب بتلاميذ ومعلمين في هذا المكان؟ هل تقاتلون بالرقاع؟".

تَلَوْنَ وجه المبعوث عندما ضحك الرجال في الخيمة بصوت خافت. "هناك أربعة آلاف مقاتل أيضاً يا مولاي. سيقعون بارشوك أينما يقودهم".

أجاب جنكيز: "سيقعونني، وإلا سنتركهم مثل الجيفة على العشب". للحظة، لم يكن يوسع المبعوث سوى أن يحتق، لكنه بعد ذلك نظر إلى الأرضية الخشبية المصقولة، وبقي صامتاً.

كظم جنكيز غضبه، وقال: "لم تقل متى سيأتون، تلاميذ اليوغر هؤلاء". ربما يكونون على بعد أيام فقط خلفي يا مولاي. لقد غادرت منذ ثلاثة شهور مضت وكانوا مستعدين تقريباً للرحيل. لن يطول الأمر الآن، إذا كان لديك صبر". قال جنكيز بهدوء، وهو يفكر: "سأنتظر من أجل أربعة آلاف. هل تعرف كتابة تشين؟".

"لم أتعلم القراءة يا مولاي. يمكن لخاني قراءة كلماتهم".
"هل تقول تلك الرقاع كيف يمكن بناء مدينة من الحجارة؟".
تردد المبعوث عندما شعر بالاهتمام الشديد الذي يبديه الرجال من حوله.
"لم أسمع شيئاً مماثلاً من قبل يا مولاي. يكتب أبناء تشين عن الفلسفة، كلمات بوذا، كونفوشيوس ولاو تسي. لا يكتبون عن الحرب، أو حتى إذا كانوا يفعلون ذلك، لم يسمحوا لنا برؤية تلك الأوراق".

قال جنكيز بحدة: "إذا، لن نقتلنا بشيء. حصل لنفسك على وجبة طعام، واحرص على ألا تبدأ شجاراً بتفاخرك. سأحكم على اليوغر عندما يصلون".
الحنى المبعوث قيل أن يغادر الخيمة، وتهد باركياح حالماً أصبح خارج الجو المغعم بالنخان. مرة أخرى، تسأل إن كان خاتمه يفهم ما كان قد وعد به بكلماته. لم يعد أفراد اليوغر يحكمون أنفسهم بعد ذلك.

نظر المبعوث حوله على المعسكر الشاسع، وشاهد أضواء تنللاً على امتداد أميال. ربما لم يكن أمام خان اليوغر أي خيار.

غمست هولن قطعة من القماش في دلو من الماء، ووضعتها على جبين ابنها. لطالما كان تيموج أضغف من أشغائه، وكان مرضه يبدو عبثاً إضافياً أكثر من خاسار أو كشيون، أو تيموجن نفسه. ابتسمت باستياء من فكرة أنها ينبغي أن تتادي ابنها جنكيز، وهي كلمة جميلة تعني المحيط لكنه تجاوز ذلك المعنى المعتاد بطموحه. لم يكن قد شاهد البحر أبداً من قبل خلال ست وعشرين سنة من حياته، ولم تكن قد شاهدته بنفسها، بالطبع.

اضطرب تيموج في نومه، وفزع عندما تحسنت معدته بأصابعها.
قالت بورت: "إنه هادئ الآن. ربما سأعادر لبعض الوقت".

نظرت هولن ببرود إلى المرأة التي كان تيموجن (جنكيزخان) قد اتخذها زوجة. كانت بورت قد منحته أربعة أبناء سالمين، وكانت هولن قد فكرت لبعض الوقت أنهما ستكونان أخوين، أو صديقين على الأقل. كانت المرأة الشابة مليئة بالحياة والبهجة في ما مضى، لكن أحداثاً كانت تعمل في مكان ما عميقاً داخلها حيث لا يمكن رؤيتها. كانت هولن تعرف الطريقة التي ينظر بها تيموجن إلى ابنه البكر. لم يكن يلعب مع جوشي الصغير أبداً، ويكتفي بتجاهله. كانت بورت قد كالتحت ضد ذلك الارتياب، لكنه كان قد تطور بينهما مثل إسفين حديدي في خشب قاسٍ. لم ينفع أن كل أبنائه الثلاثة الآخرين كانوا قد ورثوا لون عينيه الصفراوين. كانت عينا جوشي بنيتين داكنتين، وبشرته سوداء مثل شعره في ضوء خافت. بينما كان تيموجن شغوفاً بالآخرين، كان جوشي يهرب إلى أمه من دون أن يستطيع فهم البرودة في تعبيرات وجه والده عندما ينظر إليه. شاهدت هولن المرأة الشابة ترمق باب الخيمة، إنها تفكر من دون شك بأبنائها.

وبختها هولن: "لديك خدم يرضعونهم في أسرتهم. إذا أفاق تيموج، سأكون بحاجة إليك هنا".

بينما كانت تتكلم، مررت أصابعها فوق عقدة داكنة تحت جلد بطن ابنها، على بعد أصابع فقط من شعر فخذه الداكن. كانت قد رأت مثل ذلك الجرح من قبل، عندما يرفع الرجال أوزاناً ثقيلة جداً. كان الألم شديداً، لكن معظمهم كان يسترد عافيته. لم يكن تيموج يتمتع بمثل ذلك الحظ، ولم يسبق له ذلك. لم يكن يبدو كمحارب بينما كان ينسقل نحو الرجولة. عندما كان بنام، كان وجهه يبدو مثل شاعر، وكانت هولن تحبه لأجل ذلك. ربما لأن والده كان سيسر لرؤية الآخرين وقد أصبحوا رجالاً، فقد كانت دائماً حنونة بشكل خاص مع تيموج. لم يكن قد أصبح قاسياً، على الرغم من أنه تعمل الكثير مثلهم. تهتدت في قرارة نفسها، وشعرت بعيني بورت تنظران إليها في الدجنة.
قالت بورت: "ربما سيستعيد عافيته". فزعت هولن. كان جلد ابنها قد تفرّج تحت الشمس ونادراً ما حمل نصلاً أكبر من سكين طعام. لم تكن تعترض على ذلك خاصة بعد أن بدأت تعرف تاريخ القبائل التي تنضم إليهم بسرعة أنهلت حتى كبار السن. لا يمكن أن يكون الجميع مهرة في استعمال الأسلحة وامتطاء الجياد، كما قالت لنفسها. كانت تعرف أنه يكره السخريه والأزدراء اللذين يلاحقانه في عمله، على الرغم من أن قلة كانت تجرؤ على تحمل مخاطرة أن يسمعا جنكيز. رفض تيموج أن يذكر

الإلهامات وكانت تلك شجاعة خاصة به. لم يكن أحد من أبنائها يفكر للروح المعنوية العالية.

نظرت كلتا المرأتين بينما كان باب الخيمة الصغير يفتح. تقطب حاجبا هولن عندما شاهدت كوكشو يدخل ويحني رأسه لهما. جالت عيناه الذائبتان على جسد ابنها المستلقي على ظهره، وكافحت حتى لا تظهر امتعاضها، ولم تكن تفهم حتى رد فعله ذلك. كان هناك شيء في الكاهن العراف، يجعلها تشمئز منه، وقد تجاهلت المبعوثين الذين بعث بهم. للحظة، نالكت نفسها، تكافح بين السخط والإرهاق.

قالت ببرود: "لم أطلبك".

بدا كوكشو غافلاً عن تلك النبوة. أرسلت عبداً لأكتسب لحظة معك، يا أم الخان. ربما لم يصل بعد. المعسكر كله يتكلم عن مرض ابنك".

شعرت هولن أن نظرة الكاهن العراف تسمرت عليها، وأنه ينتظر أن يتم الترحيب به بشكل رسمي، بينما كانت تنظر إلى تيموج مرة أخرى. كان يراقب دائماً كما لو أن شخصاً آخر بالداخل ينظر إلى الخارج. كانت قد شاهدت كيف دفع نفسه إلى الدوائر الداخلية حول جنكيز ولم تكن تحبه. ربما كانت تتبعت من المحاربين رائحة روث الأغنام، ودهن الضأن، والعرق، لكن تلك كانت روائح رجال أصحاب. كانت رائحة كوكشو مثل اللحم المتعفن، على الرغم من أنها لم تكن تعرف إن كان ذلك من ملابسه أو لحمه.

بمواجهة صمتها، كان يجدر به مغادرة الخيمة، أو المخاطرة باستدعائها للحراس. بدلاً من ذلك، تكلم بصفاقة، متأكدًا نوعاً ما أنها لن تطرده. "لدي مهارة في المداواة، إذا كنت تسمحين لي بفحصه".

حاولت هولن أن تثبت أن شمسها لم يكن باستطاعة كاهن أولخونوت سوى أن ينشد بجانب تيموج، من دون نتيجة. قالت أخيراً: "مرحباً بك في بيتي يا كوكشو". رآته يسترخي تماماً ولم تستطع التخلص من الشعور بأنها قريبة للغاية من شيء بغوض. "ابني نائم. يشعر بالأم شديد جداً عندما يستيقظ، وأريد أن يرتاح".

عبر كوكشو الخيمة الصغيرة، وجثم بجانب المرأتين. ابتعدت كلتاها عنه من دون وعي.

"يحتاج إلى المداواة أكثر من الراحة، على ما أعتقد". ألقي كوكشو نظرة على تيموج، وانحنى مقترباً ليشم رائحة أنفاسه. فزعت هولن عندما مذيده إلى بطن تيموج العاري وتحسس منطقة الكتلة، لكنها لم تمنعه. تأوه تيموج في نومه، وحبست هولن أنفاسها.

بعد وقت، أوما كوكشو لنفسه. "ينبغي عليك أن تجهزي نفسك أبنتها الأم العجوز. سيموت هذا الابن".

مئت هولن يدها بسرعة، وأمسكت الكاهن العراف من معصمه. أدهشته قوتها. لقد أفرغ ما في معدته أبها الكاهن العراف. لقد سبق ورأيت ذلك عدة مرات من قبل. رأيت ذلك حتى مع الجياد والماعز وكانت تعيش دائماً.

أبعد كوكشو قبضتها المرتعشة بيده الأخرى. كان يسعده رؤية الخوف في عينيها. مع الخوف، يمكنه امتلاكها جسداً وروحاً. إن كانت أما شابة من التيميز، ربما كان سعى لإقامة علاقة معها مقابل مداواة ابنها، لكن في هذا المعسكر الجديد، يحتاج إلى إثارة إعجاب الخان العظيم. أبقى وجهه خالياً من أي تعبير بينما كان يجيب. "هل رأيت لون الكتلة الداكن؟ إنها شيء لا يمكن استئصاله. لو كانت على الجلد، لكنت أحرقتها، لكنها ستشرب مثل المخالب في معدته وورثته. إنها تستهلكه تماماً ولن تتوقف حتى يموت".

قالت هولن بحدة، والدموع في عينيها: "أنت مخطئ". خفض كوكشو بصره حتى لا ترى نظرة انتصاره آنذاك. "أتمنى أن أكون كذلك أبنتها الأم العجوز. لقد رأيت هذه الأشياء من قبل، وهي شرهة جداً. ستستمر في مهاجمته بعنف حتى يهلكا معاً". لتوضيح قصده، مَذَّ يده، وضغط على الورم. اضطرب تيموج، وأفاق يسحب نفساً عميقاً.

قال تيموج لكوكشو وهو يلهث: "من أنت؟". كافح ليجلس، لكن الألم جعله يصرخ ويستلقي على السرير الضيق. سحبت يدها بظانية ليغطي غرته، وتورنت وجنتاه عندما أمعن كوكشو النظر فيه.

قالت هولن: "إنه كاهن عراف يا تيموج. سيجعلك تشعر بتحسن". كان تيموج يتصبب عرقاً، ووضعت قطعة القماش على جلده بينما كان يستلقي للخلف. بعد وقت، هدأ تنفسه، واستغرق في نوم عميق مرة أخرى. فقدت هولن بعضاً من توترها، إن لم يكن الرعب الذي أحضره كوكشو إلى بيتها.

قالت: "إن كان الأمر ميوساً منه أبها الكاهن العراف، لماذا لا تزال هنا؟ هناك رجال ونساء آخرون يحتاجون إلى مهارتك في المداواة. لم تستطع إخفاء المראה في صوتها، ولم تتوقع أن يكون كوكشو يستمتع بذلك.

لقد حاربت ما ينهشه مرتين من قبل في حياتي. إنها إحدى الشعائر الشريرة، وهي خطيئة على الرجل الذي يمارسها وعلى ابنتك أيضاً. أقول لك هذا حتى لا تيأسي، لكن سيكون من الحماقة أن تتمنى بالأمل. اعتبره ميتاً وإذا استعنته، ستعرفين الفرح".

شعرت هولن بقشعريرة تسري في جسدها، ونظرت في عيني الكاهن العراف. كانت تتبعث منه رائحة النداء، كما أدركت، على الرغم من أن لا أثر لها يظهر على جلده. جعلتها فكرة أنه يقوم بلمس ابنها تشبك يديها بإحكام، لكنه كان قد أخافها بكلامه عن الموت وكانت عاجزة أمامه.

همست: "ماذا تريدني أن أفعل؟".

جلس ساكناً من دون حراك بينما كان يفكر. "سيطلب الأمر كل قوتي لإحضار الأرواح إلى ابنك. سأحتاج إلى معزاة لأوقف استفعال المرض وأخرى لأنطقه بدمها. لدي الأعشاب التي أحتاج إليها، إن كنت قوياً بما يكفي".

سألت بورت فجأة: "ماذا إن فشلت؟".

سحب كوكشو نفساً صيقاً، وأخرجه من بين شفثيه. "إذا أخفقت قوتي عندما أبدأ الإنشاد، سأنجو. إذا وصلت إلى المرحلة النهائية وأخذتني الأرواح، ستشاهداني عندها أخرج من جسدي. سأعيش لبعض الوقت، لكن من دون الروح، سأكون جسداً خاوياً. هذا ليس شيئاً سهلاً أيتها الأم العجوز".

نظرت إليه هولن، متشككة مرة أخرى. كان يبدو مقنعاً جداً، لكن عينيهِ السريعتين كانتا تراقبان دائماً، تشاهدان تأثير كلماته.

"اجلبي معزاتين يا بورت. ولنر ما يستطيع القيام به".

كان الظلام مخيماً في الخارج وبينما كانت بورت تجلب الحيوالين، استعمل كوكشو قطعة القماش ليمسح صدره وبطنه تيموج. عندما ضغط بأصابعه على قم تيموج، استيقظ الشاب مجدداً، وعينه تملئان دموعاً.

قال له كوكشو: "ابق مستقيماً إليها الغنى. سأساعدك إن كانت لديك القوة". لم ينظر حوله عندما كان يتم إدخال المعزاتين إلى الخيمة وسحبهما إلى جانبه، فقد كان تركيزه منصّباً على الشاب الذي يعتني به.

بسطه الشعائر الدينية، أخرج كوكشو أربعة أوعية نحاسية من ثوبه، ووضعها على الأرض. وضع مسحوقاً أبيض في كل منها، وأشعل فتيلاً مشمعاً من الموقد. بعد وقت قصير، جعلت أفاع من الدخان الرمادي-الأبيض الجو خائفاً في الغرفة. تنفس كوكشو بعمق، ليملاً رثيته. سعلت هولن في يدها وتورد خذاها. كان الدخان يجعلها تشعر بالدوار، لكنها لم تكن لتترك ابنها وحيداً مع رجل لا تثق به.

بصوت خافت، بدأ كوكشو ينشد بأقدم لغة لشعبهم، والتي كانت منسية تقريباً. استرخت هولن عندما سمعتها، وتذكرت أصوات المعالجين والكهنة العرافين في شبابه. أعادت تلك اللغة ذكريات بائسة لبورت، التي كانت قد سمعت زوجها يقول

الكلمات القديمة في إحدى الليالي قبل وقت طويل مضى وهو يذبح الرجال ويدفع قطعاً من قلب محترق بين شفتيها. كانت لغة الدم والقسوة، المناسبة تماماً للسهول في الشتاء. لم تكن هناك كلمة منها عن العطف، أو عن الحب. فيما كانت بورت تصغي السمع، تغلغل خيوط من الدخان إليها، وجعلت جلدًا خدرًا. استحضرت الكلمات المشوشة مجموعة من الصور الشريرة وسنت فيها بيدها.

تذمر كوكشو منها، وقد اتسعت عيناه: "اهدني يا امرأة. اصمتي لأن الأرواح قادمة". تابع إنشاده بقوة أكبر، خدرًا بينما كان يردد العبارات مراراً وتكراراً، ويرفع صوته ويزيد إلحاحه. أطلقت المعزة الأولى نغمةً ناعماً عندما وضعها فوق تيموج، ونظرت في عيني الشاب الخائفين. بسكينه، شق كوكشو حلجرة المعزة وأمسك بها فيما كانت الدماء تسيل وتتبخر فوق ابن هولن. صرخ تيموج من الحرارة المفاجئة، لكن هولن لمست بيدها شفتيه فهدأ.

ترك كوكشو المعزة تسقط من يده، وكانت لا تزال تركل. أصبح نشيده أسرع وأغلق عينيه، ومد يده نحو معدة تيموج. لدسته، بقي الشاب ساكناً وكان على كوكشو أن يضغط الكتلة بقوة ليجعله يصرخ. أخفت الدماء الالتواء الحاد بينما كان يحل الجزء المتداخل من الأمعاء ويدفعه خلف جدار العضلات. كان والده قد علمه الطريقة مع ورم حقيقي، وكان كوكشو قد شاهد الرجل العجوز ينشد فيما الرجال والنساء يصرخون، ويصبح أحياناً أمام أفواههم المفتوحة حتى يدخل ريقه حناجرهم. كان والد كوكشو قد مضى بهم بعيداً بعد إرهابهم حتى شعروا بالضياع والجنون وصنعوا ما يقوم به. كان قد شاهد ذلك الورم المنتفخ ينكمش ويموت بعد مرحلة الأثم المبرح والتصديق ذلك. إذا منح رجل نفسه تماماً لكاهن عراف، تكافى الأرواح أحياناً تلك الثقة.

لم يكن هناك شرف بالاستفادة من مهارة في خداع شاب بمعدة ممزقة، لكن المكافآت ستكون عظيمة. كان تيموج شقيق الخان ومثل ذلك الرجل سيكون دائماً حليفاً ثميناً. ففكر في تحذيرات والده بشأن أولئك الذين يسيئون الاستفادة من الأرواح بالأكانيسب والخدع. لم يفهم الإنسان أبداً القوة، أو كيف يمكنها الاستيلاء على المرء. تحوم الأرواح حول المعتقد مثل ذباب حول قطعة لحم. لم يكن من الخطأ نشر معتقد في معسكر الخان. لا يمكن لذلك سوى أن يزيد من سلطته.

تلفس كوكشو بجهد عندما كان ينشد، ورفع عينيه بينما كان يدفع بيده عميقاً في بطن تيموج. مع صرخة فرح، حرك يده بقوة وسحب قطعة صغيرة من كبد عجل كان قد خبأها عن الأنظار. في قبضته، كانت تهتز مثل شيء حي، وتراجعت بورت وهولن عندما شاهدتاها.

استمر كوكشو بالإنشاد بينما كان يسحب المعزاة الثانية إليه. كافحت أيضاً، لكنه دفع يده داخل أسنانها الصفراء، على الرغم من أنها أطبقت على مفاصله. دفع قطعة اللحم الفاسدة داخل المريء حتى لم يعد يوسع الحيوان فعل شيء سوى ابتلاعها بنوبات تقلص لا إرادية. عندما شاهد الحجرة تتحرك، ضربها بقوة، أرغم قطعة الكبد على النزول إلى معدة المعزاة قبل أن يفلتها من يده.

قال، وهو يلهث: "لا تدعيها تلمس الحيوان الآخر، وإلا ستنتشر وتعيش مجدداً، وربما تعود إلى ابنك". تساقط العرق من أنفه بينما كان ينظر إليهما.

"سيكون من الأفضل حرق المعزاة حتى تصبح رماداً. ينبغي عدم تناول لحمها لأنه يحتوي على المرض. كوني واثقة من ذلك. لا أملك القوة للقيام بذلك مجدداً".

ترك نفسه يتداعى كما لو أنه فقد وعيه، على الرغم من أنه كان لا يزال يتقلص مثل كلب تحت الشمس.

سمع تيموج يقول مستغرباً: لقد ذهب الألم. إنه مزعج، لكنه لم يعد كما كان من قبل. شعر كوكشو أن هولن تتحني فوق ابنها، وسمعه يلهث عندما لمست المكان الذي تلقى فيه أحشاؤه بعضلات معدته.

قال تيموج: "الجد سليم". كان كوكشو يسمع الدهشة في صوته، واختار تلك اللحظة ليفتح عينيه ويعدل جلسته. كانت عيناه باهتتين وجال ببصره في سديم الدخان. كانت أصابعه الطويلة تبحث في جيوب رداءه، وأخرجت قطعة من شعر فرس مجدول ملطخ بدم قديم.

قال لهم: لقد كانت هذه مباركة. سأربطها فوق الجرح حتى لا يدخل إليه شيء. لم يتكلم أحد عندما أخرج قطعة القماش الوسخة من رداءه، وجعل تيموج يجلس. أنشد كوكشو بصوت خافت بينما كان يلفها حول بطن الشاب، يخفي القطعة القاسية من الشعر بلقمة إثر أخرى من القماش ويشدّها بإحكام حتى اختفت عن الأنظار. عندما عقدها، رجع كوكشو إلى الخلف، راضياً لأن البطن لن ينتفخ ويفسد كل عمله.

قال بملل: "حافظ على التعويذة في مكانها مقدار دورة قمر. إذا تركتها تسقط، ربما يجد المرض طريقه للظهور مرة أخرى". أغلق عينيه، كما لو أنه مرهق. ينبغي أن أنام الآن، هذه الليلة ومعظم الغد. احرقوا تلك المعزاة قبل أن تتركوها تنتشر المرض. ينبغي أن تكون ميتة في غضون ساعات على الأكثر. نظراً إلى أنه كان قد دهن الكبد بسم يكفي لقتل رجل راشد، كان يعرف أنه يقول الحقيقة. لن يكون هناك حيوان موفور الصحة ليفسد إنجازاً.

قالت هولن: "شكراً لما فعلته. لا أفهم الأمر...".

ابتسم كوكشو متعباً.

"استغرقني الأمر عشرين سنة من الدراسة حتى أتقن ذلك، أينما الأم المعجوز. لا تعتقدي أنك تستطيعين فهمه بأسية واحدة. سيتعاقى ابنك الآن، كما لو أن المرض لم يصبه أبداً".

"يلبسي أن اطلب منك ألا تخيري أحداً عما شاهدته. لا تزال هناك قبائل تقتل أولئك الذين يمارسون السحر القديم. إنهم يعتبرونهم خطيرين جداً". هزّ كتفيه استخفافاً. "ربما يكون الأمر كذلك". بتلك الطريقة، كان يعرف أن الحكاية ستنتشر عبر المعسكر قبل أن يستيقظ في اليوم التالي. كان هناك دائماً من يطلب تعويذة ضد المرض، أو لعنة ضد عدو. سيجلبون حليماً ولحماً إلى خيمته، ومع القوة يأتي الاحترام والخوف. كان يتوق إلى أن يشعروا بالخوف منه، لأنهم سيمنحوه عندها أي شيء. هل بهم فعلاً إن لم يكن قد أنقذ حياة هذه المرة؟ سيكون هناك إيمان عندما تعلق حياة أخرى بين يديه. كان قد أسقط حجراً في النهر وستذهب التموجات بعيداً.

كان جنكيز وقادته لوحدهم في الخيمة الكبيرة عندما ارتفع القمر فوق حشد شعبه. كان اليوم حافلاً لهم جميعاً، لكنهم لم يكونوا ليناموا طالما بقي مستيقظاً وسيكون هناك ثلّاب وغيون مرهقة في اليوم التالي. بدأ جنكيز نشيطاً كما كان ذلك الصباح، عندما رحب بمئتي رجل وامرأة من قبيلة توركيك التي كانت حتى ذلك الوقت إلى الشمال الغربي منهم ولم يستطع أفرادها فهم أكثر من بضع كلمات مما كان يقوله. على الرغم من ذلك، كانوا قد جالوا.

قال جنكيز، وهو ينظر بفخر حوله إلى الرجال الذين كانوا معه منذ الأيام الأولى: "يشهد كل يوم مجيء المزيد منهم، ولا يزال هناك شهران على انقضاء الصيف". بعمر الخمسين، كان أرسلان قد أصبح عجوزاً بعد سنوات الحرب. كان وابنه جيلم قد جاء إلى جنكيز عندما لم يكن لديه شيء سوى دهائه وأشقائه الثلاثة. كان كلاهما قد بقيا مخلصين له تماماً طيلة سنوات قاسية، وكان جنكيز قد أصبح لهما طريق النجاح والحصول على زوجات وثروة. أما جنكيز لصانع السيوف الذي كان قد أصبح قائداً، سعيداً بروية ظهر الرجل منتصباً كما كان دائماً.

لم يحضر تيموج نقاشاتهم، حتى عندما كان على ما يرام. من بين كل أشقائه، لم يكن يظهر كفاءة للتكتيكات. كان جنكيز يحبه، لكنه لم يستطع الوثوق به لقيادة آخرين. هزّ رأسه، مدركاً أن الأفكار تتوارد في ذهنه. كان مرهقاً أيضاً، على الرغم من أنه لم يكن يسمح بإظهار ذلك.

قال كشيون: لم تسمع بعض القبائل الجديدة بثمن من قبل أبداً. القبائل التي جاءت هذا الصباح ترتدي ملابس لم يسبق لي أن رأيتها من قبل. إنهم ليسوا مغولاً، مثلاً.

قال جنكيز: ربما، لكنني سأرحب بهم. دعهم يثبتون أنفسهم في الحرب قبل أن نحكم عليهم. إنهم ليسوا تنزاً، أو أعداء دم لأي رجل هنا. على الأقل لن يتم استدعائي لحل خلاف يعود إلى عشرات الأجيال. سيكون هذا مفيداً.

تأول جرة من كوب فخاري، وتلمظ بشفتيه من مرارة الشراب الأسود. توخوا الحذر في المعسكر يا إخواني. لقد جاؤوا لأنهم لا يرغبون بأن يتركوا لنا سبباً للقضاء عليهم. إنهم لا يتقون بنا بعد. لا يعرف الكثيرون منهم سوى اسمي ولا شيء آخر.

قال كشيون: لدي رجال يسترقون السمع عند كل نار. سيكون هناك دائماً بعض الأشخاص الذين يسعون لاستغلال الأمر لصالحهم في مثل هذا الحشد. حتى عندما نتكلم هنا، ستكون هناك ألف محادثة أخرى تتكلم عنا. سيتم سماع حتى الهمسات، وسأعرف إن كان علي التصرف.

أوماً جنكيز إلى شقيقه، فخوراً به. كان كشيون قد أصبح رجلاً مربوعاً مع كتفين عريضين للغاية من التدريب على الرمي بالقوس. كانا يرتبطان بعروة لا يمكن لجنكيز إزعاء وجودها مع أي شخص آخر، حتى مع خاسار.

على الرغم من ذلك، أشعر بالإنارة عندما أسير عبر المعسكر. فيما نحن ننتظر، يصبحون قلقين، لكن هناك المزيد من القائمين ولا يمكنني التحرك بعد. أبناء اليوغر وحدهم سيكونون مفيدين للغاية. أولئك الموجودون هنا ربما يخفوننا، لهذا كونوا مستعدين ولا تدعوا أي إهانة تمر من دون عقاب. سألق بحكمكم، حتى إذا رميت عشرة رؤوس عند قدمي.

نظر القادة في الخيمة بأعين بعضهم من دون أن يتسموا. مقابل كل رجل كانوا قد أحضروه إلى السهل الكبير، كان اثنان آخران قد جاءا لوحدهما أيضاً. كانت الأفضلية التي يتمتعون بها ألا أحد من أقوى القادة يعرف مدى دعمهم لبعضهم. كان كل من يدخل ظل الجبل الأسود يشاهد حشداً واحداً ولا يفكر بحقيقة أنه مؤلف من مئات الفئات المختلفة، التي تراقب بعضها بارتياح متبادل.

أخيراً، تتأهب جنكيز.

قال بزهاق: تألوا قسطاً من النوم يا إخواني. الفجر على وشك أن يبرز، وينبغي نقل القطعان إلى مراعى جديدة.

قال كشيون: "ساعرج على تيموج قبل أن أنام".

تنهد جنكيز.

تأمل أن يمنحه أب السماء العافية. لا يمكنني أن أفقد شقيقي المرحف

الإحساس".

تألف كشيون، فتح الباب الصغير بقوة وخرج إلى الهواء الخارجي. عندما

غادروا جميعاً، نهض جنكيز، فرك رقبته المتبسة بحركة سريعة من يديه. كانت خيمة

عائلته قريبة، لكن أبناء سيكونون نائمين. كانت ليلة أخرى سيندس فيها داخل

البطانيات من دون أن تعلم عائلته بأنه قد جاء إلى البيت.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الثاني



حدّق جنكيز إلى شقيقه الأصغر بالزعاج. كان تيموج قد أمضى الصباح يخبر كل من يود الاستماع بشأن العلاج الذي يعرفه كوكشو. كان المعسكر مكاناً مزدحماً على الرغم من حجمه الكبير، وتنتشر فيه أي أنباء بسرعة. بحلول الظهر، سيكون النبا في أفواه المتجولين الجدد خارج السهل.

قال جنكيز، وهو ينظر إليه: "إذا، كيف تعرف أنه لم يكن سوى التواء بسيط في الأمعاء؟". بدا أن تيموج يقف وثقاً بنفسه أكثر من المعتاد في خيمة العائلة ووجهه يشع إشارة وشيئاً آخر. كلما كان يذكر اسم كوكشو، كان صوته ينخفض إلى تنمّة تقريباً. وجد جنكيز دهشته مثيرة للغضب.

"رأيتك يسحبني مني يا شقيقي! لقد تلوّى، وتقلب في يده، وكنت ألقياً عندما شاهدته. لقد ذهب الألم معه". لمس تيموج بيده المكان وانكمش من الألم. علّق جنكيز: "لم يذهب تماماً، إذاً".

هزّ تيموج كتفيه استخفافاً. كان لون المنطقة فوق وتحت الضمادة مزيجاً من البنفسجي والأصفر، على الرغم من أنه كان على وشك أن يختفي. "كان يهشني حياً من قبل. هذا ليس أسوأ من كتمة".

قال جنكيز، مستغرباً: "على الرغم من ذلك، قلت إنه لم يكن هناك جرح". هزّ تيموج رأسه، وقد عادت إليه الإثارة. كان قد استكشف المنطقة بأصابعه في الظلام قبل الفجر. تحت القماش المشدود بإحكام، كان يشعر بتمزق في العضلة التي لا تزال ضعيفة تماماً. كان وثقاً أنه تم تمزيق الوريد هناك. يُمتنع بالقدرة يا شقيقي، أكثر من أي دجال رأيناه من قبل. ألق بما رأيت. تعرف أن العيتين لا تخدعان".

أوما جنكيز برأسه: "سأكافئه بجياد، وأغنام، وملابس جديدة. ربما خنجر وأحذية جديدة. لا يمكنني أن أتترك الرجل الذي أنقذ شقيقي يبدو مثل مسئول".

استجاب تيموج شكاً مفاجئاً. لم يكن يريد أن تنتشر القصة يا جنكيز. إذا كافأته، سيعرف الجميع ما فعله*.

أجاب جنكيز: "الجميع يعرفون ذلك. أخبرني كشيون عند الفجر وقد جامني ثلاثة آخرون لإخباري بشأن ما حدث قبل أن أراك. ليست هناك أسرار في هذا المعسكر، ينبغي أن تعرف ذلك*.

أوما تيموج برأسه، وقد استغرق في التفكير. "إذا، لن يمانع، أو سيصفح إذا فعل ذلك". تردد قبل أن يتابع كلامه، قلقاً من نظرة شقيقه. "بعد إن ذلك، سأتعلم منه. أعتقد أنه سيقبلني تلميذاً، ولم يسبق لي أن شعرت بمثل تلك الرغبة إلى معرفة...". توقف عن الكلام عندما تقطب حاجبا جنكيز.

كنت أمل أنك ستسألف واجباتك مع المحاربين يا تيموج. ألا تريد أن تحارب معي*.

تورد تيموج خجلاً ونظر إلى الأرض.

تعرف كما أعرف أنا أنني لن أصبح أبداً ضابطاً عظيماً. ربما أتعلم حتى أصبح جديراً بالقيادة، لكن الرجال سيعرفون دائماً أنني ارتقيت اعتماداً على صلة الدم وليس على مهارتي. اسمح لي بأن أتعلم من كوكشو. لا أعتقد أنه سيمانع*.

جلس جنكيز ساكناً من دون حراك بينما كان يفكر بالأمر. كان تيموج أكثر من مرة موضوعاً للتسوية بين القبائل. كانت رمايته سيئة للغاية، ولم يحظ بالاحترام على الرغم من جهوده لتعلم استعمال السيف. كان يرى أن شقيقه الأصغر يرتعش، ووجهه يمتلئ خوفاً برفضه جنكيز. لم يكن هناك مكان لتيموج بين القبائل، وكان جنكيز قد تملأ في ألسنت عديدة أن يجد له شيئاً يمكنه القيام به. على الرغم من ذلك، كان متردداً في السماح له بالمضي قدماً في ما يريده بسهولة كبيرة. كان رجال مثل كوكشو منعزلين عن القبائل. كان الجميع يخشاهم بالتأكيد، وكان ذلك جيداً، لكنهم لم يكونوا جزءاً من العائلة. لم يكن مرحباً بهم كأصدقاء قدماء. هز جنكيز رأسه باستخفاف. لقد كان تيموج يعد دائماً من خارج القبائل - مراقب - ربما كانت تلك هي الطريقة التي ستكون عليها حياته.

"شروط أن تسترب على استعمال السيف والقوس ساعتين كل يوم. اقطع وعداً بذلك، وسأؤيد خيارك، نريك*.

أوما تيموج برأسه، وهو يبتسم باستحياء.

"سأفعل ذلك. ربما سأكون مفيداً لك كعراف أكثر مما لو كنت محارباً*.

أصبحت عينا جنكيز قاسيتين. "لا تزال محارباً يا تيموج، على الرغم من أن ذلك لم يكن أبداً سهلاً بالنسبة لك. تعلم ما تريده من هذا الرجل، لكن في أصاقي قلبك، تذكر أنك شقيقي وابن والدنا*.

شعر تيموج بالدموع في عينيه، وخفض رأسه قبل أن يراه شقيقه ويخجل منه.
قال: "إن أنسى ذلك".

"أبداً، قل لأسنانك الجديد أن يأتي إلي ويحصل على مكافئته. سأحتضنه أمام قادتني وأجعلهم يعرفون أن مكافئته عالية عندي. سيضمن ظلي أن تتم معاملتك باحترام في المعسكر".

انحنى تيموج قبل أن يستدير مبتعداً، وبقي جنكيز وحيداً، وأفكاره تتوارد على نحو غامض. كان يأمل بأن يقسو عود تيموج ويحارب مع أشقائه. كان عليه أن يواجه كاهناً عراقاً يحبه، وكان كوكشو متفطرساً جداً. تهدد جنكيز. ربما كان الأمر مبرراً. كانت المداواة استثنائية وتذكر كيف أن كوكشو كان قد مرّر سكيناً عبر لحمه من دون إزاحة قطرة دم. يقال إن لدى تشن رجال يعملون بالسحر، كما يتذكر. ربما يكون مفيداً وجود رجال يقاتلونهم. تهدد مجدداً. لم يكن وجود شقيقه كأحد هؤلاء الأشخاص في مخططاته أبداً.

مشى خاسار الهويني عبر المعسكر، يستمتع بالنشاط والوضواء. كان يتم بناء خيم جديدة في كل مساحة خالية من الأرض، وكان جنكيز قد أمر بتجهيز حفر صيقة للمراحض عند كل تقاطع. بوجود عدد كبير من الرجال، والنساء والأطفال في مكان واحد، كان ينبغي معالجة مشكلات جديدة كل يوم ولم يكن خاسار يجد شئعة في التفاصيل. بدا أن كشيون يستمتع بالتحذيات، وقد نظم مجموعة من خمسين رجلاً قوياً لتجهيز الحفر والمساعدة في نصب الخيام. استطاع خاسار رؤية اثنين منهم بينان ملجأ لمجموعة من السهام الجديدة المصنوعة من أشجار البتولا لحمايتها من المطر. صنع العديد من المحاربين سهامهم، لكن كشيون كان قد أمر بصنع أعداد كبيرة للجيش، وكانت في كل خيمة مز بها خاسار نساء وأطفال مشغولون بالريش، الخيوط والصمغ، ويربطون كل خمسين منها معاً ليتم أخذها بعيداً. كانت كيرة^(*) القبائل تجار وتُخرج ما في جوفها كل الليل لصنع رؤوس السهام، وكان كل فجر يشهد خروج أفواص جديدة إلى الساحات لاختبارها.

كان المعسكر الشاسع مكاناً للحياة والعمل، وقد أسعد خاسار أن يرى شعبه مُجدداً في عمله. على مسافة بعيدة، بدأ مولود جديد الصراخ وابشم لسماع صوته. تبعث قدماء سبلاً في الأعشاب كانت قد بليت حتى ظهر الطين تحتها. عندما يغادرون، سيبدو المعسكر مثل لوحة شاسعة من الأشكال كافح لينخلها.

(*) كيرة: مفردا كير* وهو رق ينفخ فيه الحزاز.

مسترخياً على تلك الحال، لم يلاحظ في البداية الاضطراب عند التقاء دروب أمامه. وقف سبعة رجال غاضبين يصارعون لجعل فحل يجلس على الأرض. توقف خاسار ليراقبهم يحرصون الحيوان، وفزع عندما ضرب بحافره رجلاً في معدته وتركه يتلوى على الأرض. كان الحصان يافعاً وقوي العضلات. واجه الحصان الرجال مستقيماً من قوته الهائلة لفك الحبال التي ربطوه بها. حالما يتم إرغامه على الجلوس على الأرض، سيقدون قوائمه ويصبح عاجزاً أمام سكين الخصي. لم يكن يبدو أنهم يعرفون تماماً ما يقومون به، وهن خاسار رأسه مستمتعاً، وبدأ المشي متجاوزاً المجموعة.

عندما استدار حول الحصان الذي يركل بقوائمه، نشب على قائمته الخلفيتين، وأوقع أحد الرجال الذين يمسكون به. صهل بغضب، وتراجع نحو خاسار حتى داس على قدمه فصرخ من الألم. استجاب أقرب رجل إليه للصوت، ودفعه بيده في وجهه لإبعاده عن طريقهم.

ثار خاسار غضباً بصوت يماثل صهيل الحصان المقيد. وجهه ضربة بالمقابل. ترنح الرجل بعد أن أصيب بتواز، ورأى خاسار الآخرين يلقون بحالهم، وفي عيونهم شيء خطير. استعاد الحصان من الحرية غير المتوقعة ليندفع مبتعداً، وانطلق عبر المعسكر ورأسه للأسفل. سهلت كل الأحصنة الأخرى التي حولهم استجابة لندائه، وبقي خاسار بمواجهة رجال غاضبين. وقف أمامهم من دون خوف، متذكراً أنهم سيتعرفون على درعه.

قال، متوقفاً أن يخفف من التوتر: "سيتم القبض على حصانكم وإعادته إليكم". لم يقولوا شيئاً فيما كانوا يتبادلون النظرات. كانوا جميعاً متشابهين، وأدرك خاسار أنهم أبناء خان وبلا. كان والدهم قد وصل قبل بضعة أيام فقط، مصطحباً معه خمسة محارب إضافة إلى العائلات. كان وبلا معروفاً بخدة الانفعال واقتداره لروح الدعاية. عندما تجمع الرجال حول خاسار، فكر بأن الطباع نفسها قد انتقلت إلى أبنائه. راود خاسار أمل للحظة بأنهم سيتركونه يذهب من دون قتال، لكن الرجل الذي ضربه كان يشتعل غضباً، وكان هو من اقترب منه مدعوماً بوجود أشقائه. كانت علامة زرقاء قد ظهرت على جانب وجهه حيث لطمه خاسار.

قال أحد الآخرين بخدة: "من الذي ملكك الحق بأن تتدخل؟". كانوا يحتشدون حوله عمداً، ورأى خاسار أن نشاط المعسكر قد توقف حوله. كانت هناك الكثير من العائلات تراقب الحدث، وكان يعرف عميقاً في داخله أنه لا يستطيع التراجع من دون إلحاق العار بجنكيز، وربما المخاطرة بموقعه في المعسكر.

قال وهو يصير على أسنانه: كنت أحاول المرور. لو أن شقيقك الثور لم يضربني، لكنت وضعت ذلك الحصان على الأرض الآن. في المرة القادمة، أوتق قوائمه أولاً.

بصق أضخمهم على الأرض قرب قدميه، وشذ خاسار قبضتيه عندما سمع صوتاً.

ثم هذا؟ كان التأثير على الرجال مباشراً، ووقفوا ساكنين من دون حراك. نظر خاسار إلى الرجل الأكبر سناً الذي يتمتع بالسمات المميزة نفسها. لا يمكن أن يكون سوى خان ويلا، ولم يستطع خاسار فعل شيء سوى أن يحني رأسه. لم يكن الأمر قد وصل إلى السيوف بعد، وكان يعرف أنه من الأفضل عدم الإساءة إلى الرجل الذي يمكنه السيطرة على أبنائه.

قال الخان: ألت شقيق الرجل الذي يدعو نفسه جنكيز. على الرغم من ذلك، هذا معسكر ويلا. هل أنت هنا لتثير غضب أبنائي وتفسد عملهم؟

استشاط خاسار غضباً، لا شك أنه تم إعلام كشيون بالمواجهة، وسيكون قد أرسل رجالاً في الطريق، لكنه لم يثق بنفسه ليرد في البداية. كان واضحاً أن خان ويلا يستمتع بالموقف، ولم يكن لدى خاسار شك بأنه شاهد ما كان يحدث منذ البداية. عندما سيطر على انفعاله، تكلم ببطء ووضوح إلى الخان.

ضربت الرجل الذي ضربني. ليس هناك سبب لرؤية النماء تسيل اليوم. رداً على ذلك، زَمَ الخان فيه ساخراً. كان لديه مئة محارب رهن إشارته وكان أبنائه مستعدين لضرب الرجل الذي يقف أمامه متغطرساً وتعليمه التواضع. كنت أتوقع مثل ذلك الرد. لا يمكن تحمية الشرف جانباً عندما لا يكون الوضع مناسباً. هذا الجزء من المخيم أرض ويلا. لقد تجاوزت حدودك.

حافظ خاسار على رباطة جأش المحارب ليخفي غضبه. قال: كانت أوامر شقيقي واضحة. يمكن لكل القبائل استعمال الأرض فيما نحن نجتمع. ليست هناك أرض لويلا هنا.

تستم أبناء الخان بين أنفسهم عندما سمعوا تلك الكلمات، وبدأ أن الخان نفسه قد تسمز في مكانه. قلت إنها موجودة وليست أرى أحداً بمنزلاتي ليتحدى كلمتي. على الرغم من ذلك، ستختبئ في ظل شقيقك.

سحب خاسار نفساً ببطء. إذا ادعى حماية جنكيز، سينتهي الأمر. لم يكن خان ويلا أحصق ليتحدى شقيقه في المعسكر، مع وجود جيش ضخم رهن إشارته. على الرغم من ذلك، كان الرجل يراقبه مثل أفعى تستعد لتوجيه ضربة، وشامل خاسار إن

كانت الصدفة قد وضعت الخان وأبناءه في دربه ذلك الصباح. سيكون هناك دائماً أولئك الذين يرغبون باختبار الرجال الذين يفترض أن يقودوهم في الحرب. هزّ خاسار رأسه لتصفية ذهنه. كان كثيرون يستمتع بالسياسة والمناورة، لكن لم يكن لديه ميل إليهما، أو للشجار مع الخان وأبنائه.

شرح بالقول بعد أن رأى انتصاراً في عيني الخان: "من أريق دماء هنا، لكنني لن أحتاج إلى ظل شقيقي". بينما كان يتكلم، ضرب بقيضته ذقن أقرب الأشقاء إليه، وجعله يفقد الوعي. جاز الآخرون، ووثبوا عليه وثبة رجل واحد تقريباً. انهمرت الضربات على رأسه وكنتفه وتراجع إلى الخلف، ثم ثبت قدميه على الأرض وضرب بقوة أحد الوجوه. وشعر بأن الألف قد انكسر. كان خاسار يستمتع بالقتال مثل أي رجل ترعرع بين أشقاء، لكن التكافؤ كان مستحيلًا وكاد يقع عندما ارتد رأسه إلى الخلف بينما كان يتلقى ضربات قاسية على درعه. كان على الأقل محمياً هناك، وطالما بقي واقفاً على قدميه، يستطيع المراوغة وتقاضي لكماتهم بينما يضربهم بكل ما لديه من قوة.

حتى عندما فُكر بالأمر، أمسك به أحدهم من خصره، وأوقعه أرضاً. ركل خاسار بقدميه بقوة، وسمع صرخة عندما كان يحمي رأسه من الأحذية التي تضربه. أين كان كثيرون، بحق الأرواح؟ شعر خاسار بالدماء تسيل من أنفه وشفتيه وكان قد بدأ يتورم. كان رأسه يرنّ من ركلة على أنه اليمنى. المزيد من ذلك وسيصاب بعاهة دائمة.

شعر خاسار بثقل أحدهم يحم على، ويحاول إبعاد ذراعيه عن وجهه. نظر خاسار عبر فجوة إلى الرجل. تحين اللحظة المناسبة ودفع بإبهامه بقوة في عين المهاجم، وبدأ أن الضربة كانت موفقة، وتمنى أن يكون قد جعله كفيفاً. تخرج ابن وبلا بعيداً بصرخ، واشتكت الركلات.

جاءت صرخة ألم من مكان قريب، وللحظة، أصبح خاسار وحيداً وحاول الوقوف على قدميه. رأى أن غريباً كان قد قفز بين أشقاء وبلا، طرح أحدهم أرضاً وركل آخر بقوة على ركبته. كان القادم الجديد أكثر من فتى بقليل، لكنه يلزم بكل ما أوتي من قوة. ابتسم خاسار له بشفتين متورمتين، لكنه كان يشعر بالدوار ولم يستطع الوقوف.

جاء صوت من خلفه يقول: "أوقفوا هذا"، وعرف خاسار لحظة أمل قبل أن يدرك أن تيموج لم يصل مع اثني عشر رجلاً لمساعدته. لقد جرى شقيقه الأصغر وحده مباشرة إلى ساحة العراك وأبعد أحد رجال وبلا عنه.

صرخ خاسار، وقلبه يخفق بقوة: "أحضر كشيون". لم يكن تيموج ليفعل شيئاً سوى أن يتعرض للضرب ثم سيكون هناك دم. ربما يقبل جنكيز بشجار يشارك فيه أحد أشقيائه، لكن أن يشارك فيه الثاني، فهذا سيعني هجوماً شخصياً على عائلته لا يمكن له تجاهله. بدا خان ويلا غافلاً عن الخطر، وسمعه خاسار يضحك عندما وجه أحد أبنائه ضربة قوية على وجه تيموج، وجعله يجثو على ركبتيه. كان الشقيق الأصغر قد فقد أيضاً أفضلية المفاجأة، ويعاني من سيل من الركلات واللكمات. كان أبناء ويلا يضحكون فيما يتناوبون على الواقفين الجديدين وثار خاسار غضباً لدى سماعه تيموج يصرخ ألماً وإذلاً، وحاول اتقاء ضرباتهم بينما كان يكافح للوقوف. جاء صوت آخر عندها، وسلسلة من الضربات القاسية التي جعلت أبناء ويلا يصرخون ويترجعون إلى الخلف. استمر خاسار بحماية رأسه على الأرض حتى سمع صوت كشيون، حازماً وغاضباً. كان قد أحضر رجالاً معه، حاملين عصيهم التي سمع خاسار وقع ضرباتها.

قال كشيون بحدة لخاسار: "قف، إذا كنت تستطيع يا شقيقي. قل لي من الذي تريده ميتاً". بينما كان خاسار يخفض رأسه، بصق بلغماً أحمر على العشب، ووقف على قدميه بجهد كبير. كان وجهه مليناً بالكمات والنماء، وتستر خان ويلا مكانه عندما رأى ذلك، وقد تلاشت متعته.

قال الخان بمرعة عندما حقق كشيون به: "كانت تلك مسألة خاصة. لم يطالب شقيقك باحترام مكانته الرسمية".

نظر كشيون إلى خاسار، الذي هز كتفيه استخفافاً، وانكمش من الألم عندما احتج جسده المليء بالكمات.

كان تيموج أيضاً قد وقف على قدميه، بدا لونه شاحباً بلون الحليب. كانت عيناه باردتين وقد جعله خجله يبدو أكثر غضباً مما رآه خاسار أو كشيون من قبل. انتصب الرجل الثالث مثالماً، وأوماً خاسار له شاكراً. كان قد تعرض للضرب أيضاً، لكنه ابتسم بينما كان يضع يديه على ركبتيه ويلهث.

تمتم كشيون لشقيقه، بصوت يكاد يكون مسموعاً: "توخا الحذر". كان قد أحضر اثني عشر فقط من أتباعه، وكان ذلك كل ما استطاع القيام به لدى سماعه نيا العراك. لن يصمدوا سوى لحظات أمام رجال ويلا المسلحين. راقبت عيون قاسية في الحشد المشهد، واستعاد الخان بعضاً من ثقته بنفسه.

وأعلن: تمت تسمية مسألة الشرف. ليست هناك ضغينة بيننا. استدار إلى خاسار ليرى وقع كلماته عليه. وقف خاسار يبتسم بامتعاض. تسمر كل الواقفين هناك

في أماكنهم متحفزين لدى سماعهم جلبة المحاربين المدرعين. لا يمكن أن يكون سوى جنكيز.

هس كشيون للخان: ليست هناك ضغينة؟ لا يعود لك تقرير ذلك يا ويلا. استدارت كل العيون لرؤية جنكيز قانماً. مشى مع أرسلان وخمسة رجال آخرين بكامل دروعهم. كانوا يحملون جميعاً سيوفاً قد شهبوها ونظر أبناء ويلا إلى بعضهم بقلق بالغ نتيجة ما فعلوه. كانوا قد تكلموا عن اختبار أحد أشقاء جنكيز، وتم ذلك الجزء بشكل جميل. وحده وصول تيموج كان قد سحبهم إلى مياه أعرق ولم يكن أحدهم يعرف كيف سيتم حل المشكلة.

وصل جنكيز إلى المكان، ووجهه جامد مثل قناع. ألقي نظرة خاطفة على تيموج، واللحظة، ضاقت عيانه الصفراوان لرؤية يدي شقيقه الصغير ترتعشان. تكلم خان ويلا قبل أي شخص آخر.

قال: لقد تمت تسوية المسألة يا مولاي. كان مجرد لهو، وشجاراً على حصان. ابتلع ريقه بصعوبة. "لا حاجة لأن تقوم بالبت في هذه المسألة". تجاهله جنكيز وصرخ: كشيون؟

سيطر كشيون على غضبه ليجيب بصوت هادئ. "لا أعرف كيف بدأ الأمر. يمكن لخاسار أن يخبرك".

فزع خاسار لدى سماع اسمه. أمن التفكير بكلماته عندما شاهد جنكيز يحدق إليه. سيسمع المعسكر كله أخيراً ولا يريد أن يبدو مثل طفل يشتكي إلى والده. ليس إن كان يتوقع أن يلوذهم في الحرب بعد ذلك.

قال وهو يصكك أسنانه: "أنا راضٍ عن دوري بهذا الأمر يا شقيقي. إذا احتجت للمزيد من النفاس مع هؤلاء الرجال، سأفعل ذلك في يوم آخر".

قال جنكيز بحدة، متفهماً الخطر الكامن في ذلك إضافة إلى أبناء ويلا أنفسهم: "من تفعل شيئاً. أنا أمتع ذلك".

ألقى خاسار رأسه، وأجاب: "كما تشاء يا مولاي". نظر جنكيز إلى تيموج، ولاحظ خجله من تعرضه للضرب علانية والذي تراقب مع غضب شديد كان قد أدهش خاسار وكشيون من قبل.

"تحمل علامات أيضاً يا تيموج. لا أصدق أنك كنت جزءاً من ذلك". أجاب كشيون: "حاول إيقالهم. ضربوه حتى جثا على ركبتيه و...".

صرخ تيموج: "كفى! في الوقت المناسب، سأرد كل ضربة". تورّد خجلاً، وبدا أنه على وشك البكاء مثل طفل. حلق به جنكيز، واختفى غضبه فجأة. همهم لنفسه،

هز رأسه، وشق طريقه بخطوات واسعة بين الأشقاء وبلا. كان أحدهم بطيئاً جداً ودفعه جنكيز أرضاً بكفه، من دون أن يبدو أنه قد شعر بذلك. رفع الخان يديه ملتصقاً العذر، لكن جنكيز أسك به من رءائه وسحب إليه. عندما سحب سيفه من غمده، سحب محاربو وبلا سيوفهم التي صدر عنها صوت معدني.

صرخ جنكيز بهم بصوت كان قد سُمع في مئة معركة: "توقفوا!". تجاهلوا الأمر، وعندما اقتربوا، رفع جنكيز الخان مثل غرير في قبضته. بضربتين سريعتين، أعمل سيفه عبر فخذي الرجل وأحدث جروحاً بليغة في العضلات.

قال: "إذا كان قد تم إرغام شقيقي على الجثو يا وبلا، فلن تقف مجدداً. كان الخان يصرخ والدماء تسيل على قدميه عندما سقط. قبل أن يستطيع المحاربون الوصول إليه، حقق جنكيز إليهم.

"إذا رأيت شيئاً واحداً مرفوعاً خلال عشر دقائق للقلب، لن يعيش رجل أو امرأة أو طفل واحد من وبلا بعد هذا المساء".

تردد الضباط بين المحاربين، ورفعوا أيديهم لإيقاف الآخرين. وقف جنكيز أمامهم من دون وجل بينما وقع الخان عند قدميه على أحد جانبيه، ين. كان الأبناء لا يزالون يلقون ساكنين من دون حراك، يملكهم الرعب مما كانوا قد رأوه. بجهد وإرادة كبيرين، صدرت عن الخان إيماء جعلت ضباطه يتراجعون. أغمدوا سيوفهم وتبعهم المحاربون، وقد اتسعت عيونهم دهشة. أوما جنكيز برأسه.

قال: "عندما ننتقل، ستكونون يا أبناء وبلا حراساً لشقيقي". تمت خسار موافقاً، ووجهه المتورم خالٍ من أي تعبير: "إذا أردتهم أن يكونوا كذلك".

"إذا، لقد انتهى هذا. ليس هناك نزاع دم وقد رأيت أن العدالة تحققت".

نظر جنكيز في عيون أشقائه الذين بادلوه إياها بينما كان يعود بخطوات واسعة إلى الخيمة الكبيرة وأعمال ذلك اليوم. رثت خسار على كتف الشاب الذي كان قد ساعده، واصطحبه معه بدلاً من تركه يتعرض للضرب مجدداً.

قال خسار بينما كانوا يمشون: "لقد جاء هذا الرجل لمساعدتي. إنه لا يعرف الخوف يا شقيقي".

للحظة، نظر جنكيز إلى الشاب، ولاحظ افتخاره بنفسه. سأل بنظافة، وكان لا يزال مزعجاً مما رآه: "ما اسمك؟".

تسويد من يورياتخي يا مولاي".

قال جنكيز: "تعال لرويتي عندما ترغب بالحصول على جواد ودرع جديين". يتسم تسويد، ولكزه خسار بلطف في كتفه، موافقاً على ذلك. خلفهم، تركوا خان

وبلا لتزعاه لساوه. مع مثل تلك الجروح، لن يقف مثتصباً أبداً، أو حتى ربما لن يمضي مجدداً.

بينما كان جنكيز وأسفلاه يمشون بين القبائل المجتمعة في ظل الجبل الأسود، كان الكثيرون ينظرون إليهم برهبة وإعجاب. كان قد أظهر أنه لا يقبل التحدي وتم تحقيق نصر صغير آخر.

شوهدت قبيلة اليوغر بينما كان الصيف ينقضي ومياه الفيضانات من التلال تملأ نهر اونون إلى حافة الطوفان. كانت السهول لا تزال خضراء نضرة والفترة تقفز وتطير عندما تتجاوزها عربات اليوغر.

كان عرضاً مؤثراً للقوة، وردّ عليه جنكيز بجعل خمسة آلاف من فرسانه يقفون في صفوف أمام المعسكر الكبير. لم يأت لملاقاتهم بنفسه، وكان يعرف أن غيابه سيُعد استتكاراً لتأخيرهم. اتخذ أبناء وبلا وضعاً حول خاسار عندما مضى للقاء الوافدين الجدد ولم يجرؤ أحد من أبناء الخان على أكثر من التحديق إلى مؤخر رأسه.

عندما اقترب اليوغر، دنا خاسار من العربة التي كانت تقود الأقوى الذكوة من الناس والحيوانات. جال ببصره على المحاربين ليحكم عليهم. كانوا مسلحين جيداً ويبدون أشداء ومتأهبين، على الرغم من أنه كان يعرف أن المظهر قد يكون خادعاً. سيتعلمون التكتيكات التي حققت النصر لجنكيز، أو تكليفهم بنقل الرسائل ضمن الحشد. كان اليوغر تجار جيداً ومعلمين، وكان خاسار سعيداً لرؤية القطيع الكبير الذي يرافقهم. كانت هناك ثلاثة جيد لكل محارب، وكان يعرف أن المعسكر سيكون مشغولاً خلال الشهر التالي عندما تأتي القبائل الأخرى للمقايضة وتجديد سلاطات أسبائها.

عندما ارتفعت يده، اتخذ المحاربون حول عربة القيادة موقفاً دفاعياً، وأيديهم على مقابض سيوفهم. فكّر خاسار أن اليوغر كان لديهم من دون شك إمدادات جيدة من الفلز حتى يحمل ذلك العدد الكبير منهم سيوفاً. ربما ستكون هناك مقايضة بالفولاذ أيضاً. كان لا يزال هناك كثيرون في المعسكر لا يحملون سوى خناجر إلى جانب أقواسهم. نظر خاسار إلى رجل صغير الحجم أثيب الشعر أمام العربة. كان هو من رفع ذراعه لإيقاف القافلة، ورأى خاسار كيف أن المحاربين ينظرون إليه بانتظار الأوامر. على الرغم من أن رداء الرجل كان بسيطاً، إلا أنه كان بالتأكيد خان اليوغر، بارشوك. قرّر خاسار تشريفه بأن يتكلم أولاً.

قال بشكل رسمي: "أهلاً بك في المعسكر يا مولاي. أنتم آخر قبيلة كبيرة تصل، لكن مولاي جنكيز كان قد استلم رسالتك الوثبة وخصص مرعى لعائلاتكم".

أولاً الرجل التحيل مستغرقاً في التفكير بينما كان ينظر إلى الفرسان الذين ينتظرون بالتشكيل خلف خاسار .

"أرى أننا آخر الواصلين . لا يمكن أن أصتق بسهولة أن هناك المزيد من المحاربين في العالم، نظراً لحجم الحشد في هذا السهل . أنتم أوائل الرجال الذين نراهم منذ أيام عديدة . "هز رأسه متدهشاً من الفكرة . "سيقدم اليوغر ولاءهم لجنكيز ، كما وعدت . لذا على مكان لنصب فيه خيامنا وسنكفل بالباقي ."

مقارنة ببعض زعماء القبائل الآخرين، فتر خاسار فظاظة الرجل، وابشم . قال :
"أنا شقيته، خاسار . سادك بنفسي ."

"تعال اجلس بجائتي إذا يا خاسار . أنا متعطش للأنياب . " ضرب الخان بيده على المقعد الخشبي للعربة، ترحل خاسار، وأرسل جواده إلى الصف الأول من محاربي ويلا بضربة على رقبته .

قال الخان لخاسار الذي صعد ليجلس إلى جانبه : "إذا كنا الأخيرين، ربما لن يطول الأمر قبل أن يصوب جنكيز هذا السهم العظيم إلى أعنائه . " مطلق بارشوك للتور وتحركت العربة متمايلة . شاهد خاسار كيف حافظ محاربو اليوغر على التشكيل حوله وكان سعيداً بذلك . يستطيعون ركوب الجياد على الأكل .

"وحده من يستطيع تحدي ذلك يا مولاي . " كانت الكلمات التي سببها له أبناء ويلا على وشك أن تختفي، على الرغم من أنه شعر بأن عيني بارشوك تنظر إليها من دون تعليق . كان المعسكر هادئاً لبعض الوقت بعد رؤية ما حلّ بويلا، لكن مع نهاية الصيف، كان النشاط قد عاد إليه مجدداً وبعد وصول اليوغر آنذاك، اعتقد أن شقيقه سيتحرك خلال بضعة أيام فقط . شعر بأن الإثارة تدب فيه عندما خطرت له تلك الفكرة . كانت لسديهم القبائل، وسأخذ منها جنكيز عهد الولاء . بالمحصلة، ستأتي الحرب، وسيرفع وأشقائه أقدام تشن عن أعناق شعبهم .

لاحظ بارشوك بينما كان يواجه العربة حول أكمة في العشب : تبدو مبتهجا يا خاسار . " كان الرجل المعجوز نحيلاً لكن قوياً، وبدت عيناه تشعان لئلاً باستمرار .

"كنت أفكر أننا لم نجتمع أبداً من قبل يا مولاي . كان هناك دائماً عداوة دم، أو رشوة من تشن لإبقائنا منشغلين بعضنا ببعض . " أشار بيده ليدل على كل المعسكر في السهل . "هذا؟ هذا شيء جديد ."

تمتم بارشوك، يراقبه عن كثب : "ربما ينتهي بتدمير شعبنا . " كثر خاسار، وتذكر أن كشيون وجنكيز قد أثرا المسألة نفسها وردد كلماتهما . نعم، لكن لن يكون هناك

واحد منا، سواء أكان رجلاً، أو امرأة أو طفلاً حياً خلال مئة سنة. كل من تراهم هنا سيكونون عظاماً".

شاهد بارشوك يتجهم محتاراً، وتَمَنَّى أن تكون لديه فترة كشيبون على الكلام عندما تابع القول: "ما هدف الحياة إذا لم يكن الانتصار؟ سبي النساء واحتلال الأرض؟ أفضل أن أكون هنا وأرى ذلك على أن أقضي حياتي بسلام".

أوما بارشوك برأسه. "أنت فيلسوف يا خاسار".
ضحك خاسار بصوت خافت. "أنت الوحيد الذي يعتقد ذلك. لا، أنا شقيق الخان العظيم وهذا زماننا".

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الثالث



تكلم بارشوك اليوغر طيلة ساعات بينما كانت الشمس تغرب خارج الخيمة الكبيرة. كان جنكيز مفتوناً بمعرفة الرجل وإذا سمع شيئاً لم يفهمه، كان يجعل الخان يعيده مراراً وتكراراً حتى يتضح معناه.

من بين كل الموضوعات، كان كل ما يتعلق بتشن يجعل جنكيز ينحني إلى الأمام في مقعده مثل صقر، وعينه تشعان اهتماماً. كان أفراد قبيلة اليوغر قد جاؤوا من أرض بعيدة في الجنوب الغربي، تحثوا صحراء غربي ومملكة كزي كزيا. وجد جنكيز متعة بالغة في كل تفصيل استطاع بارشوك تقديمه عن قواقل تشن التجارية، ملابسهم وعاداتهم، والأهم من ذلك كله أسلحتهم ودروعهم. كان صحيحاً أن التجار قد لا يكون لديهم أفضل الحراس، لكن كل معلومة صغيرة كانت تجري في صحراء مخيلة جنكيز مثل مياه نبع، وتغوص عميقاً.

قال جنكيز عندما توقف بارشوك ليتلحج برشفة من الشاي: لقد جلب لك السلام والثروة والطمأنينة. ربما كنت تستطيع التقرب من ملك كزي كزيا والتحالف معه ضدي. هل فكرت بالأمر؟

أجاب بارشوك، مخففاً من التوتر بصدقه: "بالطبع. لكن إذا كنت قد منحتك الانطباع بأنني صديقهم، سيكون ذلك شيئاً زائفاً. إنهم يعملون بالتجارة معنا لأن لديهم أسواقاً لجلود الثور النخعية من الجبال، الخشب القاسي، وحتى بذور نباتات نادرة لتساعدهم في دراستهم للمداواة. بالمقابل، يبيعوننا الحديد الخام، السجاد، الشاي وأحياناً رقع يكونون قد كثروا عليها عدة مرات". توقف قليلاً، وابتسم بمرارة على تجمع الرجال. "أحضروا محفلاتهم وحراسهم إلى بلدات اليوغر، لكن كنا نستطيع قراءة الامتصاص في كل وجه، حتى أولئك الذين يدعونهم عبيداً". كانت الذكريات قد جعلت وجهه يستشيط غضباً، ومسح جبينه قبل أن يتابع. "نظراً إلى أنني تعلمت لغتهم، كنت أعرف تماماً أنني لا أستطيع طلب مساعدتهم. ينبغي أن نراهم لتفهم ذلك يا مولاي.

حتى أفراد إمبراطورية تشن يعتبرونهم شعباً منفصلاً، على الرغم من أنهم يشتركون في الكثير من العادات نفسها. إنهم يدفعون جزية لإمبراطور تشن، وعلى الرغم من تمتعهم بحمايتهم، إلا أنهم يعتبرون أنفسهم منفصلين عن جارهم القوي. إن غطرتهم كبيرة يا مولاي".

انحنى بارشوك إلى الأمام، ومدّ يده ليمس ركبة جنكيز. لم يبد أنه لاحظ الطريقة التي انتصب بها الرجال المحيطون بهما. كنا نحصل على القنات منهم طيلة أجيال عديدة يا مولاي، بينما كانوا يحتفظون بأفضل اللحم خلف قلاعهم وأسوارهم. تمتع جنكيز: "وتوذ رؤيتهم مهزومين".

"لوذ ذلك. كل ما أطلبه هو تسليم مكنياتهم إلى اليوغر لدراستها. إضافة إلى ذلك، كنا قد رأينا جواهر نادرة وحجراً مثل الحليب والدار. إنهم لا يقاوضون مثل تلك الأشياء بغض النظر عما تعرضه عليهم مقابلها".

راقب جنكيز الخان عن كثب عندما كان يتكلم. كان بارشوك يعرف أنه ليس له الحق بالمطالبة بفنائم الحرب. لم تكن القبائل تحصل على أموال مقابل القتال وكانت تكسب تقليدياً كل ما تفوز به أو تغنمه. كان بارشوك قد طلب الكثير، لكن جنكيز لم يستطع التفكير بمجموعة أخرى ربما ترغب بالحصول على مكنيات مملكة كزي كزيا. جعلته الفكرة نفسها يرغب بالابتسام.

تمستطيع الحصول على الرقاع يا بارشوك. أعذك بذلك. أي شيء آخر سيذهب للمتصرين وسيتم تقديمه بين يدي أب السماء. لا يمكنني منحك أي شيء بشكل خاص".

تراجع بارشوك إلى الخلف، وأحنى رأسه بتردد.

"سيكون ذلك كافياً، مع كل شيء آخر سنأخذه منهم. لقد رأيت أفراد قبيلتي يُساقون على الطريق بجيادهم يا مولاي. كنت قد رأيتهم يتضورون جوعاً فيما يزداد أفراد مملكة كزي كزيا بدانة من تناول محاصيل لا يشاركون بها أحداً. لقد أحضرت محاربي لأجعلهم يدفعون شن غطرتهم، وبلداتنا وحقولنا فارغة خلفنا. أبناء اليوغر معك بخيائهم، جيادهم، ملتحهم ودمائهم".

مدّ جنكيز يده، ووثق الرجلان العهد بمصافحة سريعة، أخفت جذية مثل ذلك الإعلان. انتظرت القبائل خارج الخيمة، وكان جنكيز سيطلب عهداً مماثلاً منها كلها حالما يصبح مستعداً. كان تقديمها في خلوة برهاتاً على الدعم الذي لم يكن جنكيز يستخف به.

قال: "أطلب منك شيئاً واحداً يا بارشوك، قبل أن نخرج إليهم". توقف بارشوك في وسط الحشد وقد أصبح وجهه جامداً مثل قناع عندما أدرك أن حديثه لم ينتهِ بعد. قال جنكيز: "كان شقيقي الأصغر قد عثر عن اهتمامه بالتعلم، فف يا تيموج بحيث يستطيع رؤيتك". نظر بارشوك إلى الشاب النحيل الذي وقف وانحنى له. ردّ على الإيماءة بخفض رأسه قليلاً قبل أن يستدير إلى جنكيز.

"سيقود كاهني العراف كوكشو خطواته في هذا المجال عندما يحين الوقت، لكنني لؤد أن يقرأ ويتعلّم كل ما يعتبره جديراً بالاهتمام. يتضمن ذلك الرقاع التي لديك الآن وأي أوراق قد نحصل عليها من أعدائنا".

قال بارشوك: "اليوغر تحت إمرتك يا مولاي". لم يكن ذلك بالشيء الكبير، ولم يفهم لماذا بدا جنكيز محرجاً من إثارة ذلك الموضوع. ابتسم تيموج من خلقه، وأخنى كوكشو رأسه كما لو أنه نال شرفاً عظيماً.

قال جنكيز: "تم الأمر إذاً". كانت عياد متعبين، تطرفان في الأضواء التي تم إشعالها في دجنة السماء. "إذا كان أفراد كزي كزيا أقرّاء كما نقول، سيكونون أول من يرائنا عندما نتحرك. هل يدعمهم أبناء تشن؟".

هزّ بارشوك كتفيه استخفافاً. "لا يمكنني تأكيد ذلك. أراضيهم تحدّ بعضها، لكن أفراد كزي كزيا كانوا دائماً منفصلين في مملكتهم. ربما يحشد أبناء تشن جيشاً ضداً لمواجهة أي تهديد لاحق. أو ربما يتركونهم يموتون عن آخرهم من دون أن يحرّكوا ساكناً. لا يستطيع أحد أن يتوقع كيف يفكرون". هزّ جنكيز كتفيه استخفافاً.

لو أنك أخبرتني قبل عشر سنوات أن قبيلة كيريت ستواجه حشداً عظيماً، كنت سأضحك، وأعتبر نفسي محفوظاً لأنني لم أكن في طريق المعركة. أدعّوهم الآن إخواني. ليس مهماً أن يفت محاربو تشن ضدياً. إذا فعلوا ذلك، سأحطمهم جميعاً بسرعة. في الحقيقة، أفضل مواجهتهم جميعاً في سهل على تسلق أسوار مدنهم".

قال بارشوك بهدوء، وشعوره بالإثارة يتصاعد: "حتى المدن تسقط يا مولاي". ردّ جنكيز: "وسننسقط. سيحدث ذلك في الوقت المناسب. لقد أظهرت لي نقطة ضعف تشن بمحاربي كزي كزيا هؤلاء. سأمزقهم هناك ثم أستخرج قلوبهم من أجسادهم".

ردّ بارشوك: "لي الشرف بأن أخدمك يا مولاي". وقف وانحنى، وبقي على تلك الحال حتى أشار له جنكيز بأن ينتصب في وقفته.

قال جنكيز، وهو يقف ويتمطى: لقد اجتمعت القبائل. إذا كان علينا عبور الصحراء، سنحتاج إلى الماء والعلف لجيادنا. حالما أتلقى العهد، لن يكون هناك ما يجعلنا نبقى في هذا المكان". توقف عن الكلام لحظة.

"جئنا إلى هنا كقبائل يا بارشوك. سنغادر كلمة. إذا كنت تسجل الأحداث في تلك الرقاع كما وصفت، تأكد من كتابة ذلك".

تألفت عينا بارشوك، مفتوناً بالرجل الذي يقود الحشد العظيم. "سأحرص على فعل ذلك يا مولاي. سأعلم الكتابة لكاهنك العراف وشقيقك حتى يستطيعا قراءتها لك".

طرفت عينا جنكيز دهشة، وتخيل صورة شقيقه يكرر كلمات مكتوبة على جلود عجول مدبوغة.

قال: "سيكون مثيراً للاهتمام رؤية مثل ذلك الشيء". أمسك بارشوك من كتفه، ومنحه شرف مغادرة الخيمة برفقته، والقادة يسرون خلفهما. في الخارج، استطاعوا سماع الهمس بين القبائل المجتمعة التي تنتظر الرجل الذي سيقدوها.

حتى في ظلمة الصيف، كان المخيم يشع بلون أصفر تحت النجوم، تضئنه عشرة آلاف شعلة ترطف في الهواء. كان قد تم إخلاء الوسط على شكل حلقة واسعة حول خيمة جنكيز، وكان المحاربون من مئة قبيلة قد تركوا عائلاتهم للوقوف معاً تحت الضوء المنقطع. من رجل إلى الذي يقف بجانبه، كانت دروعهم مصنوعة من الجلد القاسي أو قطع أنيقة من الحديد المنسوخة عن دروع تشن. حمل بعضهم وشم قبائلهم، بينما كان معظمهم خالين من أي علامة مميزة، وكان ذلك يدل على أنهم جدد، وأنه لا توجد سوى قبيلة واحدة تحت السماء. كان الحديد منهم يحملون سيوفاً جديدة، خرجت من الكير التي كانت تعمل ليلاً ونهاراً منذ مجيئهم إلى السهل. قام رجال يتعرفون تحت الشمس بتجهيز حفر كبيرة، ونقلوا الفلز إلى اللهب، وراقبوا بمتعة بينما كان الحداثون يصنعون أسلحة يمكنهم حملها. كان أكثر من رجل قد أحرق أصابعه لأنه سمها قبل أن تبرد تماماً، لكن لم يسبق لهم أبداً أن حملوا باقتناء سيف طويل ولم يمانعوا ذلك.

كانت الرياح تعصف بالسهل دائماً، لكن النسيم ذلك السماء كان عليلاً بينما كانوا ينتظرون جنكيز.

عندما جاء، نزل بارشوك اليوغر على درجات العربة، ووقف في الصف الأول حول إطارات الخشب والحديد. وقف جنكيز للحظة، ينظر من فوق رؤوس الحشد

سعيدياً بحججه. نزل أشقاه، وأرسلان، وجيلم وأخيراً كوكشو من العربة، وتوقف كل منهم قليلاً لينظر إلى الصفوف التي تمتد بعيداً تحت الضوء.

أصبح جنكيز وحيداً، وأغلق عينيه للحظة. شكر أب السماء لأنه أحضره إلى ذلك المكان، مع مثل ذلك الجيش الذي سيبعثه. قال كلمات مقتضبة لروح والده في حال كان الرجل يراه. كان يعرف أن ياسوجي سيكون فخوراً بابنه. كان قد جهز أرضية جديدة لشعبه، ووحدها الأرواح يمكنها القول أين سينتهي الدرب. عندما فتح عينيه، شاهد أن بورت كانت قد أحضرت أبنائه الأربعة ليتقوا في الصف الأول، وكان ثلاثة منهم أصغر من أن يتركوا لوحدتهم. أما جنكيز بحدته لهم، وتوقف بصره عند أكبرهم جوشي، وتشاغاتاي الذي كان قد أطلق عليه اسم عراف الذئاب. بعمر التاسعة تقريباً، كان جوشي يخاف والده وقد خفص بصره فيما حقق تشاغاتاي به، وكان قلقه واضحاً.

صرخ جنكيز: "جئنا إلى هنا من مئة قبيلة مختلفة". أراد أن يصل صوته بعيداً، لكن حتى حنجرة منرّبة في ساحة المعركة لا يمكن أن تنفع الصوت إلى أقصى حدود ذلك الحشد. ينبغي لأولئك الذين لا يستطيعون سماعه الانتباه إلى الذين يستطيعون ذلك.

لقد أحضرت الذئاب، وأولفونوت، وكيريت إلى هذا السهل. لقد أحضرت ميركيت، وجاجيرات، وأويرات، والنيمز. كانت قبائل ويلا، وتوفان، واليوغر، وبوريانخي قد جاءت إلى هنا. عندما كان يقول اسم كل مجموعة، كان يعلو الهتاف من حيث تجلس. لاحظ كيف أنهم بقوا معاً حتى في تلك الليلة. لن يكون استيعاب أولئك الذين يعتبرون الانتماء للقبيلة فوق كل اعتبار آخر سهلاً. لم يكن ذلك مهماً، كما قال لنفسه. سيجعل أبنائهم تشمخ عالياً. كانت ذاكرته قوية عندما أخذ بلفظ اسم كل قبيلة كانت قد قطعت مسافة طويلة للانضمام إليه في ظل الجبل الأسود. لم يترك أحداً، وكان يعرف أن إغفال أي اسم سيكون ملحوظاً وسيذكره الجميع.

تابع: "علاوة على ذلك، كنت قد استدعيت أولئك الذين لا قبيلة لهم، لكن لا يزال لديهم كرامة، واستجابوا للداء الدم. لقد جلاوا ليكونوا برعايتنا. وأقول لكم جميعاً، ليست هناك قبائل تحت أب السماء. هناك أمة مغولية واحدة وقد تجتمعت هذه الليلة، في هذا المكان."

هتف بعض أولئك الذين كانوا يستمعون، بينما بقيت وجوه آخرين قاسية مثل الحجر. حافظ جنكيز على قناع المحارب في كل ملامحه. كان بحاجة لأن يفهموا أن لا انتقاص في الكرامة في ما يطلبه.

تحسن إخوان بالدم، وقد بقينا منفصلين لوقت أطول كثيراً مما يعرفه أي شخص هنا. أقول إن هناك عائلة كبيرة من كل القبائل، وصلة دم بينكم جميعاً. أدعوكم يا

إخواني إلى رأيي، وسنمضي فتماً عائلة واحدة، أمة واحدة. نوقف قليلاً، ليحكم على رد الفعل. كانوا قد سمعوا الفكرة من قبل والتي تم تناقلها همساً في التجمع من قبيلة إلى أخرى. على الرغم من ذلك، أدهشهم سماعها منه. لم يهتف أغلبية الرجال وكان عليه أن يثور نوبة غضب مفاجئة. كانت الأرواح تعرف أنه يحبهم، لكن شعبه كان يثير الغضب أحياناً.

"ستكنسون غنائم تعادل الجيل الذي خلفكم. سيكون لديكم جياد، وزوجات، وذهب، وزيت، وطعام. ستحصلون على أرض خاصة بكم، وسيخافكم كل من يسمع باسمكم. سيكون كل رجل هنا خائناً لأولئك الذين ينحنون له".

هتفوا عند سماع ذلك، على الأقل، وخاطر جنكيز يرسم ابتسامة صغيرة على وجهه سعيداً بأنه قد عثر على النبرة الصحيحة. سيدع القادة الأقل منزلة يفلقون بشأن طموح أولئك الذين من حولهم، فقد كان يعني كل كلمة مما يقوله.

صرخ بهم: "الصحراء العظيمة إلى الجنوب". عم الصمت لوراً، وشعر بأن انتباههم مثل قوة تجذبه. "سنعبرها بسرعة لا تتخيلها ممالك تشن. سننقض على أولها كما تنقض الذئاب على الحملان، وسيبعثرون أمام سيوفنا وأقواسنا. سأمسككم ثرواتكم ونساءهم. هناك سألت رأيي، وستهز الأرض بينما أقوم بذلك. ستعرف أننا الأرض أن أبناءها وإخوانها قد عثروا على ميراثهم وستكون سعيدة بسماع الرعد في السهول". تعالى الهتاف مجدداً، ورفع جنكيز ذراعيه طالباً منهم السكوت، على الرغم من أن ذلك أسعده.

"سنتحرك إلى بلد جاف، وسأخذ كل الماء الذي نحتاج إليه لهجوم واحد مفاجئ. بعد ذلك، لن نتوقف حتى يحدث البحر من كل اتجاه. أنا جنكيز الذي يقول هذا وكلمتي حديد".

صرخوا إعجاباً، وأشار جنكيز بإصبعه إلى خاسار، الذي وقف ينتظر على الأرض تحته. رفع خاسار سارية ثقيلة من أغصان البتولا القضبة مربوط إليها ثمانية ذبول جياد. تمت الحشد عندما رآها. عرف البعض الذيل الأسود الخاص بميركيت أو الأحمر العائد للديمز، مربوطة مع الأخرى. كانت كل منها راية خان إحدى القبائل الكبيرة، وكان جنكيز قد جمعها كلها في السهل. بينما كان جنكيز يتناول السارية، رفع إليه خاسار ذيل جواد مصبوغ باللون الأزرق الخاص باليوغر.

ضاقت عينا بارشوك عندما شاهد تلك الرموز القوية، لكن مع الحشد الذي خلفه، كان لا يزال يشعر بالإثارة، ويتطلع فتماً نحو المستقبل. عندما شعر أن عيني جنكيز تقعان عليه، ألقى رأسه.

بأصابع رشيقة، عقد جنكيز طرف ذيل الحصان الأخير مع البقية ووضع قاعدة السارية على الخشب عند قدميه. دأب التسييم الراية الملونة، وتحركت الذبول، واهتزت كما لو أنها حية.

صرخ قائلاً: لقد جمعت الألوان. عندما تتحول إلى اللون الأبيض، لن يكون هناك فروق بيننا. ستكون راية الأمة.

عند قدميه، رفع ضباطه سيوفهم واستجاب الحشد لهم. ارتفعت آلاف الأسلحة نحو السماء، وأوماً جنكيز لهم، متأثراً. تطلب الأمر وقتاً طويلاً حتى هدأت الضوضاء، على الرغم من أنه رفع يده الحرة، ولوح بها في الهواء.

"العهد الذي ستقطعونه ملزم يا إخواني، إلا أنه ليس أقوى من الدم الذي يجمعنا الآن. اجثوا لي".

جثت الصفوف الأولى مباشرة، وتبعها الأخرى مشكلةً أمواجاً بشرية بينما كانت تستابع ما يجري. راقب جنكيز عن كثب بحثاً عن أي تردد، لكنه لم ير شيئاً. كان قد امتلكهم جميعاً.

صعد كوكشو الدرجات إلى العرية، ووجهه خالٍ من أي تعبير. في أفضل أحلامه، لم يكن قد تخيل مثل تلك اللحظة. كان يتموج قد مهد له الطريق، وهنا كوكشو نفسه لأن علاقته بالشاب وصلت إلى مرحلة يقدم فيها اقتراحات.

عندما جثت القبائل، استمتع كوكشو بمكانته. تساعل إن كان جنكيز قد فكر بأنه الوحيد بينهم الذي لم يقطع له عهداً. جثا خاسراً، وكشيون، ويتموج على العشب مع الآخرين، والخانات والمحاربون على حدٍ سواء.

صرخ كوكشو من فوق رؤوسهم وقلبه ينبض إثارة: "بقيادة خان واحد، نحن أمة". عاد صدى الكلمات إليه، وملأت الوادي بأمواج عندما رندها أولئك الموجودون في الخلف. "أقيم الخيام، الجياد، الملح والدم بكل شرف".

أسس كوكشو بحاجز العربة بينما كانوا ينشدون. بعد تلك الليلة، سيعرفون جميعاً الكاهن العراف للخان العظيم. نظر إلى الأعلى بينما كانت الكلمات تندفع من الأفواه من مسافة بعيدة. تحت تلك السماء الصافية، ستهيم الأرواح بحماس شديد ومتعة كبيرة، ولن يراها أو يشعر بها سوى أولئك الذين يتأثرون بقوة بكلماته. عندما أُنشد الآلاف، شعر كوكشو بأنهم يدورون في الهواء وتهلل فرحاً. أخيراً، صممت القبائل، وأخرج زفيراً طويلاً.

تستمر جنكيز من خلفه: "تورك الآن ليها الكاهن العراف". حثق كوكشو مندهشاً، قبل أن يخرّ على ركبتيه، ويكرر العهد نفسه.

عندما انضم كوكشو إلى الآخرين حول العربة، سحب جنكيز سيف والده، بالنسبة لأولئك الذين كانوا يستطيعون رؤيته، كانت عيناها تلمعان ارتياحاً. "انتهى الأمر. نحن أمة وسنمضي قدماً. منذ الليلة، لن يفكر أي رجل بقبيلته ويتأبه الحزن. نحن عائلة كبيرة وسنصبح كل الأراضي لنا". أنزل ذراعاه بينما كانوا يصرخون، كشخص واحد هذه المرة. كانت رائحة الضأن المشوي قوية في الهواء العليل، نزل عن العربة ببطء بينما كان المحاربون يستعدون لليلة يتناولون فيها الشراب وما يكفي من الطعام لجعل بطونهم تنتفخ. سيشرح المحاربون السكارى بإنجاب ألف طفل قبل الفجر. فكّر جنكيز في العودة إلى بورت في خيمته، وشعر بانزعاج من فكرة ملاقة عينيها المليئين بالانتهاام. كانت قد قامت بواجبها نحوه، ولا يمكن لرجل إنكار ذلك، لكن أبوة جوشي بقيت موضع تساؤل مثل شوكة في جلده.

هزّ رأسه لتتقته من الأفكار التي لا طائل منها، وتناول قرية من الشراب الأسود من كشيون. الليلة، سيشرّب حتى الثمالة، كخان لكل القبائل. في الصباح، سيستعدون لعبور الأراضي الجافة في صحراء غوبي والمير على الدرب الذي كان قد اختاره لهم.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الرابع



عصفت الرياح حول العربات، وحملت رمالاً ناعمة جعلت الرجال والنساء يبصقون باستمرار، ويفزعون من الرمل في طعامهم. عذبهم الذباب جميعاً. خلال النهار، كان أفراد قبيلة اليوغر قد علّموهم كيف يحمون وجوههم بالقماش، وأن يتركوا عيونهم فقط مكشوفة حتى يبصروا البراري المقفرة أمامهم، التي تومض من الحرارة. اكتشف أولئك الذين يرتدون دروعاً أن خوذاتهم والقطع التي يضعونها على أعناقهم حارة للغاية ولا يمكن لمسها، لكنهم لم يشتكوا.

بعد أسبوع، صعد جيش جنكيز سلسلة من التلال البنية لدخول سهل شاسع من الكثبان الرملية. على الرغم من أنهم كانوا قد اصطادوا عند سفوح التلال، إلا أن الصيد أصبح نادراً عندما ارتفعت الحرارة. على الرمال الحارة، كانت الإشارة الوحيدة على الحياة وجود عقارب سوداء صغيرة تهرب بعيداً عن جباههم وتخفي في حفر. بين الحين والآخر، كانت العربات تغوص في الرمال وينبغي عليهم إخراجها في قبض حر النهار. كان عملاً شاقاً جداً، لكن كل ساعة تضع كانت تعني قرب نفاد الماء.

كانوا قد ملأوا آلاف القرب المصنوعة من جلود الماعز، التي تمت دباغتها وتعرضها لشمس قوية. نظراً لعدم وجود مصدر آخر، تراجعت كميات المياه بشكل ملحوظ، ونتيجة الحرارة، تم العثور على العديد من القرب وقد انشقت بفعل ثقل البقوة. كانت معهم قرب تكفي لعشرين يوماً فقط وقد مرّ اثني عشر آنذاك. شرب المحاربون دماء مطيائهم، كل يومين، إضافة إلى بضعة أكواب من الماء الدافئ الأجاج، لكنهم كانوا قد وصلوا إلى حافة الاحتمال، وأصيبوا بالدوار وفقدوا الهمة، وكانت شفاههم جافة على وشك أن تتزف.

سار جنكيز مع أشقائه في مقدمة الجيش، يبحثون بأبصارهم عن علامة تدل على الجبال التي قيل له أن يتوقع وجودها. كان أفراد قبيلة اليوغر قد أوغلوا عميقاً في الصحراء، واعتمد على بارشوك لإرشادهم. تطلّب حاجبهم عندما فكّر بالحوض

المتبسط الذي لا ينتهي من الأمواج الصفراء والسوداء، التي تمتد على كل الطريق إلى الأفق. كانت حرارة النهار أسوأ شيء عرفه، لكن بشرته كانت قد أصبحت داكنة، وبدأت على وجهه خطوط جديدة من الأساخ والرمال. كان سعيداً تقريباً بالبرد في الليلة الأولى، حتى أضحي قارساً جداً ولم تعد القراء في الخيام تحمي منه تماماً. كان أفراد قبيلة اليوغر قد علموا رجال القبائل الأخرى كيف يستخفون الصخور في النار ثم ينامون على طبقة منها فيما تبرد تدريجياً. ظهرت علامات بنية على ظهور الكثير من المحاربين حيث كانت الحجارة قد أحرقت ملابسهم، لكنهم كانوا يستطيعون التغلب على البرد، إذا نجوا من العطش المستمر، ولن يكون هناك في الصحراء شيء يمكنه إيقافهم عندها. مسح جنكيز فمه بين الحين والآخر بينما كان يقود حصانه، وينقل حصاة بين خذيهِ لإبقاء لعابه يسيل.

نظر خلفه بينما كان يارشوك يدفع بجواده إلى جانبه. كان أفراد قبيلة اليوغر قد غطوا أعين جيادهم بالقماش وكانت الحيوانات تسير عمياء. كان جنكيز قد حاول القيام بالشيء نفسه في ما يخص جياده، لكن الحيوانات التي لم تكن قد اعتبرت شيئاً مماثلاً من قبل قاومت وصحلت عند وضع القماش على أعينها حتى تم رفعه، ثم عالت خلال الأيام الحارة. كانت العديد من الحيوانات قد عالت من وجود قشور أوساخ بيضاء مصفرة على جفونها وكانت بحاجة إلى مراهم مهدئة إذا استطاعوا الخروج من الصحراء. كانت الحيوانات تتحمل مثلهم، لهذا كان ينبغي تزويدها بحصتها من الماء الثمين. سيراً على الأقدام، كانت الأمة الجديدة ستوت في الصحراء.

أشار يارشوك إلى الأرض، ضرب إحدى يديه بالأخرى، ورفع صوته فوق الرياح التي لا تهدأ. "هل ترى النقاط الزرقاء في الرمل يا مولاي؟".

لوماً جنكيز برأسه، وحرك فمه الجاف حتى يتمكن من الرد. "إنها تشير إلى بداية المرحلة الأخيرة قبل جبال بنشان. يوجد نحاس هناك. كنا قد قابضناه مع مسئلة كزي كزيا".

سأل جنكيز بصوت أجش، من دون أن يسمح لأماله بأن تردداً: "ما هي المسافة التي سنقطعها قبل أن نرى تلك الجبال؟".

هز يارشوك كتفيه من دون مبالاة مغولية. "لا نعرف بشكل مؤكد، لكن تجاراً من كزي كزيا كانوا لا يزالون نشيطين عندما قابلوا قوافلنا في هذا المكان، ولم تكن جيادهم مغطاة بالغبار. لم يعد المكان بعيداً الآن".

نظر جنكيز إلى الخلف من فوق كتفه على الحشد الصامت للفرسان والعربات. كان قد أحضر ستين ألف محارب إلى الصحراء، ومثل ذلك العدد من زوجاتهم

وأولادهم. لم يكن يستطيع رؤية نهاية القافلة التي امتدت إلى الخلف مسافة أميال، وكانت الأشكال تتداخل بعضها مع بعض حتى لم يعد هناك سوى بقع داكنة تتمايل في الحرارة. كان الماء على وشك التفتت تقريباً وسيكون عليهم ذبح القطعان قريباً، وأخذ اللحم الذي يستطيعون حمله، وترك الباقي على الرمال. تبع بارشوك نظراته وضحك بصوت خافت.

تفقد عالموا يا مولاي، لكن لن يطول الأمر قبل أن تفرح أبواب مملكة كزي كزياً.

تألف جنكيز مرفقاً. كانت معرفة خان اليوغر قد أحضرته إلى هذا المكان المقفر، لكن ليس لديهم سوى كلمته بأن المملكة ثرية وخصبة كما قال. لم يكن مسموحاً لمحاربي اليوغر السفر خلف الجبال التي تحذ الصحراء إلى الجنوب ولم تكن لدى جنكيز طريقة لوضع خطة هجومه. ففكر بذلك بغضب بينما كان جواده يسحق عقرياً آخر فوق الرمال. كان قد جمعهم كلهم على أمل إيجاد نقطة ضعف في دفاعات محاربي تشن، لكنه كان لا يزال يتساءل كيف سيكون منظر مدينة عظيمة من الحجارة، مرتفعة مثل جبل. بمواجهة مثل ذلك الشيء، ربما لا يسع فرسانه سوى التحديق بإحباط.

تحول لون الرمال تحت حوافر جواده إلى الأصفر المائل إلى الأخضر بينما كانوا يسرون، وامتدت شرائط كبيرة من ألوان غريبة بعيداً في كل اتجاه. عندما كانوا يتوقفون لتناول الطعام، كان الأطفال يذرون الرمل في الهواء ويرسمون صوراً بواسطة العصي. لم يكن جنكيز يشعر بسعادتهم بينما كميات المياه تتناقص وكل ليلة يقضونها تعني الارتعاش برذاً على الرغم من الصخور الحارة.

لم يكن هناك شيء يسلي الجيش قبل أن يخلد أفراد إلى النوم. مرتين خلال اثني عشر يوماً، ثم استدعاء جنكيز لتسوية نزاع ما بين القبائل لأن الحرارة والعطش يجعلان الأعصاب مشدودة. وفي المراتين، كان قد أعدم الرجال المتورطين في ذلك، وأوضح أنه لن يسمح لأي شيء بأن يهدد السلم في المعسكر. كان يعتبر أنهم قد دخلوا أراضي العدو وإذا لم يستطيع الضباط معالجة الشعب، فإن تدخله سيكون قاسياً. كان التهديد كافيّاً لإبعاد معظم المحاربين حاذي الطباع عن العصيان، لكن حكم شعبه لم يكن سهلاً أبداً من قبل وكان قضاء ساعات طويلة صامتين يجعلهم أكثر عناداً والتعامل معهم أكثر صعوبة.

عندما بزغ فجر اليوم الرابع عشر، وحمل معه الحرارة العالية مرة أخرى، لم يسع جنكيز سوى أن يفرغ عندما أبعد عنه بطائياته ويعثر الحجارة تحته ليجمعها

خدمه لاستعمالها في الليلة التالية. شعر بأنه متعب ومتعب، مع طبقة من الرمال الناعمة على جلده والتي جعلته يحك نفسه. عندما تعثر جوشي الصغير به بينما كان يلعب مع أشقائه، صفعه جنكيز بقوة، وأرسله يبكي إلى أمه ملتصقاً السلوان منها. كانوا جميعاً حادي الطباع في حرارة الصحراء ووحدها وعود بارشوك بوجود سهل أخضر ونهر في نهاية المطاف هي التي أبقت عيونهم معلقة بالأفق، وتخلوهما في أذهانهم.

في اليوم السادس عشر، ظهرت نلال سوداء. كان محاربو اليوغر الذين خرجوا مستطلعين قد عادوا يقودون جيادهم خبيأً والتي تلهت من الرمل والإجهاد. حولهم، كانت الأرض خضراء تقريباً مع نحاس وصخور سوداء تبدو مثل نصال حادة. مرة أخرى، رأت العائلات الأثنية والشيوخ تتشبث بالحياة في ظل الصخور، وعند الفجر أحضر الصيادون أرانب وجرذان برية علق في شراكهم الليلية. ارتفعت معنويات العائلات كثيراً، لكنها كانت تعاني كلها من العطش وتقرح العيون لهذا بقيت الأعصاب مشدودة في المعسكر. على الرغم من تعبيهم، زاد جنكيز التوريات حول القوة الرئيسية وجعل الرجال يتكربون باستعمال الأكواس والسيوف. كانت بشره المحاربين قد أصبحت داكنة وأصابهم الإرهاق من الصحراء، لكنهم اندفعوا للعمل بفترة كبيرة على الاستئصال، وقد عقد كل رجل منهم العزم على عدم الفشل تحت عيون الخان العظيم. بسبطه، ازدادت سرعة القافلة بشكل غير محسوس مرة أخرى، بينما تم دفع العربات الثقيلة إلى مؤخر الركب.

عندما اقتربوا من التلال، شاهد جنكيز أنهم في مكان أعلى مما كان يتخيل. كانت التلال تتشكل من الصخور السوداء نفسها التي تنتشر في الرمال حولها، وكانت حادة وشديدة الانحدار. لم يكن تسلقها ممكناً، وكان يعرف أنه لا بد من وجود ممر بين القمم وإلا سيكون مرعباً على السير حول قاعدتها. مع نفاد كميات المياه التي يحملونها تقريباً، أضححت العربات أخف وزناً، لكنه كان يعرف أن عليهم العثور على وادي بارشوك بسرعة وإلا سيواجهون خطر الموت. كانت القبائل قد قبلت به خائفاً، لكن إذا كان قد أحضرهم إلى مكان حار يترقبهم فيه الموت، وتسبب بمقتلهم، فيثورون فيما لا تزال لديهم قوة. قاد جنكيز جواده منتصباً على سرجه، فمه مليء بالقرحات. أما في الخلف، فكانت القبائل تنتشر بتجمهم.

جال كشيون وخاسار ببصرهما عبر الهواء الحار عند قاعدة الصخور شديدة الانحدار. مع اثنين من المستطلعين، كانوا قد ساروا أمام الجيش الرئيسي بحثاً عن ممر. كان المستطلعان رجلين خبيرين وقد التقطت العينان الحادثان لأحدهما ما يمكن

أن يكون ممراً بين القمم. بدأ الطريق جيداً تماماً لأن المنحدر الصخري كان يتصل بوادٍ ضيقٍ ترددت في جنباته أصدااء وقع حوافر جياد الفرسان الأربعة. على كلا الجانبين، كانت الصخور تمتد عالياً نحو السماء، ترتفع إلى مسافة لا يمكن لأي رجل أن يتسلقها، ناهيك عن العربات والجياد. لم يكن الأمر يتطلب مهارة خاصة بتفلي الأثار لملاحظة أن الأرض مهيبة جيدة ودفعت المجموعة الصغيرة جيادها للسير خبيأ، متوقفة العثور على طريق إلى مملكة كزي كزياً خلف التلال.

عندما تقدموا إلى الأمام، ألقى المستطلعان اللجائمين اللذين يسكان بهما مشدوهين، ولزما الصمت. كانت نهاية الوادي مسنودة بسور عظيم من الصخور السوداء نفسها التي تتشكل منها التلال. كانت كل صخرة لوحدها أثقل من أي شيء يمكن للقبائل زحزحته وبدا السور غريباً، ومثير صحيح بطريقة ما لأعينهم. لم يكن بينهم حرفيون يعملون على الصخور. بحوافه الأثيقة وسطوحه المصقولة، كان واضحاً أن السور من صنع الإنسان، لكن حجمه الكبير كان شيئاً لم يروا له مثيلاً سوى في الصخور الطبيعية والوديان. عند القاعدة، كان هناك إثبات أخير على أنه ليس شيئاً طبيعياً. كانت هناك بوابة من الحديد الأسود والخشب في قاعدة السور، وتبدو عتيقة وقوية.

قال كشيون وهو يهز رأسه: "انتظروا إلى حجمها! كيف سنعبّر من خلال ذلك الشيء؟".

هز المستطلعان كتفهما ببساطة وصفر خاسار بهدوء.

"سيكون سهلاً إيقاعاً في فخ في هذا المكان الكتيب. ينبغي إخبار جنكيز بسرعة، قبل أن يلحق بنا إلى هنا".

"سيرغب بأن يعرف إن كان يوجد محاربين في الأعلى يا شقيقتي. نعرف ذلك". نظر خاسار إلى الصخور شديدة الانحدار على كلا الجانبين، وشعر بأنه غير حصين فجأة. كان سهلاً أن يتخيل رجالاً يلقون حجارة من الأعلى ولن تكون هناك طريقة لتفاديها. فكّر في المستطلعين اللذين رافقاهما إلى الوادي. لقد كانا محاربين في كيريت قبل أن يستولي جنكيز على القبيلة. كانا ينتظران الأوامر من دون أن يظهر عليهما شيء، ويخفيان رهنتهما من حجم السور الذي يقف أمامهما.

قال خاسار لشقيقه: "ربما بنوء فقط لصد جيش من الصحراء. ربما لا يوجد رجال عليه".

بينما كان يتكلم، أشار أحد المستطلعين مما جعل أوصارهم تتجه إلى شكل ضئيل يتحرك أعلى السور. لا يمكن أن يكون سوى جندي، وشعر خاسار بقلبه يتقبض. إن

كان هناك ممر آخر فإن بارشوك لم يكن يعرفه، وكان العثور على طريق حول الجبال يعني رؤية جيش جنكيز يتداعى. اتخذ خاسار قراره، وكان يعرف أنه قد يعني خسارة حياة المستظلمين.

قال لهما: "قودا جواديكما إلى قاعدة السور ثم عودا إلى هنا مباشرة". أحنى الرجلان رأسيهما، تبادلًا نظرة بوجهين خاليين من أي تعبير. معاً، دفعا عقبي قديسيهما على جواديهما وصرخا كشوا! ليجعلهما يجران بسرعة. ارتفع الرمل في الهواء عندما بدأ سباقهما إلى قاعدة السور الأسود، وراقب خاسار وكشيون ما يجري بعيون تكافح وهج الشمس.

سأل كشيون: "هل تعتقد أنهما سيصلان إليه؟". هز خاسار كتفيه من دون أن ينبس ببنت شفة، مشغولاً تماماً بمشاهدة السور.

اعتقد كشيون أنه شاهد إشارة حادة من الحارس البعيد. كان لدى المستظلمين إحساس بعدم المسير معاً، وأبقيا على مسافة بينهما بينما كان جوادهما يحوان بأقصى سرعتيهما، ويفتران اتجاهيهما يمناً ويساراً لتفادي إصابتها من أي رماة سهام. لوقت طويل، لم يكن هناك صوت سوى صدى حوافر الجوادين، وراقب الشقيقان ما يجري بأنفاس محبوسة.

أطلق كشيون لعنة عندما ظهر صف من رماة السهام على السور. قال وهو يصك أسنانه: "عودا". اندفعت نقاط داكنة إلى الأسفل على المستظلمين اللذين يقودان جواديهما بسرعة كبيرة، وشاهد كشيون أحدهما ينحرف بتهور عندما وصل إلى البوابة الكبيرة. استطاعا رؤيته يضرب بقبضته على الخشب بينما كان يوجه جواده للعودة، لكن الرماة كانوا يطلقون أمواجاً من السهام، وبعد لحظة، كان قد أصيب وجواده بالثني عشر سهماً. صرخ الرجل المحتضر، وبدأ جواده رحلة العودة، وكانت تزل وتتعثر كلما أصابها سهم جديد. وقعا أخيراً معاً تقريباً، واستلقيا من دون حراك على الرمل.

كان المستظلم الثاني لوفز حظاً، على الرغم من أنه لم يمس السور. لوقت قصير، بدا كما لو أن بوسعه الهروب من السهام، وصرخ خاسار وكشيون به. ثم اهتز في السرج ورفع جواده قائميه الأماميين وانهار، وأخذت قوائمه تركل في الهواء بينما كان يتحرج فوق فارسه.

استطاع الجواد الوقوف على قوائمه، وعاد مترنحاً إلى الشقيقين، وترك المستظلم جثة هامدة على الأرض خلفه.

ترجل خاسار، وأمسك باللجام. كانت قائمتاه مكسورتين ولم يكن ممكناً لمتطاء الجواد مجدداً. بصمت، ربط خاسار اللجام إلى سرجه، لم يكن ليترك الحيوان خلقه مع وجود ألفاء كثيرة ينبغي إطعامها في المعسكر.

تستم خاسار: "حصلنا على الجواب يا شقيقي، على الرغم من أنه لم يكن ما أردته. كيف سنتمكن من العبور؟".

هزّ كشيون رأسه. قال، وهو يلقي نظرة إلى الخلف إلى الصف الداكن من رماة السهام الذين يراقبونهما: "سجد طريقاً". رفع بعضهم أذرعهم، على الرغم من أنه لم يكن يعرف إن كان ذلك يعني السخريّة منهم أو توديعهم. "حتى وإن كان علينا تحطيمه، صخرة بعد أخرى".

حالما شوهد خاسار وكشيون عائدتين بمنطليان حصانيهما لوحدهما، تأهبت قوات جنكيز تحسباً لوجود أحد في أعقابهما. قبل أن يصلا إلى الصفوف الخارجية للمحاربين الذين يمتطون جيادهم، كان الشقيقان قد تجاوزا مجموعات المناوشة التي بقيت تحقّق إلى الجبال التي تركوها خلفهم. كان جنكيز وضباطه قد تعلموا دروساً قاسية في سنوات تحويل القبائل إلى جيش واحد وتسابق الفتية على جيادهم بأقصى سرعة أمامهم لإخباره بقدميهما.

لم يرد أي من الرجلين على أولئك الذين نادوهما. متجهين وصامتين، قادا حصانيهما إلى خيمة شقيقهما، التي تجثم مثل بزاقة بيضاء على عربتها. عندما وصلا إليها، ترحل خاسار عن جواده قفزاً، ونظر إلى الرجل الذي تقدم متجهماً ليمسك اللجام.

قال محسباً إياه وقد أرغم نفسه على الابتسام: "تسوبودي". بدا المحارب الشاب متوتراً، وتذكّر خاسار أنه كان قد تلقى وعداً بالحصول على درع وحصان جيد. فكثّر من التوقّيت.

"لدينا أشياء عديدة نناقشها مع الخان. طالب بخصائك في وقت آخر". ظهرت خيبة الأمل على وجه تسوبودي، وتأفّف خاسار، وأمسك به من كتفه بينما كان يستدير مبتعداً. تذكّر شجاعة الفتى عندما قفز بين أبناء ويلا. كان صليماً يمكن أن يجازيه عليه.

"ربما تحين اللحظة المناسبة عندما لننتهي مما نحن فيه. تعال معي إذا كنت تستطيع البقاء صامتاً". استعاد تسوبودي ابتسامته خلال لحظة، والتي امتزجت بالقلق من لقاء الخان العظيم نفسه. بغم جاف، صعد درجات العربة وتبع الشقيقين إلى الظل الداخلي.

كان جنكيز مستعداً لهما، ومراسله الشاب لا يزال يلهث إلى جانبه.
سأل بعد أن لاحظ تعبيرات وجهيهما الجادة: "أين المستطلمان؟".

قتلا يا شقيقي، والممر محروس بسور من الصخور السوداء بارتفاع مئة خيمة، وربما أكثر".

أضاف كثيرون: "شاهدنا ربما خمسين من رعاة السهام هناك، ليسوا ماهرين جداً، كما نعرف الآن، لكن لا يمكن تجاوزهم بسهولة. يقع السور في نهاية ممر ضيق، وهو درب بين جانبيين صخريين شديدي الانحدار. لم أشاهد طريقاً للالتفاف عليه".

عيس جنكيز، ولهض من مقعده، أصدر صوت طقطقة من حنجرته بينما كان يمشي عبر الخيمة ويتجاوزهما إلى الشمس الساطعة، تبعه خاسار وكثيرون، ولم يلاحظا تسوبودي الذي مشى في أعقابهما وقد اتسعت عيانه.

وقف جنكيز على الرمل الأزرق المائل للخضرة أسفل، ينظر إلى الأعلى. كان يحمل عصا في يديه وأشار بها، وقام يرسم خط على الأرض. قال بحزم: "اشرحوا لي". كان كثيرون من أخذ العصا ورسم بضربات أتيفة. راقب خاسار بذهول بينما كان شقيقه يرسم الوادي الذي كان قد رآه قبل بضع ساعات. إلى أحد الجانبين، رسم كثيرون نسخة عن البوابة المقوّسة وحكّ جنكيز ذقنه بغضب.

قال متشككاً: "يمكننا تفكيك العربات لصنع دروع خشبية وجعل الرجال يفتربون". هزّ كثيرون رأسه. "سيجعلنا ذلك نقرب من البوابة على الرغم من سهامهم، لكن حالما نصل إلى هناك، يمكنهم إلقاء الحجارة علينا. من ذلك الارتفاع، ستتحطم ألواح الخشب إلى قطع صغيرة".

رفع جنكيز رأسه، وجال ببصره على صفوف العائلات إلى الصحراء الشاسعة الخالية من الأشجار في كل الاتجاهات. لم يكن لديهم شيء يمكنهم الاستفادة منه. قال: "إذا، سيكون علينا أن نسحبهم إلى الخارج. انسحاب على مراحل، مع ترك موائد شديدة في أجساد الموتى. سأبعث برجال يرتدون أفضل الدروع وسيجرون من السهام، لكنهم سيتراجعون خوفاً مع الكثير من الصراخ". ابتسم من الفكرة. "سيعلم ذلك محاربينا القليل من التواضع، ربما".

داس كثيرون بحذانه على طول حافة الرسم. "ربما نبلغنا أن نعرف متى يفتحون البوابة، لكن الوادي ملتوٍ. حالما يغيبون عن أنظارنا، لن نكون هناك طريقة لمعرفة متى يخرجون. إذا استطعت وضع فتيتين خلف صخرتين على الجانبين، يمكنهما إرسال إشارة لنا، لكن التسلق صعب وليس هناك مخبأ على تلك الصخور. سيتمكنون من رؤيتهما".

قال تسوبودي فجأة: "هل تسمح لي بالكلام يا مولاي؟".
حنق به خاسار ساخطاً.

قلت لك أن تلزم الصمت. ألا ترى أن هذا الأمر مهم؟ تحولت أنظار الرجال الثلاثة إلى المحارب الشاب وتورد خجلاً.
أنا أسف. فكرت في طريقة يمكننا من خلالها معرفة متى يخرجون.
سأل جنكيز: "من أنت؟".

ارتعش صوت تسوبودي بينما كان يحني رأسه. تسوبودي من يوريانخي يا مولاي. أوقع نفسه في ورطة. "من الأمة يا مولاي. أنا...".
رفع جنكيز يداً. أتذكر. قل لي بماذا تفكر.

بجهد ملحوظ، أخفى تسوبودي توتره وأخبرهم. فاجأهم لم يكونوا قد فكروا بالأسر. بدت نظرة جنكيز على وجه الخصوص كأنها تخترقه، وأنهى كلامه بشيح ببصره إلى منتصف المسافة بينهم.

عاشى تسوبودي بصمت بينما كان الرجال الثلاثة يفكرون. بعد وقت بدا طويلاً،
أوما جنكيز برأسه.

قال بتحفظ: "ربما ينفع ذلك". بدا أن ثقة تسوبودي بنفسه قد ازدادت قليلاً.

ابتسم خاسار للمحارب الشاب، كما لو أنه مسؤول عن ذكائه.

قال جنكيز: "انظر في الأمر يا كشيون". ابتسم عندما شاهد زهو تسوبودي بنفسه. ثم سأذهب لرؤية المكان الذي وصفته". تغير مزاجه عندما فكر بتحطيم بعض العربات التي كانت قد حملت العائلات عبر الصحراء. نظراً لندرة الخشب، كان الكثير منها قد تم إصلاحه ونقله عبر الأجيال. لم يكن هناك نفع منها.

"خذ أول عشر عربات تراها واصنع من خشبها مئزراً يمكن حمله ونقله".

لاحظ أن نظرة كشيون قد استقرت على خيمة الخان خلفه وتألف.

"ابدأ بالعربة التالية التي تراها يا شقيقي. لا تفكر بأن تحصل على عربي".

تحرك كشيون بسرعة بعيداً ليجمع الرجال والمواد التي سيحتاج إليها. بقي جنكيز بمواجهة المحارب الشاب.

"كنت قد وعدتك بحصان ودرع. ما الذي تريده مني غير ذلك؟".

شحب وجه تسوبودي من الارتباك. لم يكن قد فكر بما سيطلبه من الخان، وإنما أراد فقط حل المشكلة التي تزعجه.

"لا شيء يا مولاي. يكفي أن أقابل مع شعبي".

حقق إليه جنكيز، وحك جانب وجهه. "يتمتع بالشجاعة والذكاء يا خاسار. اجعله

يقود عشرة رجال في الهجوم على السور". لمعت عيناه الصفراوان عندما وقع بصره

على تسوبودي الذي وقف متسماً في مكانه من الصدمة.

"سأراقب كيف تتود محاربين أكثر خبرة". توقف قليلاً حتى يستوعب تسويودي ما يقال له، وأضاف ملاحظة لإلاعة ليهز ثقة الشاب المتزايدة. قال: "إذا جعلتهم يفشلون، لن تعيش بعد مغيب شمس ذلك اليوم".
انحنى تسويودي كثيراً رداً على ذلك من دون أن يؤثر التحذير بقوة في شعوره بالإثارة. همهم جنكيز لنفسه.
"اجعلهم يجلسون حصاني يا خاسار. سأرى هذا السور ورماء السهام الذين يعتقدون أنهم يستطيعون الوقوف في طريقي".

الفصل الخامس



لم يكن لدى مدافعي كزي كزيًا أي فكرة عن عدد المغول الذين عبروا الصحراء لمهاجمتهم. على الرغم من أن جنكيز وصل إلى حافة السلسلة الصخرية مع اثني عشر ضابطاً، إلا أنه أبقى الجيش الرئيسي خلفه في الوادي المتعرج. كان قد قرر عدم إرسال متسلقين للصعود على قمة الملوح الشديدة الانحدار. اعتمدت الخطة على أن المدافعين سيعتقدون أن المهاجمين رعاة بسطاء. كان وجود المراقبين على القمم سيعني بعض الذكاء في التخطيط على الأقل، ويجعل جنود الحصن يشكّون بالأمر. عرض جنكيز على شقيقه السفلى بينما كان ينظر إلى حصن كزي كزيًا. تجمع رعاة السهام مثل النمل على السور، وبين القينة والأخرى كان أحدهم يطلق سهاماً عالياً في الهواء ليحدد المدى الذي يمكن أن يصل إليه في أي هجوم قد يقع عليهم. شاهد جنكيز آخر السهام بغوص في الأرض على بعد اثنتي عشرة خطوة أمامه. كان باستطاعة رجاله إطلاق سهامهم إلى أبعد من ذلك، ويصق باستخفاف باتجاه رعاة سهام العدو. كان الهواء ثقيلًا وساكنًا في الوادي الذي لا تهب رياح فيه. كانت حرارة الصحراء لا تزال مرتفعة عندما ترتفع الشمس فوق الرؤوس وتجعل ظلالهم صغيرة جداً. لمس سيف والده طلباً للحظ، ثم أدار جواده في مكانه، وقاده عائداً إلى حيث كان مئة محارب ينتظرونه.

كانوا صامتين، كما أمرهم، لكن الإثارة كانت يادية للعيان على وجوههم الشابة. مثل كل المغول، كانوا يستمعون فكرة خداع العدو أكثر حتى من التغلب عليه بالقوة. قال خامسار من وراء كتفه: تم بناء المتراس الخشبي. إنه قاس، لكنه سيوصلهم إلى قاعد السور. زوكنهم بمطارق حديدية ليحاولوا كسر البوابة. من يعرف، ربما يخترقونها.

قال جنكيز: "إذا حدث ذلك، اجعل مئة آخرين مستعدين للهجوم دعماً لهم." استدار إلى كشيون، الذي يقف قريباً للإشراف على التفاصيل الأخيرة. أبقى الآخرين

في الخلف يا كثيرون. سيكون القضاء عليهم سهلاً فيما لن يتمكن سوى عدد قليل من تسلق السور. لا أريدكم أن يركضوا على غير هدى".

رد كثيرون: "ساضع أرسالن على رأس المجموعة الثانية". كان خياراً جيداً، وأوما جنكيز موافقاً. كان الحذاء يستطيع اتباع الأوامر في عاصفة من السهام.

خلفهم، بدا أن السور يخيم عليهم على الرغم من أنهم لم يكونوا يستطيعون رؤيته بشكل مباشر. لم تكن لدى جنكيز أي فكرة عما يقع خلف الحجارة الداكنة، أو عدد الرجال الذين يدافعون عن الممر. لم يكن ذلك مهماً. في أقل من يومين، ستصبح آخر قرب الماء فارغة. ستبدأ القنابل بالتداعي بعد ذلك، وتموت من العطش وطموحاته. ينبغي أن يتم إسقاط الحصن.

كان العديد من الرجال يحملون سيوفاً ورمحاً جميلة لتزكها على الرمل، وأي شيء يلتفت نظر المدافعين ويجعلهم يخرجون للحصول عليه. كانوا جميعاً من دون استثناء يرتدون أفضل الدروع التي كانت نسخاً عن دروع محاربي تشن. في الحرارة، كانت القطع المعدنية بساكة إصبع تلسع الجلد العاري، وكانت الملابس الحريرية تحترق سرعان ما تبلى من العرق. تجرعوا الماء من القرب التي كاد ينفد ما بداخلها. كان جنكيز قد ألغى حصص الماء للرجال الذين كانوا على وشك المخاطرة بحياتهم.

قال خاسار مقاطعاً أفكاره: "لقد قمنا بكل ما نستطيع يا شقيقي". راقب كلا الرجلين عندما ظهر كوكشو بين المحاربين، ينثر الماء الثمين فوقهم وينشد. ألقى الكثير من الرجال رؤوسهم لتلقي بركته وتقطب حاجبا جنكيز. تخيل تيموج يقوم بالشيء نفسه في المستقبل ولم يجد مجداً في ذلك.

تمتم جنكيز: "ينبغي أن أكون بين المحاربين".

سمع كثيرون وهز رأسه. "لا يمكن لأحد أن يراك تهرب من أي شيء يا شقيقي. قد لا تلجأ الخطة وتثور علينا القنابل. لا يمكن رؤيتك كجبان ونصف الجيش لا يعرف الخطة هنا بعد. يكفيهم أن يروك تراقب ما يجري. لقد اخترت أكثرهم رباطة للجأش وشجاعة. سيتبعون الأوامر".

رد جنكيز: "يجدر بهم ذلك".

افترق شقيقاه لإصباح المجال أمام مجموعة الهجوم والمرتاس الخشبي العريض. حمله الرجال فوق رؤوسهم بفخر وازداد التوتر بصمت.

قال جنكيز لهم: "لوذ رؤية هذا السور يسقط. إن لم يكن ذلك باستعمال السيوف والمطارق، ليكن ذلك بالخداع. سيموت بعضكم، لكن أب السماء يحب روح المحارب، وستكون موضع ترحيب. ستفتحون طريقاً إلى مملكة جميلة في الخلف. لتصدح

الطبول والأبواق. لنجعلهم يسمعون ويقلقون في حصنهم الثمين. ليحمل الصوت الرعب إلى قلوب محاربي كزي كزبا وحتى إلى قلوب محاربي تشن في منبهم". سحب المحاربون أنفاساً عميقة، وجهّزوا أنفسهم للجري بالقصى سرعة. من بعيد، أطلق طائر صوتاً حاداً من ارتفاع عالٍ في الجو الحار فوق التلال. هتف كوكشو إن ذلك فال خير، ونظر معظم الرجال إلى الأعلى نحو الطائر الأزرق فوق رؤوسهم. بدأ اثنا عشر طبّالاً قرع أنغام الحرب وحفّزهم الصوت المألوف جميعاً، وجعل قلوبهم تخفق بسرعة. أشار جنكيز بيده، وجار الجيش، وصدحت الأبواق. مشّت المجموعة الأولى إلى حيث يمكنها دخول الوادي ثم تسارعت خطواتها، مطلقة صرخات تحدّ بأصوات خشنة. تردّد في الأنحاء صرخات تحذير من الحصن. قال جنكيز وهو يشدّ يده ويفلتها عن قبضة سيفه: "سرى الآن".

تحطمت أصوات المحاربين على جانبي الممر بينما كانوا يندفعون عبره. كانوا يعانون من ثقل المتراس فوق رؤوسهم، وقد تشوّشت رؤيتهم من العرق. أثبت المتراس أنه يستحقّ العناء خلال لحظات بعد أن تلقى سهاماً سوداء بهتّز ريشها الملون. كان رماة السهام منضبطين، كما لاحظ جنكيز، يطلقون معاً بعد إصدار أمر لهم. كانت رمية أو اثنتان محظوظتين وفي الوقت الذي وصل فيه المتراس إلى السور، كانت هناك ثلاثة أجساد تستلقي من دون حراك ووجوها في الرمل. ملاً نوي مكثوم الممر عندما هاجم رجال المطارق البوابة في السور. احتشد رماة السهام فوق، وانحنوا لإرسال سهامهم إلى الأسفل على المجموعة الصغيرة. صرخ الرجال وتراجعوا عن حافة المتراس الخشبي، وأجسادهم تهتّز بينما كانت تتلقى السهم تلو الآخر.

أطلق جنكيز لينة في فرارة نفسه، وشاهد صخوراً ثقيلة تُرفع إلى حاجز السور. كان قد ناقش ذلك الاحتمال مع قائده، لكنه فزع على الرغم من ذلك عندما رفع ضابط يرتدي خوذة عليها ريش ذراعه وصرخ بأمر. بدا أن الصخرة الأولى تقع لوقت طويل وسمع جنكيز مطلقاً عندما دفعت أولئك الموجودين في الأسفل للجنو على ركبهم. بينما كانوا يكاللون للوقوف، ضرب رجال المطارق بقوة أكبر، وكانت ضرباتهم بسرعة ضربات الطبّالين الذين تركوهم خلفهم.

ولعت صخرتان أخريان قبل أن ينكسر المتراس الخشبي. تم إلقاء المطارق على الرمل، وصعدت صرخة رعب كبيرة عندما وجد رماة السهام المتواجدون فوق أهدافاً جديدة. شدّ جنكيز قبضتيه بينما كان يشاهد رجاله يتبعثرون. كانت البوابة في السور

قد صمدت، ولم يكن بوسعهم فعل شيء سوى هذا أسلحتهم بغضب على العدو فوق رؤوسهم. سقط رجل تلو الآخر، ومن دون سابق إنذار، اندفعوا عائدين عبر الممر وكل منهم يسابق الآخرين بئس.

بينما كانوا يركضون، سقط المزيد منهم صرعى نتيجة موجات سهام التي أصابهم. تمكن أكثر من اثني عشر رجلاً بقليل من الابتعاد عن مرمى السهام، وضعوا أيديهم على ركبهم وهم يلهثون. خلفهم، كان الممر مليئاً بكل شيء تركوه في أثناء الانسحاب، وكانت الجثث محددة بالسهم التي تبرز منها.

مشى جنكيز ببطء إلى وسط الممر، يحدق بالمدافعين المبتهجين. استطاع سماع هتافهم وكان صعباً أن يدير ظهره لهم. عندما فعل ذلك، زادت حدة الصوت ومشى بصلاية مبتعداً حتى وصل إلى مكان كان يعرف أنهم لا يستطيعون رؤيته فيه.

على أعلى نقطة في السور، شاهده ليو كين يذهب، وخفف ارتياحه من تعبير وجهه الجامد الذي أظهره للجنود من حوله. كانوا يشتمون عاتية ويريتون على ظهور بعضهم كما لو أنهم أحرزوا نصراً عظيماً. شعر بأنه يفقد أعصابه من غيائهم.

قال بحدة: "غثروا الفريق، وأحضروا خمس مجموعات من رماة سهام جدد إلى هنا". اختفت الابتسامات. "لقد خسرنا ألف سهم في الممر، لهذا تأكدوا من ملء كل كنانة مرة أخرى. اسنحوا كل رجل كوباً من الماء".

وضع ليو يديه على الحجر العتيق، ونظر إلى الممر. كانوا قد قتلوا كل أولئك الذين جاؤوا إلى الجبال تقريباً، وكان مسروراً من رماة السهام. سجل ملاحظة لتنهنة الضابط المسؤول عن السور. كانت أصوات المطارق قد ألفتته، لكن البوابة صمدت. ابتسم ليو كين بتحفظ، لو لم تكن قد صمدت، كان المغول سيدخلون مباشرة في بناء عالي الأسوار مع رماة سهام إلى كلا الجانبين فوقهم. كان الحصن مصمماً بشكل جميل وكان سعيداً أن مدة خدمته لم تنته قبل أن يشهد اختبار تشييده.

تقطب حاجباه لرؤية قطع الخشب المكسورة على الأرض. كان كل ما قيل له عن القبائل يوحى بأنهم إذا جاؤوا، سيهاجمون مثل حيوانات برية. كان المتراس يدل على تخطيط بارع وقد أزعجه ذلك. سيتأكد من ذكر ذلك في تقريره لحاكم الإقليم، وسيترك له قرار الرد بأفضل ما يمكن على ذلك. استغرق ليو في تأملاته بينما كان ينظر إلى الأسفل إلى الموتى المبعثرين. لم يكونوا قد استعملوا الصخور من قبل، وكان معظمها مغطى بالطحالب منذ سنوات عندما تم وضعها على السور لاستعمالها عند الحاجة. كان ينبغي سد النقص بالحصول على صخور أخرى من المخازن، على

الرغم من أن هناك موظفين لذلك النوع من النشاط المعادي. فكر بأن ذلك هو الوقت الذي يقومون فيه بما هو أكثر من توزيع الطعام والماء للرجال.

استدار ليو على وقع خف يصعد الدرج إلى السور. كان تشن في إدراكه أكثر منه جذباً، وأسند ليو نفسه للإجابة عن أسئلته المتتالية. كان الصعود على الدرج إلى السور قد ترك الرجل البدين يلهث، لهذا كان على ليو أن ينظر بعيداً بدلاً من مراقبة ضعف قائده. انتظر من دون كلام بينما كان تشن في ينضم إليه على السور وينظر إلى الأسفل بعينين لامعتين، وتنفسه لا يزال مجهداً.

قال تشن لي وهو يستعيد أنفاسه: لقد جعلت الكلاب تهرب."

أمال ليو رأسه بموافقة صامتة. لم يكن قد شاهد القائد خلال الهجوم. لا شك أنه كان يجلس مرتعشاً مع خيالاته في غرفه الخاصة إلى الجانب الآخر من الحصن. بدعابة ساخرة، فكر ليو بكلمات سن تزو عن الحرب الدفاعية. كان تشن في ماهراً بالتأكيد في الاختباء في موضع منعزل من الأرض، لكن فقط لأن ليو متواجد هناك لصعد المهاجمين. على الرغم من ذلك، كان يدين بالاحترام لمنزلة الرجل.

"سأترك الجثث حتى آخر النهار يا مولاي، حتى أكون متأكد أن الأمر ليس خدعة. سأرسل رجالاً لجمع الأسلحة واسترجاع السهام عند القجر."

نظر تشن في إلى الجثث في الوادي. كان يرى صناديق ملقاة على الأرض إضافة إلى رمح جميل بطول رجل. كان يعرف أنه إذا ترك الأمر للجنود، سيؤول كل ما هو ثمين إلى مجموعاتهم الخاصة. لمع شيء ما في الرمال الخضراء والذهبية وركز بصره عليه.

"سنشرف عليهم يا ليو. أرسل رجالاً الآن للتأكد من أن البوابة لم تصب بأضرار. اجعلهم يجلبون لي كل ما هو ثمين لأتفحصه."

أخفى ليو انزعاجه من جشع القائد البدين الظاهر. لم يكن لدى البوغر أي شيء ثمين من قبل، كما فكر. لم يكن هناك سبب لأن يتوقع العثور على أكثر من بضعة قطع من المعدن المصقول التي تركها رجال القبائل الباسون هؤلاء. على الرغم من ذلك، لم يكن نبهلاً، وانحنى قدر ما يستطيع بدرعه الكامل.

"كما تأمر يا مولاي". ترك تشن في الذي كان لا يزال يحرق إلى الأسفل، وابتناسامة باهتة ترسم على شفتيه البدينتين. طفق ليو بأصابعه للفت انتباه مجموعة من رماة السهام الذين كانوا يصطفون بالدور لتناول الماء من دلو.

"سأخرج لتعريه الموني". سحب نفساً عميقاً، مدركاً أنه سمح لممارته من الأمر المخجل بالظهور. "عودوا إلى مواقعكم واستعدوا لهجوم آخر."

انطلق الرجال مسرعين لتلبية الأمر، وسقط دلو الماء محدثاً رنيناً، ودار كيفما اتفق بينما كانوا يعودون إلى السور. تهدد ليو لنفسه، قبل أن يركز على المهمة بين يديه. لا شك أن محاربي اليوغر سيندفعون ثمن الهجوم غالباً عندما يسمع الملك بما حدث. في أراضي كزي كزي المسالمة، سيكون الهجوم حديث البلاط، ربما طيلة شهر. سيتم إيقاف التجارة لجبل، وإرسال غارات عقابية ضد كل مستوطنة اليوغر. لم يكن ليو يحب ذلك النوع من الحروب، وفكر بأن يطلب نقله إلى مدينة بنشوان. كانوا بحاجة دائماً لحراس جدد يستمعون بالخبرة.

أصدر أوامر حازمة لاثني عشر رماحاً بأن يتبعوه، ونزل على الدرجات الباردة إلى البوابة الخارجية. من الداخل، كانت تبدو سليمة لم يؤثر فيها الهجوم، وفي ظل السور آمن التفكير في مصير كل من يكون أحق بما يكفي ليحاول تحطيمها. فكر بأنه لن يوذ أن يكون بينهم. كان معتاداً على التأكد من أن البوابة الداخلية آمنة قبل أن يرفع يده لرفع عارضة الإغلاق. ربما كان من تزو أعظم مفكر عسكري أنجبه تشن على الإطلاق، لكنه لم يكن يفكر بالصعوبات التي يمثلها قيام رجال جشعين مثل تشن تي بإصدار الأوامر.

سحب ليو نفساً عميقاً، ودفع الباب ليفتحه، مما سمح بمرور شعاع من ضوء الشمس. تاهب الرجال خلفه وأوماً لقائدهم.

أرى أن يبقى رجلان لحراسة البوابة. ليقيم الباقون بجمع السهام التي يمكن استعمالها مجدداً وأي شيء آخر قد يكون ثميناً. إذا كانت هناك مشكلة، ألقوا بكل شيء، واركضوا إلى البوابة. لن يكون هناك كلام، ولن يتجاوز أحدكم مسافة خمسين خطوة، حتى إذا كان هناك زمرد بحجم بيض البط في الرمل. ترقبوا أوامري.

حيّاه الجنود معاً، وربت فائدتهم على كتفي اثنين منهم ليبقياً متأهبين عند البوابة. أوماً ليو برأسه، ونظر إلى أشعة الشمس في الخارج بينما كانت عيناه تضيقان. لم يكن يتوقع مهارات عالية من الجنود الذين ينتهي بهم الأمر في الحصن. كانوا جميعاً تقريباً قد ارتكبوا أخطاء في الجيش النظامي، أو أغضبوا شخصاً ذا شأن. حتى تشن تي كان قد اقترف خطأ غير معلن في ماضيه السياسي، وكان واثقاً من ذلك على الرغم من أن الرجل البدين لم يكن ليبوح بمكونات نفسه لجندي عادي، بغض النظر عن مرتبته.

أخرج ليو زفيراً طويلاً وضعيفاً، وتلقف قائمة الدفاعات في ذهنه. كان قد قام بكل ما يستطيع، لكن على الرغم من ذلك كان لا يزال هناك شعور لا يحبه في قرارة نفسه. خطأ فوق جثة، ولاحظ أن الرجل يرتدي درعاً شبيهاً تماماً بدرعه. تقطب

حاجباه من ذلك. لم يتم اليوغر بنسخ درع تشن من قبل. كان قاسياً، لكن جودته معقولة واكتشف ليو أن شعوره بالاضطراب يزداد.

مستعداً للقفز إلى الخلف، داس بقوة على يد ممتدة. سمع صوت عظم ينكسر، وعندما لم يلاحظ أي حركة، أوما برأسه، وتقدم لمسافة أطول. كانت أعداد الجثث عند الج بوابة كبيرة، واستطاع رؤية رجلين ممتدين والسهم قد اخترقت حنجرتيهما. كانت مطارق ثقيلة قد سقطت قربيهما وحمل ليو إحداهما، وأسندها على السور حتى يتم أخذها في طريق عودته. كانت مصنوعة بإتقان.

بينما كان يركّز بصره على نهاية الممر، تهلت أسارير رجاله وتوقفوا لانقراط الأسلحة من الرمل. بدأ ليو يرتاح قليلاً، وشاهد اثنين منهم ينزعان سهاماً من جثة تشبه للنم (حيوان من القوارض له أشواك كثيرة) لكثرة الضربات التي تلقتها. خطا خارج ظل السور، وفزع من سطوع الشمس المفاجئ. كان هناك صندوقان على بعد ثلاثين خطوة أمامه، وكان يعرف أن تشن تي يراقب ما يجري ليرى إن كان قد عثر على شيء ثمين فيهما. لم يستطع ليو أن يجد سبباً يدفع رجال القبائل على حمل الذهب أو الفضة إلى معركة، لكنه مشى على الرمال الحارة إليهما، ويده مستعدة على سيفه. هل يوجد فيهما أفاء أو عقارب؟ كان قد سمع عن مثل تلك الأشياء التي يتم استعمالها لمهاجمة المدن، على الرغم من أنه كان يتم إلقاؤها في العادة فوق الأسوار. لم يكن رجال القبائل قد جلبوا معهم منجنقات أو سلاكم لاستعمالها في الهجوم.

سحب ليو سيفه، ودفع مقدمة النصل في الرمل، وقلب الصندوق على جانبه. اندفعت عصافير من الصندوق، وطارأت إلى الأعلى عندها رمى بنفسه إلى الخلف مصدوماً.

للحظة، وقف ليو وحقق إلى الطيور، من دون أن يستطيع فهم سبب تركها في تلك الحرارة على الرمل. رفع رأسه ليراقبها تطير ثم أنرك ما يجري واتسعت عيناه رعباً. كانت الطيور الإشارة. وصل صوت قعقعة مكثوم إلى أذنيه، وبدأ أن الأرض تهتز تحت قدميه.

صرخ ليو وهو يلوح بسيفه: "عودوا إلى البوابة!". حوله، شاهد أن جنوده يحتقون به مصدومين، وبعضهم يحمل ملء ذراعيه سهاماً وسيفاً. جاز ليو مجدداً: "اركضوا! عودوا!". عندما ألقي نظرة خاطفة على الممر، شاهد الصف الداكن الأول من الجياد التي تعدو بأقصى سرعتها، واستدار إلى البوابة بنفسه. فكّر وذهنه يعمل بسرعة أنه إذا كان الحمقى بطيئين للغاية، لن يكون بمقدورهم إلقاء اللوم سوى على أنفسهم. تباطأ حتى توقف من شدة خوفه قبل أن يكون قد قطع أكثر من بضع خطوات.

حول البوابة، كانت بعض الجثث تثب من الأرض، والسهم لا تزال معلقة بها. كان أحدهم قد استلقى من دون حراك حتى عندما كسر ليو يده تحت خلفه. ابتلع ليو خوفه من الهدير الذي يزداد خلفه، وبدأ يجري مجدداً. رأى أن الحراس قد بدأوا إغلاق البوابة، لكن واحداً من العدو كان هناك ليدفع ذراعه في الفتحة. صرخ القبلي ألماً عندما انقطعت يده في الداخل، لكن كان هناك آخرون معه ليفتحوها بالقوة ويجعلوها تسقط على المدافعين.

رفع ليو صوته بثورة غضب ولم يزل أبداً السهم الذي أصابه في مؤخر عنقه. وقع على الرمل، وشعر بوخزه حتى عندما كان الظلام يطبق عليه. كان متأكداً أنه تم إغلاق البوابة الداخلية. كان قد رأى أنه تم إغلاقها خلفه وكانت الفرصة لا تزال سانحة. شوتت نماؤه أفكاره وتلاشى وقع الحوافر حتى لم يعد يسمع شيئاً.

نهض تسوبودي من حيث كان يستلقي على الرمل. كان السهم الذي أسقطه أرضاً قد تبعه اثنان آخران علقا في درعه. كانت أضلاعه تؤلمه وكل خطوة تعلي ألماً جديداً وإحساساً دافئاً يتم يسيل على فخذه. كان الوادي مليئاً بصوت يشبه الرعد بينما كان صف الجياد التي تعدو بأقصى سرعتها يقترب منهم. نظر تسوبودي إلى الأعلى عندما سمع أقواساً تطن وشاهد سهاماً سوداء تندفع إلى الأسفل. صهل جواد خلفه وشاهد تسوبودي البوابة تفتح من ضغط الأجساد عليها، وترنح في سيرة نحوها.

نظر حوله بحثاً عن الرجال العشرة الذين وضعهم جنكيز تحت إمرته. عرف أربعة من الأشكال التي تندفع نحو البوابة، بينما رقد الآخرون ساكنين في الرمل، ميتون فعلاً. ابتلع تسوبودي ريقه بآلم بينما كان يخطو فوق رجل كان يعرفه من يورباتخي.

ازداد صوت الفرسان حتى أضحي قوياً خلفه، وتوقع أن يسقطوه أرضاً. اعتقد بأن جروحه قد جعلته يصاب بالذوار، لأن كل شيء بدا كما لو أنه يجري ببطء وكان يستطيع سماع أنفاسه المجهدة من فمه المفتوح. أغلقه، غاضباً من الضعف الذي ظهر عليه. أمامه، كان أولئك الذين نجوا من الهجوم يندفعون عبر البوابة وقد شهبوا سيوفهم. سمع تسوبودي طمطقة أقواس، تكتمها صخور السور السمكة. كان قد لمح رجالاً يسقطون بينما كانوا يقتلون، يبعثون على السهم بينما ينظرون إلى الأعلى ويصرخون. في تلك اللحظة، صفا ذهنه، وتثبت أحاسيسه. كانت السهم لا تزال تضرب الرمل حوله، لكنه تجاهلها. جاز بأمر للتراجع إلى الوراء عندما وصل محاربوه إلى البوابة. كان صوته خشناً، لكن لارتياحه، استجاب الرجال.

قال لهم تسوبودي، مشيراً بيده: "اصنعوا مناريس من الخشب، التقطوا المطارق".
سمع جلجلة الذروع عندما قفز الرجال إلى الرمل الذي يحيط به، تراجل خاسار بسرعة
وأمسك تسوبودي بذراعه.

"هناك رماة سهام في الداخل، لا يزال بإمكاننا استعمال الخشب المكسور".
اختفت السهام في الرمل حولهم، ولم يبقَ منها سوى ريش أسود. بهدوء، نظر
خاسار إلى الأسفل إلى يد تسوبودي مدة كافية لتذكير المحارب الشاب بمكانته. عندما
أفلت تسوبودي قبضته، أصدر خاسار الأوامر بسرعة. حمل كل من حولهما قطعاً من
المتراس الأصلي ورفعوها فوق رؤوسهم بينما كانوا يندفعون نحو البوابة.

عندما تم حمل المطارق مجدداً، أطلق رماة السهام فوق رؤوسهم على الجزء
الواقع بين البوابتين. حتى مع المتراس القاسي، وجدت بعض السهام أهدافاً لها. على
الرمل الساخن في الخارج، أمر خاسار بإطلاق أمواج من السهام إلى الأعلى ضد رماة
السهام على السور الخارجي، لإيقاء جنود تشن منشغلين وإفساد هدفهم حتى يستطيع
الجيش التحرك. عض شفته من الموقع المكشوف، لكنهم كانوا جميعاً عالقين هناك
حتى يتم كسر البوابة الداخلية. علت ضربات المطارق المكتومة على صرخات
الرجال المحترزين.

صرخ خاسار بتسوبودي: "ادخل إلى هناك وتأكد أنهم لن يرتاحوا بينما نحن
ننتظر". أحنى المحارب الشاب رأسه، وجرى لينضم إلى الرجال.

مرّ تحت ظل إلى ضوء الشمس الساطع، وألقى نظرة خاطفة على صف رماة
السهام باردي العيون الذين يطلقون سهاماً إثر آخر على نفق القتل.
لم يكن لدى تسوبودي وقت للتواري تحت قطعة من لوح خشبي مكسور. خدش
سهم ذراعه بينما كان يفعل ذلك، وأطلق لعنة بصوت عالٍ. عرف فقط واحداً من
الرجال العشرة الذي كان لا يزال حياً.

كانت المسافة بين البوابتين قصيرة جداً ولم يكن أكثر من اثني عشر محارباً
يستطيعون الوقوف فيها في وقت واحد. ما عدا أولئك الذين كانوا يحسنون استعمال
المطارق بقوة كبيرة، وقف الآخرون مع قطع من الخشب فوق رؤوسهم، مجتمعين معاً
بأفضل ما يستطيعون. كانت الأرض لا تزال رملية وقد امتلأت بسهام مكسورة أكثف
من الشعر على كلب. على الرغم من ذلك، لقي المزيد من الرجال حتفهم وسمع
تسوبودي لأمر بلغة غريبة فوق رأسه. فكّر وهو يكافح خوفاً بأنه إذا كانت لديهم
حجارة يلقونها عليهم، سيتم سحق الهجوم كله قبل فتح البوابة الداخلية. شعر بأنه
محاصر وعالق في فخ. كان الرجل الأقرب إليه قد فقد خوذته في الهجوم. زعق من

الأسهم وسقط ورش سهم يبرز من عنقه والذي كان قد انطلق من فوقه مباشرة تقريباً. التفت تسويودي قطعة الخشب التي كان يحملها ذلك الرجل ورفعها إلى الأعلى، وفزع مع تأثير كل ضربة. استمرت ضربات المطارق ببطء بثقل الجنون، وفجأة، سمع تسويودي تهبدة ارتياح من أحد المحاربين وتغير الصوت عندما بدأ أولئك الأقرب إلى البوابة يركلون ألواح الأخشاب المتداعية.

انهارت البوابة، وسقط الرجال على الأرض الترابية خلفها. لقي أوائل من دخل حقتهم مباشرة عندما قابلهم وابل من السهام أطلقه عليهم صف من الجنود. خلفهم، جاز رجال خاسار بشكل همجي بعد أن شعروا بوجود طريق للدخول. اندفعوا إلى الأمام، وضغطوا على المجموعة عند البوابة بينما كانوا يتعثرون بالرجال القتلى.

لم يصدق تسويودي أنه لا يزال حياً. سحب السيف الذي ملحه إياه جنكيز بنفسه، وجرى إلى الأمام في رهط من الرجال الثائرين، متحرراً أخيراً من قيد أرض القتل. لم يكن لدى أولئك الذين يستعملون القوس والنشاب فرصة لتكرار ما قاموا به، وقتل تسويودي أول أعدائه بضربة مباشرة على حنجرتهم عندما وقف الجندي متجهاً من خوفه. كان نصف أولئك الذين وصلوا إلى الحصن جرحى والدماء تسيل منهم، لكنهم كانوا قد نجوا وتهللوا عندما التقوا بالصفوف الأولى للمدافعين. تسلق بعض أوائل من دخل درجات خشبية إلى مستوى أعلى، وكثروا غضباً عندما شاهدوا أن الرماة ما زالوا يطلقون السهام على نفق القتل. أطلقت أقواس المغول سهاماً فوق القتال في الأسفل، والتي أصابت رماة سهام كزي كزيا كما لو أن مطارق ضربتهم.

بدأ جيش جنكيز يتدفق عبر البوابة، وينتشر في الحصن. لم يكن هناك أمر في ما يخص الهجوم في المرة الأولى. حتى يتولى ضباط بارزون مثل خاسار أو أرسلان القيادة، كان تسويودي يعرف أن بمقتوره قتل العدد الذي يريده من الرجال، وصرخ بعنف ممتلئاً بالإثارة.

بغياض لسيو كين لتنظيم الدفاع، انهار محاربو كزي كزيا، وهربوا أمام الغزاة وتبعثروا خائفين. ترك جنكيز جواده في الممر، عبر البوابة الخارجية، ودخل إلى ما وراء البوابة الداخلية المكسورة. كان وجهه مبتهجاً بالنصر والمجد بينما كان محاربوه يمزقون جند الحصن. في كل تاريخهم، لم تحط القبائل بفرصة الرد على أولئك الذين أبقوهم تحت سيطرتهم. لم يكن جنكيز يهتم بأن جنود كزي كزيا يعتبرون أنفسهم مختلفين عن جنود تشن. بالنسبة لشعبه، كانوا جميعاً جزءاً من ذلك العرق القديم

المكروه. رأى أن بعض المدافعين قد وضعوا أسلحتهم أرضاً وهز رأسه، واستدعى أرسلان إليه، فمشى الحذاء نحوه مسرعاً.

قال جنكيز: "لا أسرى يا أرسلان". أحنى القائد رأسه.

أصبح القتل منهجياً بعد ذلك. كان يتم العثور على الرجال مختبئين في أقبية الحصن وسحبهم لإعدامهم. بينما كان النهار ينقضي، تم تكديس الجنود الموتى على الحجارة الحمراء في الساحة الرئيسية. أصبح ينز هناك عين العاصفة عندما وجد كل رجل جف حلقه وقتاً ليروي عطشه بالماء، دلواً إثر آخر، حتى أخذ كل منهم يلهث لكثرة ما شرب. لقد قهروا الصحراء.

عندما بدأت الشمس بالغروب، مشى جنكيز بنفسه إلى البئر، وصعد فوق أكوام القتلى. صمت المحاربون عندما فعل ذلك، وملاً أحدهم دلواً جليداً وسلّمه للخان. بينما كان جنكيز يشرب ويبتسم، صرخوا وزعقوا بأصوات عالية بما يكفي لتعود أصدائها من الأسوار المحيطة بهم. كانوا قد عثروا على طريقهم عبر متاهة الغرف، والقاعات، والممرات، والأروقة والتي كانت كلها غريبة على عيونهم. مثل مجموعة من الكلاب البرية، كانوا قد وصلوا إلى الطرف البعيد من الحصن، وتركوا الحجارة السوداء المغطاة بالدماء خلفهم.

تم العثور على قائد الحصن في جناح من الغرف المزينة بالحرير والقماش الذي لا يقدر بثمن. تطلب الأمر ثلاثة رجال لخلع الباب المصنوع من الحديد والسندان للوصول إلى تشن تي الذي كان يخبئ مع اثنتي عشرة امرأة خائفة. عندما نخل خاسار بخطوات واسعة إلى الغرفة، حاول تشن تي الانتحار باستعمال خنجر. لشدة خوفه، انزلق الخنجر من يديه المتعرجتين ولم ينجح سوى بإحداث جرح في حلقه. أغمد خاسار سيفه، وأمسك بيد الرجل البدينة على المقبض، ووجه الخنجر إلى عنقه مرة أخرى. فقد تشن تي أعصابه وحاول أن يكافح، لكن قبضة خاسار كانت قوية، وسحب الخنجر بقوة عبر الحنجرة، وتراجع إلى الخلف عندما تنفخ الدم وخرّ الرجل صريعاً.

قال خاسار: "هذا آخرهم". نظر إلى النساء وأوماً لنفسه. كن كانتات غريبة، جلودهن مطلية بمساحيق بيضاء مثل حليب الفرس، لكنه وجدهن جذابات. استرجع عبق الياسمين برائحة الدم في الغرفة، وابتسم خاسار بخبث عليهن. كان شقيقه كثيرون قد ظفر بفئة من أولخونوت لتكون زوجة له وكان هناك طفلان في خيمته آنذاك. كانت زوجة خاسار الأولى قد توفيت، ولم تكن لديه واحدة. تساءل إن كان جنكيز سيسمح له بالزواج من اثنتين أو ثلاثة من تلك النساء الغريبات. أسعدته الفكرة كثيراً، ومشى إلى النافذة البعيدة، ونظر إلى أراضي كزي كزيا.

كان الحصن عالياً في الجبال، ورأى خاسار وانياً شاسعاً، مع منحدرات شاهقة
تمتد بعيداً على كلا الجانبين. بعيداً في الأسفل، شاهد أرضاً خضراء، مليئة بالمزارع
والقرى. تنفس خاسار الصعداء ارتياحاً.
قال وهو يستدير إلى أرسلان والرجال الآخرين الذين دخلوا: "سيكون الأمر مثل
قطف فاكهة ناضجة. أرسلوا رجالاً لإحضار شقيقتي. ينبغي أن يشاهدوا هذا".

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل السادس



جلس الملك في أعلى غرفة في قصره، ينظر إلى وادي كزي كزيا المنبسط. مع ثلاثي ضباب الفجر عن الحقول، كان منظراً بديعاً للغاية. لو أنه لم يكن يعرف أن هناك جيشاً خارج مرمى الأبصار، ربما بدت الأرض مسالمة مثل أي صباح آخر. كانت القنوات تلمع في ضوء الشمس مثل خطوط من ذهب، تحمل الماء الثمين إلى المحاصيل. كان هناك حتى أشكال بعيدة لمزارعين يعملون من دون التفكير في الجيش الذي كان قد دخل بلادهم من الصحراء الشمالية.

لملم رأي تشيانغ ثوبه المصنوع من الحرير الأخضر المطرز بالذهب. وحيداً، كان تعبير وجهه هادئاً، لكن بينما كان يحدق إلى الفجر، عثرت أصابعه القلقة على خيط، وانزعج منه حتى التقطته أظفاره، وسحبه من ثوبه. تقطعت حاجباه عجباً عندما نظروا إلى الضرر الذي أحدثته. كان الثوب من نسيج تشن، بالياً ليجلب له الحظ في حالات الطوارئ. كان قد بعث برسالة مع اثنين من أسرع مستطلعيه حالما سمع نبأ الغزو، لكن الرد تأخر في الوصول.

تلهد، وتابعت أصابعه بحثها من دون أن يعير اهتماماً للأمر. لو أن إمبراطور تشن العجوز كان حياً، لكان هناك خمسون ألف جندي يزحفون للدفاع عن مملكته الصغيرة، وكان واثقاً من ذلك. كانت الآلهة متقلبة لأنها أخذت حليفه في اللحظة التي أصبح فيها بحاجة لمساعدته. كان الأمير وي غريباً، ولم يكن رأي تشيانغ يعرف ما إذا كان الابن المتطهر من يتمتع بكرم والده.

فكر رأي تشيانغ بالاختلافات بين أراضيها، مستائلاً عما إذا كان بمقدوره فعل المزيد لضمان دعم تشن. كان أحد أسلافه البعيدين أميراً من تشن وحكم الإقليم كإقطاعية شخصية. لم يكن يرى عاراً في طلب المساعدة. كانت مملكة كزي كزيا منسية في النزاع الكبير قبل قرون مضت، ولم يلاحظها أحد بينما كان الأمراء الأقوياء يقاتلون بعضهم حتى انفصلت إمبراطورية تشن إلى اثنين. كان رأي تشيانغ الحاكم

الرابع والستين منذ تلك الفترة الدموية. منذ موت والده، كان قد أمضى قرابة ثلاثة عقود في الحفاظ على حرية شعبه من ظل تشن، وبلى علاقات مع حلفاء آخرين من دون توجيه إهانة ربما تقود إلى إخضاع مملكته بالقوة للآخرين. كان أحد أبنائه سيرت يوماً ما ذلك السلام الصعب. كان راي تشيانغ يدفع الجزية، يرسل تجاره للمقايضة ومحاربيه للانضمام إلى صفوف الجيش الإمبراطوري. بالمقابل، كان يلقي معاملة الحليف المكرّم.

كان صحيحاً أن راي تشيانغ قد أمر بوضع أبجدية جديدة لشعبه، والتي لا تشبه كثيراً كتابة تشن. كان إمبراطور تشن العجوز قد أرسل إليه نصوصاً نادرة تخص لاو تزو وبودا ساكياموني لتتم ترجمتها. كانت تلك بالتأكيد إشارة قبول، إن لم تكن موافقة. كان وادي كزي كزيا منفصلاً عن أراضي تشن، تحده الجبال والنهر الأصفر. مع لغة جديدة، كان أبناء كزي كزيا سيتحررون تماماً من نفوذ تشن. كانت لعبة خطيرة وحساسة، لكنه كان يعرف أنه يستمتع بالرؤية والنشاط لتلمس المستقبل الصحيح لشعبه. فكّر في طرق التجارة الجديدة التي كانت قد فتحت إلى الغرب، والثروة التي كانت تأتي منها. كل ذلك كان معرضاً للخطر من قبل تلك القبائل التي تجار في الصحراء.

تسامل راي تشيانغ إن كان الأمير وي سيدرك أن المغول قد وصلوا إلى حدود سوره العظيم في الشمال الشرقي بدخولهم مملكة كزي كزيا. لم يكن مفيداً لتشن آنذاك أن الذئب قد عثر على البوابة المؤدية إلى الحقل.

همس لنفسه: 'يُنبغي أن تدعني'. أغضبه الاعتماد على جنود تشن ليدعموه عسكرياً، بعد عدة أجيال من إبعاد شعبه عن التبعية لهم. لم يكن يعرف بعد إن كان يستطيع تحمل ما سيطلبه الأمير وي مقابل ذلك الدعم. كان ممكناً إنقاذ المملكة فقط لتصبح إقليماً مجدداً.

نقر راي تشيانغ بأصابعه غاضباً من فكرة وجود جيش تشن على أرضه. كان بأس الحاجة إليه، لكن ماذا إن لم يغادر بعد انتهاء المعركة؟ ماذا إن لم يأت أصلاً؟

كان هناك مئتا ألف شخص يحتمون ضمن أسوار ينشوان، وآلاف آخرون يتجمعون خارج البوابات المغلقة. في الليل، كان أكثرهم بأساً يحاول تسلق الأسوار إلى المدينة وكان حراس الملك يجنون أنفسهم مرغمين على إبعادهم بسيوفهم، أو إطلاق وابل من المسهام على وسطهم. كانت الشمس تشرق كل يوم على جثث جديدة، ويضطر المزيد من الجنود إلى مغادرة ينشوان لدفعها قبل أن تنتشر الأمراض، والعمل تحت نظرات الباقيين الغاضبة. كان عملاً كثيباً وغير سار، لكن المدينة لم تكن تستطيع

إطعام سوى عدد محدود لهذا بقيت البوابات مغلقة. فتل رأي تشيانغ الخيوط الذهبية حتى ظهرت بقع من الدم تحت أظفارهم.

نام أولئك الذين كانوا قد وجدوا ملاذاً في الشوارع، وأسرة كل خان ونزل. كانت أسعار الطعام ترتفع كل يوم، وانتعشت السوق السوداء، على الرغم من أن الحراس كانوا يشنون أي شخص يحتكر المؤونة. كانت بنشوان مدينة الخوف وانتظر ساكنوها هجوم البرابرة، لكن ثلاثة شهور كانت قد انقضت من دون ظهور شيء سوى تقارير عن الدمار بينما كان جيش جنكيز يخرّب كل شيء في طريقه. لم يكن قد وصل بعد إلى بنشوان، على الرغم من أن مستطلعيه كانوا يظهرون على مسافة بعيدة.

رن جرسٌ مما جعل رأي تشيانغ يفزع. لم يكن يصدق بسهولة أنها كانت ساعة التتين. كان ضائعاً في تأملاته، لكن ذلك لم يجلب له الشعور المعتاد بالطمأنينة قبل أن يبدأ اليوم حقاً. هز رأسه من الأفكار الخبيثة التي تضعف عزيمة الرجال الأقوياء. ربما سيجلب القجر معه أنباء أفضل. جهّز نفسه ليراه الآخرون، انتصب في عرشه المصنوع من الذهب المصقول وقام بطي الردن الذي سحب منه الخيط في الآخر. عندما سيتكلم إلى وزيرائه، سيكون قد ارتدى ثوباً جديداً واستحم بمياه منعشة تجعل دمه يتدفق بسهولة أكبر.

رن الجرس مجدداً وفتحت أبواب القاعة بصمت تام. دخل صف من مستشاريه الذين يثق بهم، ووقع خطواتهم مكتوم لارتداداتهم أحذية من اللباد حتى لا يخنشوا الأرضية المصقولة. نظر إليهم رأي تشيانغ من دون اكتراث، وكان يعرف أنهم يستمدون ثقتهم من مزاجه. إن أظهر إشارة واحدة على القلق، سيشعرون برعب العامة المنتشر في شوارع المدينة في الأسفل.

اتخذ عبدان موقعيهما إلى جانبي الملك، وأرسلوا نسيماً رقيقاً من مراوح كبيرة. لم يعر رأي تشيانغ اهتماماً كبيراً لوجودهما، ولاحظ أن وزيره الأول بالكاد يحافظ على هدوئه. أرغم نفسه على الانتظار حتى وضع الرجال جباههم على الأرض وأقسموا عهد الولاء. كانت الكلمات قديمة ومريحة. كان والده وجده قد سمعها آلاف المرات في تلك الغرفة نفسها.

أخيراً، كانوا جاهزين لل شروع في عمل النهار وتم إغلاق الأبواب الكبيرة خلفهم. كان من الحماسة التفكير أنهم لوحدتهم تماماً، كما فكر رأي تشيانغ. كان كل ما يحدث في غرفة العرش يصبح لقائهم في السوق قبل أن تغرب الشمس. راقب الوزراء عن كسب، بحثاً عن إشارة على أنهم يشعرون بالخوف الذي يعتل في صدره. لم يظهر شيء، فتهللت أساريره قليلاً.

شرع وزيره الأول يقول: "جلالة الإمبراطور، ابن السماء، ملكنا ووالدنا جميعاً. أحمل رسالة من الإمبراطور وي تشن". لم يقترب بنفسه، لكنه سلم الرقعة لعبد. جثا الشاب ورفع لغة الورق الثمينة وعرف راي تشيانغ الختم الشخصي للأمير وي. أخفى راي تشيانغ بارقة الأمل في صدره بينما كان يمسك بالورقة ويفض الختم الشمعي.

لم يستغرق الأمر منه وقتاً طويلاً لقراءة الرسالة، وعلى الرغم من سيطرته على نفسه، إلا أن حاجبي راي تشيانغ تغلبوا عبوساً. استطاع أن يشعر بالتعطش للأبناء في الغرفة وكان هذوؤه قد تأثر سلباً بما يكفي ليقرأ الرسالة بصوت عالٍ. "إن من مصلحتنا أن يهاجم أعداؤنا بعضهم. أين يكمن الخطر بالنسبة لنا؟ ألتفخوا الجراح في هؤلاء الغزاة وسيثار تشن لنكرامكم".

أطبق الصمت على الغرفة بينما كان الوزراء يفكرون في الكلمات. شحب لون واحد أو اثنين منهم، وظهر الانزعاج بدياً عليهم. لن تكون هناك تعزيزات، الأسوأ من ذلك، كان الإمبراطور الجديد قد وصفهم بالأعداء ولم يعد حليفاً كما كان والده. كان ممكناً أنهم سمعوا نهاية مملكة كزي كزبا في تلك الكلمات القليلة.

قال راي تشيانغ بهدوء محطماً الصمت: "هل جيشنا مستعد؟". انحنى وزيره الأول كثيراً قبل أن يرد، مخفياً خوفه. لم يكن يستطيع أن يقول للملك عن مدى سوء استعداد الجنود للحرب. كانت أجيال من السلام قد جعلتهم أكثر خبرة في التعامل مع غايات المدينة من الفنون الحربية.

"الكنسات مليئة يا صاحب الجلالة. مع حراسك الملكيين لقيادتهم، سيعيدون تلك الحيوانات إلى الصحراء".

جلس راي تشيانغ ساكناً من دون حراك، وكان يعرف ألا أحد هناك سيجروا على مقاطعة أفكاره.

قال أخيراً: "هل سنحافظ على المدينة آمنة إذا خرج حراسي الشخصيون إلى السهول؟ الفلاحون؟ لا، لقد أويت وأطعمت الملوشيا سنوات. لقد حان الوقت لرد ما كانوا قد اكتسبوه من يدي". تجاهل التوتر الذي ظهر على وجه وزيره الأول. كان الرجل ابن عمه فقط، وعلى الرغم من أنه كان يدير المدينة بالضبط شديد، إلا أنه لم يكن يفكر بمثل عمقه عندما يتعلق الأمر بأي شيء يتطلب فكرة مبدعة.

قال راي تشيانغ: "أرسلوا بطلب قائد جيشي، لأنني سأخطط لهجوم. يبدو أن وقت الكلام والرسائل قد انتهى. سأفكر بكلمات... الإمبراطور وي، وردي بعد أن نكون قد انتهينا من التعامل مع الخطر الذي يقترب منا".

خرج الوزراء والقلق باد على محياهم. كانت المملكة قد نعمت بالسلام لأكثر من ثلاثة عقود، ولم يكن هناك أحد يتذكر فظائع الحرب.

قال كشيون وهو ينظر إلى سهل كزي كزيا: "هذا المكان يناسبنا". من خلفه، كانت الجبال تلوح من بعيد، لكن نظراته جالت فوق الحقول الخضراء والذهبية، الخصبة بالمحاصيل الزراعية. كانت القبائل قد قطعت المسافة بسرعة كبيرة خلال الشهور الثلاثة الماضية، وانتقلت من قرية إلى أخرى من دون أن تلقى مقاومة تقريباً. كانت ثلاث بلدات كبيرة قد سقطت في أيديهم قبل أن تمضي الأثياء قدماً، وبدأ شعب المملكة الصغيرة بهرب من الغزاة. في البداية، كانت القبائل تأخذ أسرى، لكن عندما وصل عددهم إلى قرابة الأربعين ألفاً، كان جنكيز قد تعب من أصوات عويلهم. لم يكن جيشه يستطيع إطعام ذلك العدد الكبير منهم ولم يكن يستطيع تركهم خلفه، بيد أن المزارعين اليوساء لم يكونوا يشكلون أي تهديد. كان قد أصدر الأمر واستمر القتل يوماً بأكمله. كانت الجثث تترك لتتعفن في الشمس، وزار جنكيز ثلاث الموت مرة واحدة فقط ليشاهد ما يقوم به جنوده. بعد ذلك، لم يفكر فيهم مجدداً.

لم يتم الإبقاء على حياة سوى النساء اللواتي تم توزيعهن كمكافآت، وكان كشيون قد عثر على التين التمتعان بجمال نادر في صبيحة ذلك اليوم. كانا تنتظرانه في خيمته واكتشف أن أفكاره تشرذم باتجاههما بدلاً من التركيز على الخطوة التالية في الهجوم. هن رأسه لتتقبة أفكاره.

تابع وهو يلقي نظرة خاطفة على شقيقه الأكبر: "لا يبدو أن الفلاحين مجهزون للحرب على الإطلاق وتلك القنوات ممتازة لمقايه جياننا".

كان جنكيز يجلس على كومة من السروج إلى جانب خيمته، ويضع ذقنه على يديه. كان مزاج القبائل مرحاً حول الرجلين وشاهد مجموعة من الفتية يشتون عصياً من شجر البتولا في الأرض. رفع رأسه باهتمام عندما شاهد أن ابنيه الكبيرين كانا ضمن المجموعة التي تتبادل أطراف الحديث ويدفع بعضهم الآخر فيما يتجادلون حول أفضل السبل لتثبيت العصي. كان جوشي وتشاغاتاي يمثلان رفقة خطيرة لفتية القبائل، وغالباً ما كانا يوقمانهم في منازع ومشاجرات يلجم عنها تلقبهم للصفعات من قبل النساء في الخيام.

تهدد جنكيز، ومرّر لسانه فوق شفته السفلى بينما كان يفكر. تحن مثل دب مغليه في العسل يا كشيون، لكنهم سيرتقون بأنفسهم. أخبرني بارشوك أن تجار كزي كزيا تفاخروا بوجود جيش كبير ينتظرونا. لم نلتق بهم بعد.

هزّ كشيون كتفيه بلا مبالاة من ذلك الاحتمال. "ربما، لا تزال هناك مدينتهم العظيمة. ربما يختبئون خلف الأسوار هناك. يمكننا جعلهم يتضورون جوعاً حتى يخرجوا منها، أو تعطيم الأسوار عليهم وهم بالداخل".

تقلب حاجبا جنكيز من شقيقه. "إن أكون ليلاً جداً يا كشيون. أتوقع التهور من خاسار. أبتك قريباً مني لتكون صوت التنبية والإدراك عندما يمثل المحاربون غروراً بأنفسهم. لم نخض معركة واحدة في هذه المملكة ولا أريد أن يكون الرجال بدنيين وبطليين عندما نخوضها. اجعلهم يعدون إلى التريب واطرد الكسل منهم. أنت أيضاً".

تورد كشيون خجلاً من التوبيخ.

قال وهو يحني رأسه: "كما تشاء يا مولاي". رأى أن جنكيز يراقب أولاده بينما كانوا يمتطون أفراسهم. كانت لعبة مهارة تعلموها من أولخونوت، وتحول انتباه جنكيز عنهم بينما كان جوشي وتشاغاتي يجهزان نفسيهما لقيادة فرسهما بأقصى سرعة إلى ما وراء صف العصي في التربة.

أدار جوشي فرسه بسرعة أكبر وانطلق بمحاذاة الخط وقوسه الطفولي مشدود عن آخره. راقبه جنكيز وكشيون بينما كان يطلق سهمه وهو يقود جواده بأقصى سرعة، وقد أصاب النصل العصا الرفيعة. كانت ضربة جيدة، وفي اللحظة نفسها، مذ جوشي يده اليسرى إلى الأسفل والنتزع قطعة الخشب التي أطلقها، ورفعها مبتهجاً بينما كان يستدير عائداً إلى رفاهه. هتفوا له، إلا أن تشاغاتي تأفف قبل أن يبدأ دوره.

تمتم كشيون: "سيكون ابنك محارباً رائعاً". فزع جنكيز من الكلمات ولم ينظر كشيون إليه لأنه كان يعرف التعبير الذي سيرا.

قال جنكيز بعناد: "يستطيعون التراجع خلف أسوار أعلى من رجل بخمس مرات، ويمكنهم أن يضحكوا علينا فيما نجوب السهول. لماذا سيهتم ملكهم ببعض منات من القرويين؟ لقد اسعاه بالكاد فيما لا تزال مدينة ينشوان تلك تقع آمنة وهو يقيم فيها".

لم يجب كشيون بينما كان تشاغاتي يقود جواده إلى صف العصي. قطع سهمه العصا، لكن يده فشلت في انزاعه قبل أن يسقط. ضحك جوشي على شقيقه، ورأى كشيون وجه تشاغاتي يستشيط غضباً. كانا يعلمان أن والدهما يشاهد السابق.

من خلفه، اتخذ جنكيز قراره، ونهض ليقف على قدميه. "اجمع الرجال واجعلهم يستعدون للمسير. سارى مدينة الحجارة تلك التي تركت تأثيراً قوياً لدى المستسلمين. بطريقة أو بأخرى، لا بد من وجود سبيل للدخول". لم يظهر لشقيقه القلق الذي يعمل

في داخله. لم يكن قد شاهد من قبل مدينة محمية بأسوار عالية كما وصفها مستطلعوها. كان يأمل بأن تثير رؤيتها فكرة عن كيفية الدخول إليها من دون أن يدمر الجيش نفسه من غير جدوى على الأسوار.

عندما كان كثيرون يغادرون للقتال الأوامر، رأى أن تشاغاتاي كان قد قال شيئاً لشقيقه الأكبر. قفز جوشي عن فرسه عندما مرّ تشاغاتاي بجانبه، ووقع كلاهما على الأرض يتشاجران بالمرافق والأقدام العارية. ابتسم كثيرون عندما مرّ بجانبهما وقد تذكر طفولته.

كانت الأرض التي اكتشفوها خلف الجبال خصبة وثرية. ربما سيكون عليهم خوض معارك للحفاظ عليها، لكنه لم يستطع أن يتخيل قوة يمكنها إلحاق الهزيمة بالجيش الذي جعلوه يقطع ألف ميل بعيداً عن وطنه. عندما كان فتى، كان قد نهرج مرة صخرة كبيرة على سفح تل ورأى كيف تزداد سرعتها. في البداية، كانت بطيئة لكن بعد وقت قصير فقط، لم يعد ممكناً إيقافها.

كان الفرزي لون كزي كزيا للحرب. كان جنود الملك يرتدون دروعاً مطلية بلون أحمر زاهٍ، ولم تكن الغرفة حيث يجتمع رأي تشيانغ بقائد الجيش مزينة غير أن أسوارها كانت مطلية باللون نفسه. كانت هناك طاولة واحدة فقط تتخلل الفراغ الذي يتردد الصدى في أرجائه، وقد وقف كلا الرجلين يحذقان إلى خرائط المنطقة، المثبتة بأثقال رصاصية. كان قد تم التخطيط للانفصال الأصلي عن تشن ضمن تلك الأسوار الحمراء، والتي كانت مكاناً لإنقاذ المملكة الغنية بتاريخها. كان درع القائد جيام مصقولاً ويتوافق تماماً مع الغرفة حتى إنه كاد يختفي بين الأسوار. كان رأي تشيانغ نفسه يرتدي قميصاً من الذهب فوق سروال من الحرير الأسود.

كان الجنرال أشيب، ورجلاً يتمتع بالوقار. كان يشعر أن تاريخ كزي كزيا ملحق في هواء تلك الغرفة العتيقة، ثقيل مثل المسؤولية التي سيتحملها بنفسه. وضع علامة أخرى من العاج على خطوط الحبر الأثرق الداكن.

إن معسكرهم هنا يا صاحب الجلالة، ليس بعيداً عن المكان الذي دخلوا منه إلى المملكة. لقد أرسلوا محاربيهم لشن غارات على مسافة مئة وحدة طول في كل اتجاه. تتمم رأي تشيانغ: "لا يمكن للرجل قطع مسافة أطول في يوم واحد، لهذا لا بد أن نديم معسكرات أخرى لقضاء الليل. ربما نستطيع مهاجمتهم هناك".

هز القائد رأسه قليلاً، ولم يكن يرغب بأن يعارض ملكه علانية.

إنهم لا يرتاحون يا صاحب الجلالة، أو يتوقفون لتناول الطعام. لدينا مستطعمون يقولون إنهم يقطعون تلك المسافة ثم يعودون من الفجر إلى المغيب. عندما يقيضون على أسرى، يصبحون أبطأ، ويدفعونهم أمامهم. ليس لديهم مشاة ويحملون إمدادات معهم من المعسكر الرئيسي".

تقطب حاجبا راي تشيانغ عبوساً، وكان يعرف أن ذلك سيكون انتقاداً كافياً لجعل القائد يتصيب عرفاً في حضوره.

"إن معسكرهم ليس مهماً أبها القائد. ينبغي أن يشتبك الجيش ويصد هؤلاء المغيرين الذين تسببوا بالكثير من الدمار. لدي تقرير عن كومة من الفلاحين القتلى بارتفاع جبل. من سيحصل المحاصيل؟ يمكن أن تتضور المدينة جوعاً حتى إذا تركنا هؤلاء الغزاة اليوم!".

جعل القائد جيام وجهه جامداً مثل قناع بدلاً من المخاطرة بزيادة غضب ملكه. "سيحتاج جيشنا إلى وقت لتشكيل وتجهيز الأرضية. مع وجود الحرس الملكي لقيادتهم، يمكنني جعل الحقول مليئة بأوتاد معدنية ستصد أي هجوم. إذا كان الانضباط جيداً، سنسحقهم".

قال راي تشيانغ: "كنت سأفضل لو أن جنود تشن كانوا مع المليشيا الخاصة بي". تتلحج القائد، وكان يعرف أنه موضوع حساس.

"كل ما نحتاجه هو حرسك الملكي يا صاحب الجلالة. المليشيا أفضل قليلاً من الفلاحين الذين يحملون أسلحة. لا يمكن لأفرادها الصمود لوحدهم".

أدار راي تشيانغ عينيه الشاحبتين إلى قائد جيشه.

"كان لدى والدي أربعون ألف جندي مدرب لبناء أسوار بنشوان. عندما كنت طفلاً، شاهدت الصفوف الحمراء تقدم عرضاً عسكرياً عبر المدينة بمناسبة ذكرى ميلاده، وبدأ ألا نهاية لهم". كثر بغضب. "لقد استمعت إلى حمقى وقمت بخفض التكاليف كثيراً نظراً لغياب المخاطر التي قد تواجهنا. لا يوجد سوى عشرين ألفاً من حرسى الخاص وتريد مني إرسالهم للقتال؟ من سيدافع عندها عن المدينة؟ من سيشكل فرق الأقواس العظيمة ويدافع عن الأسوار؟ هل تعتقد أن الفلاحين والتجار سيكونون نافعين حالما أرسل حرسى للقتال في الخارج؟ ستتدلع حرائق وأعمال شغب من أجل الطعام. خطط للنصر من دونهم أبها القائد. ليست هناك طريقة أخرى".

كان القائد جيام ابن أحد أعمام الملك، وقد حصل على منصبه بسهولة. على الرغم من ذلك، كان يتمتع بشجاعة كافية لمواجهة رفض راي تشيانغ.

"إذا زوّدتني بعشرة آلاف من حرسك يا صاحب الجلالة، سيدعون الآخرين. سيكونون النواة التي لا يمكن للعدو تحطيمها".

ردّ راي تشيانغ بحدّة: "حتى عشرة آلاف عدد كبير جداً".

ابتلع القائد جيام ريقه.

"لا يمكنني تحقيق النصر من دون الفرسان يا مولاي. مع خمسة آلاف حارس وثلاثة آلاف من أولئك الذين يمتطون جياداً مدرعة، ستكون لدي فرصة. إذا لم يكن بمقدورك منحني ذلك، ينبغي أن تعذمني الآن".

رفع راي تشيانغ عينيه عن الخريطة، ووجد نظرة القائد جيام الثابتة. ابسم، مسروراً من نقطة العرق التي كانت تسيل على خد الرجل.

"حسناً. يتطلب الأمر موازنة بين منحك أفضل ما لدينا والإبقاء على الرغم من ذلك على عدد يكفي للدفاع عن المدينة. خذ ألفاً من رماة القوس والنشاب، وفرقتين من الفرسان وآخرين من حاملي الرماح. ستكون تلك النواة التي ستقود الآخرين ضد العدو".

أعطى القائد جيام عينيه بصمت شاكراً للحظة. لم يلاحظ راي تشيانغ ذلك لأنه استدار عائداً إلى الخريطة.

"يمكنك تفريغ مخازن الذروع. ربما لا تكون الميليشيا حرسى الأحمر، لكن ربما إذا ظهرُوا بمظهرهم سيجعلهم ذلك شجعاناً. لا شك لدي بأن ذلك سيخفف من المثل الناجم عن شوق الاستغلايين ويموء التكتات العسكرية. لا تخذلني في هذا أيها القائد".

لن أفعل ذلك يا صاحب الجلالة".

انطلق جنكيز في مقدمة جيشه، المؤلف من خط طويل من الفرسان الذي يمتد عبر سهل كزي كزيا. عندما وصلوا إلى القنوت، انتفخ الخط عندما تسابق الرجال للغوص فيها وهم يضحكون وينادون على كل من يقع في الماء الأسود، وكان عليه الجري بسرعة لتدارك ما فاتته.

كانت مدينة ينشوان تبدو مثل بقعة في الأفق طيلة ساعات قبل أن يصدر جنكيز الأمر بالتوقف. تعلت الأبواق، وبدأت على امتداد الخط ثم توقف الحشد، وكانت هناك أوامر تتردد لتكبيبه الرجال على الأجنحة. كان ذلك بلداً معادياً ولن يكونوا عرضة للمفاجأة.

لاحت المدينة من بعيد. حتى على بعد أميال، بدت بناءً ضخماً، مهولاً بحجمه الكبير. حلق جنكيز في سديم شمس بعد الظهيرة. كانت الصخور التي استعملها البناء

رمادية داكنة، واستطاع رؤية أعمدة يمكن أن تكون أبراجاً داخل الأسوار. لم يستطع تخمين مهمتها وبذل جهده حتى لا يظهر رهبة أمام الرجال.

نظر حوله، ورأى أنه لا يمكن مهاجمة شعبه في مثل تلك الأرض المنبسطة. ربما كانت المحاصيل تخفي جنوداً يجثمون بينها، لكن مستطعميه سيكتشفونهم قبل وقت طويل من اقترابهم. كانت الأرض آمنة مثل أي مكان آخر لإقامة معسكر واتخذ القرار، وترجل عن جواده بينما كان يصدر الأوامر.

خلفه، انطلقت القبائل لئامية المهام التي تعرفها تماماً. كانت الخيام مربوطة معاً وتتصحبها عائلات اعتادت على ذلك العمل منذ وقت طويل. أقيمت قرية، بلدة، مدينة خاصة بهم مليئة بالعربات وقطعان الحيوانات. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يتم تجهيز عربة جنكيز الخاصة، وملأت رائحة الضأن المشوي الهواء.

سار أرسلان على طول الخط مع ابنه جيلم. تحت عيونهما، وقف محاربو كل القبائل باستعداد، ولم يتكلموا سوى بالحد الأدنى. استحسن جنكيز ذلك وكان مستعداً مع ابتسامة عندما وصل إلىه.

قال أرسلان: لم أرَ أبداً مثل تلك الأرض المنبسطة. ليس هناك مكان للدفاع عنه، أو للائسحاب إليه إذا أردنا التراجع. نحن مكشوفون تماماً هنا.

رفع ابنه جيلم عينيه لدى سماعه تلك الكلمات، لكنه لم يتكلم. كان أرسلان بضئف عمر كل القادة الآخرين ويعمل بحرص وذكاء. لم يكن أبداً مثيراً للقلق بين القبائل، وكانت مهارته موضع احترام والجميع يخشى عصبيته.

ردّ جنكيز وهو يربت على كتفه: لن يلتفوا علينا يا أرسلان. ليس هنا. سنجعلهم يخرجون من تلك المدينة، أو في حال لم يفعلوا، ربما سأبني منحدراً من التراب إلى قمة أسوارهم وأدخل إليهم. سيكون ذلك شيئاً يستحق المشاهدة، أليس كذلك؟

كانت ابتسامة أرسلان متكلفة. كان واحداً من أولئك الذين اقتربوا من ينشوان بما يكفي ليطلقوا عليه سهامهم.

"إنها مثل جبل يا مولاي. سترى ذلك عندما تقود جوائك بالقرب من الأسوار. هناك برج عند كل زاوية والأسوار مجهزة بكوات يمكن لرماة السهام أن يطلقوا بوجوههم منها لرويتك تمر. سيكون صعباً إصابتهم، بينما ستكون صيداً سهلاً بالنسبة إليهم".

فقد جنكيز بعضاً من حس دعابته. "سأراها أولاً قبل أن أقدر. إذا لم تسقط المدينة بين أيدينا، فسأجعلهم يتضورون جوعاً".

أوما جيلم برأسه موافقاً على الفكرة. كان قد سار بالقرب من والده بما يكفي
ليشعر بظل المدينة على عاتقه. بالنسبة لرجل معتاد على السهول المكشوفة، وجد نفسه
يستشيط غضباً من فكرة وجود مثل تلك الأشياء. كانت الفكرة بعد ذاتها تزعجه.
قال جيلم: "القنوات تصل إلى المدينة يا مولاي، عبر أنفاق مغطاة بالحديد. قيل
لي إنها تجرف براز الناس وروث الحيوانات. ربما يكون هناك نقطة ضعف فيها".
أشرق وجه جنكيز. كان قد امتطى جواده ملوأل النهار ويشعر بالتعب. سيكون
هناك وقت لتخطيط الهجوم في الغد بعد أن يكون قد تناول الطعام وارتاح.
وعدمهم: "سنجد طريقة".

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل السابع



من دون إشارة على أي مقاومة، أمضى المحاربون الشباب بقيادة جنكيز إياهم في امتطاء جيادهم والاقتراب قدر ما يجروون من المدينة، يخشرون شجاعتهم. كان أشجعهم بقود جواده للجري بأقصى سرعته تحت ظل الأسوار بينما السهام تطن فوق رأسه. كانت صرخات هتافهم تتردد عبر الحقول بتحدٍ، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع سوى رامي سهام واحد من كزي كزبا تسديد ضربة موفقة خلال ثلاثة أيام. حتى عندها، استطاع رجل القبائل الجلوس على سرجه والابتعاد، ثم أخرج السهم من درعه ورماه باستخفاف على الأرض.

قاد جنكيز جواده بالقرب من المدينة أيضاً، مع قادة وضباط جيشه. لم يجلب ما رآه أي إلهام. حتى القوات التي تدخل المدينة كانت محمية بعوارض حديدية بسماكة ذراع رجل، ومغروسة عميقاً في الصخر. فكر بأنهم ربما يستطيعون شق طريقهم إلى الداخل، على الرغم من أن فكرة الزحف داخل قوات شديدة الرطوبة كانت بغضه لرجل من السهول. عندما حل الليل، اجتمع جنكيز مع شقيقه وقادته في الخيمة الكبيرة لتناول الطعام ومناقشة المشكلة. كان مزاجه قد ازداد سوءاً مرة أخرى، لكن أرسلان كان يعرفه منذ بداية ارتقائه ولم يكن يخاف من التكلم بصراحة قاسية.

قال أرسلان وهو يفكر ملياً: "مع نوع المتراس الخشبي الذي استعملناه ضد الحصن، يمكننا حماية رجال مدة كافية لنشق طريقنا باستعمال المطارق عبر فتحات القنات. على الرغم من أنني لا أحب مظهر تلك الأشياء على الجدران، إلا أنني لا أعتقد أن قوساً قد يكون بذلك الحجم. إذا كانت حقيقية، ينبغي أن تطلق سهماً بطول رجل. من يعرف حجم الأضرار التي يمكن أن تسبب بها؟".

تسّم كشيون: "لا يمكننا البقاء هنا إلى الأبد، فيما يعنون برسائل إلى حلفائهم؛ ولا يمكننا الاستغاف حولهم وترك جيشهم حراً ليضرب مؤخرتنا. ينبغي أن تدخل المدينة، أو نعود إلى الصحراء ولنخلي عن كل ما حققناه".

نظر جنكيز إلى شقيقه الأصغر، ووجهه متجه. قال بثقة أكبر مما يشعر: لن يحدث ذلك. لدينا محاصيلهم. إلى متى يمكن لمدينة أن تقاوم قبل أن يأكل شعبها بعضه؟ الوقت إلى جانبنا.

رد كشيون: "أعتقد أننا لم نؤذيهم بعد. لديهم قنوات تحمل لهم الماء، وكل ما نعرفه أن المدينة مليئة بالحبوب واللحم المقدس. شاهد جنكيز يتجه من الموقف، لكنه تابع: "يمكننا البقاء هنا سنوات، ننتظر، ومن يعرف عدد الجيوش التي ترحف لموازرتهم؟ في الوقت الذي يصلون فيه إلى مرحلة التضور جوعاً، يمكن أن نواجه جيش تشن نفسه ونجد أنفسنا عالقين بينهما".

رد جنكيز بحدّة: "إذاً، أجبني عن سؤالي! قال لي تلاميذ اليوغو إن كل مدينة في أرض تشن تشبه هذه المدينة، أو حتى أكبر منها، إذا استطعت تخيلها. إذا كان رجال قد بنوها، يمكن لرجال أن يدمروها، وأنا واثق من ذلك. قل لي كيف؟".

قال خاسار وهو يمد سكينه إلى قطعة أخرى من اللحم: "يمكننا تسميم المياه في القنوات". تناول اللحم بينما أطبق صمت مفاجئ عليهم، ونظر حوله إلى الآخرين. "ماذا؟ هذه ليست أرضنا".

وبخ كشيون شقيقه بينما كان يتكلم مع الآخرين: "هذا فعل شرير. ماذا سنشرب نحن عندها؟".

هز خاسار كتفيه استخفافاً: "سنشرب مياهاً نظيفة من مكان أبعد".

استمع جنكيز وهو يفكر بالأمر. قال: "ينبغي أن نجعلهم يخرجون إلينا. لن أسمح بتسميم ماء نظيف، لكن يمكننا تخطيم القنوات وجعل المدينة تعطش. سنجعلهم يشاهدون تدمير عمل استغرق أجيالاً، وربما سيخرجون للقائنا في السهل".

قال جيلم: "سأحرص على القيام بذلك".

أوما له جنكيز. "وأنت يا خاسار. سترسل مئة رجل ليشلوا عبر القضايا حيث تدخل القنوات إلى المدينة".

قال خاسار: "حمايتهم تعني تفكيك المزيد من العربات. لن تحب العائلات ذلك على الإطلاق".

تألف جنكيز. "سأبني المزيد منها عندما ندخل تلك المدينة اللعينة. سيذكروننا عندها".

سمع كل الرجال في الخيمة وقع حوافر جواد يقترب بسرعة. توقف جنكيز مع قطعة من لحم الضأن المشبعة بالدهن في أصابعه. نظر إلى الأعلى عندما صدر صوت على الدرجات في الخارج وفتح باب الخيمة. "إنهم يخرجون يا مولاي".

قال جنكيز متشككاً: "في الظلام؟".

"ليس هناك قمر، لكنني كنت قريباً بما يكفي لأسمعهم يا مولاي. إنهم يثرثرون مثل الطيور وتصدر عنهم ضوضاء أكثر من أطفال".

قذف جنكيز قطعة اللحم إلى الطبق أمامه في وسط الخيمة.

"عودوا إلى رجالكم يا إخواني، وليكونوا مستعدين". جال ببصره عبر الخيمة حتى وصل إلى أرسلان وجيلم، وكان الأب وابنه يجلسان معاً.

"أرسلان، ستقود خمسة آلاف لحماية العائلات. سيذهب الباقي معي". كثر من ذلك الاحتمال، وبدلوه الأبشامات.

"ليس سنوات يا كشيون. ليس يوماً واحداً بعد. اجعل أسرع المستطلعين ينطلقون. أريد أن أعرف ما يقومون به حالما يبرز الفجر. سأصدر الأوامر لكم عندها".

بعيداً في الجنوب، كان الخريف لا يزال حاراً، والمحاصيل التي لم يتم حصادها بعد مثقلة بما تحمله بينما بدأت تفسد في الحقول. أطلق مستطلعو المغول صرخات تحدت باتجاه الجيش الأحمر الذي كان قد زحف من ينشوان، فيما عاد آخرون إلى جنكيز مع التفاصيل. كانوا يدخلون الخيمة الكبيرة بمجموعات من ثلاثة رجال، وينقلون ما يعرفونه.

كان جنكيز يسير بخطوات واسعة جيئة وذهاباً، يصفي إلى كل رجل فيما يصف المشهد.

قال لكشيون: "لا أحب هذا العمل مع السلال. ما الذي يزرعونه في هذه الأرض؟". كان قد سمع عن مئات من الرجال الذين يمشون معاً بتشكيلات معينة أمام الجيش من ينشوان. كان كل منهم يحمل سلة على كتفيه بينما يمد رجل خلفه يده داخلها، مراراً وتكراراً، ويرمي ما في ذراعيه بعيداً.

ثم استدعاء خان اليوغر ليكشف السر. كان بارشوك قد استفسر من المستطلعين، وسأل عن كل معلومة يمكنهم تذكرها.

قال أخيراً: "ربما يكون شيئاً لإعاقه جياندا يا مولاي. حجارة حادة، ربما، أو حديد. لقد نشرها الكثير من تلك الأشياء خارج طريق الجيش، ولم تظهر عليهم أي إشارة على وطنها. إذا كانوا ينوون استرجاعنا إلى هناك، ربما يتوقعون صد الهجوم". ربت جنكيز على كتفه. قال: "مهما يكن الأمر، لن أترك لهم اختيار الأرض. ستحصل على الرفاع يا بارشوك". نظر حوله إلى الوجوه المثاقفة للرجال موضع ثقته. لم تكن مذهبة الحصن لدخول أراضي كزي كزي على علاقة كبيرة بالتشكيلات

المقاتلة لمدينة الملك. كان يشعر بقلبه ينبض بسرعة من فكرة الوقوف أخيراً ضد أعداء شعبه. بالتأكيد لن يفشلوا، بعد ذلك الاستعداد الطويل؟ قال كوكشو إن النجوم نفسها تعلن قترأً جديداً لشعبه. مع وجود كاهنه العراف بجانبه، كان جنكيز قد ضحى بمعزاة بيضاء لأب السماء، مستعملاً اسم أقدم لغة للعراقيين. لن يرفضهم تانغري. لقد كانوا ضغفاء لوقت طويل، وكان ذلك بسبب أبناء تشن في مثلهم الذهبية. هم أقوياء الآن وسيرون المدن تسقط.

وقف القادة ساكتين دونما حراك عندما مذ كوكشو يده إلى قنور صغيرة ورسم خطوطاً على وجوههم. عندما نظروا بعضهم إلى بعض، لم يروا الرجال الذين يعرفونهم. كان كل ما شاهدوه ألقعة الحرب وعيون قاسية تبت الرعب في القلوب. ترك الكاهن العراف جنكيز ليكون الأخير، رسم خطأ أحمر في أعلى جبين الخان، فوق العينين نزولاً إلى جانبي فمه.

إن يسلك الحديد يا مولاي. لن يحطملك الصخر. أنت الذئب وأب السماء يراقب. حقق جنكيز من دون أن يرف له جفن، وكانت الدماء حارة نوعاً ما على جلده. أخيراً، أوما برأسه وغادر الخيمة، امتطى جواده وكانت صفوف المحاربين تمتد على كلا الجانبين. استطاع رؤية المدينة من بعيد، وقبلها، حشد ضبابي من رجال يرتدون ملابس حمراء ينتظرون قهر طموحاته. نظر يساراً ويميناً وإلى الأمام على طول الخط ورفع ذراعه.

قُرعت الطبول، التي يحملها مئة فتى غير مسلح. كان كل منهم قد قاتل رفاقه لاكتساب حق الخروج مع المقاتلين، وكان العديد منهم يحملون علامات شجارهم. شعر جنكيز بقوة عندما من قبضة سيف والده طلباً للحظ. أنزل ذراعه، وكرجل واحد، تحركوا إلى الأمام فوق سهل كزي كزيا، نحو مدينة بنشوان.

قال وزير راي تشيانغ الأول بإثارة: "إنهم قادمون يا مولاي". كان يمكن رؤية السهل من مركز المراقبة في برج الملك بشكل أفضل من أي مكان آخر، ولم يكن راي تشيانغ قد اعترض على حضور مستشاريه في قاعاته الخاصة.

بدروهم المصقولة، كان الجنود يشبهون بقعة لامعة من الدماء على الأرض أمام المدينة. اعتقد راي تشيانغ أنه يستطيع رؤية شكل القائد جيام الأبيض اللحية من بعيد وهو يسير جينة وذهاباً أمام الصف. كانت الحراب تلمع في شمس الصباح عندما أخذت الفرق مواقعها، وشاهد أن حرسه الملكي قد تولى أمر الجناحين. كانوا أفضل فرسان كزي كزيا، ولم يندم على جعلهم يقومون بتلك المهمة.

كان قد ألمه كثيراً الاختباء في المدينة فيما يتم تدمير أراضييه. كان مجرد رؤية جيش يولاه الغازي قد رفع من مغنوياته. كان جيام مفكراً صلباً، ورجلاً يمكن الاعتماد عليه. كان صحيحاً أنه لم يخض معركة خلال ارتقائه سلم السلطة في الجيش، لكن رأي تشيانغ كان قد راجع خططه ولم يجد عيباً فيها. كان الملك يشرب شرباً أبيض في أثناء انتظاره، مستشغلاً فكرة رؤية القضاء على أعدائه أمام ناظريه. كانت أنباء النصر ستصل إلى الإمبراطور وي ويشعر بالمرارة. لو أن أبناء تشن كانوا قدموا له التعزيزات، كان رأي تشيانغ سيبقى مديناً لهم إلى الأبد. كان الإمبراطور وي ذكياً بما يكفي ليعرف أنه قد تخلى عن ثقوفه في التجارة والسلطة، وقد أسعدت الفكرة رأي تشيانغ. كان سيعمل على إيلاغ تشن بكل تفاصيل المعركة.

شاهد القائد جيام سحابة من الغبار عندما تقدم العدو. أدرك أن الأرض كانت قد جفت تماماً لأن المزارعين لم يعنوا بجروون على ري محاصيلهم. كان أولئك الذين حاولوا القيام بذلك قد لقوا حتفهم على يد مستطليعي الغازي، وكان من الواضح أن الأمر تم بهدف التسلية أو إرفقة نساء شباب. فكّر جيام بأن الأمر سيتوقف في ذلك اليوم.

ثم نقل أوامره للصفوف على رايات عالية، ترفرف في النسيم حتى يراها الجميع. عندما نظر على طول الصفوف، كانت الشارات السوداء تختلط بالرايات الحمراء كرمز يعني أنهم سيحافظون على الأرض. خلف الجيش، كانت الحقول مليئة بمئة ألف وند كبير من الحديد، المتوارية في الأعشاب. انتظر جيام بنفاد صبر حتى يهاجمهم رجال القبائل. ستكون مذبحة ثم سيرفع الرايات تشن هجوم والالتحام مع العدو، فيما لا يزال المغول مذهولين.

تولى الفرسان الملكيون أمر الجناحين، وأوما جيام لنفسه من رؤية جيادهم الرائعة، تسهل وتضرب الأرض بحوافرها بهياج. وقف حراس الملك الذين يحملون رماحاً متأهبين في وسط جيشه، وكان منظرهم بديعاً بملابسهم الحمراء التي تشبه حراشف أسماك غريبة. ساعدت وجوههم الكثيرة في تثبيت الآخرين عندما أصبحت سحابة الغبار أكبر وشعروا جميعاً بالأرض تهتز تحت أقدامهم. شاهد جيام إحدى سوارى الرايات تسقط وأرسل رجلاً لمعاينة حاملها. كان جيش كزي كزيا متوتراً، وكان يستطيع رؤية ذلك في وجوههم. عندما يشاهدون صف العدو ينهار، سيمنحهم ذلك الشجاعة. شعر جيام بأن منأته تولمه، وأطلق لعنة بصوت خافت، وكان يعرف أنه لا يستطيع أن يترجل عن جواده فيما العدو يندفع نحوهم. في الصفوف، شاهد الكثير من الرجال يتولون على الأرضية الرملية، ويجهزون أنفسهم.

كان عليه أن يصرخ بأوامره فوق وقع حوافر الجياد التي تعدو بأقصى سرعتها. كان ضباط الحرس منتشرين على طول الصف، وكرّزوا الأمر بالوقوف والانتظار. تمت: «قليل من الوقت فقط». كان يستطيع رؤية أفراد بين الجيش وتقلصت معدته من كثرة عددهم. شعر بنظرات المواطنين خلفه وكان يعرف أن الملك يشاهد مع كل رجل وامرأة أخرى استطاعت إيجاد مكان لها على الأسوار. كانت يشوان تعتمد عليهم في بقائها، ولن يخلّوها.

وقف نائبه مستعداً للفعل لأمر جيام. قال: «سيكون نصراً مؤزراً أيها القائد». استطاع جيام سماع التوتر في صوت الرجل، وأرغم نفسه على الاستدارة بعيداً عن العدو.

مع وجود الملك يرافقه، ينبغي ألا يفقد الرجال شجاعتهم. هل يعرفون من يراقب ما يجري؟.

لقد تأكدت من ذلك أيها القائد. إنهم... اتسعت عينا الرجل، وأعاد جيام بصره إلى الصف المهاجم الذي يندفع عبر السهل.

من وسط الصف، تقدم مئة جواد إلى الأمام، وشكّل الفرسان رتلاً مثل رأس سهم. راقب جيام من دون أن يفهم فيما كانوا يقتربون من خط المسامير المخبأ في الأعشاب. تردد، غير واثق كيف سيؤثر التشكيل الجديد في خطته. شعر بخط من العرق يسيل من شعره وشعر سيفه لإبقاء يديه ثابتتين.

همس: «وصلوا تقريباً...». كان الفرسان جاثمين على صهوات جيادهم، وجوههم مبهدة من الرياح. راقب جيام بينما كانوا يعبرون الخط الذي أنشأه، وخلال لحظة مرعبة، فُكّر أنهم سيندفعون بطريقة ما مباشرة عبر الأوتاد. ثم صرخ أول جواد، وتعثّر فوق نفسه وسقط على الأرض. سقط العشرات غيره عندما انغمرت الأجزاء اللينة من الحوافر في الأوتاد ولقي الرجال على ظهورها حتفهم. ترتج الرتل الضئيل واختبر جيام لحظة فرح غامر. شاهد صف الجياد التي تجري بأقصى سرعة يتمايل عندما شدّ المحاربون في الخلف لجام جيادهم بعنف. أصيب تقريباً كل أولئك الذين كانوا يقودون جيادهم بأقصى سرعة في حقل الأوتاد بإصابات بالغة أو لقوا حتفهم على الأعشاب، وارتفع الهتاف من الصفوف الحمراء.

شاهد جيام أن رايات الزمام كانت ترفرف عالياً وشدّ قبضته اليسرى بسعادة. ليأتوا سيراً على الأقدام ويروا ما سيقدمه لهم!

خلف الرجال والجياد التي تطلق الصرخات، تبعثرت كتلة الجيش من دون تشكيل منظم، وقد فقد أفرادها كل دافع بموت إخوانهم. بينما كان جيام يراقب ما

يجري، دب الذعر في قلوب رجال القبائل غير المدربين. لم تكن لديهم تكتيكات سوى الهجوم الشرس وقد خسروا ذلك. من دون سابق إنذار، استدار المئات إلى الخلف ليتسابقوا عائدين عبر خطوطهم. انشتر حشد الزعاع بسرعة استثنائية وشاهد جيام ضباطاً مغولاً يصرخون بأوامر متناقضة على رجالهم الهاربين، يضربونهم بجانب سيوفهم كلما مرّوا بهم. خلقه، قلبه شعب ينشوان من ذلك المنظر.

اهتز جيام على السرج. كان صفه الأول بكامله قد تقدم نصف خطوة إلى الأمام، مجهدين مثل كلاب مربوطة بلجام. استطاع أن يشاهد تصاعد الرغبة للدماء فيهم وكان يعرف أن عليه السيطرة على ذلك.

صرخ: توقفوا! أيها الضباط، سيطروا على رجالكم. أمركم بالتوقف! لم يكن ممكناً إيقافهم. حطمت خطوة أخرى القيد الأخير وانتفعت الصفوف الحمراء التي تصرخ إلى الأمام، ودروعهم الجديدة تلمع. امتلأ الهواء بالغيار. وحدهم حراس الملك حافظوا على مواقعهم، وحتى عند ذلك، تم إرغام الفرسان في الجناحين على التقدم إلى الأمام مع الآخرين أو تركهم من دون حماية. صرخ جيام مراراً وتكراراً بياس وجار ضباطه الذين جالوا على طول الخطوط، محاولين جعل الجيش يتراجع. كان ذلك مستحيلًا. كانوا قد شاهدوا العدو يجول في ظل المدينة طيلة شهرين تقريباً. كانت هناك أخيراً فرصة لإثباتهم بالجراح. صرخ أفراد الميليشيا متزدين عندما وصلوا إلى حاجز الأوتاد الحديدية. لم تكن تلك الأوتاد لتشكل خطراً على الرجال وعبروا تلك المنطقة بسرعة، وقتلوا أولئك المحاربين الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة وطعنوا الموتى مراراً وتكراراً حتى ظهرت بقع من الدم على الأعشاب.

استعمل جيام جواده لإيقاف خطوط من الرجال بأفضل ما يستطيع. بغضب شديد، جعل الأبواق تصدح مطالبة بالانسحاب، لكن الرجال لم يعودوا يسمعون أو يروا أي شيء سوى العدو والملك الذي يراقبهم. لم يكن ممكناً إعادتهم إلى الخلف.

على صهوة جواده، شاهد جيام تغيراً مفاجئاً في القبائل قبل أي من رجاله الذين يركضون نحوهم. أمام ناظريه، اختفى الحشد المضطرب، وتشكلت خطوط مغول جديدة بانضباط مرعب. كان جيش كزي كزيا القرمزي قد قطع مسافة نصف ميل وراء الشراك والحفر التي قاموا بتجهيزها في الليلة السابقة، ويتسابق أفرادها إلى الأمام لتلويث سيوفهم بالدماء وإبعاد هؤلاء الأعداء عن مدينتهم. من دون سابق إنذار، واجهوا جيشاً واتقوا من الفرسان على أرض مكشوفة. أصدر جنكيز أمراً واحداً ودفع أفراد القوة كلهم جيادهم للجري هرولة. سحب محاربو المغول أفواصاً من حقائب جلدية على السروج، وتناولوا أول السهام الطويلة من كنانات على أردافهم أو

ظهورهم. قاتوا الجياد بركبهم وحدها، وكانت السهام تتجه إلى الأسفل. عند صدور أمر آخر من جنكيز، دفع الفرسان جيادهم للجري خيلاً ثم بالقصى سرعة، وارتفعت السهام إلى مستوى وجوههم استعداداً لإطلاق الضربة الأولى.

عالقون في مكان مكشوف، اكتسح الخوف صفوف الجيش الأحمر. تدافعت خطوط كزي كزي وكان البعض في الخلف لا يزال يهتف من دون أن يعرف أن جيش المغول قام بهجوم مضاد. جاز جيام بأمر يائسة لزيادة المسافة بين الصفوف، لكن لم يستجب له سوى حرس الملك. عندما واجهوا هجوماً واسعاً للمرة الثانية، اقترب أفراد الميليشيا بعضهم من بعض، خائفين ومشوشين.

ضرب عشرون ألف سهم الصفوف الحمراء وجعلوا أفرادها يجثون على ركبهم. لم يكونوا يستطيعون الرد على الضربات بوجه مثل ذلك الدمار. لم يستطع رماة القوس والنشاب إطلاق سوى سهام طائشة نحو العدو، وأعاقهم نعر رفاقهم. سحب المغول سهاماً من كائناتهم وأطلقوها عشر مرات كل ستين ضربة قلب وكانت دقتهم قاتلة. أُنقذت الدروع الحمراء بعض الجنود، لكن عندما نهضوا يصرخون، تلقوا ضربات مراراً وتكراراً حتى تم دفعهم إلى الأرض. عندما اندفع المغول للاستيلاء في قتال قريب، دفع جيام قدميه في جانبي جواده وأسرع عبر الخطوط النازفة إلى رماحي الملك، محاولاً جعلهم يصمدون. بطريقة ما، مر من دون أن يصاب بأذى.

لم يكن حراس الملك يبدون مختلفين عن الميليشيا بدروعهم الحمراء. عندما تولى جيام القيادة، شاهد أن بعض أفراد الميليشيا يندفعون عاندين من صفوفهم، يلاحقهم فرسان المغول وهم يصرخون. لم يركض الحراس، وأصدر جيام أمراً حاسماً لرفع الرماح، والذي تم تناقله على طول الصف. شاهد رجال القبائل متأخرين كثيراً فهؤلاء لم يصابوا بالذعر مثل الآخرين. تم توجيه نصال الرماح بزاوية يمكنها شطر الرجل نصفين عندما يندفع مهاجماً، وسقط العشرات من المغيرين المغول عندما حاولوا اختراق الصف. شعر جيام بالأمل يزداد بأنهم يستطيعون النجاة ذلك اليوم.

كان فرسان الحرس قد خرجوا للدفاع عن الأجنحة ضد العدو المتحرك. عندما تم سحق الميليشيا، لم يبق مع جيام سوى بضع آلاف من رجال الملك المدربين وبضع مئات الأفراد المتفرقين. بدأ المغول مسرورين بضرب فرسان كزي كزي. كلما حاول فرسان الحرس شن هجوم، كان رجال القبائل يندفعون بسرعة كبيرة ويصطادون الرجال بالسهام. كان أثرهم يشبه مع الحراس بالسيوف، ويتقدمون ويتأخرون مثل حشرات تلتسع. على الرغم من أن الفرسان حافظوا على انضباطهم، إلا أنهم كانوا

مدربين على ملاحقة مشاة في حقل مكشوف ولم يكونوا يستطيعون التعامل مع هجمات من كل الاتجاهات. كانوا عالقين بعيداً عن المدينة، وتعرضوا لمذبحة.

نجح الرماحون من الهجمات الأولى ضدهم، وبفروا بطون جياد المغول. عندما تم سحق وبعثة فرسان الملك، أصبح أولئك الذين يقاتلون على أقدامهم مكشوفين. لم يستطع الرماحون الاستدارة لمواجهة الجيش بسهولة وفي كل مرة حاولوا فيها، كانوا يطيرون للغاية. صرخ جيام بالأوامر بالنساء، لكن المغول طوقوهم وشتتوهم إلى أجزاء بعاصفة من السهام التي قُلت على الرغم من ذلك في إلحاقه بهم. سقط كل رجل لقي حظه مع اثني عشر سهماً فيه، أو وقع عن سرجه بضربة من سيف فارس يمتطي جواداً يعدو بأقصى سرعة. كسرت الرماح وسحقها الحشد. حاول أولئك الذين بقوا على قيد الحياة الهرب إلى ظل الأسوار حيث يمكن لرماة السهام حمايتهم، لكن تم القضاء على معظمهم قريباً.

أغلقت البوابات. عندما نظر جيام إلى الخلف على المدينة، وجد نفسه مكللاً بالعار. لا بد أن الملك كان يراقب ما يجري برعب. لقد تبعثر الجيش وتم تدميره. لم يصل سوى بعض الرجال المرهقين إلى الأسوار. بطريقة ما، بقي جيام على سرجه، أكثر إراكاً من ذي قبل لتظرة ملكه. بيؤس، رفع سيفه ووجهه بهدوء نحو صفوف المغول حتى لاحظوه.

اخترق سهم إثر آخر درعه الأحمر بينما كان يقترب منهم. قبل أن يصل إلى الصف، خرج محارب شاب على جواد يعدو بأقصى سرعته للقاتل، وقد شعر سيفه. صرخ جيام مرة، لكن المحارب استطاع تفادي ضربته، وأحدث جرحاً بليغاً تحت ذراع القائد اليميني. ترنح جيام على السرج، وثباطت سرعة جواده إلى المشي. استطاع سماع المحارب يستدير عائداً إليه، لكن ذراعه كانت معلقة بالأوتار ولم يستطع رفع سيفه. سألت الدماء على فخذه ونظر إلى الأعلى للحظة، ولم يشعر أبداً بالضربة التي بترت رأسه وأنهت عاره.

قاد جنكيز جواده مبتهجاً بالنصر عبر تلال الموتى الذين يرتدون الدروع القرمزية التي تشبه جثث الخنافس اللامعة. بيده اليميني، كان يحمل رمحاً طويلاً ورأس قائد جيش كزي كزي في الأعلى، ولحيته البيضاء ترتعش في التسيب. سألت الدماء على طول المقبض حتى وصلت يده، وجفت هناك وجعلت أصابعه دقيقة معاً. كان بعض أفراد الجيش قد هربوا جرياً عائدين عبر حقل الأوتار حيث لا يمكن لفرسانه اللحاق بهم. حتى عند ذلك، كان قد أرسل محاربين يقودون جيادهم سيراً على الأقدام.

كان عملاً بطيئاً وربما استطاع ألف فقط من جنود العدو الاقتراب بما يكفي من المدينة ليكونوا بحماية رماة السهام. ضحك جنكيز من منظر الرجال المتسخين الواقفين في ظل ينشون. بقيت البوابات مغلقة ولم يكن يوسعهم فعل شيء سوى التحديق بيأس مطلق على محاربيه بينما كانوا يسرون بين الموتى، يضحكون وينادون بعضهم. نزل جنكيز عندما وصل إلى العشب، وأسند الرمح الملطخ بالدماء على ردف جواده. انحنى إلى الأسفل والتقط أحد الأوتاد، وتفحصه بفضول. كان شيئاً بسيطاً مصنوعاً من أربعة قطع معدنية متصلة معاً وتبقى للأعلى كيفما سقطت. لو تم إرغامه على اتخاذ موقف دفاعي، فكّر بأنه كان سيضع مجموعات منها في دوائر تصبح أوسع فأوسع حول الجيش، لكن مع ذلك لم يكن المدافعون محاربين كما كان يعرفهم. كان رجاله يستمعون بانضباط أفضل، تدربوا على أرض أفسى من وادي كزي كزيا الأمن.

عندما مشى جنكيز، استطاع رؤية قطع من دروع ممزقة ومكسورة على الأرض. فحص قطعة منها باهتمام، وشاهد كيف أن الطلاء الأحمر قد تساقط عند الأطراف. كان بعض جنود كزي كزيا قد قاتلوا جيداً، لكن سهام المغول أصابتهم على الرغم من ذلك. كان فال خير للمستقبل والمواجهة الأخيرة التي كان قد أحضر محاربيه لأجلها إلى المكان المناسب. كان الرجال يعرفون ذلك فيما كانوا ينظرون إلى خائهم بإعجاب. كان قد سار بهم عبر الصحراء ليواجهوا أعداء لا يقاتلون بشكل جيد. كان يوماً رائعاً.

وقع بصره على عشرة رجال يرتدون ملابس مطرزة باللون الأزرق الخاص باليوغر بينما كانوا يمشون بين الموتى. كان أحدهم يحمل كيساً وشاهد الآخرين يمدون أيديهم التي تحمل سكيناً إلى الجثث بحركة سريعة مرتعشة.

ناداهم قائلاً: "ماذا تفعلون؟". وقفوا بفخر عندما شاهدوا الذي يتكلم معهم. رد أحدهم: قال بارشوك اليوغر إنك ستؤد معرفة عدد الموتى. نحن نقطع الأذان لئتم عدّها لاحقاً".

طرفت عيناً جنكيز. نظر حوله وشاهد أن العديد من الجثث القريبة تحمل علامات جروح بليلة ملطخة بالدماء حيث كانت أذانها في صبيحة ذلك اليوم. كان الكيس ممثلاً آنذاك.

شرح بالقول: "يمكنكم أن تشكروا بارشوك نهاية عني"، لكنه صمت بعد ذلك. بينما كان الرجال يتبادلون نظرات قلقة، مشى جنكيز ثلاث خطوات بين الجثث، مما جعل الذباب يطن في الهواء حوله.

قال جنكيز: "هناك رجل من دون أي أنثى هنا". أسرع محاربو اليوغو إليه، وحالما شاهدوا الجندي من دون أنثى، بدأ الرجل الذي يحمل الكيس يشتم رفاقه. "أيها الحمقى البائسون! كيف نستطيع إجراء تعداد صحيح إذا قطعنا كلتا الأذنين؟".

لقى جنكيز نظرة واحدة على وجوههم وانفجر ضاحكاً بينما كان يعود إلى جواده.

كان لا يزال يضحك بصوت خافت عندما أمسك بالرمح وقذف بمجموعة من الأوتاد السوداء على العشب. قاد جواده ليسير بهدوء نحو الجنتران مع غنيمته المروعة، مقترناً المسافة التي يمكن لرماة كزي كزبا إيصال سهامهم إليها.

على مشارف أسوار المدينة، غرز الرمح في الأرض بكل ثقله، وتراجع إلى الخلف عنه بينما كان يحدق إلى الأعلى. كما كان قد توقع، طارت سهام ربيعة نحوه، لكن المدى كان بعيداً جداً ولم يفرغ منها. بدلاً من ذلك، شعر سيف والده ورفعه نحوهم، بينما كان جيشه يشد ويصرخ خلفه.

أصبح تعبير وجه جنكيز متجهماً مرة أخرى. كان قد أنجز عملية صهر الأمة الجديدة. كان قد أظهر أنهم يستطيعون الصمود حتى ضد جنود تشين. على الرغم من ذلك، لم تكن أمامه طريقة لدخول مدينة تسخر منه بقوتها. قاد جواده ببطء إلى حيث كان شقيقاه قد اجتمعا. أوما جنكيز لهما، وقال: "حطما القنوات".

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

الفصل الثامن



على الرغم من عمل كل رجل قوي البنية بالحجارة ومطارق الحديد، إلا أن الأمر استغرق ستة أيام لتحويل القنوات حول ينشوان إلى أنقاض. في البداية، نظر جنكيز إلى النمار بسعادة غامرة، وكان يأمل بأن تغمر أنهار الجبال المدينة. أزعجه ارتفاع المياه السريع في السهول، حتى أضحي محاربوه يغمسون فيها حتى الكاحل قبل أن ينتهوا من تدمير آخر القنوات. لقد نجم عن الحرارة الشديدة تلك الأيام ذوبان كميات كبيرة من الثلوج فوق قمم الجبال، ولم يكن قد فكر فعلاً أين سيذهب كل ذلك الماء طالما أنه لن يجري عبر القنوات نحو المدينة والحقول.

حتى الأرض المائلة قليلاً أصبحت مغطاة بالطين بحلول ظهيرة اليوم الثالث، وعلى الرغم من أن الحقول فاضت إلا أن مستوى المياه استمر بالارتفاع. استطاع جنكيز رؤية الارتباك بانياً على وجوه قادة جيشه عندما أدركوا الخطأ. في البداية، كان الصيد ممتازاً عندما أصبح بالإمكان رؤية حيوانات صغيرة تهرب من مياه الفيضان من بعيد. ثم اصطيد مئات الأرناب البرية وإحضارها إلى المعسكر في حزم جميلة من الفرو الرطب، لكن بعد ذلك، أصبحت الخيام عرضة للخطر. كان جنكيز مرعباً على نقل المعسكر أميلاً إلى الشمال قبل أن تغرق المياه السهل بأكمله.

بحلول المساء، كانت المياه قد وصلت إلى مستوى فوق نظام القنوات المحطم حيث كانت التربة لا تزال متماسكة. كانت مدينة ينشوان علامة داكنة تلوح من بعيد، وفي الوسط، كانت بحيرة جديدة قد انبثقت من العدم. لم يكن عمقها أكثر من قدم، لكنها عكست أشعة الشمس الغاربة ولمعت بلون ذهبي على بعد أميال.

كان جنكيز يجلس على الدرجات التي تؤدي إلى خيمته عندما جاء شقيقه خاسار، ووجهه خالٍ من أي تعبير. لم يكن أي أحد آخر يجروا على قول أي شيء للرجل الذي

يقودهم، لكن كانت هناك الكثير من الوجوه المتعبة في المعسكر تلك الأمسية. أحببت القبائل المرح وكان إغراق السهل بالمياه يناسب حس الدعابة لديها.
تابع خاسار نظرة شقيقه الغاضبة على امتداد المياه. تمت خاسار: "حسناً، لقد علمنا ذلك درساً قِتماً. هل ينبغي أن أجعل الحراس يترقبون سبّاحي العدو، الذين يتمثلون إلينا؟".

نظر جنكيز بغضب إلى شقيقه. كان كلاهما يستطيعان رؤية أطفال من القبائل يمرحون عند حافة المياه، بشرتهم سوداء من الطين اللزج، ويدفعون بعضهم إليها. كان جوشي وتشاغاتي في الوسط كالمعتاد، مسرورين بالميزة الجديدة لسهل كزي كزيا.

رد جنكيز مقطب الحاجبين: "ستغور المياه في الأرض".
هزّ خاسار كتفيه استخفافاً.

"إذا حولنا مسار المياه، نعم. أعتقد أن المسار سيكون مريحاً جداً للفرسان بعد ذلك. يخطر لي أن تحطيم القنوات ربما لم يكن أفضل خطة استطعنا التفكير بها".

استدار جنكيز ليشاهد شقيقه ينظر إليه بتعبير ساخر على وجهه، وأطلق ضحكة بينما كان يلهض على قدميه.

"لقد تعلمنا يا شقيقي. معظم ما يجري جديد بالنسبة إلينا. في المرة القادمة، لن نحطم القنوات. هل أنت راضٍ الآن؟".

رد خاسار مبتهجا: "أنا راضٍ. كنت قد بدأت أعتقد أن شقيقي لا يرتكب خطأ. لقد كان اليوم ممتعاً بالنسبة لي".

قال جنكيز: "أنا سعيد من أجلك". راقبا الغنيان اللذان شرعا في الشجار مجدداً على حافة المياه. رمى تشاغاتي بنفسه على شقيقه، وتعاركا معاً في المياه الطينية الضحلة، أحدهما فوق ثم الآخر.

قال جنكيز: "لا يمكن مهاجمتنا من الصحراء ولا يستطيع جيش الوصول إلينا هنا والبحيرة الجديدة في الطريق. لنفم مأدبة الليلة ونحتفل بانتصارنا".
أوما خاسار وهو يبتسم. "هذه فكرة رائعة يا شقيقي".

قبض راي تشيانغ على ذراعي كرسيه المطلي بالذهب، يحدّق إلى السهل الغارق بالمياه. كان في المدينة مخازن من اللحم المقدد والحبوب، لكن مع فساد المحاصيل الزراعية، لن يكون هناك المزيد. قلب المشكلة مراراً وتكراراً في ذهنه من دون أن

يعثر على بارقة أمل. على الرغم من أن أحداً لم يكن يعرف بذلك، إلا أن العديد في المدينة كانوا سيتضورون جوعاً حتى الموت. كان الجوع سيتغلب على حراسه الباقين عندما يحل الشتاء، وقد تنهار بنشوان من الداخل.

إلى أبعد مدى يمكن لبصره الوصول إليه، كانت المياه تمتد حتى الجبال. خلف المدينة إلى الجنوب، كانت لا تزال هناك حقول وبلدات لم يصلها الغزاة أو الفيضان، لكنها لم تكن كافية لإطعام شعب كزي كزيا. فكر في المليشيات في تلك الأماكن. إذا سحب كل رجل من تلك البلدات، سوف يستطيع تجميع جيش آخر، لكنه سيفقد الأكاليم لصالح قطاع الطرقات حالما تبدأ المجاعة. كان الأمر مثيراً للقلق، لكن لم يكن هناك حل آخر لمشاكله.

تلهث لنفسه، مما جعل وزيره الأول ينظر إليه.

قال راي تشيانغ بصوت عالٍ: "لطالما قال لي والدي أن أصل على إطعام الفلاحين. لم أفهم أهمية الأمر في ذلك الوقت. ماذا بهم إن تضور بعضهم جوعاً كل شتاء؟ ألا يدل ذلك على سخط الآلهة؟".

أوماً الوزير الأول بوقار. "من دون مثال المعاناة يا صاحب الجلالة، لن يعمل شعبنا. طالما أنهم يستطيعون رؤية نتائج الكسل، سيكبحون تحت الشمس لإطعام أنفسهم وعائلاتهم. إنها الطريقة التي رثيت بها الآلهة العالم، ولا يمكننا الوقوف ضد رغبتنا".

قال راي تشيانغ بحدّة، متعباً من نبرة صوت الرجل: "لكنهم جميعاً سيخثرون الجوع الآن. بدلاً من أن يكون ذلك مجرد مثال، أو درساً أخلاقياً، سيصرخ نصف شعبنا مطالباً بالطعام ويقاثلون بعضهم في الشوارع".

رد الوزير دونما اهتمام: "ربما يا صاحب الجلالة. سيموت الكثيرون، لكن المملكة ستبقى. ستمو المحاصيل مجدداً السنة القادمة، وستكون هناك وفرة لأفواه الفلاحين. سيصبح أولئك الذين يجنون من الشتاء بدينين ويقنسون اسمك".

لم يستطع راي تشيانغ العثور على كلمات مناسبة للجدال. نظر من برج قصره إلى الأزدحام في الشوارع. كان أدنى المسؤولين قد سمع أنباء ترك المحاصيل تغد في المياه من الجبال. لم يكونوا يشعرون بالجوع بعد، لكن لا بد أنهم كانوا يفكرون بشهور البرد، وكانت أحداث شغب قد وقعت آنذاك. كان حراسه قساة بتنفيذ أوامره، يقتلون المذات عند أدنى إشارة على حدوث قلق. كان الشعب قد اعتاد أن يخاف من الملك، وعلى الرغم من ذلك كان الملك في أفكاره الخاصة يخاف منهم أكثر.

سأل أخيراً: "هل يمكن إنقاذ أي شيء؟". ربما كان ذلك من بنات خياله، لكنه اعتقد بأنه يشم رائحة قوية لنباتات متعطشة في النسيم.

ألمع الوزير الأول التفكير، ينظر في سلسلة من الأحداث في المدينة كما لو أنه سيدد الإلهام هناك.

"إذا غادر الغزاة اليوم يا صاحب الجلالة، يمكننا من دون شك إنقاذ بعض كميات الحبوب القاسية. يمكننا زراعة الأرز في الحقول المغمورة بالمياه وحصاد محصول واحد. ينبغي إعادة بناء القنوات، أو يمكننا إعادة توجيه مجرى الماء حول السهل. ربما يمكن إنقاذ عشر المحصول."

تابع راي تشيانغ قائلاً: "لكن الغزاة لن يغادروا". ضرب بقبضته على ذراع الكرسي.

"لقد هزمونا. وصل رجال القبائل الكريهون المليثون بالقمل إلى قلب كزي كزي، وأنا قابع هنا أتبع ما يجري وأشم رائحة الفصح المتعفن الكريهة."

أحس الوزير الأول رأسه من التفرع، خائفاً أن يتكلم. كان قد تم إعدام اثنين من زملائه في صبيحة ذلك اليوم عندما أصبح مزاج الملك حاداً. لم يكن يرغب بالانضمام إليهما.

نهض الملك، وشبك يديه خلف ظهره. "لم يبق لي خيارات. إذا جرئت بلدات الجنوب من المليشيا، قلن يعانولوا بعددهم عدد الذين سقطوا في المعركة السابقة. كم سيطول الأمر قبل أن تصبح تلك البلدات معازل قوية لقطاع الطرق من دون وجود جنود الملك للحفاظ على السلم فيها؟ سأخسر الجنوب إضافة إلى الشمال، ثم ستسقط المدينة". أطلق لعنة بصوت خافت، فشحب وجه الوزير.

"لن أجلس وانتظر أن يثور الفلاحون، أو أن تملأ رائحة العفن الكريهة هذه كل غرفة في المدينة. أرسل مبعوثين إلى قائد ذلك الشعب. قل له إنني أريد الاجتماع به حتى نناقش مطالبه من شعبي."

قال الوزير بصوت متقطع: "يا صاحب الجلالة، إنهم ليسوا أفضل من كلاب همجية. لا يمكننا التفاوض معهم."

أدار راي تشيانغ عينيه الغاضبتين نحو وزيره.

"ابعث بهؤلاء المبعوثين. لم أستطع تدمير جيش الكلاب الهمجية هذا. كل ما لدي هو حقيقة أنه لم يستطع الاستيلاء على مدينتي مني. ربما يمكنني رشوته حتى يغادر."

احمر وجه الوزير خوفاً من عار المهمة، لكنه اتحنى حتى الأرض، ووضع رأسه على الخشب البارد.

عندما حل المساء، كانت القبائل ثمة وتغني. كان الزواة مشغولين بحكايات المعركة وكيف استطاع جنكيز سحب العدو إلى خارج منطقة الأوتاد الحديدية. جعلت قصائد هزلية الأطفال يقهقهون، وقبل أن يختفي الضوء، كانت هناك العديد من مسابقات المصارعة ورمي السهام، وكان الأبطال يضعون أكاليل من العشب على رؤوسهم حتى يفتقروا وعيهم أيضاً من فرط تناول الشراب.

أشرف جنكيز وقادة جيشه على الاحتفال. بارك جنكيز اثني عشر زوجاً جديداً، ومنح أسلحة وجياداً من قطيعه الخاص لمحاربين كانوا قد تميزوا. كانت الخيام مليئة بالنساء اللواتي تم أسرهن من البلدات، على الرغم من أن بعض الزوجات لم يرحبن بالوافدات الجدد. كان أكثر من شجار بين النساء قد انتهى بإزالة النساء، وكانت الغلبة كل مرة للنساء المغوليات القويات ضد سبايا أزواجهن. قبل أن يحل الظلام، تم استدعاء كشيون إلى ثلاثة مواقع شهدت حالات قتل بعد أن ثار الغضب نتيجة الشراب الأسود في عروق المحاربين. كان قد أمر بتقييد رجلين وامرأة إلى عمود وضربهم حتى تسيل الدماء منهم. لم يكن يهتم بشأن أولئك الذين لقوا حتفهم، لكنه لم يكن يرغب برؤية القبائل تنغمس في عريضة شهوة وعنف. ربما بسبب يده الحديدية، بقي مزاج القبائل معتدلاً بينما كانت النجوم تبرز؛ وعلى الرغم من أن بعضهم افقد لسهول الوطن، إلا أنهم كانوا ينظرون إلى قادتهم بفخر.

كان إلى جانب الخيمة التي يلتقي فيها جنكيز قادة جيشه بيت عائلته، ولم يكن أكبر أو أكثر زخرفة من أي خيمة أخرى تنصبها عائلات الأمة الجديدة. بينما كان يهتف لطلبات المصارعة، تمت إضاءة المشاعل حول المعسكر الكبير، وجلست زوجته بورت مع أبنائه الأربعة، تغني لهم بصوت رقيق بينما يتناولون الطعام. مع حلول الغسق، أضجى العثور على جوشي وتشاغاتاي صعباً، وكانا يفضلان الضوضاء والمرح على الطعام والنوم. كانت بورت مرغمة على إرسال ثلاثة محاربين ليحيطوا بالخيام بحثاً عنهما، وتم إعانتها وهما لا يزالان يتعاركان. جلس كلا الصبيين بحثان ببعضهما في الخيمة الصغيرة بينما كانت بورت تغني لأوجيدي وتولي الصغير ليناما. كان النهار مرهقاً بالنسبة لهما ولم يمض وقت طويل حتى استغرق الابنان الصغيران بأحلامهما في بطائنتهما.

استدارت بورت إلى جوشي، وتطلب حاجبها من الغضب في وجهه. قالت له: "لم تأكل أيها الشاب". تألف من دون أن يرد، وانحفت بورت للاقترب منه. سألته: "لا

يمكن أن يكون الشراب الأسود هو ما أشم في أنفاسك؟. تغير مزاج جوشي بلحظة واحدة، ورفع ركبتيه مثل حاجز.

قال تشاغاتي، سعيداً لرؤية شقيقه يرتبك: "لا بد أنه كذلك. أعطاه بعض الرجال شراباً وتقياً على الأعشاب".

صرخ جوشي، وهو يقفز من مكانه: "أعلق فمك!". أمسكت به بورت من ذراعه، وكانت قوتها تضاهي بسهولة قوة الفتى الصغير. ابتسم تشاغاتي راضياً عما يراه.

قال جوشي بحدة وهو يكافح للتخلص من قبضة أمه: "إنه مزعج لأنه كسر قومه المفضل هذا الصباح. دعيني!".

صفت بورت جوشي على وجهه رداً على ذلك، وأتقت به على البطانيات. لم تكن صفة قاسية، لكنه رفع يده إلى خده مصدوماً.

قالت بغضب: "لقد سمعت عن مشاجراتك طيلة النهار. متى ستترك أنه لا يمكنك القتل مثل الجراء فيما القبائل تراقبك؟ ليس أنت. هل تعتقد أن ذلك يسعد والدك؟ إذا قلت له، سوف...".

قال جوشي بسرعة، والخوف ياد على وجهه: "لا تقولي له". رقت بورت مباشرة. "لن أفعل، إذا أحسنت التصرف. لن ترثا منه شيئاً لأنكما ببساطة ابناء. هل أرسلان من لحمه ودمه؟ إذا كنتما تصلحان للقيادة، سيختاركما، لكن لا تتوقعا منه تفصيلكما على رجال أفضل منكما".

كان كلا الصبيين بصغيان باهتمام، وأتركت أنها لم تكن قد تكلمت معهما بذلك الطريقة من قبل. فاجأهما كيف أنهما تشبها بكل كلمة وأمعنت التفكير في ما يمكن أن تقوله أيضاً قبل أن يشرده ذهناهما.

قالت: "تناولا طعامكما فيما تستمعان". لسعادتها، تناول كلا الصبيين طبق اللحم وباشرا التهامه، على الرغم من أنهما كانا باردن منذ وقت طويل. لم تفارق عيونهما ناظري أمهما بينما كانا ينتظرانها لتتابع ما تقول.

تمسكت: "كنت أعتقد أن والدكما ربما يكون قد شرح هذا لكما. لو أنه خان قبيلة صغيرة، ربما كان متوقفاً أن يرث البكر سيفه، جواده، وأتباعه. توقع هو في ما مضى الشيء نفسه من جذكما ياسوجي، على الرغم من أن شقيقه بكثر كان أكبر منه".

سأل جوشي: "ماذا حدث لبيكتر؟".

قال تشاغاتي بمتعة: "قتله والذي وكشيون".

فزعت بورت فيما اتسعت عينها جوشي دهشة.
"حقاً؟"

تلهت والدته.

تلك قصة مختلفة. لا أعرف أين سمعها تشاغاتي، لكن ينبغي أن يعرف ما هو
الفضل من الاستماع إلى الإشاعات التي يقال حول ليران المخيم.

أوما تشاغاتي بسرعة إلى جوشي خلف ظهرها، وابتنس من النزاع شقيقه. ألقت
عليه بورت نظرة غاضبة، وأسكت به قيل أن يمالك نفسه.

قالت: "والدك ليس خائفاً صغيراً من التلال. لديه قبائل أكثر مما يمكن عذو على
السدين. هل تتوقع منه تسليمها إلى شخص ضعيف؟". استدارت إلى تشاغاتي: "أو إلى
أحمق؟". هزت رأسها. "إن يفعل ذلك. لديه أشقاء أصغر منه وسينجبون جميعاً أولاداً.
ربما يكون الخان القادم منهم، إن لم يكن والدكما راضياً عنكما عندما تصبحان
رجلين".

أخفض جوشي رأسه بينما كان يمعن التفكير في الأمر.

تمتم: "أنا أفضل باستعمال القوس من أي شخص آخر. وفرنسي بطيء فقط لأنه
صغير جداً. عندما أحصل على مطية لرجل، سأكون أسرع".
تأفف تشاغاتي.

قالت بورت غاضبة: "لا تكلم عن المهارات الحربية. ستكونان محاربتين رائعتين،
فقد رأيت ذلك فيكما". قبل أن يستطعيا الزهو بالمديح النادر، تابعت قائلة: "سينظر
والدكما ليرى إن كنتما تستطيعان قيادة الرجال والتفكير بسرعة. هل رأيتما الطريقة
التي جعل بها تسوبودي يقود منة رجل؟ الفتى غير معروف، وليست لديه صلة دم
مهمة، لكن والدكم يحترم ذكاه ومهارته. سيتم اختبارك، لكن ربما يصبح قائداً عندما
تكتمل رجولته. يمكنه قيادة ألف، وحتى عشرة آلاف محارب في الحرب. هل ستفعلان
الشيء نفسه؟".

قال تشاغاتي مباشرة: "لم لا؟".

استدارت بورت إليه.

"عندما تلعبان مع أصدقائكما، هل أنتما من يتطلع إليهما الآخرون؟ هل تلعبان
أفكارهم أم يتبعون أفكاركما؟ فكراً جيداً الآن، لأن الكثيرين سيتوددون إليكما بسبب
والدكما. فكراً في أولئك الذين يحترمونكما. هل يصغون إليكما؟".

عص تشاغاتي شفته بينما كان يفكر. هز كتفيه استخفافاً. "بعضهم. إنهم
أولاد".

قالت وهي تضغط عليه: لماذا سيتبعونك بينما تقضي أيامك في الشجار مع شقيقك؟

بدأ الفتى الصغير ممتمصاً بينما كان يكافح مع أفكار كبيرة للغاية بالنسبة إليه. رفع ذقنه بتحدٍ. لن يتبعوا جوشي. يعتقد أنه ينبغي بهم ذلك، لكنهم لن يتبعوه أبداً.

شعرت بورت ببرودة تسري في صدرها لدى سماعها تلك الكلمات.

قالت بلطف: "حقاً يا بني؟ لماذا لن يتبعوا شقيقك الأكبر؟"

أدار تشاغاتاي رأسه بعيداً، ومدت بورت يدها، وأمسكت به بشكل مؤلم من ذراعه. لم يصرخ، على الرغم من أن الدموع ظهرت في زاويتي عينيه. سألت بورت بصوت متهدج: "هل هناك أسرار بيننا يا تشاغاتاي؟ لماذا لن يتبعوا جوشي أبداً؟"

صرخ تشاغاتاي: "لأنه وعد تتاري". هذه المرة، لم تكن الصفعة التي وجهتها بورت لابنها لطيفة، فقد أدارت رأسه إلى الجانب الآخر، واستلقى على السرير، مصاباً بنوار. سال الدم من أنفه، وبدأ ينتحب مصدوماً.

تكلم جوشي بهدوء خلفها وقال: "إنه يقول لهم ذلك طيلة الوقت". كان صوته كثيباً ويمتلئ غضباً وبأساً، ووجدت بورت دموعاً في عينيها من الألم الذي كان يعانيه. كان بكاء تشاغاتاي قد لفظ ولديها الصغيرين وبدأ النحيب أيضاً، متأثرين بالمشهد في الخيمة من دون أن يفهماء.

مدت بورت يدها إلى جوشي واحتضنته بذراعيها. تمتمت في شعره: "لا يمكنك أن تمنى عودة الكلمات إلى فم شقيقك الأحمر". تراجعت إلى الخلف بعد ذلك لتتظر في عيني جوشي، تريد منه أن يفهم. "يمكن لبعض الكلمات أن تشكل عبئاً ثقيلاً على الرجل، إلا إن تعلم تجاهلها. سيكون عليك أن تكون أفضل من الجميع لتفوز باستحسان والدك. تعرف ذلك الآن؟"

همس، وهو يشيح ببصره بعيداً: "هل هذا صحيح إذاً؟". شعر بأن ظهرها قد تيبس فيما كانت تفكر بالإجابة، وبدأ ينشج بهدوء لنفسه.

لقد بُذرت في أحشائي في سهل في الشتاء، بعيداً مئات الأميال عن القطار. صحيح أنني ضعت عنه لبعض الوقت وأنه... قتل الرجال الذين أخونوني، لكنك ابنه وابلي. ولده البكر؟"

قال: "عيناى مختلفتان؟"

تألفت بورت.

"كذلك كانت عينا بكتر عندما كان بالغا. كان ابن ياسوجي، لكن عيناه كانتا داكنتين كعينيك. لم يجرؤ أحد أبداً على التشكيك بنسبه. لا تفكر بذلك يا جوشي. أنت حفيد ياسوجي وابن جنكيز. ستكون خائناً يوماً ما".

بينما كان تشاغاتاي يتلفس بصوت مسموع ويمسح الدم بيده، كثر جوشي وانحنى إلى الخلف لينظر إلى أمه. بشكل ظاهر، استجمع شجاعته، وسحب نفساً عميقاً قبل أن يتكلم. تهذج صوته، وجعله يشعر بالخزي أمام أشقائه.

قال: قتل شقيقه، وقد رأيت الطريقة التي ينظر بها إلي. هل يحبني على الإطلاق؟

ضمت بورت الفتى الصغير إلى صدرها، وفؤادها محطم عليه.

"بالطبع يحبك. ستجعله يراك كوريث له، يا بني. سيكون فخراً بك".

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل التاسع



استغرق تحويل مسار القوات بالتراب والحجارة من خمسة آلاف محارب وقتاً أطول حتى من تحطيمها. كان جنكيز قد أصدر الأمر عندما شاهد أن مستويات الغمر تهدد حتى أرض المعسكر الجديد المرتفعة. عندما تم إنجاز العمل، شكلت المياه بحيرات جديدة إلى الشرق والغرب، لكن الطريق إلى بنشوان كان يجف تحت الشمس أخيراً. كانت الأرض مليئة بنباتات سوداء لزجة وأسراب من الذباب الذي كان يزعج القبائل. غاصت جيادهم إلى ركبتها في الطين اللزج، مما صعب من مهمة المستطلعين وزاد من شعور العزلة في الخيام. كانت هناك نقاشات وشجارات عديدة بين القبائل كل مساء، وكان كثيرون يتدخل بقسوة للحفاظ على السلم.

كانت الأنبياء التي ينقلها ثمانية فرسان عبر السهل المشبع بالمياه موضع ترحيب كل أولئك الذين تبعوا من عدم قيامهم بأي نشاط. لم يكونوا قد عبروا الصحراء للسبب في مكان واحد. حتى الأطفال كانوا قد فقدوا الاهتمام بمياه القيشان، وأصيب العديد منهم بأسراض من شرب المياه الأسنة. شاهد جنكيز فرسان كزي كزيا يكافحون عبر الطين. كان قد حشد خمسة آلاف من محاربيه لمقابلتهم على أرض جافة، ووضعهم على حافة الطين مباشرة حتى لا يكون لجنود العدو مكان يرتاحون فيه. كانت جياد كزي كزيا تلهث آنذاك من جهد سحب كل قائمة من التربة الطينية وكان الفرسان يعانون الأمرين للحفاظ على وقارهم لأنهم كانوا معرضين لخطر السقوط.

لسمعة جنكيز البالغة، وقع أحدهم فعلاً عن السرج عندما ترنخت مطيته نتيجة تعثرها بحفرة. صرخت القبائل ساخرة بينما كان الرجل يشد بقوة على لجامه ويمتطي جواده، مغطى بالطين. نظر جنكيز إلى بارشوك إلى جانبه، ولاحظ تعبير الرضا على وجه الرجل. كان هناك كمترجم، لكن كوكشو وتيموج وقفا معهما أيضاً لسماع ما سيقوله مبعوث الملك. كان كلا الرجلين قد اهتمتا بدراسة لغة تشن وهو ما اعتبره

جنكيز مستعة غير لائقة. كان واضحاً أن الكاهن العراف وشقيق جنكيز الصغير يشعران بالإثارة من فرصة اختبار معرفتهما المحدثنة.

توقف الفرسان عندما رفع جنكيز راحة يده مبسوطه. كانوا قد اقتربوا بما يكفي بالنسبة له لسماع كلماتهم، بيد أنهم بدؤوا غير مسلحين، إلا أنه لم يكن رجلاً يثق بالآخرين. لو أنه مكان ملك كزي كزيا، لكان سيفكر بتنفيذ محاولة لاغتياله بالتأكيد في ذلك الوقت. خلفه، كانت القبائل ترافق بصمت، وأفواش أفرادها جاهزة في أيديهم.

صرخ بهم جنكيز: "هل أنتم ضائعون؟". راقب فيما كانوا ينظرون إلى أحدهم، وكان جندياً يرتدي درعاً رائعاً يمتد ليتصل بخوذة من قطع الحديد. أولاً جنكيز لنفسه، وكان يعرف أن الرجل سيترك نيابة عنهم جميعاً. لم يكن قد خاب أمله.

رد الجندي: "أحمل رسالة من ملك كزي كزيا". لخيبة أمل تيموج وكوكشو، كانت الكلمات واضحة تماماً بلغة القبائل.

نظر جنكيز متسائلاً إلى بارشوك وتكلم خان اليوغر متمسكاً، بالكاد يحرك شفثيه. لقد رأيته من قبل، في أيام التجارة. إنه ضابط من منزلة متوسطة، ومغرور جداً.

رد جنكيز قبل أن يرفع صوته لمخاطبة الجنود: "يبدو كذلك بهذا الدرع الرائع".

صرخ جنكيز: "ترجلوا إذا أردتم للتكلم معي". تبادل الفرسان النظرات، وأخفى جنكيز مساعده فيما كانوا يترجلون إلى الطين السميك. أصبحوا تقريباً غير قادرين على الحركة من لزوجة الطين، وزادت تعبيرات وجههم من حيويته.

تابع جنكيز قائلاً وهو يحنق إلى الضابط: "ماذا لدى ملككم ليقوله؟". كان الرجل قد احمر وجهه غضباً لأن الطين أفسد حذاءه الرائع واستغرق منه الأمر لحظة ليسيّطر على مشاعره قبل أن يجيب.

"يطلب منك لقاءه في ظل أسوار بنشوان، في هدية. سيضمن لك بشرقه ألا تتعرض لهجوم في أثناء وجودك هناك".

قال جنكيز مجدداً، كما لو أنه لم يسمع الرد: "ماذا لديه ليقوله لي؟".

ازداد غضب الرجل. وقال بحدّة: "لو كنت أعرف ما في ذهنه، لما كانت هناك فائدة كبيرة من مثل ذلك اللقاء". نظر أولئك الذين كانوا معه بقلق على حشد المحاربين المغلول الذين ينتظرون مع أفواصهم. كانوا قد رأوا الدقة الاستثنائية لتلك الأسلحة، والتست عيونهم من متحدثهم عدم توجيه أي إهانة ربما تقود إلى تعرضهم لهجوم.

ابتسم جنكيز. "ما اسمك أيها الرجل الغاضب؟".

"هو سا، أنا هسيلاوي من بنشوان. يمكن أن تتدبني بالخان، أو ربما بالضابط".

رد جنكيز: "إن أدعوك خائفاً، لكن أهدأ بك في معسكري يا هو سا. أعد هؤلاء الماعز إلى البيت، وسأرحب بك في خيمتي، وأقدم لك الشاي والملح".

استدار هو سا إلى رفاقه، وأمال رأسه إلى الخلف نحو المدينة البعيدة. أطلق أحدهم مجموعة من المقاطع الصوتية الغريبة التي جعلت كوكشو وتيموج ينحنيان إلى الأمام لسماعها. هز هو سا كتفيه استخفافاً لمراقبه، وراقب جنكيز بينما كان السبعة الآخرون يمشون جيادهم ويستديرون عاتدين إلى المدينة.

قال بارشوك من خلف كتفه: "تلك جياذ جميلة". نظر جنكيز إلى خان اليوغر. أوما برأسه، وشاهد أرسلان حيث كان يقف أمام صف من المحاربين. أشار جنكيز بإصبعين على المجموعة المنسحبة، مثل أفعى تهاجم فريسة.

بعد لحظة، طار مئة سهم في الهواء أوقع الفرسان السبعة عن سروجهم. قُتل أحد الجياذ، وسمع جنكيز أرسلان يصرخ على محارب غير محظوظ لعدم كفايته. بينما كان جنكيز يراقب، أخذ أرسلان قوس الرجل وقطع الوتر بضربة من خنجره قبل أن يعيده إليه. أخذ المحارب القوس، وقد طأطأ رأسه إزدلالاً.

استلقت الجثث من دون حراك في السهل، وجوهها إلى الأسفل في الطين. على مثل تلك الأرض، لم تكن الجياذ تستطيع الانطلاق بسهولة. من دون فرسانها لحثها على متابعة الطريق، وقفت الجياذ ساكنة تنتظر إلى الخلف إلى القبائل. هكذا اثنان منها ألفيهما بجنتي الرجلين اللذين كانا يعرفانهما، وفزعا من راحة الدم.

حذق هو سا بغضب مكبوت بينما استدار جنكيز لمواجهته.

قال جنكيز: "إنها جياذ جيدة". لم يتغير تعبير وجه الجندي، وهز الخان كتفيه من دون اكتراث. "الكلمات ليست ثقيلة. لا يتطلب الأمر أكثر من واحد منكم لنقل ردي".

ترك هو سا ليتم اصطحابه إلى الخيمة الكبيرة وتقديم الشاي اللاذع الطعم له.

بقي جنكيز في المكان لرؤية الجياذ بعد أن تم الإمساك بها وإعادتها.

قال ليارشوك: "سيكون لي الخيار الأول". أوما خان اليوغر برأسه، ورفع عينيه للحظة. الخيار الأول سيمنح جنكيز أفضلها، لكنها كانت جياذاً جيدة وتستحق اقتناءها.



على الرغم من أن الفصل كان في آخره، إلا أن الشمس كانت حارة في وادي كزي كزيا والتربة قد تحولت إلى قشرة رقيقة في الوقت الذي تحرك فيه جنكيز نحو المدينة. كان الملك قد طلب ألا يحضر معه سوى ثلاثة مراقبين، لكن خمسة آلاف آخرين ساروا معه الأميال القليلة الأولى. في الوقت الذي اقترب فيه بما يكفي لتمييز

تفاصيل السراق المقام أمام المدينة، كان فضول جنكيز قد أصبح كبيراً. ما الذي قد يطلبه الملك منه؟

ترك مرافقيه في الخلف متردداً قليلاً، على الرغم من أنه كان يعرف أن خاسار سيهب لنجدته إذا أشار بيده. كان قد أمعن التفكير في خيارات شن هجوم مفاجئ على الملك في أثناء حديثهما، لكن رأي تشيانغ لم يكن أحق. كان قد تم إقامة المظلة الوردية قريباً جداً من أسوار المدينة. كانت هناك أقواس ضخمة مزودة بسهام لها نصال حديدية بطول رجل ويمكنها تدمير المظلة في لحظات وضمان عدم نجا جنكيز. كان الملك أقل حصانة خارج الأسوار، لكن التوازن كان معقداً.

جلس جنكيز مستقيماً على السرج بينما كان يقود جواده إلى الأمام مع أرسلان، كشيون وبارشوك البوغر. كانوا مسلحين جيداً ويحملون خناجر إضافية مخفية في دروعهم تحسباً من إصرار الملك على تجريدهم من سيوفهم.

حاول جنكيز التخفيف من تهمته بينما كان يدق في كل تفاصيل المظلة الوردية. أحب اللون، وتساءل أين يمكن أن يجد حريراً بذلك العرض والتنوعة. صك أسنانه معاً عندما فكر في المدينة المنيع التي يراها. لو أنه وجد طريقة للدخول إليها، لما كان قد جاء للقاء ملك كزي كزيا. أزعجته فكرة أن كل مدينة في أراضي تشن، كما يقال، كانت محصنة جيداً ولم يكن قد اكتشف بعد طريقة لاختراق دفاعاتها.

لم يتكلم الفرسان الأربعة عندما عبروا إلى الظل الوردى البارد وترجلوا. أخفتهم المظلة عن عيون رماة السهام على الجدران، ووجد جنكيز نفسه يسترخي، ويقف بصمت متجهماً أمام حراس الملك.

فكر وهو يحرق إليهم أنه تم اختيارهم من دون شك ليشيروا الإعجاب. كان أحدهم قد فكر بصعوبات اللقاء. كان المدخل إلى السراق عريضاً واستطاع أن يلاحظ عدم وجود قتلة ينتظرون للقبض عليه حالما يدخل. كان الحراس أقوياء البنية، ولم ينظروا إلى الرجل الذي يقف أمامهم. بدلاً من ذلك، حنكوا مثل تماثيل نصف المحاربين الذين يمتلكون جيادهم وكان جنكيز قد أبقاهم على مسافة بعيدة.

على الرغم من وجود الكراسي في الداخل، إلا أن السراق لم يكن يضم بين جنباته سوى رجل واحد ولوماً له جنكيز.

"أين ملكك يا هو سا؟ هل الوقت مبكر جداً في الصباح بالنسبة له؟"

"سيأتي يا مولاي الخان. الملك لا يأتي أولاً."

رفع جنكيز حاجبه بينما كان يفكر بالإهانة التي تلقاها.

"ربما ينبغي أن أعادر. لم أطلب منه المجيء إلي، بالمحصلة."

احمر وجه هو سا وابشم جنكيز. كان الرجل سريع الغضب، لكن جنكيز كان قد اكتشف أنه يحبه، لاعترازه الشديد بنفسه. قبل أن يرد، صندحت الأبواق على أسوار المدينة، ومدّ المغول الأربعة أيديهم إلى سيوفهم. رفع هو سا يده.

"الملك يضمن السلامة يا مولاي الخان. الأبواق لتعرفوا أنه يغادر المدينة".

قال جنكيز لأرسلان: "أخرج وراقبه يأتي. أخبرني عن عدد الرجال معه. بذل جهداً لجعل عضلاته التي تشنجت تسترخي. كان قد قابل زعماء قبائل من قبل وقتل بعضهم في خيامهم. لم يكن هناك جنيد في ذلك، كما قال لنفسه، لكن على الرغم من ذلك كان هناك شيء من الرهبة داخله، مشابهاً لما كانت عليه حال هو سا. ابشم جنكيز من سفقه، مدركاً أنه جزء من كونه بعيداً عن البيت. كان كل شيء جديداً ومختلفاً عن السهول التي يتذكرها، لكنه لم يكن قد اختار مكاناً آخر يقف عليه ذلك الصباح.

عاد أرسلان مسرعاً.

"إنه قائم بمحفة يحملها عبيد. يبدو مثل تلك التي كان وين تشاو يستعملها".

رد جنكيز متجهماً: "كم عدد العبيد؟". سيفوقونهم عدداً وظهر غضبه على وجهه.

رد هو سا قبل أرسلان. "إنهم مخصيون يا مولاي. ثمانية رجال أقوىاء، لكنهم

ليسوا محاربين. إنهم ليسوا أكثر من حمالين ومملووع عليهم حمل السلاح".

فكر جنكيز في الأمر. إذا غادر قبل أن يصل الملك، سيعتقد أولئك الموجودون في المدينة أنه قد فقد أعصابه. ربما سيعتقد محاربوه الشيء نفسه، لهذا تمالك نفسه. كان هو سا يضع سيفاً طويلاً في حزامه وكان الحارسان مسلحين جيداً. وازن المخاطر ثم صرف ذهنه عنها. أحياناً، قد يقلق الرجل كثيراً بشأن ما سيحدث. ضحك بصوت خافت، وطرفت عيناه هو سا من المفاجأة، ثم جلس ينتظر الملك.

حمل العبيد حمولتهم الثمينة عند مستوى الخصر بينما كانوا يقتربون من سُرّاق الحرير. من الداخل، راقب جنكيز ومرافقوه الثلاثة باهتمام بينما كان العبيد يضعون المحفة على الأرض. وقف ستة منهم صامتين، فيما وضع اثنان قطعة من الحرير الأسود على الطين. لدهشة جنكيز، سحب العبيد مزامير خشبية من أحزمة على صدورهم، وبدأوا يعزفون لحناً خافتاً بينما كان يتم فتح الستائر. كان سماع الموسيقى في التيسيم يبعث على الطمانينة بشكل غريب، ووجد جنكيز نفسه مفتوناً عندما خرج راي تشيانغ.

كان الملك رجلاً قوي البنية، ويرتدي درعاً يناسب جسده تماماً. كانت قطع الحديد مصقولة تماماً ولمعت في الشمس. على ردفه، كان يضع سيفاً بقبضة مزينة

بالمجوهرات وسامل جنكيز إن كان قد شهره بنوبة غضب من قبل. ارتفعت الموسيقى عند ظهوره، واكتشف جنكيز أنه يستمتع بالعرض.

أوما ملك كزي كزبا إلى حارسين، وابتعدا عن السراق، ليأخذا موقعين إلى جانبه. عندها فقط مشى الخطوات القليلة إلى السراق، نهض جنكيز ومرافقوه لتحيته.

قال راي تشيانغ مع إمالة رأسه: "مولاي الخان". كانت لهجته غريبة، وقال الكلمات كما لو أنه يحفظها من دون فهم.

رد جنكيز: "صاحب الجلالة". استعمل كلمة كزي كزبا التي كان بارشوك قد علمه إياها. لسعنته، رأى وميض اهتمام يظهر في عيني الملك. للحظة قصيرة، تمنى جنكيز لو أن والده كان حياً ليراه يلتقي ملكاً في أرض غريبة.

اتخذ الحارسان موقعين في مواجهة كشيون وأرسلان، وكان واضحاً أنهما يحددان الرجلين اللذين سيشتبكان معهما في حال وقوع مشكلة. من جانبهما، حذق إليهما القائدان دونما اكتراث. كانا مجرد شاهدين على اللقاء، لكن لم يكن أي من الرجلين ليؤخذ على حين غرة. إن كان الملك قد خطط لموتهم، فلن ينجو من ذلك.

تقطب حاجباً أرسلان من الفكرة المفاجئة. لم يكن أحدهم قد شاهد الملك من قبل. إن كان هذا الشخص محتالاً، يمكن لجيش ينشوان أن يسحق السراق من الجدران ولا يضر سوى بعض الرجال الأوفياء. حنق إلى هو سا ليرى إن كان متوتراً بشكل غير اعتيادي، لكن لم تظهر على الرجل أي علامة على توقع موت وشيك.

بدأ راي تشيانغ الكلام بلغة شعبه. كان صوته حازماً، كما يتوقع من شخص اعتاد على السلطة. قابل نظرة جنكيز بوحدة مماثلة ولم يبدُ أن أي من الرجلين ستطرف عينه. عندما أنهى الملك الكلام، تلمح هو سا، وكان وجهه خالياً من أي تعبير بينما كان يترجم كلمات الملك.

لماذا أتلّف اليوغر أرض كزي كزبا؟ ألم نتعامل معكم بإنصاف؟
أصدر بارشوك صوتاً من حنجرته، لكن نظرة الملك لم تترك جنكيز أبداً.
رد جنكيز: أنا خان كل القبائل يا صاحب الجلالة. قبيلة اليوغر بيننا. نقاتل لأننا نستمتع بالقوة لنحكم. ماذا غير ذلك؟

تقطب حاجباً الملك بينما كان يستمع إلى ترجمة هو سا. كان رده متزاناً ولم يحمل أي إشارة على غضبه.

"هل سمكت خارج مدينتي حتى نهاية العالم؟ هذا غير مقبول يا مولاي الخان. ألا يفاوض شعبك في الحرب؟"

اتحنى جنكيز إلى الأمام وقد ازداد اهتمامه. كن أفافوض إمبراطورية تشن يا صاحب الجلالة. شعبك عدو لنا منذ نشأت الأرض، وسأشهد تحويل مدنكم إلى غبار. أرضكم لي، وسأسير فيها طويلاً وعرضاً كيفما أشاء.

انتظر جنكيز بصبر بينما كان هو سا يترجم الكلمات لملكه. كان كل الرجال في الخيمة يرون الانطباع المفاجئ الذي ارسم على محيا راي تشيانغ عندما سمعها. جلس منتصباً وأصبح كلامه موجزاً. وقد ظهر التوتر على وجه جنكيز، وتاهب بانتظار أن يتكلم هو سا. بدلاً من ذلك، كان بارشوك من تولى الترجمة.

قال بارشوك: 'يقول إن شعبه ليس من عرق تشن. إذا كانوا أعداءك، لماذا تتأخر هنا في وادي كزي كزيا؟ تقع مدن تشن العظيمة إلى الشمال والشرق.' أوما بارشوك نفسه عندما تكلم الملك مجدداً.

'أعتقد أنهم لم يعودوا أصدقاء كما كانوا من قبل، يا مولاي الخان. لن يشعر الملك بالانزعاج إذا قتت بشن حرب على مدن تشن.'

زم جنكيز شفته مستغرقاً في أفكاره.

قال: 'لماذا سأترك عدواً خلف ظهري؟'

تكلم راي تشيانغ مجدداً حالما فهم ما سمع. كان هو سا قد أصيب بالشحوب بينما كان يسمع، لكنه تكلم قبل أن يستطيع بارشوك ذلك.

'اترك حليفاً يا مولاي الخان. إذا كان عدوك الحقيقي هو تشن، سنرسل جزية لقبائلك طالما كنا مرتبطين معاً كأصدقاء.' ابتلع هو سا ريقه بعصبية. 'يعرض ملكي حريراً، وصقوراً، وحجارة ثمينة، وإمدادات، ودروعاً. سحب نفساً عميقاً. 'جمالاً، وجياداً، وملابس، وشايًا، وألف قطعة نقدية من البرونز والفضة يتم دفعها كل سنة. إنه يقدم العرض إلى حليف لن يعتبره عدواً.'

تكلم راي تشيانغ مجدداً، بنفاد صبر، وأصغى هو سا السمع. تسمر في مكانه تماماً بينما كان ملكه يتكلم وجرو على طرح سؤال. أشار راي تشيانغ بيده، وأحنى هو سا رأسه، منزعاً بشكل واضح.

'إضافة إلى ذلك، يعرض ملكي عليك تزويجك بابنته تشاكاهي.'

طرقت عينا جنكيز، بفكر في الأمر. تسائل إن كانت الغداة قبيحة للغاية حتى لم يتزوجها أحد من شعب كزي كزيا. كانت الهبة ستسعد القبائل وتبعد زعماء القبائل الصغيرة عن حياكة المكائد. لم تكن فكرة الجزية جديدة على القبائل، على الرغم من أنهم لم يكونوا من قبل في موقع للمطالبة بها من عدو ثري حقاً. كان بفضل رؤية حجارة المدينة تلك، لكن لم يستطع أحد من رجاله اقتراح خطة ربما تكون ناجعة. هز

جنكيز كتيه دونما اهتمام. إذا اكتشف يوماً طريقة للقيام بذلك، يمكن أن يعود. حتى ذلك الوقت، سيتركهم يعتقدون أنهم قد اشتروا السلام. يمكن حلب المعزاة عدة مرات، لكن لا يمكن قتلها سوى مرة واحدة فقط. كان كل ما تبقى هو التوصل إلى أفضل صفقة يستطيع إبرامها.

قال ساخرًا: "قل لسيدك إن كرمه مقبول لدينا. إذا استطاع إضافة ألفين من أفضل جنوده، مسلحين جيدًا مع جيادهم، سأترك الوادي قبل حلول الظهيرة. سيقوم رجالي بتفكيك الحصن القائم على ممر الصحراء. لا يحتاج الحلفاء إلى أسوار بينهم".

بدأ هو سا بترجم، وتذكر جنكيز اهتمام بارشوك بمكتبات كزي كزيا. توقف هو سا لسمع عندما تكلم جنكيز مجددًا، مقاطعًا تنفق كلماته.

قال جنكيز: "بعض رجالي علماء. سيستمعون بالحصول على فرصة قراءة رقايع كتابات كزي كزيا". بينما كان هو سا يفتح فمه، تابع جنكيز قائلًا: "لكن ليس الفلسفة. أشياء عملية، وموضوعات تهم المحارب، إذا كانت لديكم".

لم يكن ممكنًا تفسير تعبير وجه راي تشيانغ بينما كان هو سا يكافح لتكرار كل ما سمعه. بدا أن اللقاء على وشك الانتهاء، ولم يقدم راي تشيانغ عرضاً آخر. في ذلك، رأى جنكيز بأسه. كان على وشك أن ينهض عندما قرر تجريب حظه.

"إذا أردت دخول مدن تشن، سأحتاج إلى أسلحة تهدم الأسوار. اسأل ملكك إن كان يستطيع تقديم تلك الأسلحة مع كل الباقي".

تكلم هو سا بعصبية، وشعر بغضب راي تشيانغ عندما فهم ما كان يقل. بتردد، هز رأسه.

قال هو سا، من دون أن ينظر إلى عيني جنكيز: "يقول ملكي إن عليه أن يكون أحمق".

رد جنكيز مبتسمًا: "نعم، لا بد أن يكون كذلك. لقد جفت الأرض ويمكنكم تحميل الهدايا على عربات جديدة، لها محاور تم تشحيمها بشكل جيد لقطع رحلة طويلة. يمكنك أن تقول لملكك إنني سعيد بعرضه. سأظهر تلك السعادة لشن".

ترجم هو سا ولم تظهر على وجه راي تشيانغ أي علامة على رضاه. نهض كل الرجال معًا، وغادر جنكيز ومرافقوه أولاً، تاركين راي تشيانغ وهو سا وحدهما مع الحراس. شاهدوا قادة المغول يمتطون جيادهم ويقودونها مبتعدين.

فكر هو سا في البقاء صامتًا، لكن كان لديه سؤال واحد بعد ينبغي عليه أن يطرحه. "يا صاحب الجلالة، ألم نقل الحرب إلى تشن؟".

أنقى رأي تشيانغ نظرة باردة على ضابطه. يُكنى على بعد ألف ميل وتحذرها الجبال وتحرسها الحصون التي تجعل ينشوان تبدو مثل بلدة صغيرة. لن يستولي على مدنها. ارتعش فم الملك قليلاً، على الرغم من أن تعبير وجهه كان جامداً. "علاوة على ذلك، إن من مصلحتنا أن يهاجم أعداؤنا بعضهم. أين يكمن الخطر بالنسبة لنا في ذلك؟".

لم يكن هو سا حاضراً في اجتماع الوزراء، ولم يفهم الكلمات.



كان المزاج بين القبائل احتفالياً تقريباً. كان صحيحاً أنهم لم يستولوا على المدينة الحجرية التي تلوح من بعيد، لكن إن تضرع المحاربون من ذلك، ستكون عائلاتهم مسروقة من الحرير والغنم التي كسبها جنكيز لهم. كان قد مر شهر منذ لقاء الملك، وكانت العربات قد جاءت من المدينة. لعبت الجمال مع الفتية وبصفت بين قطعان الأغنام والماعز. كان بارشوك قد اختفى في خيمته مع كوكشو وتيموج لتفكيك رموز كتابات شعب كزي كزيا الغربية. كان رأي تشيانغ قد قتم رقاعاً بنصوص تشن بناءً على رغبتهم، لكن ذلك كان عملاً مجهداً.

كان الشتاء قد حل أخيراً، على الرغم من أنه كان معتدلاً في ذلك الوادي. كان خاسار وكشيون قد بدأ تدريب المحاربين الذين قنمهم رأي تشيانغ لهم. كان جنود كزي كزيا قد احتجوا على تجريدهم من جيادهم الرائعة، لكن تلك الحيوانات كانت أفضل من أن يتم تخصيصها لرجال لا يجيدون امتطائها أكثر من الأولاد المغول. بدلاً من ذلك، تم منحهم جياداً احتياطية من القطعان. عندما مرت الأسابيع وأصبح الجو أكثر برودة، تعلموا كيف يتعاملون مع الحيوانات القاسية السينة المزاج في الصف الحربي. جهّز الجيش نفسه للتحرك، لكن جنكيز أصيب بالقلق في خيمته بينما كان ينتظر أن يرسل له رأي تشيانغ آخر الجزية وابنته. لم يكن يستطيع أن يتوقع كيف سستقبل بورت الأنباء. كان يأمل بأن تكون أميرة كزي كزيا جذابة، على الأقل. في اليوم الأول من الشهر الجديد، جاءت محمولة في محفة شبيهة جداً بتلك التي استعملها والدها للحضور إلى اللقاء. راقب جنكيز بينما كان حرس الشرف المؤلف من ستة رجل يحافظون على تشكيل قريب حولها. أسعده أن الجياد لم تكن جيدة جداً كما كان يتوقع. لم يكن رأي تشيانغ ينوي خسارة تلك الجياد أيضاً، حتى لمرافقة ابنته.

تم وضع المحفة على الأرض على بعد خطوات فقط من جنكيز بينما كان ينتظر بدرعه الكامل. كان سيف والده على ردفه ومسته طلباً للحظ، مسيطراً على نفاد صبره.

لاحظ أن جنود المدينة كانوا غاضبين لأنهم اضطروا لمنحها له، وابتسم بسعادة غامرة ساخراً منهم، وتركهم يتجرعون الإحباط. كما طلب، كان هو سا قد خرج من المدينة معهم. كان تعبير وجهه، على الأقل، جامداً ونال ذلك استحسان جنكيز، لأنه لا يظهر شيئاً من مشاعره الداخلية.

عندما خطت ابنة الملك بقدمها على الأرض، كانت هناك ثمعة إعجاب من المحاربين الذين كانوا قد تجمعوا لمشاهدة تلك العلامة الأخيرة على انتصارهم. كانت ترتدي ثوباً من الحرير الأبيض المطرز بالذهب، لهذا لمعت في الشمس. كان شعرها مربوطاً إلى أعلى رأسها بنبايس من فضة، وسحب جنكيز نفساً من الجمال الأخاذ لجلدها الأبيض. مقارنة بنساء شعبه، كانت حمامة بين غرابان، على الرغم من أنه لم يقل ذلك بصوت عالٍ. كانت عيناها بركتيت داكنتين من اليأس بينما كانت تمشي نحوه. لم تنظر إليه، لكنها بدلاً من ذلك جثت بأناقة على الأرض، وشبكت معصميهما أمامها. شعر جنكيز بالغضب يتصاعد من جنود والدها، لكنه تجاهلهم. إذا تحركوا، سيقتلهم رماة سهامه قبل أن يستطيعوا شهر سيف واحد.

قال جنكيز بلطف: "أهلاً بك في خيمتي يا تشاكاهي". تمتع هو سا الترجمة، بصوت يكاد يكون همساً. مذ جنكيز يده لميس كتفها فنهضت، ووجهها خالٍ من أي تعبير. لم تكن تتمتع بالقوة التي كان يتوقعها من نساته وشعر بنفسه يرتفع في الهواء عندما وصل شذا عطرها إلى منخاريه.

قال مائحاً إياها شرفاً أمام محاربيه، على الرغم من أنها لم تستطع فهم كلماته: "أعتقد أنك أكثر قيمة من كل هدايا والدك الأخرى". بدأ هو سا بتكلم، لكن جنكيز أشار إليه بحركة حادة كي بصمت.

مذ بدأ جعلتها الشمس داكنة، وتعجب من التفاوت بينما كان يرفع ذقنها حتى تنظر إليه. استطاع رؤية خوفها وشيئاً من الاشمئزاز أيضاً عندما شعرت بجلده القاسي يمس جلدها.

قال: "لقد أبرمت صفقة جيدة أينها الفتاة. ستلدين لي أطفالاً رائعين". كان صحيحاً أنهم لن يكونوا وريثة له، لكنه وجد نفسه منجذباً إليها. لم يكن يستطيع إقناعها في الخيمة نفسها مع بورت ولولاده، كما أدرك. لن تلجو مثل تلك الفتاة الرقيقة جداً. سيأمر ببناء خيمة أخرى لها وحدها وللأطفال الذين ستجيبهم.

انتبه إلى أنه كان يقف صامتاً لوقت طويل وأن القبائل تراقب رد فعله باهتمام متزايد. دفع المحاربون بالمرافق وهمسوا إلى أصدقائهم وهم يبتسمون بعضهم إلى بعض. رفع جنكيز بصره إلى الضابط الذي يقف مع هو سا. كان كلا الرجلين شاحبين

وغازبيين، لكن عندما أشار لهما جنكيز بالعودة إلى المدينة، استدار هو سا بحدّة مثل الآخرين. أصدر له الضابط أمراً، وفغر هو سا فيه دهشة.
قال له جنكيز، مسروراً بدهشته: "أنت من أريد يا هو سا. لقد منحني إياك ملكك لسنة".

تحول فم هو سا إلى خيط رفيع عندما فهم ما يجري. بعينين مريرتين، شاهد باقي المرافقين يعودون إلى المدينة، ويتركونه هناك مع الفتاة المرتعشة التي كان قد جاء بها لمنحها إلى الذئاب.

استدار جنكيز ليواجه الريح من الشرق، استنشق رائحتها وتخلل مدن تشن وراء الأفق. كانت لديهم أسوار لا يمكن تحطيمها ولن يخاطر بشعبه مجدداً بجهل.
قال هو سا فجأة، وكانت الكلمات تخرج منه في الصمت الذي بدا أن جنكيز لا يشعر به: "لماذا طلبتني؟".

"ربما سنجعل منك محارباً". بدا أن جنكيز وجد الفكرة مسلية وضرب ساقه. نظر هو سا من دون أي انفعال إليه حتى هز جنكيز كتفيه استخفافاً.
"سترى".

• • •

كان المعسكر صاخباً بصوت تفكيك الخيام بينما كانت القبائل تستعد للتحرك. عندما حل منتصف الليل، لم تبقى سوى خيمة الخان واقفة من دون أن يمسها أحد على عربتها الكبيرة، مضاعة من الداخل، وكانت تتوهج في الظلام ويمكن رؤيتها من قبل كل أولئك المستلقين على دثارهم وفرائهم للنوم تحت النجوم.

انطلى جنكيز فوق طاولة منخفضة، ينظر إلى خريطة في الأسفل. كانت مرسومة على ورق سميك، ورأى هو سا أخيراً أنها منسوخة على عجل من مجموعة راي تشيانغ. كان ملك كزي كزيا رجلاً شديداً الحذر حتى يترك خريطة تحمل ختمه تقع في أيدي إمبراطور تشن المدعو وي. كانت حتى الأحرف بلغة تشن، ومنسوخة بعناية.

أمال جنكيز رأسه إلى جانب ثم إلى الآخر بينما كان يحاول تخيل خطوط ورسوم المدن أماكن حقيقية. كانت أول خريطة حقيقية يراها على الإطلاق، على الرغم من أنه بحضور هو سا لم يكن ليكشف قلة خبرته.

مرّر جنكيز إصبعه الداكن على طول خط أزرق نحو الشمال. قال: "هذا هو النهر العظيم الذي وصفه المستطلعون". رفع عينيه الشاحبتين إلى هو سا مستفسراً.

أجاب هو سا: "هوانغ هي، النهر الأصفر". أوقف نفسه عند ذلك، وامتنع عن المتابعة بحضور قادة جيش المغول. كانوا يملأون الخيمة: أرسلان، خاسار، كشيون، وآخرون لا يعرفهم. كان هو سا قد تراجع عن كوكشو عندما عرّفه جنكيز به. كان الكاهن العراف النحيل يذكرّه بمسؤولي ينشوان المخبولين، وانتشرت رائحته في الخيمة حتى وجد هو سا نفسه مضطراً لأن يحبس أنفاسه.

راقب كل أولئك الحاضرون بينما كان جنكيز يسحب إصبعه شمالاً وشرقاً على طول النهر حتى توقفت عند رمز صغير ونقرت عليه.

تمتم جنكيز: "هذه المدينة هنا على طرف أراضي تشن". نظر مرة أخرى إلى هو سا لتأكيد ما يقوله، وأوما الضابط متردداً.

قال كوكشو وهو يقرأ الاسم تحت الرسم الصغير: "باوتو". لم ينظر هو سا إلى الكاهن العراف، واستقر بصره عند جنكيز الذي ابتسم.

سأل جنكيز: "هذه العلامات إلى الشمال، ما هي؟".

رد هو سا: "إنها قسم من السور الخارجي".

تقطب حاجبا جنكيز مندهشاً. لقد سمعت بذلك الشيء. إن أبناء تشن يخبثون منا خلقه، أليس كذلك؟".

كظم هو سا غيظه. "إنهم لا يخبثون. لم يتم بناء السور من أجلك، وإنما لإبقاء مملكتي تشن منفصلتين. لقد عبرت أضعف الاثنين. لن تعبر السور الداخلي حول ينكينغ. لم يسبق لأحد أن نجح في ذلك". كثر جنكيز لدى سماعه ذلك، قبل أن يستدير إلى الخلف لدراسة الخريطة. حدق به هو سا، غاضباً من ثقة الخان المفرطة.

عندما كان فتى، كان هو سا قد سافر مع والده إلى النهر الأصفر. كان الرجل العجوز قد جعله يرى سور تشن إلى الشمال، وحتى في ذلك الوقت، كانت هناك فجوات فيه وأقسام تحولت إلى أنقاض. لم تكن هناك صيانة له منذ عقود. بينما كان جنكيز يشير بإصبعه إلى المخطوط، تسامل هو سا كيف أصبح أبناء تشن غير مباينين بأسمهم. لم تكن لسورهم الخارجي أي قيمة - ابتلع ريقه بعصبية - خاصة أن القبائل كانت خلقه آنذاك. كانت كزي كزيا نقطة الضعف وقد تدفقت القبائل جنوباً. اعتزل العار في نفسه بينما كان يتفحص جنكيز، متسانلاً عما يخطط له.

تفوه هو سا من دون سابق إنذار: "هل ستهاجم باوتو؟".

هز جنكيز رأسه. "وأصرخ خارج الأسوار كما فعلت هنا؟ لا. سأذهب إلى موطني في جبال خينتي. سأسير إلى تلال طفولتي، أطلق نسري وأتزوج ابنة ملكه".

انفجرت أساريه من تلك الفكرة. ينبغي أن يعرف أبنائي الأرض التي أحببتي
وسيصبحون أقرباء هناك."

رفع هو سا بصره عن الخريطة مختاراً.

"إذاً، ما هذا الكلام عن باوتو؟ لماذا أنا هنا؟"

"قلت إنني ذاهب إلى وطني يا هو سا. لن تذهب أنت. تلك المدينة بعيدة جداً عن
هنا لتخاف جيشي. ستكون أبوابهم مفتوحة وسيدخل التجار ويخرجون كما يشاؤون."
رأى هو سا أن أرسلان وخاسار يتسلمان وأرغم نفسه على التركيز.

ريت جنكيز على كتفه. "سيكون في مدينة محاطة بأسوار مثل باوتو بناء ما هرون
في مهنتهم، أليس كذلك؟ رجال يفهمون كل أشكال الدفاعات."

لم يرد هو سا، وضحك جنكيز بصوت خافت.

"لن يمنحهم لي ملكك، لكنك ستجدهم هناك يا هو سا. ستسافر إلى باوتو تلك مع
خاسار وشقيقي تيموج. يمكن لثلاثة رجال الدخول إلى حيث لا يستطيع جيش. ستطرح
أسئلة حتى تعثر على هؤلاء الرجال الذين يبنون الأسوار وتعرف العديد من الأشياء
المفيدة. وستجلبهم لي."

لاحظ هو سا أنهم جميعاً يتسمون عندها، سعيدين بتعبير وجهه الخائف.

قال جنكيز بهدوء: "أو سأقتلك الآن وأطلب شخصاً آخر من ملكك. ينبغي أن
يكون للرجل دائماً الخيار الأخير في الحياة والموت. يمكن أخذ كل شيء آخر منه،
لكن ليس ذلك الشيء أبداً."

تذكر هو سا كيف لقي مرافقوه حتفهم من أجل الجياد التي كانوا يمتلكونها، ولم
يشك بأن حياته معلقة على كلمة واحدة.

قال أخيراً: "أنا ملزم بطاعتك وفقاً لأمر ملكي."

تألف جنكيز واستدار عائداً إلى الخريطة.

"إذاً، أخبرني عن باوتو وأسوارها. قل لي كل ما كنت قد سمعته أو رأيته."

كان المعسكر ساكناً عند الفجر، لكن الضوء كان لا يزال يخفق ذهبياً في خيمة
الخان واستطاع أولئك الذين استلقوا بالقرب منها على العشب البارد سماع نغمة
الأصوات مثل طبول حرب بعيدة.

الفصل العاشر



اقترب الفرسان الثلاثة من حافة نهر دالكن، ترحلوا بينما بدأت جيادهم تشرب. بدأ القمر كبيراً ومعلقاً على ارتفاع منخفض فوق التلال، يعكس ضوءاً رمادياً ينير الصحراء الواسعة. كان المسطوح كافياً لتشكيل ظلال سوداء خلف الرجال بينما كانوا يحتفون إلى أشكال قوارب صغيرة في ميناء صغير، نهتز وتتمايل في الليل.

سحب خاسار قطعة قماش كثانية من حيث كان قد وضعها تحت سرجه. كانت رحلة النهار قد جعلت اللحم داخلها طرياً، ومذ يده إليها، وسحب قطعة منها وضعها في فمه. كانت رائحتها كريهة، لكنه كان جائعاً فمضغها ببطء بينما كان ينظر إلى مرافقه. كان تيموج متعباً بما فيه الكفاية لينرنح قليلاً عندما وقف إلى جانب شقيقه، وعيناه منقلبتان بتوق إلى النوم.

تستمر هو سا: "يبقى البحارة بعيدين تماماً عن الشاطئ في الليل. إنهم يخافون قطاع الطرق في الظلام، ولا بد أن يكونوا قد سمعوا بجيشكم إلى الغرب. ينبغي أن نجد مكاناً ننام فيه ونتابع الطريق في الصباح".

قال خاسار: "ما زلت لا أفهم لماذا تريد استعمال النهر للوصول إلى باوتو". ابتلع هو سا غضبه. كان قد أوضح ذلك ست مرات منذ مغادرتهم القبائل، لكن كان من الصعب التغلب على ارتباط المحارب المغولي بجواده.

رد محافظاً على هدوء صوته: "قيل لنا ألا نلقت الانتباه لأنفسنا، وأن نخذل باوتو بصفة تجار أو زوار. لا يمتطي التجار جياداً مثل نبله تشن، ولا يأتي الزوار معهم جواد واحد". قال خاسار بعناد: "سيكون الأمر أسرع. إذا كانت الخريطة التي رأيته دقيقة، يمكننا قطع النهر والوصول إلى هناك في غضون بضعة أيام".

قال هو سا بحدّة: "ويشاهدنا كل قروي في الحقول وكل مسافر على الطرقات". شعر بأن خاسار انزعج من نبرة صوته، لكنه كان قد تحمل ندمه بما يكفي. "لا أعتقد أن شقيقك يرحب بفكرة قطع مسافة ألف لي عبر أرض مكشوفة".

تألف خاسار، لكن كان تيموج من رد.

"مع حق في ذلك يا شقيقي. سيأخذنا هذا النهر العظيم شمالاً إلى باونو وسنضيع في حشد من المسافرين. لا أريد أن نشق طريقنا عبر جنود تشن المشككين".

لم يكن خاسار يتق بأنه يستطيع الرد. في البداية، كان يشعر بالإثارة من فكرة التمسك بين شعوب تشن، لكن تيموج كان يمتطي جواده مثل امرأة عجوز متييسة المفاصل ولم يكن مرافقاً مناسباً لمحارب. كان هو سا أفضل قليلاً، لكن بعيداً عن جنكيز، كان الغضب من المهمة التي تم تكليفه بها قد جعله مرافقاً فظاً. كان الأمر أسوأ عندما أخذ تيموج وهو سا يثرثران بلغة تشبه زقزقة العصافير ولم يستطع خاسار مجارتهما في ذلك. كان قد طلب من هو سا تعليمه شتائم وإهانات، لكن الرجل حقق إليه فقط. بعيداً عن كونها مغامرة، كانت الرحلة تتحول إلى مناقسة في الشجار، وأرادها أن تنتهي بأسرع ما يمكن. كانت فكرة الصعود ببطء إلى أحد تلك القوارب الغارقة في الظلال قد جعلت مزاجه أكثر سوءاً.

شرح بالقول: "يمكننا جعل الجياد تقطع النهر سباحة الليلة، ثم..."

زغر هو سا بقوة، ثم قال بحدة: "سيجرفك التيار! إنه النهر الأصفر، وهناك لي كاملة من ضفة إلى أخرى وتلك ليست مسافة قصيرة. إنه ليس أحد جداول المغول. لا يوجد مراكب نقل هنا وفي الوقت الذي نكون قد وصلنا فيه إلى شيزووشان لحجز مكان على أحدها، سيكون قد تم الإبلاغ عن رحلتنا. أبناء تشن ليسوا حمقى يا خاسار. سيكون لديهم جواسيس يراقبون الحدود. لن يكون ممكناً تجاهل ثلاثة رجال يمتطون جيادهم".

تألف خاسار بينما كان يضع قطعة أخرى من لحم الضأن في فمه ويمضغها. قال: "النهر ليس عريضاً جداً. يمكنني إرسال سهم فوقه".

رد هو سا مباشرة: "لا يمكنك ذلك". شد قبضته عندما مَذَّ خاسار يده إلى قوسه، وقال: "ولن نراه يصل إلى الأرض في الظلام".

رد خاسار بسرعة: "سأريك إذاً في الصباح".

سأل هو سا: "وكيف سيساعدك ذلك؟ هل تعتقد أن البحارة سيتجاهلون راسياً مغولياً يطلق السهام فوق نهرهم؟ لماذا أرسلك شقيقك للقيام بهذا العمل؟".

ترك خاسار يده تبتعد عن حيث كان يقبض على قوسه. استدار إلى هو سا في ضوء القمر. في الحقيقة، كان قد تعامل عن الشيء نفسه، لكنه لن يعترف أبداً بذلك لهو سا أو لشقيقه المهتم بالدراسة.

قال: "الحماية تيموج، كما أتخيل. إنه هنا لتعلم لغة تشن وحتى أتأكد أنك لن تخوننا عندما نصل إلى المدينة. أنت هنا حتى نتكلم فقط وقد أثبت ذلك مرات كافية اليوم. إذا هاجمنا جنود تشن، سيكون قوسي أكثر أهمية من فمك".
تتهدد هو سا. لم يكن يريد أن يفتح الموضوع، لكن مزاجه كان سيئاً ويشعر بالقلق أيضاً.

"سيكون عليك ترك قوسك هنا. يمكنك دفنه في طين النهر قبل الفجر".
أطبق الصمت على خاسار لدى سماعه ذلك. قبل أن يستطيع التعبير عن غضبه، وضع تيموج يده على كتفه لتهنئته، وشعر به يهتز.

"إنه يعرف هؤلاء الناس يا شقيقي، وقد حافظ على ولائه لنا حتى الآن. ينبغي أن تنتقل عبر النهر، وسيثير قوسك الشبهات منذ البداية. لدينا برونز وفضة لشراء بضائع علي طول الطريق لهذا سيكون لدينا شيء نقابض به في باوتو. التجار لن يحملوا أقواساً مغولية".

رد خاسار: "يمكن أن ننتظر بأننا نريد بيعه". في الظلام، وضع يده على السلاح الذي كان مربوطاً بمرجه كما لو أن تلك اللسمة تجعله يرتاح. "سأتخلى عن جوادي، نعم، لكنني لن أتخلى عن قوسي، ليس من أجل اثني عشرة رحلة نهريّة سرية. لا تختبرائي في ذلك، لأن جواي سيكون نفسه بغض النظر عما تقولانه".

بدأ هو سا الجدال مجدداً، لكن تيموج هز رأسه، متعباً من كليهما. قال: "ترك الأمر يا هو سا. سئل القوس في الملابس وربما لن يلاحظه أحد". أبعد يده عن كتف خاسار وابتعد عنه لتحرير فرسه من عبء السرج والتحام. كان دفن تلك الأشياء يتطلب وقتاً، ولم يكن يستطيع المخاطرة بالخلود إلى النوم قبل إنجاز ذلك العمل. تسامع مجدداً لماذا اختاره جنكيز لمهمة مرافقة المحاربين. كان هناك آخرون في المعسكر يعرفون لغة تشن، وكان بينهم بارشوك البوغر. ربما كان ذلك الشخص طاعناً في السن، كما فكر تيموج. تتهدد بينما كان يفك الحبال عن فرسه. نتيجة معرفته بشقيقه، كان تيموج يشك بأن جنكيز لا يزال يأمل بأن يصنع منه محارباً. كان كوكشو قد أطلعه على درب مختلف وضمني لو أن معلّمه هناك لمساعدته في التأمل قبل النوم.

بينما كان يفود الجواد نحو ظلمة أشجار النهر، سمع تيموج مرافقيه يستأنفان جدالهما بهمسات حادة. تسامع إن كانت لديهم فرصة للنجاة من الرحلة إلى مدينة باوتو. بعد أن دفن السرج، واستلقى على ظهره، حاول جاهداً إبعاد الأصوات المتعبة عنه، مكرراً العبارات التي كان كوكشو قد قال له إنها تجلب السكينة. لكنها لم تُجد نفعاً، والنوم جاء بينما كان لا يزال ينتظر.

في الصباح، رفع هو سا ذراعه إلى قارب آخر يسير بعكس اتجاه الرياح نحو أعلى النهر. كان قد تم تجاهل الإشارة سبع مرات من قبل، على الرغم من أنه كان يحمل كيساً جليداً من التفود ويخشخش المحتويات. تنفس الثلاثة الصعداء عندما غير القارب الأخير اتجاهه فوق الماء نحوهم. على متنه، كانت ستة وجوه لفحتها الشمس تحرق بشبهة نحوهم.

تمتم هو سا لتي موج بينما كانوا يقفون في الطين وينتظرون اقتراب القارب منهم: "لا تقل شيئاً لهم". كان والشقيقان يرتدون أثواباً بسيطة مربوطة إلى الخصر ولا يبدو غريبة جداً لأطقم قوارب النهر. كان خاسار يحمل لفة من قماش المرح على أحد كتفيه تحسوي على قوسه بغطائه الجدي وكفاته كاملة. حلق إلى القارب ببعض الاهتمام، ولم يكن قد شاهد أبداً مثل ذلك الشيء في ضوء النهار من قبل. كان ارتفاع الشراع مساوياً لطول القارب، وربما يبلغ 40 قدماً من الطرف إلى الآخر. لم يعرف كيف استطاع الاقتراب منهم بما يكفي ليصعدوا على متنه.

قال: "يبدو الشراع مثل جناح طائر. يمكنني رؤية عظامه". استدار هو سا بحدّة نحوه. "إذا سألو، سأقول إنك أبكم يا خاسار. ينبغي ألا تتكلم مع أي منهم. هل تفهم؟".

عبر خاسار بوجه جندي كزي كزيا. "أفهم أنك تريد مني قضاء أيام من دون أن أفتح فمي. أقول لك، عندما ينتهي هذا، سذهب أنا وأنت إلى مكان ما بهنوء...". قال تيموج: "صه! لقد اقتربوا بما يكفي لسماعنا". صمت خاسار على الرغم من أنه نظر إلى هو سا وقتاً كافياً حتى جعله يحني رأسه له.

نفذ القارب مناورة بالقرب من الضفة، ولم ينتظر هو سا مرافقيه، خاض في الماء الحشول وتقدم نحوه. تجاهل اللعنة التي تمصها خاسار خلفه بينما كانت بدان قويتان تسحبانه إلى القارب.

كان قبطان القارب رجلاً قصيراً وهزلاً، مع قطعة قماش حمراء ملفوفة حول رأسه لإبعاد العرق عن عينيه. بالإضافة إلى ذلك، كان عارياً إلا من منزر بني، مع سكينتين يضعهما على ردفه. تساعل هو سا للحظة إن كانوا قد قابلوا أحد مراكب القراصنة التي يقال إنها تغير على القرى على طول النهر، لكن الوقت كان قد فات على تدارك الهواجس.

سأل القبطان وهو يمد يده ليضرب هو سا على صدره بمؤخر يده: "هل يمكنك أن تدفع؟". بينما كان يتم سحب خاسار وتيموج إلى القارب، دفع هو سا ثلاث قطع نقدية برونزية داكنة في راحة الكف الممدودة. نظر الرجل القصير عبر الثقوب الموجودة في وسط كل منها، قبل أن يربطها بخيط تحت حزامه.

قال وهو يحدق بينما كان خاسار يحدل وقفته: "أنا شن بي". كان المغولي أطول من أي بحار، وتقطب حاجباه كما لو أنه تعرض لإهانة. تتحنح هو سا ونظر شن بي إليه، وقد أمال رأسه إلى أحد الجانبين.

قال شن بي: "سنصل إلى شيزويشان". هز هو سا رأسه، ومد يده بالمزيد من النقود. راقب شن بي عن كثب عندما سمع صوت المعدن.

قال هو سا، وهو يمد يده بالنقود: "ثلاثة أخرى لأخذنا إلى باوتو".

أخذ القبطان النقود بسرعة، وأضافها إلى الخيط المربوط بخصره بمهارة فائقة.

قال: "ثلاثة أخرى للوصول إلى أعلى النهر".

كافح هو سا للسيطرة على أعصابه. كان قد دفع أنذاك أكثر مما هو كاف للانتقال إلى المدينة. كان يشك بأن الرجل سيعيد المال إذا قرر انتظار قارب آخر.

قال بحزم: "لقد حصلت على ما يكفي".

نزلت عينا شن بي إلى حيث يحتفظ هو سا بماله تحت حزامه وهز كتفيه استخفافاً.

قال: "ثلاثة أخرى أو سأعيدكم من حيث جئتم".

وقف هو سا ساكناً، من دون حراك وشعر بارتباك خاسار النزق بينما كان الحديث دائراً. كان هو ساو واقعاً أنه سي طرح سؤالاً في أي لحظة.

تصم هو سا: "أين ستجد نفسك في ما بعد في هذه الحياة؟ أتسامل". لدهشته، بدا شن بي غير مهتم وهز كتفيه غير مبالي. هز هو سا رأسه مندهشاً. ربما كان معتاداً تماماً على الجيش، حيث لم يكن أحد يتحدى سلطته. كان هناك هالة من الثقة تحيط بشي بي الذي جلس منعزلاً بأسماله وقاربه الصغير المسخ. حدق هو سا بينما كان يستلم النقود.

قال شن بي مبتهجاً: "المسؤولون لا يذهبون إلى باوتو. ابتعدوا عن طريق رجالي فسيما نبحر عبر النهر". أشار إلى كومة من أكياس الجبوب في مؤخر القارب الصغير بجانب الدفة وشاهد هو سا خاسار يجلس عليها قبل أن يومي إليه.

ألقى شن بي نظرة متشككة على تيموج وخاسار، لكن كانت لديه نقود جديدة في حزامه تخشخش كلما تحرك. أصدر أوامر لتغيير الشراع نحو الرياح، وقطع القارب المسافة الأولى عبر النهر الذي سيأخذهم شمالاً إلى مقصدهم. كان القارب مزدحماً بالكثير من الأشخاص لكن لم تكن هناك حجرات. خمن هو سا أن الطاقم ينام على سطح القارب في الليل، وبدأ يسترخي فيما تقدم خاسار إلى الحاجز المعدني ويؤول في النهر بارتياح كبير. رفع هو سا عينيه إلى السماء بينما كان صوت القارب الذي يمحّر الماء يصل إلى مسامعه.

أشار اثنان من الطاقم إلى خاسار، وألقيا دعابة بذينة، وربنا على ظهري بعضهما وهما يضحكان. استشاط خاسار غضباً وتحرك هو سا بسرعة ليقف بين المحارب والشخصين، محتزراً إياه بنظرة. راقب البحاران تبادل النظرات بابتسامات عريضة قبل أن يصرخ شن بي بأمر، وانطلقا إلى مقدمة السفينة ليرفعا الشراع. قال خاسار في إثرهما: "كلبان أصفران". كان شي بي في غمرة توجيه الشراع فوق رأسه عندما سمع الكلمات. انقبض قلب هو سا عندما جاء قبطان القارب يمشي نحوهم.

سأل شن بي: "ما الذي قاله؟".
تكلم هو سا بهدوء: "إنه متكين. لا يتكلم لغة متمدنة. من يستطيع فهم مثل هؤلاء الناس؟".

رد شن بي: "لا يبدو مثل متكين. أين لحيته؟". شعر هو سا بأن عيون أفراد الطاقم تراقبهم وقد وضع كل رجل يده هذه المرة قرب سكينه.
قال هو سا، يمعن النظر في عيني شن بي: "كل التجار لديهم أسرار. هل أهتم بلحية الرجل عندما تكون لدي ثروته للتجارة؟ نتكلم الفضة لغتها الخاصة، أليس كذلك؟".

ابتسم شن بي ابتسامة عريضة. مذبذباً، ووضع هو سا عملة نقدية فضية فيها، من دون أن يظهر على وجهه أي تعبير.

قال شن بي متسائلاً عن عدد القطع النقدية التي يحملها المحارب في أكياسه: "الفضة لغتها الخاصة". مهما كان الذي يدعيه الرجال الثلاثة، إلا أنهم ليسوا تجاراً. أشار شن بي إلى خاسار بإيمانه المتسخ.

"هل هو أحق إذا حتى يثق بك؟ هل ستلقي به من القارب في إحدى الليالي مع سكين في حنجرته؟". لإزعاج هو سا، حرك الرجل الهزيل إصبعه فوق حنجرته بإيماءة كان خاسار يراقبها باهتمام متزايد. تقطب حاجبا تيموج أيضاً وتساؤل هو سا عما فهمه من المحادثة السريعة.

قال هو سا للقبطان بسرعة، وكذلك لتيموج والآخرين: "لا أخون أي رجل متى منحته وعدي. وعلى الرغم من أنه أحق بالتأكد، إلا أنه محارب يتمتع بمهارة عظيمة. احرص على ألا تبهينه، وإلا لن أستطيع صدّه عنك".

حركه شن بي رأسه مجدداً بإيماءة معتادة. لم يكن يثق بالرجال الذين صنعوا إلى القارب، وكان أحدهم أحق ويبدو أنه يستشيط غيظاً. هن كتيه من دون مبالاة أخيراً. ينام كل الرجال، وإذا سببوا له أي مشكلة، لن يكونوا المسافرين الأوائل الذين يلقي بهم

فسي الماء خلف قاربه الصغير. أدار ظهره لهم بعد أن أشار إلى كومة من الأكياس. مرتاحاً أكثر مما يمكن للكلمات أن تصفه، انضم هو سا إلى الاثنين الآخرين في مؤخر السفينة. حاول جاهداً ألا يبدو عليه التعب.

لم ينتظر خاسار منه تقديم أي اعتذار. سأل: "ماذا قلت له؟".

سحب هو سا نفساً عميقاً. قلت له إنك مسافر من على بعد آلاف الأميال. اعتقدت أنه ربما لم يسمع أبداً بالمتدبلين، لكنه كان قد التقى أحدهم على الأقل في الماضي. يعتقد أنني أكتب، لكنه لن يطرح الكثير من الأسئلة. على الرغم من ذلك، يفسر ذلك لماذا لا تستطيع تكلم لغة تشن."

أخرج خاسار زفيراً، راضياً بما سمعه. قال مسروراً: "إذا، لست رجلاً أحمك. لا أعتقد أنني أستطيع التقيد بذلك". أسند ظهره على الأكياس، ودفع تيموج بمرقه بعيداً عنه ليجد مكاناً مريحاً. بينما كان القارب يصعد إلى أعلى النهر، أغلق خاسار عينيه وفكر هو سا أنه قد خلد إلى النوم.

قال خاسار من دون أن يفتح عينيه: "لماذا مررت بإصبعه على حنجرته؟".

قال هو سا بحدة: "كان يرغب بأن يعرف إن كنت أتوي قتلك ورميك من فوق القارب. لقد خطرت لي الفكرة".

ضحك خاسار بصوت خافت. قال وهو يغالب للنعاس: "بدأت أحب ذلك الرجل القصير. أنا سعيد أننا صعدنا على متن قارب".

مشى جنكيز عبر المعسكر الشاسع في ظل الجبال التي عرفها صبياً. كان الثلج قد تساقط في الليل، وسحب نفساً عميقاً من الهواء البارد، مستمتعاً بالطريقة التي ملأ بها رئتيه. كان يسمع صهيل الجياد تدعو قريناتهما، ومن بعيد، كان أحدهم يغني لطفل كي ينام. بوجود العائلات حوله، كان يشعر بالطمأنينة وكان مزاجه لطيفاً. كان سهلاً أن يتذكر الأيام التي كان والده لا يزال حياً فيها، ولا يعرف وأشقائه شيئاً عن العالم حولهم. هن رأسه في الدجنة بينما كان يفكر بالأراضي التي تم عرضها عليه. كان بحر الأعشاب أطول مما فكر على الإطلاق وتاق جزء منه لزوجة أشياء جديدة، حتى مدن تشن. كان شاباً وقوياً ويحكم جيشاً كبيراً من الرجال الذين يتمتعون بمهارات تمكنهم من الحصول على ما يريدونه. ابتسم لنفسه عندما وصل إلى الخيمة التي كان قد بناها لزوجته الثانية، تشاكاكي. كان صحيحاً أن والده بقي مقتنعاً بوالدته، لكن ياسوجي كان خان قبيلة صغيرة ولم يحصل على نساء جميلات كجزء من جزية.

خفص جنكيز رأسه عندما دخل. كانت تشاكا هي تنتظره وعيناها واسعتان وداكنتان في دجنة مصباح واحد. لم يقل جنكيز شيئاً عندما وقلت لتحيته. لم يكن يعرف كيف جاءت شابكتين من شعبها لخدمتها. يبدو أن محاربين كانوا قد سبوهما واشترتهما أو قابضتهما بشيء من عندها. بينما كانتا تخرجان من الخيمة. استطاع جنكيز شم رائحة الطيب الذي تتعطران به وارتعش قليلاً عندما من ثوب إحداهما الحريري ذراعيه العارية. كانت أصوات هسهما تخفت كلما ابتعدتا وبقي وحيداً.

وقفت تشاكا هي بفخر أمامه، ورأسها مرفوع. كانت الأسابيع الأولى مع القبائل قاسية عليها، لكنه كان قد شعر بحيوية بالغة في عينيها اللامعتين قبل وقت طويل من تعلمها لوضع كلمات من لغة شعبه. كانت تمشي كما يتوقع من ابنة ملك أن تمشي، وكانت رؤيتها تثيره دائماً. كان ذلك شيئاً غريباً، لكن جسدها الممشوق كان أفضل جزء من جمالها.

ابتسمت عندما جال ببصره عليها، وكانت تعرف أنها تحظى باهتمامه الكامل. اختارت اللحظة المناسبة، جثت أمامه، أحنّت رأسها، ثم ألقت نظرة خاطفة إلى الأعلى لتري إن كان لا يزال يراقب عرض التواضع. ضحك من ذلك وأمسك بها من معصمها ليجعلها تقف مرة أخرى، رفعها في الهواء ليضعها على السرير.

أمسك برأسها بكتف يديه بينما كان يقبلها، وأنامله ضائعة في شعرها الأسود. تأوهت في فمه وشعر بيديها تمس بلطف فخذيه وخصره، مما أثاره. كان المعسكر يشعر بالنعاس من حوله عندما دخل بأميرة كزي كزيا، وترددت صرخاتها بعيداً في الظلام.

الفصل الحادي عشر



استغرق الأمر أسبوعاً من قارب شن بي للوصول إلى شيزووشان على الضفة الغربية للنهر. كانت الأيام رمادية وباردة، وأضحى لون المياه المحملة بالطين قاتماً حتى استحقت اسمها، بينما كانت تتحول إلى اللون الأصفر الباهت تحت مقدمة السفينة. مرة، كانت عائلة من الدلافين قد بقيت معهم قبل أن يضرب خاسار أحدها بمجذاف مستمتعاً بالأمر، واختفت بالسرعة التي ظهرت بها. كان هو سا قد شكّل آراءه الخاصة عن قبطان القارب الصغير، وانتابه الشك بأن العنبر مليء ببضائع مهربية، وربما كماليات ستجلب أسعاراً عالية للمالك. لم تكن لديه فرصة للتحقق من شكوكه، لأن الطاقم لم يكن يتعب من مراقبة المسافرين. كانوا على الأرجح عمالاً لدى تاجر ثري، وينبغي بهم عدم المخاطرة بالحمولة بنقل مسافرين معهم. قدر هو سا أن شن بي رجل خبير ويبدو أنه يعرف النهر أفضل من جباة ضرائب الإمبراطور. كانوا قد سلكوا أكثر من مرة أحد الروافد بعيداً عن المسار الرئيسي، وقاموا بتنفيذ التفاف كبير قبل أن يعودوا إلى النهر. في آخر تلك المرات، كان هو سا قد شاهد ظلاً عاتماً لمركب رسمي في منتصف النهر خلفهم. كان ذلك التكتيك يناسب احتياجاته ولم يعلق على ضياع الوقت، على الرغم من أنه كان ينام وسكينه في رذنه ويستيقظ لأقل صوت.

كان خاسار يشخر بصوت عالٍ. كان يبدو أن الطاقم يحبه وقد علمه أفراد عبارات لن تكون ذات فائدة كبيرة خارج بيوت البغاء. ابتلع غضبه عندما تغلب خاسار بلوي النزاع على ثلاثة من البحارة الأقوياء، وفاز بقرية من شراب الأرز القوي التي رفض أن يشارك بها أحداً.

من بين ثلاثتهم، كان تيموج من لا يستمتع إطلاقاً بالرحلة الهادئة. على الرغم من أن أمواج النهر بقيت ساكنة، إلا أنه تقياً عن جانب القارب في صبيحة اليوم الثاني، وكان موضع صرخات سخرية من الطاقم. كان البعوض يعثر عليه في الليل

لهذا كانت تظهر آثار جديدة من العضات الحمراء على كاحليه كل صباح. راقب تيموج رفقة خاسار المرحمة وكان تعبير وجهه يدل على أنه غير راضٍ عنها، لكنه لم يحاول الانضمام إليها، على الرغم من معرفته أكثر باللغة. لم يكن باستطاعة هو سا فعل شيء سوى التمني بأن تنتهي الرحلة، لكن شيزويشان كانت مجرد محطة توقف للترود بالأممادات.

قبل وقت طويل من ظهور المدينة للعيان، أصبح النهر مكتظاً بالقوارب الصغيرة التي تعبر من ضفة إلى أخرى وتحمل معها الإشاعات والأنباء عن بعد ألف ميل. لم يقترب شن بي من أحد، لكن حالما ربط القارب إلى عمود خشبي قرب الرصيف، اقترب قارب إثر آخر لتبادل أطراف الحديث مع ربابنتها. أدرك هو سا أن الرجل القصير كان معروفاً في النهر. تم طرح بضعة أسئلة بشأن المسافرين وتحمل هو سا نظراتهم. لا شك بأن أوصافهم ستنتشر بسرعة على طول النهر قبل حتى أن يشاهدوا باوتو. بدأ يفكر بأن المغامرة كلها تتعرض للخطر ولم يكن أمراً مفيداً رؤية خاسار يقف على مقدمة السفينة، ويطلق إهانات حمقاء على قباطنة آخرين. بظروف مختلفة، ربما كان ذلك سبباً لضربه أو حتى تلقيه سكيناً في حجرته، لكن شن بي انفجر ضاحكاً، وبدأ أن شيئاً في تعبير وجه خاسار لم يعتبر الأمر إهانة. بدلاً من ذلك، ردوا بإهانات أسوأ، وقايس خاسار قطعيتين نقديتين بفاكهة طازجة وأسماك قبل أن تغرب الشمس. راقب هو سا ما يجري بصمت، ولكم كيس حيوب لجعل رأسه يرتاح، ويحاول أن يخلد إلى النوم.

استيقظ تيموج على شيء ارتطم بجانب القارب. كان هواء الليل متقللاً بالحشرات، وكان تيموج متقللاً بالنعاس. تمطى بحركة ثقيلة، وطرح سؤالاً على هو سا. لم يكن هناك رد، وعندما رفع تيموج رأسه، رأى أن هو سا وشقيقه مستيقظين ويحدثان إلى الظلام.

همس تيموج: "ماذا يحدث؟". كان يسمع صريراً وأصوات حركة مكتومة، لكن القمر لم يكن قد ظهر بعد، وأدرك أنه لم ينام سوى لوقت قصير.

لمع ضوء فجأة عندما فتح أحد أفراد الطاقم مصراعي باب عنبر القارب ليظهر مصباح زيت صغير. رأى تيموج ذراع الرجل مضاءة بلون ذهبي، ثم اضطرب سكون الليل بصرخات وصيحات. اختفى خاسار وهو سا في الظلام ونهض تيموج على قدميه، متسماً من خوفه. اندفعت أجساد مبهمه إلى القارب من الجانبين. أمسك بسكينه، واختبأ خلف الأكياس حتى لا يروه.

صدرت صرخة ألم من مكان ما قريبه، وأطلق تيموج لعنة بصوت عالٍ، مقتنعاً أن جنود الإمبراطور قد كشفوا أمرهم. سمع شن بي يصرخ بأوامر وكل ما حوله كان ثأوهات ولهات رجال يتعاركون بعضهم مع بعض في ظلمة تامة تقريباً. ربض تيموج في مكانه، منتظراً الهجوم عليه. عندما ركز بصره، شاهد المصباح الذهبي الصغير يرتفع في الهواء، ويترك أثراً بقي في مخيلته. بدلاً من أن يهسهس في النهر، سمعه يرتطم بالخشب. اندلق الزيت يشع ضوءاً، وشق تيموج خوفاً.

كان المصباح الذي تم رميه قد استقر على سطح قارب ثانٍ، وتخرج بينما كان الرجال يشبون من فوقه. مثل شن بي وطاقمه، لم يكن المهاجمون يرتدون أكثر من قطعة قماس على خصورهم. كانوا يحملون سكاكين بطول سواعد الرجال ويقاثلون وهم يطلقون صرخات ولعنات بصوت عالٍ. وخلفهم، اشتعلت النيران بالخشب الجاف واستطاع تيموج رؤية الأجساد التي تتصيب عرقاً ملتحمة معاً، وقد تعرض بعضها لجروح بالغة تسيل منها الدماء.

بينما كان يراقب برعب، سمع تيموج صوتاً يعرفه يعلو على كل الأصوات الأخرى، كان طقطقة قوس مزدوج الوتر. استدار ليرى خاسار واقفاً بثبات على مقدمة السفينة، يطلق سهماً إثر آخر. كان كل سهم يصيب هدفه ما عدا واحد ذهب إلى الماء عندما تقادى خاسار سكيناً رماه بها أحدهم. ارتعش تيموج عندما وقع رجل ميت ووجهه إلى الأسفل بالقرب منه، واندفع ريش السهم من تأثير ذلك في ظهره حتى خرج من صدره.

حتى عندها، كان يمكن للآخرين أن يتغلبوا عليهم إن لم تكن أسنة اللهب قد بدأت تنتشر على قارب المهاجمين. رأى تيموج بعضهم يقفز فوق القجوة إلى مركبهم، ويمسكون بدلاء جلدية. وقعوا أيضاً وسهام خاسار فيهم قبل أن يستطيعوا إخماد النار.

قطع شن بي حبلين غليظين يربطان القاربين بعضهما ببعض، وأسند نفسه على حاجز خشبي لينفخ القارب الآخر بعيداً. انحرف على غير هدى نحو النهر القاتم، واستطاع تيموج رؤية ظلال الرجال تكافح لإخماد أسنة اللهب. كان الوقت قد فات بالنسبة للقارب، وسمع من بعيد صوت سقوط في النهر عندما التمس الرجال الأمان في الماء.

أصدرت النار صوتاً خاصاً بها، وكانت هناك طقطقة وأزيز تضاعل عندما حمل التسيار القارب المشتعل أسفل النهر. انطلقت شرارات ساطعة إلى الأعلى في الظلام، أطول من شراع. أخيراً وقف تيموج، وصدره يلهث. قفز عندما اقترب منه أحدهم، لكنه كان هو ساء، الذي أصبحت رائحته كريهة من الدخان والدم.

قال هو سا: "هل تأذيت؟".

هز تيموج رأسه، ثم أدرك أن مرافقه لم يعد يرّ شيئاً في الظلام بعد التحديق إلى أسنة اللهب. تمت تيموج: "أنا بخير. من هؤلاء الناس؟".

"جرذان النهر، ربما، يسعون خلف ما يحمله شن بي. مجرمون". صمت تماماً عندما ارتفع صوت شن بي في الليل وتم تحويل الشراع نحو الريح مرة أخرى. سمع تيموج خرير المياه عندما بدأوا يبتعدون عن رصيف شيزويشان إلى الجزء الأعرق من القناة. عندما صدر أمر آخر من قبل شن بي، صمت الطاقم وانتقلوا بعيداً عن الأنظار عبر المياه.

بدأ أن القمر قد استغرق زمناً طويلاً ليرتفع، لكنه كان لا يزال هلالاً ويضيء النهر بلون فضي، ويلقي بظلال على أفراد الطاقم الناجين. كان اثنان من أفراد طاقم شن بي قد لقيا حتفهما في المعركة وراقب تيموج بينما كان يتم إلقاها من فوق مؤخر السفينة من دون مراسم دفن.

كان شن بي قد عاد مع خاسار للإشراف على العمل، وأوماً لتيموج، وكان تعبير وجهه غير قابل للتفسير في الضوء الخافت. رآه تيموج يستدير ليعود إلى مكانه بجانب الشراع، لكن الرجل توقف، وكان واضحاً أنه اتخذ قراراً. وقف أمام خاسار الذي لم يكن شكله واضحاً يحدث إليه.

قال شن بي لهو سا: "هذا التاجر الذي معك ليس متديناً. فالمبتديون يصلون كثيراً ولم أشاهده حتى الآن يفعل ذلك".

توتر هو سا وانتظر أن يتابع القبطان القصير كلامه.

هز شن بي كتفيه لا مبالياً. "لكنه يقاتل جيداً، كما قلت. يمكن أن أكون أعمى في الليل أو النهار، هل تفهم؟".

رد هو سا: "أفهم ذلك". مّد شن بي يده، وربت على كتف خاسار. لقد صوت القوس بحتجرته، وأصدر صوتاً خافتاً برضا واضح.

سأل هو سا بلطف: "من كان هؤلاء؟".

صمت شن بي لحظة، يفكر في الجواب. "حمقى، وحمقى أموات الآن. هذا ليس من شأنك".

رد هو سا: "يعتمد ذلك على ما إذا كنا مستعرض لهجوم مجدداً، قبل باوتو".

"لا يعرف الرجل قدره، أيها الجندي-التاجر، لكنني لا أعتقد ذلك. كانت لديهم فرصة ليسرقوا منا وقد أضاعوها. لن يمسكوا بنا مرتين". لقد مرة أخرى صوت قوس خاسار وابتمس ابتسامة عريضة.

قال تيموج فجأة: "ماذا يوجد في العنبر ويربذونه؟". كان قد أعدّ الكلمات بحرص، لكن شن بي بدا على الرغم من ذلك متفاجئاً من الأصوات الغريبة. كان تيموج على وشك أن يحاول مجدداً عندما رد القبطان القصير. "كانوا فضوليين، وهم ميتون الآن. هل تشعر بالقضول؟".

فهم تيموج واحمر وجهه غضباً من دون أن يراه أحد في الظلام. هز رأسه، ردّ وهو يشيح بنظره بعيداً: "لا، لست كذلك".

قال شن بي: "أنت محظوظ لأن لديك أصدقاء يقاتلون عنك. لم أرك تتحرك عندما كنا نعرض للهجوم". ضحك بصوت خافت عندما تقطب حاجبا تيموج. كان يستطيع إدراك النبرة التهكمية إن لم يكن كل الكلمات، لكن شن بي استدار نحو خاسار قبل أن ينطق بجواب، وأمسك بذراع شقيقه.

قال: "أنت، أيها القاسق. هل تريد شرباً؟". استطاع تيموج رؤية بياض أسنان شقيقه عندما عرف الكلمة التي تعني الشراب اللاذع الطعم. قاده شن بي بعيداً إلى مقدمة السفينة للاحتفال بالنصر. بقي التوتّر سيد الموقف بينما كان هو سا وتيموج يقفان معاً.

قال تيموج أخيراً: "لسنا هنا لقتال لصوص النهر. مع سكين فقط، ماذا كان بمقدوري أن أفعل؟". رد هو سا بفظاظة: "تل قسطاً من النوم إذا استطعت. لا أعتقد أننا سنوقف مجدداً لبضعة أيام".

كان يوماً شتوياً جميلاً في الجبال. كان جنكيز قد خرج مع زوجته وأبنائه إلى نهر يعرفه منذ كان صغيراً، بعيداً عن معسكر القبائل الكبير. كان جوشي وتشاغاتاي يقودان فرسيهما، فيما تقود بورت مطيبتها خلفهم وأوجيدي وتولي يجتمعان على السرج. عندما كانوا يغادرون القبائل، شعر جنكيز أن مزاجه يتحسن. كان يعرف الأرض تحت حوافر جواده وقد تفاجأ من موجة المشاعر التي التابته لدى عودته الأولى من الصحراء. كان يعرف أن للجبال تأثيراً فيه، لكن لدّهشته، كان الشعور بتراب طفولته تحت قدميه قد جعل عينيه تترفان دمعاً سرعان ما أبعدته برمشيه.

عندما كان بالفعاً، كانت مثل تلك الرحلة تتطوي دائماً على عنصر خطر. كان يمكن أن يكون هناك متجولون أو لصوص في التلال حول الجدول. ربما لا يزال هناك البعض منهم الذين لم ينضموا إليه في رحلته جنوباً، لكن كانت لديه أمة تتبعه في المعسكر وكانت التلال خالية من القطعان والرعاة.

ابنهم عندما ترحل، وراقب باستحسان بينما كان جوشي وتشاغاتي يجذبان شجيرتين معاً ويربطان لجامي فرسيهما. كان النهر سريعاً وضحلاً عند قاعدة تل قريب شديد الانحدار. كانت قطع حادة من الجليد تمر في النهر أتية من القمم. نظر جنكيز إلى الأعلى نحو المنحدرات، تذكر والده وكيف أنه تسلق مرة بحثاً عن نسرين على التل الأحمر. كان ياسوجي قد اصططحبه إلى المكان نفسه ولم يرَ جنكيز بهجة في الرجل، على الرغم من أنه ربما كان يخفيها. قرّر ألا يسمح لأبنائه برؤية سعائته في العودة إلى الأشجار والوديان التي يعرفها جيداً.

لم تبسم بورت عندما كانت تضع ابنها الصغيرين على الأرض قبل أن تنزل عن مطبعتها بنفسها. كانت هناك بضع كلمات لطيفة بينهما منذ تزوج ابنة ملك كزي كزيا وكان يعرف أنها ستسمع عن زيارته الليلية إلى خيمة الفتاة. لم تكن قد ذكرت ذلك، لكن فيها بقي مشدوداً، وبدا أن ذلك يزداد مع مرور الأيام. لم يكن بمقدوره سوى مقارنتها بتشاكاها عندما وقفت وتمطّلت بين الأشجار التي تنحلي فوق النهر، وتلقي بغيثها على الماء. كانت بورت طويلة؛ نحيلة وقوية فيما كانت ابنة كزي كزيا رفيعة وناعمة. تنهد لنفسه. كانت أياً منهما تستطيع إثارتة باللمسة الصحيحة، لكن بدا أن واحدة فقط ترغب بذلك. كان قد أمضى ليالٍ عديدة مع زوجته الجديدة بينما بقيت بورت وحيدة. ربما بسبب ذلك، كان قد أعدّ هذه الرحلة بعيداً عن المحاربين والعائلات، حيث العيون تراقب دائماً والأقاويل تنهمر مثل مطر الربيع.

وقع بصره على جوشي وتشاغاتي بينما كانا يقتربان من حافة الجدول ويحذقان بالماء المستفق. بغض النظر عن العلاقة مع والدتهما، لم يكن ليرترك الفتيتين يكبران لوحدهما حتى يصبحا رجلين، أو يسمح لوالدتهما بالإشراف عليهما في أثناء ذلك. كان سهلاً أن يتذكر تأثير هولن على شقيقه تيموج وكيف جعله ذلك ضعيفاً.

مشى بخطوات واسعة خلف الابنين الأكبر سناً، وكبت ارتعاشاً انتابه من فكرة دخول المياه المتجمدة. تذكر الوقت الذي كان يختبئ فيه من الأعداء في مثل هذا المكان، وكيف أن جسده أصبح خدرأ لا فائدة منه عندما كادت الحياة تفارقه. على الرغم من ذلك، كان قد نجا وأصبح أكثر قوة.

نادى بورت قاتلاً: "لجعلني الآخرين يقتربان. أريدهما أن يصغيا السمع حتى إذا كانا صغيرين على الغوض في النهر." رأى جوشي وتشاغاتي يتبادلان نظرة قلق عند هذا التأكيد على ما سيقومان به. لم يكن أي منهما يمتسح فكرة الغوض في النهر الجليدي. نظر جوشي إلى جنكيز بالنظرة المشائلة نفسها التي تبدو عليه دائماً. بطريقة ما، تغير مزاج والده ونظر بعيداً بينما كانت بورت تحضر تولي وأوجيدي ليقتا على الضفة.

شعر جنكيز بعيني بورت تلاحقانه وانتظر حتى تراجعت إلى الخلف وجلست بقرب الجياد. كانت لا تزال تراقب ما يجري، لكنه لم يرغب بأن يلجأ إليها الفتيان طلباً للمساعدة. كان عليهما أن يختبرا أنفسهما، وأن يشاهد نقاط قوتهما وضعفهما. كانا يشعران بالتوتر من حوله، كما لاحظ، وألقى باللوم على نفسه على الوقت الذي قضاه بعيداً عنهما. كم مضى من الوقت منذ واجه نظرات والديهما التي ترفض أن يلعب مع أحدهما؟ كان يتذكر والده بحب، لكن كيف سيتذكرانه؟ أبعد مثل تلك الأفكار عن ذهنه، متذكراً كلمات ياسوجي في المكان نفسه، قبل وقت طويل.

قال للفتية: "لا بد أنكم سمعتم بالوجه القاسي؛ وجه المحارب الذي لا يفصح عن شيء لأعدائكم. إنه يأتي من قوة لا علاقة لها على الإطلاق بالعضلات، أو مهارة استعمال قوس. إنه صميم الوفاة الذي يعني أن تواجهوا الموت باحتقار. أسراه أنه أكثر من قناع بسيط. يمنحكم ذلك شعوراً بالطمأنينة، وهكذا تكونون قد قهرتهم الخوف وأجسادكم".

بيضع حركات سريعة، حلّ حزامه من ردايه وخلع طماقائه وحذائه، ووقف عارياً على حافة النهر. كان جسده يحمل علامات جروح قديمة وكان لون صدره أكثر بياضاً من ذراعيه وساقيه البنية الداكنة. وقف من دون إحراج أمامهم، ثم دخل التيار المتجمد، وشعر بالصفن يشتد عندما مسّه الماء.

عندما غمر الماء جسده، تقلّصت رثاءه حتى أصبح يجاهد لسحب كل نفس. لم يظهر شيء على وجهه ونظر إلى أبنائه من دون تعبير بينما كان يضع رأسه تحت الماء، ثم سبح على ظهره، نصف عائم ويدها تمسّان حجارة قاع النهر.

شاهد الأبناء الأربعة ما يجري بذهول. بدا والدهم مرتاحاً تماماً في الماء المتجمد، ووجهه هادئ كما كان من قبل. كانت عيناه فقط شرستين ولم يستطيعوا النظر إليهما طويلاً.

تبادل جوشي وتشاغاتي نظرة، يتحديان بعضهما. هزّ جوشي كتفيه غير مبالٍ وتجرد من ملابسه من دون خجل، وغاص تحت السطح. رأى جنكيز يرتعش من البرد، لكن الفتى القوي البنية حقق إلى جنكيز كما لو أنه في تحدٍ وينتظر. لم يبذ عليه أنه خائف من والده، أو الدرس الذي ينوي تعليمه إياه.

تألف تشاغاتي بازدياء، وحلّ ملابسه. بعمر السادسة، كان أوجيدي لا يزال أصغر من الآخرين بكثير. بدأ أيضاً بتجرد من ملابسه، ورأى جنكيز والدته تنهض على قدميها لإبعاده.

قال: "دعوه يغوص في الماء يا بورت". كان سيراقب ما يجري حتى لا يفرق ابنه الثالث. فزعت بورت خوفاً عندما نزل أوجيدي في الماء على بعد خطوة فقط

خلف تشاغاتى. لم يترك ذلك سوى تولى يقف بائساً على الضفة، بتردد كبير، بدأ أيضاً نزع رداءه. ضحك جنكيز بصوت خافت، سعيداً بإقدامه. تكلم قبل أن تتدخل بورت. ليس أنت يا تولى. ربما السنة القادمة، لكن ليس هذه المرة. ابق هناك واستمع." بدأ الارتياح واضحاً على وجه الفتى الصغير بينما كان يربط قطعة القماش حول خصره بعقدة أنيقة. ردّ على ابتسامة والده بابتسامة مماثلة، وغمزه جنكيز، فانتسعت ابتسامته.

كان جوشي قد اختار بركة على حافة النهر، حيث كان الماء ساكناً. راقب والده الذي كان كل جسده ما عدا رأسه مغموراً بالماء، وفي الحديث القصير، كان قد اكتشف كيفية السيطرة على تنفسه. كان قد أطبق فمه على أسنان تصطك وقد اتسعت عيناه. كما حدث ألف مرة من قبل، تسامح جنكيز إن كان هو والد الفتى. من دون ذلك اليقين، بقي هناك حاجز في مشاعر جنكيز نحوه. أحياناً، كان الحاجز متعباً لأن جوشي كان يصبح طويلاً وقوياً، لكن على الرغم من ذلك بقي جنكيز يتسامح إن كان يرى معالم مفضّصة تتأري كان قد أكل قلبه انتقاماً. كان صعباً أن يحب مثل ذلك الوجه بعينين داكنتين، بينما كانت عيناه صفراوين مثل عيني الذئب.

كان تشاغاتى بكل وضوح ابنه. كانت عيناه شاحبتين من البرد بينما كان يغمر نفسه بالماء وكان على جنكيز أن يسيطر على مشاعره قبل أن يفسد اللحظة. فأرغم نفسه على سحب نفس عميق وبطيء.

"فى صباح بهذه البرودة، يمكن لطفل أن يغط في النوم خلال ست أو سبع دقائق للقلب. يمكن حتى لرجل ناضج أن يفقد الوعي في وقت أطول بقليل. تبدأ أجسادكم تفقد الإحساس باليدين والقدمين أولاً. ستشعرون بأنها خدرية ولا فائدة منها. تصبح أفكاركم بليدة، وإذا بقيتم وقتاً طويلاً، لن تكون لديكم القوة أو الإرادة للخروج من هنا". توقف عن الكلام لحظة وهو ينتظر إليهم. كان لون شفّتي جوشي قد أصبح أزرق ولم يصدر عنه على الرغم من ذلك أي صوت. بدأ أن تشاغاتى يكافح ضد البرد، وأطرافه تتحرك في الماء. راقب جنكيز أوجيدي عن كثب أكثر من غيره وكان الفتى يحاول تقليد شقيقه الأكبر منه. كان الجهد الذي يبذله كبيراً عليه وسمع جنكيز أسنانه تصطك معاً. لم يكن يستطيع إبقاءهم هناك مدة أطول وفكر في إعادة أوجيدي إلى الضفة. لا، لم يفعل والده ذلك، على الرغم من أن تيموج الصغير فقد وعيه في النهاية وكاد يغرق.

قال لهم: "لا تظهروا لي شيئاً مما تشعرون به. أظهروا لي الوجه القاسي الذي سيراه أعداؤكم عندما يسغرون منكم. تذكروا أنهم خائفون أيضاً. إذا كان أحدكم قد

تسائل من قبل إن كان الجبان الوحيد في عالم من المحاربين، اعرّفوا أن الشعور نفسه ينشأ بهم، حتى آخر رجل. عندما تعرفون ذلك، يمكنكم إخفاء خوفكم والتحديق إلى الأسفل بهم". كافح كل الفتيان الثلاثة لإبعاد الخوف والألم عن وجوههم، وعلى الضفة، كان تولى الصغير بقلدهم بتركيز وجنّة.

تنفسوا بهدوء من الأنف لخفض سرعة دقات القلب. الجسد شيء ضعيف، لكن ليس عليكم الإصغاء إليه بصرخ طلباً للمساعدة. كنت قد رأيت رجلاً يدفع سكيناً عبر جسده من دون أن يسيل منه الدم. اتركوا تلك القوة تأتي إليكم وتنفسوا. لا تظهروا شيئاً.

فهم جوشي مباشرة وأصبح تنفسه بطيئاً مثل تنفس والده. تجاهله جنكيز، وراقب تشاغاتاي بينما كان يكافح للسيطرة على نفسه. حدث ذلك أخيراً، قريباً من الوقت الذي كان جنكيز يعرف أن عليه إنهاء الأمر فيه قبل أن يخرجوا من الماء.

قال لهم: "أجسادكم مثل أي حيوان آخر تعتنون به. سيصرخ مطالباً بالطعام، والماء، والدفء، والتخلص من الألم. اكتشفوا الوجه القاسي ويمكنكم إسكات صوته الصاخب".

كان الفتيان الثلاثة قد فقدوا الإحساس بأجسادهم وقتر جنكيز أن الوقت قد حان لإخراجهم من الماء. توقع أن عليه رفع الفتية المتعبين إلى الضفة، ونهض ليمسك بالأول. بدلاً من ذلك، وقف جوشي معه، ولون جسده وردي من النماء تحت جلده. لم تتحرك عينا الفتى الصغير والده أبداً فيما من جنكيز ذراع تشاغاتاي بيده، غير راغب بأن يرفعه بعد أن نهض جوشي لوحده.

تحرّك تشاغاتاي خدراً، وعيناه تلمعان كالزجاج. ركّز على جوشي، وعندما رآه يقف، أغلق فمه وكافح حتى يقف، لكنه انزلق على الطين الناعم في قاع النهر. استطاع جنكيز أن يشعر بالخصومة بين الفتيين ولم يسعه سوى أن يتذكر بكثر، الشقيق الذي كان قد قتله قبل سنوات طويلة.

لم يستطع أوجيذي الوقوف لوحده ووضعته ذراعاً والده القويّان على الضفة ليجف في الشمس. خرج جنكيز بخطوات واسعة والماء يتناثر من جسده، وشعر بأن الحياة تعود إلى أطرافه وطاقة تسري فيها. جاء جوشي وتشاغاتاي للوقوف إلى جانبه، بلهثان فيما كانت الحياة تعود إلى أيديهما وأقدامهما. شعرا بأن والدهما كان لا يزال يراقبهما وفهم كل فتى المغزى وحاول السيطرة على جسده مرة أخرى. كانت أيديهما ترتعش رغماً عنهما، لكنهما وقفا منتصبين في ضوء الشمس ونظرا إليه، من دون أن يتقا أن باستطاعتها التكلم فكاهما يرتعشان.

سألهم جنكيز: "هل قتلتم ذلك؟". كان ياسوجي قد سألهم الشيء نفسه وقال خاسار: "تقريباً"، مما جعل الرجل الكبير يضحك. لم يقل أبناءه شيئاً، ورأى أنه لم يعشق أواصر الصداقة معهم كما فعل ياسوجي معهم. كان سيقضي المزيد من الوقت معهم، وقطع على نفسه وعداً بذلك. كانت أميرة كزي كزيا مثل النار في دمه، لكنه سيحاول تجاهل النداء بين الحين والآخر فيما الأولاد يكبرون.

قال كما لو أنه يتكلم مع نفسه وليس معهم: "الجسد لا يحكم المرء. إنه وحش غبي لا يعرف شيئاً عن أعمال الإنسان. إنه مجرد عربة تحملكم. سيطروا عليها بالإرادة والتنفس من خلال أنوفكم، عندما تطلب منكم اللهاث مثل كلب. عندما تتلقون سهماً في معركة ويكون الأثم قذيفاً، ستتزعزعون منكم، وقبل أن تسقطوا، ستعودون الموت إلى أعداكم". ألقي نظرة على سفوح التلال، وتواردت ذكريات أيام بريئة وبعيدة جداً لم يكن يتحمل أن يتذكرها بسهولة.

"املأوا الآن أفواهكم بالماء واركضوا إلى قمة هذا التل وعودوا. عندما تعودون، ستبصقون الماء لتبرهنوا أنكم كنتم تتنفسون بشكل مناسب. من يصل أولاً سيتناول الطعام، فيما سيعود الآخرون جائعين".

لم تكن تلك منافسة عادلة. كان جوشي أكبر سناً، وفي مثل ذلك العمر، حتى سنة تشكل فرقاً. لم تظهر على جنكيز أي إشارة على القلق عندما رأى الفتية يبادلون النظرات، وأخذ يفكر ملياً في فرص كل منهم. كان يكثر أيضاً أكبر سناً، لكن جنكيز كان قد ترك شقيقه يلهث على التل. كان يأمل بأن يفعل تشاغاتي الشيء نفسه.

انطلق تشاغاتي إلى الماء من دون سابق إنذار، خاض فيه مثيراً رذاذاً كبيراً وغمس وجهه تحت السطح ليملاً فمه. كان أوجيدي خلفه قليلاً فقط. تذكر جنكيز كيف أصبح الماء دافئاً وسميكا في فمه. كان يستطيع تثوقه مع الذكريات. لم يكن جوشي قد تحرك، واستدار جنكيز إلى الفتى مستفسراً. سأل: "لماذا لم تتبعهما؟".

هز جوشي كتفيه لا مبالياً. قال: "يمكنني التغلب عليهم. أعرف ذلك سلفاً". حنق إليه جنكيز، ورأى تردداً لم يستطع فهمه. لم يكن أحد من أبناء ياسوجي قد رفض القيام بذلك الشيء. كان الفتى الذي أصبح لاحقاً جنكيز قد استغل الفرصة لإذلال بكتسر. لم يستطع فهم جوشي وشعر بنفسه يشتعل غضباً. كان أبناء الآخرين يكافحون آنذاك للصعود إلى أعلى التل، ويصبحان أصغر كلما قطعوا مسافة أطول. تمت جنكيز، على الرغم من أنه كان يخمن: "أنت خائف".

رد جوشي من دون إثارة وهو يمد يده إلى ملامسه: "لمت كذلك. هل ستحيني أكثر إذا هزمتهم؟". للمرة الأولى، ارتعش صوته بمشاعر قوية. "لا أعتقد أنك ستفعل ذلك".

نظر جنكيز إلى الفتى الصغير مندهشاً. لم يكن أحد من أبناء ياسوجي يجرؤ على التكلم معه بمثل تلك الطريقة. كيف كان والده سيرد على ذلك؟ فزع من ذكريات يدي ياسوجي تلطمائه. لم يكن والده يسمح بذلك. للحظة، فُكّر بضرب الفتى حتى يفقد الوعي، لكنه رأى عندها أن جوشي يتوقع ذلك، وقد شدّ نفسه لتلقي الضربات. مات الحافز قبل أن يولد.

قال جنكيز له: "ستجعلني فخوراً بك".

اهتز جوشي، لكن لم يكن ذلك من البرد.

قال: "إنّ، سأركض اليوم". رافقه والده من دون أن يفهم ما يجري، ملأ جوشي فمه من مياه النهر وانطلق، يجري مسرعاً وولتاً فوق الأرض غير المستوية خلف شقيقه.

عندما ساد الهدوء مجدداً، قاد جنكيز تولى الصغير عائدتين إلى حيث كانت بورت تجلس إلى جانب الجياد. كان وجهها جامداً مثل الحجر ولم تنتظر في عينيه.

قال لها، وهو لا يزال يحاول استيعاب ما كان قد حدث مع جوشي: "سأقضي المزيد من الوقت معهم".

نظرت إليه، وللحظة، انفجرت أساريرها عندما رأت ارتباكها. قالت: "لا يريد شيئاً في العالم أكثر من أن تقبله كابنك".

تألف جنكيز. "أنا أقبله فعلاً. متى لم أفعل ذلك؟".

نهضت بورت على قدميها لتواجهه. "متى احتضنته بين ذراعيك؟ متى قلت له إنك فخور بأنه ابنك؟ هل تعتقد أنه لم يسمع همسات الفتية الآخرين؟ متى كتمت أفواه الحمقى بإظهار بعض الحنان له؟".

قال مضطرباً: "لم أكن أريده أن يصبح ليناً". لم يكن يعرف أن الأمر واضح جداً، وللحظة، أدرك قسوة الحياة التي فرضها على جوشي. هز رأسه لتتقية أفكاره. كانت حياته أفسى ولا يستطيع إرغام نفسه على أن يحب الفتى. كلما كان يوم ينقضي، كان يرى نفسه أقل فأقل في تلك العينين الداكنتين.

قاطعت ضحكة بورت أفكاره. لم يكن صوتاً ساراً.

"الشيء الأكثر مرارة هو أنه بكل وضوح إنك، أكثر من أي من الآخرين، على الرغم من أنك لا ترى ذلك. يمتلك الإرادة للوقوف في وجه والده وأنت أعمى".

بصفتك على العشب. "لو أن تشاغاتي فعل الشيء نفسه، كنت ستضحك وتقول لي إن الفتى يتمتع بشجاعة جده".

قال بهندوء متعباً من صوتهما وانتقادها: "كفى". كان اليوم قد فسد بالنسبة إليه، وتذكر مشاعر البهجة والسرور عندما جاء إلى ذلك المكان مع والده وأشقائه.

نظرت بورت إلى تعبير وجهه الغاضب. "إذا تغلب على تشاغاتي في العودة إلى أسفل التل، كيف سيكون رد فعلك؟".

أطلق لعنة، وكان مزاجه معكراً مثل حليب فاسد. لم يكن قد فكّر بأن جوشي ربما يفوز وكان يعرف أنه إذا حدث ذلك، لن يعانق الفتى بحضور بورت. جالست الأفكار في ذهنه من دون أن تستقر ولم يكن يعرف كيف سيتصرف على الإطلاق.

استمع تيموج إلى خاسار يتقوّه بتعبيرات غاضبة. كان شقيقه قد كسب مقداراً كبيراً من اللوذ بين أفراد الطاقم برّد فعله على الهجوم. في الأيام التي أعقبت تلك اللحظات المرعبة في الظلام، ضم شن بي بشكل معتاد المحارب المغولي إلى رفاهه على متن القارب. كان خاسار قد تعلم العديد من العبارات بلغتهم وشاركهم في نشاطهم وحصصهم من الأرز والقريس في المساء. بدا أن هو ساقد أصبح موضع ترحيب من قبل قبطان القارب، لكن تيموج تعتمد البقاء منفصلاً عنهم. لم تفاجئه رؤية خاسار يتصرف مثل حيوان مع الآخرين. لم يكن يفهم ذلك، وشمّنى تيموج أن يدرك خاسار أنه ليس أكثر من رامي سهام تم إرساله لحماية شقيقه الأصغر. كان جنكيز يعرف، على الأقل، الأهمية التي قد يمثلها تيموج بالنسبة له.

في الليلة التي سبقت مغادرتهم إلى النهر، كان جنكيز قد استدعى تيموج، وطلب منه أن يتذكر كل تفصيل عن أسوار باوتو، وكل جزء من الدفاعات. إذا فشلوا في العودة مع البناة الذين شيدوا المدينة، ربما تكون تلك المعرفة كل ما لديهم لشن حملة صليبية. كان جنكيز يتقوّه ذاكرة وذكاء تيموج الحاد اللذين كان واضحاً أن خاسار يفتقر إليهما. كان تيموج قد تذكر الحاجة للاستعجال بإحباط عندما مرّوا بقارب يقل امرأتين، ولوّح خاسار بقطع فضية لهما، يدعوهما إليه.

لم يكن هناك مكان منعزل في القارب، ولم يسمع تيموج سوى أن يحثق إلى الماء بدلاً من مراقبة المراتين وهما تسبحان عبر المسافة بين القاربين مثل ثعلبي بحر، تلمعان وترتعشان عندما صعدتا إلى القارب. كان شن بي قد ألقي بمرساة في المياه العميقة حتى تستطيع المراتان العودة سباحة من القارب.

أغلق تيموج عينيه لدى سماعه صوت المرأة الثانية. كانت رشيقة، جذابة في شبابه، على الرغم من أنها لم تكن قد نظرت باتجاهه عندما كانت تقبل نقود خاسار. لم تتوقف المرأة عن إصدار الأصوات التي كانت تصدرها إلا بعد أن تمكن خاسار من انتزاع النقود التي منحها إياها علوة وألقى بها بعيداً، مما أثار ضحك أفراد الطاقم الذين كانوا يراقبون ما يجري عندما دفعت المرأة خاسار بعيداً، وزحفت بحثاً عنها على يديها وركبتيها. راقب تيموج من طرف عينه عندما استغاد خاسار من الفرصة وجعلته قهقهة المرأة يشتم بصوت خافت. ما الذي سيعتقده جنكيز من هذا التأخير في مخططهم؟ كان جنكيز قد كلّفهم بمهمة لا مثيل لأهميتها بالنسبة للقبائل، وأوضح ذلك بجلاء. من دون معرفة كيفية الدخول إلى مدن تشن المحاطة بأسوار، لن يهزموا جنود الإمبراطور أبداً. جعل ذلك تيموج يستشيط غضباً بينما كان ينتظر أن ينتهي خاسار للمرة الثانية. كانوا قد أضاعوا اليوم وكان تيموج يعرف أنه إذا قال أي شيء، سيوبخه شقيقه أمام أفراد الطاقم. شعر تيموج بالإذلال. لم يكن قد نسي سبب تواجدهم هناك، حتى ولو نسي خاسار.

كان الظلام يشتد حلقة عندما رأت بورت جوشي بقود شقيقه المنهكين عائدين عبر النهر. كانت قدمه العارية لا تزال تنزف من الجري ووقف أمامها، وهو يلهث. انقطر قلب بورت على الفتى الصغير عندما بحث بنافثه عبثاً على والده. خرج شيء منه عندما رأى أن جنكيز لم يكن هناك. بصق الماء من فمه ولهث بصوت عالٍ في صمت السماء.

كذبت بورت: لقد تم استدعاء والدك إلى المعسكر. لم يصدقها جوشي. كانت تستطيع رؤية الألم في وجهه وأخفت إحباطها من زوجها ونفسها لأنها تجادلت معه.

قال جوشي فجأة: "سيكون قد ذهب إلى زوجته الجديدة، الغريبة". عضت بورت شفتها بدلاً من أن ترد. في ذلك أيضاً، كانت قد خسرت الرجل الذي تزوجته. مع ابنها البكر يقف مرتبكاً ومساءً أمامها، كان سهلاً أن تكره جنكيز لأدانيته. قرّرت دخول خيمة امرأة كزي كزيا إذا لم تستطع العثور عليه. ربما لم يكن يهتم لزوجه آنذاك، لكنه يهتم فعلاً بأبنائه وسوف تستفيد من ذلك لتعيده إليها.

جاء تشاغاتاي وأوجيدي يتعثران في الظلام، وبصق كل فتى الماء كما قيل له. نتيجة غياب والدهم لرؤية ذلك، كان النصر خالياً من المعنى وبدوا مثل الخاسرين.

قالت بورت، وعيناها تلمعان بالدموع: "سأخبره كيف جريتم".
لم يكن ذلك كافياً لهم، وكانوا صامتين ومشاعره مجروحة عندما امتطوا
أفراسهم للعودة إلى البيت.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الثاني عشر



قال هو ما للشقيقين إنه ينبغي ركوب عربة للانتقال إلى باوتو البعيدة بضعة أميال عن الميناء النهري المزدهم الذي يمدّها بأسباب الحياة. كانت المدينة آخر مركز تجاري بين تشن الشمالية ومملكة كزي كزيا والنهر يعج بالقوارب في الوقت الذي شدّوا فيه الرحال إلى المنطقة. كانت الرحلة قد استغرقت ثلاثة أسابيع منذ تخلّوا عن جيادهم، وكان تيموج على الأقلّ منزعجاً من التأخير، ومن ضباب النهر الرطب، ومن تناول الأرز والأسماك. كان شن بي وأفراد طاقمه يشربون من النهر من دون أن يتأثروا، وبدا أن خاسار يمتلك معدة من حديد، لكن أمعاء تيموج أصيبت بالوهن ثلاثة أيام، وتركته في حالة يرثى لها وملابسه ملوثة. لم يكن قد تناول أو حتى رأى أسماكاً أبداً من قبل، ولم يكن يثق بالأشياء القضيبة الحراشف التي تخرج من النهر. بدا أن أفراد الطاقم يستهجون بها عندما يجذبونها إلى القارب بأسلاك رفيعة، وهي تهتز وتقلب بجنون فيما الرجال يضربونها على رؤوسها. كان تيموج قد غسل ملابسه بعد أن اتسخت، لكن معدته بقيت تفرقع وتُخرج هواء سيئاً من كلا الطرفين.

عندما أخذ النهر الأصفر يتلوى بين التلال، أصبح بالإمكان رؤية المزيد من الطيور، التي تعيش على فتات من القوارب والتجار. كان تيموج وخاسار مذهبولين من العدد الكبير للرجال والقوارب التي تحمل الشحنات إلى أعلى وأسفل النهر، وكان ذلك المكان مزدهماً أكثر من أي مكان آخر شاهدوه من قبل. على الرغم من أن شن بي بدا قادراً على سلوك ممر عبر ذلك الازدحام بتعديل الشراع فقط، إلا أن العديد من البحّارة كانوا يحملون عصياً طويلة لإبعاد القوارب الأخرى. كانت الضوضاء والقوضى تعمّان المكان، مع وجود مئات التجار الذين يصرخون متنافسين لبيع أي شيء من الأسماك الطازجة إلى الملابس التي أفسدها الماء لكن يمكن على الرغم من ذلك الاستفادة منها في الحصول على قطع قماشية صغيرة. عبقّت رائحة توابل غريبة في الهواء عندما كان شن بي يناور بين منافسيه، يبحث عن مساحة يرسو فيها القارب في الليل.

كان شن بي معروفاً تماماً في تلك المياه، وراقب تيموج بعينين دقيقتين بينما كان أصدقائه يحتونونه مراراً وتكراراً. على الرغم من حقيقة أن أفراد الطاقم اعثثوا على قبول خاسار كفرد منهم، إلا أن تيموج لم يكن يثق ببطان القارب الصغير. كان يتفق مع هو سا على أن الحمولة ربما كانت مليئة ببضائع مهربة، لكن ربما يستطيع الرجل كسب المزيد من النقود بالإبلاغ عن وجودهم لجنود الإمبراطور. كان البقاء على القارب من دون التأكد من أنهم بأمان يمثل عامل يؤثر ضاعطاً على الرجال الثلاثة.

كان واضحاً أنها لم تكن صدفة أن يتزامن وصولهم إلى الميناء النهري مع حلول المساء. كان شن بي قد أخر عبورهم حول منعطف في النهر، ولم يتنازل بالرد عندما ضغط عليه تيموج للاستفادة من الوقت. مهما كانت حمولته، سيتم تفرغها في الظلام، عندما يكون جباة الضرائب وجنودهم أقل استعداداً.

همهم تيموج غاضباً بصوت خافت. لم يكن يهتم إطلاقاً لمشكلات شن بي. كانت مهمته الوصول إلى الرصيف بأسرع ما يمكن قبل أن يشق طريقه إلى المدينة. كان هو سا قد قال إن الأمر لا يستغرق سوى بضع ساعات من السير على الأقدام على طريق جيدة، لكن الأشكال والأصوات الغريبة حولهم في كل مكان جعلت تيموج متوتراً وأراد أن يتحرك. كان أفراد الطاقم يشعرون بالتوتر أيضاً بعد أن وجدوا مكاناً يرسو قاربهم فيه وينتظرون دورهم على الرصيف المتداعي.

لم يكن منظر الميناء النهري مثيراً للإعجاب حتى ينظر المرء إليه، ويتألف من بضع عشرات من الأبنية الخشبية فقط التي تبدو أنها تميل لتدعم بعضها. كان مكاناً صغيراً مهماً، مبنياً للتجارة وليس للراحة. لم يكن تيموج يمانع ذلك، لكنه استطاع رؤية جنديين مسلحين جيداً يراقبان كل ما يتم تفرغته ولم يكن يريد أن يلفت انتباههما. سمع تيموج شن بي يتكلم بصوت خافت إلى أفراد طاقمه، وكان واضحاً أنه يصدر أوامر لأتباعهم كانوا يحنون رؤوسهم بإيماءات حادة. حاول جاهداً إخفاء غضبه من تأخير آخر. كان ورفيقاه سيغادرون النهر بسرعة ويتبعون عن ذلك العالم الصغير الغريب الذي لم يفهمه. لوقت قصير، كان قد تساءل ما إذا كان باستطاعته شراء مخطوطات في سوق القوارب، لكن لم تكن هناك إشارة على مثل تلك التجارة ولم يكن لديه ميل لقوالب سكب الفضة أو التماثيل الصغيرة المزخرفة. كان فتيان يجذفون زوارق صغيرة مصنوعة من القصب ويقتربون من أي قارب جديد وهم يحملون تلك الأشياء بقضائهم المشخفة. نظر تيموج بثبات إلى الأولاد الأشقياء حتى مروا من جانبه. كان مزاجه سيئاً للغاية في الوقت الذي جاء فيه شن بي إلى مؤخر السفينة للتكلم مع ركابه.

قال: ينبغي أن ننظر حتى يفرغ مكان على الرصيف. ستكونون على طريقكم قبل منتصف الليل، أو بعد بضع ساعات. لإزعاج تيموج، أو ما الرجل القصير إلى خاسار.

قال: إذا لم تكن تأكل كثيراً، أريدك أن تنضم إلي كأحد أفراد طاقمي. لم يفهمه خاسار، لكنه ربت على كتف شن بي رداً على ذلك. كان قد نفذ صبره أيضاً ويرغب بمتابعة الطريق، وشعر القبطان القصير بمزاج ركاية.

قال: إذا أردتم، يمكنني إيجاد مكان على العربات لتأخذكم إلى المدينة. سيكون السعر عادلاً.

لاحظ تيموج أن الرجل يراقبهم عن كثب. لم تكن لديه أدنى فكرة ما إذا كانت الرحلة إلى باوتو سهلة أم لا، لكنه كان يشك بأن أي تاجر سيرفض عرضاً لركوب عربة. كانت فكرة السفر مسافة أطول ونظرات شن بي المتشككة تلاحقهم وترعجهم، لكنه أرغم نفسه على الابتسام وردّ بلباقة شن بي.

قال: "سنقول لك نعم، إلا إن كان تفريغ حمولتك سيطول".

هزّ شن بي كتفيه غير مهبال. لذي أصدقاء هنا للمساعدة. لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. لستم صبورين مثل التجار، على ما أعتقد. ابتسم بينما كان يتكلم، لكن عينيه بقيتا ثابتتين عليهم، تتلقق في كل التفاصيل. كان تيموج متقناً لأن خاسار لم يكن يفهم ما يدور. كانت معرفة ما يدور في خلد شقيقه أسهل من قراءة خريطة.

قال تيموج، وهو يستدير مبتعداً ليؤكد أن شن بي فهم أنهم صرّفوه: "سنقرر لاحقاً". ربما كان الرجل سيتركهم وشأنهم، لكن خاسار أشار إلى الجنود على الرصيف.

قال لهو سا: "أسأله عن هؤلاء الرجال. نريد أن نتجاوزهم وأعتقد أنه يريد ذلك أيضاً. أسأله كيف سيفرغ حمولته من دون أن يلفت انتباههم".

تردد هو سا، ولم يكن يريد أن يعرف شن بي أنهم ختموا أن بضاعته غير قانونية أو لم يدفع الضرائب المترتبة عليها. لم يكن يعرف كيف سيكون رد فعل الرجل. قبل أن يتكلم، تألف خاسار.

قال وهو يشير إلى الجنود مجدداً: "شي بي".

رفع القبطان يده وضغط على نراع خاسار ليخفضها قبل أن يرى أحد الإشارة.

قال: "لذي أصدقاء على الرصيف. لن تكون هناك مشكلة. باوتو مدينتي التي

ولدت فيها، هل تفهم؟".

ترجم هو سا، وأوماً خاسار برأسه.

قال تيموج: "ينبغي أن نراقب هذا الشخص يا شقيقي. لا يمكنه أن يغدر بنا فيما يقوم بتفريغ حملته، وإلا سيلقت الكثير من الانتباه إلى ما كنا نجلس عليه طيلة الأسابيع القليلة الماضية".

رد تيموج بصوت حاد: "شكراً لاهتمامك. كنت قد فكرت بما ينبغي بنا فعله. سنقبل عرضه بالذهاب إلى المدينة وتجاوز الأسوار معه. بعد ذلك، سنعثر على رجالنا ونعود".

كان يتكلم وهو يعرف أن شن بي لا يفهم ما يقوله، لكن على الرغم من ذلك كان هناك هاجس يحدث أمر سيئ. كان العثور على البناة في باوتو جزءاً واحداً من خطة لم يستطيعوا وضعها عندما هاجموا مملكة كزي كزيا. لم يكن أحد يعرف سهولة التعرف إليهم، أو المخاطر التي سيتعرضون إليها في المدينة. حتى إذا حالقهم النجاح، لم يكن تيموج على الرغم من ذلك واثقاً أنهم يستطيعون إخراج أسرى رغباً عنهم فيما صرخة مساعدة قد تجعل الجنود يهرعون لتليتها. فكر في ثروة الفضة التي كان جنكيز قد زوده بها لتسهيل مرورهم.

قال: "هل ستعود إلى النهر يا شن بي؟ ربما لا نمكث طويلاً في المدينة".
لخيبة أمه، هز الرجل رأسه. "أنا في وطني الآن وهناك أشياء كثيرة ينبغي بي القيام بها. لن أغانر مجدداً قبل عدة شهور".

تذكر تيموج كم دفعوا من مال لتلك الرحلة، كما لو أن شن بي كان متردداً في المضي قدماً.

سأل غاضباً: "إذا، أنتم تأتون إلى هنا دائماً؟".

ابتسم له شن بي. رد وهو يضحك بصوت خافت: "الفقراء لا يأتون إلى باوتو".
حنق تيموج إليه حتى مشى عائداً إلى أفراد طاقمه.

تمتم هو سا: "لا أثق به. إنه ليس قلقاً من الجنود على الرصيف. إنه يحمل شيئاً شميناً بما فيه الكفاية ليخاطر بالتعرض لهجوم مسلح، وهو معروف جيداً لكل القباطنة الآخرين في باوتو. لا أحب هذا على الإطلاق".

قال تيموج، على الرغم من أن الكلمات أزعجته: "سنكون مستعدين". كان كل الرجال على الرصيف وفي النهر أعداء، وكان يأمل بأن يمروا بينهم من دون أن يثيروا ريبه أحد. كان جنكيز قد علق آماله عليهم، في بعض الأحيان كانت مهمتهم تبدو مستحيلة.

ارتفع القمر مثل قطعة فضية عليها جليد أبيض، وألقى شعاعاً خافتاً من الضوء على المياه. سمع تيموج إن كان شن بي قد خطط لوصولهم بدقة أكبر حتى مما

أدركه. كانت الليلة المظلمة ستاراً في البداية، وحلّ شئ بي الحبال التي تربطهم إلى دعامة على ضفة النهر وأرسل اثنين من أفراد الطاقم للعمل على مجذاف التوجيه في مؤخر القارب. بينما كان القارب يتأرجح يمينا ويساراً، استعمل شئ بي نفسه عموداً طويلاً ليكون ممراً إلى الرصيف. أطلق رجال يشعرون بالنعاس عليه الشتائم عندما ارتطم العمود بخشب الرصيف، وصدر عنه صوت مكتوم في الظلام. اعتقد تيموج أن القمر قد تحرك في الوقت الذي كانوا فيه على وشك الوصول إلى الرصيف نفسه، على الرغم من أن شئ بي بالكاد تعرق من العمل الذي قام به.

كان الميناء عاتماً، على الرغم من أن أضواء كانت لا تزال تظهر في نوافذ بعض الأبنية الخشبية ويمكن سماع ضحكات في مكان ما داخلها. كان اللمعان الأصفر من تلك الأماكن هو كل ما يحتاجه شئ بي لتلمس طريقه على الرصيف وكان أول من وثب على الأغواخ الخشبية، ممسكاً حبلأ في يده ليربط القارب. لم يكن قد أصدر أمراً بالتزام الصمت، لكن لم يتكلم أحد من أفراد الطاقم فيما كانوا يفكّون الشراع. حتى أصواتهم وهم يفتحون مصراعي باب عنبر الحمولة كانت مكتومة.

تنفس تيموج الصعداء مطولاً عندما وصل الأرض، لكن في الوقت نفسه، شعر بنبضه يتسارع. كان يمكن رؤية بعض الأشكال المبهمة، مستلقية أو نائمة. جال تيموج ببصره عليها، متسائلاً إن كانوا متسولين، غائيات أو حتى مخبرين. كان الجنود الذين رأهم مستعدين بالتأكيد لمراقبة رسو زورق في الليل. كان تيموج يخشى صرخة مفاجئة أو اندفاعاً من رجال مسلحين يمكن أن يقضي على كل ما أنجزوه حتى ذلك الوقت. كانوا قد وصلوا إلى المدينة التي أرادها جنكيز، أو على الأقل إلى أقرب نقطة على النهر المؤدي إليها. ربما لأنهم كانوا قريبين جداً من هدفهم، أصبح مقتنعاً أن الأمر لن يتمخض عن شيء وتسلل خلف الآخرين ليعبر متن القارب إلى الأغواخ الخشبية، وتعرّض في أثناء قيامه بذلك. كان هو سا من أمسك بذراعه حتى لا يقع، فيما اختفى خاسار في الظلام.

لم يكن تيموج يرغب بشيء أكثر من ترك القارب وطاقمه خلفه، لكنه كان لا يزال قلقاً من أن يغدر بهم شئ بي. إن كان القبطان قد فهم أهمية قيام خاسار بحمل قوس مغولي معه، ربما تنفذه المعلومات من ورطة. في أرض غريبة، حتى مع مساعدة هو سا، سيكون هناك ضغط شديد لتفادي التكفيق في وضعهم، خاصة من قبل شخص يعرف أنهم متجهون إلى باوتو.

صدر صوت صرير في الظلام، ومدّ تيموج يده إلى سكينه. أرغم نفسه على الاسترخاء عندما شاهد عربتين تفترقان، تجرهما بغال تظهر آثار تنفسها في الهواء

السيارد. ترجل السائقان، وتكلما بصوت منخفض مع شن بي، وضحك أحدهما بصوت خافت عندما بدأوا تفريغ حمولة القارب الصغير. لم يسع تيموج سوى أن يركّز عينيه لمرؤية ما يخرج من القارب، لكنه لم يثبّن التفاصيل. كان الشيء الذي يحمله الرجال ثقيلًا، وأمكن معرفة ذلك من الأصوات التي يطلقونها عندما يرفعونه. وجد تيموج وهو سا نفسيهما يقتربان منهم، يدفعهما الفضول. كان خاسار من تكلم في الظلام وهو يمر حاملًا شيئًا داكنًا على كتفه.

همس لتيموج: "حرير. لقد تحصست طرف القماش". سمعاه يتأفف بينما كان يضع ما يحمله في أقرب عربة قبل أن يعود إليهما.

همس: "إذا كانت كل البضاعة هكذا، هذا يعني أننا نقوم بتهريب الحرير إلى المدينة".

عض هو سا على شفته من دون أن يلاحظه أحد. "يمثل هذه الكمية؟ لا بد أنها جاءت من كيفنغ أو ينكينغ نفسها. تستحق مثل تلك الحمولة وجود أكثر من بعض البحارة للدفاع عنها".

سأل خاسار بصوت عالٍ جعل تيموج يفزع: "كم ثمنها؟".

رد هو سا: "آلاف القطع الذهبية. ما يكفي لشراء مئة قارب مثل هذا ومزول إقطاعي لوضع الحرير فيه. شن بي هذا ليس تاجرًا صغيرًا أو لصًا. إذا كان قد رتب لنقل هذه البضاعة عبر النهر، لا بد أن ذلك كان فقط لصرف انتباه أولئك الذين ربما يسرقونها. حتى عندها، ربما كان خسر كل شيء لو أننا لم نكن على متن القارب". فكر لحظة قبل أن يتابع كلامه.

"إذا كان العنبر مليئًا، لا يمكن أن تكون البضاعة سوى من المستودعات الإمبراطورية. لا يتعلق الأمر بدفع الضرائب عليها. إنها محمية تمامًا قبل البيع. ربما تكون هذه المرحلة الأولى من مسار تقطع فيه آلاف الأميال إلى مقصدها النهائي".

سأله خاسار: "ماذا يهمنا في ذلك؟ ما زلنا بحاجة للدخول إلى المدينة وهو الشخص الوحيد الذي يعرض علينا اصطحابنا معه".

سحب هو سا نفساً عميقاً لإخفاء نوبة غضب. "إذا كان أحد يبحث عن الحرير، سنكون هدفًا أكثر مما إذا كنا لوحدها. هل تفهم؟ قد يكون أسوأ شيء نفعله هو السفر إلى باوتو مع هذه البضاعة. إذا فتش حراس المدينة العربيتين، سيتم احتجازنا وتعذيبنا لقول كل ما نعرفه".

شعر تيموج بمعنّته تتقلص من الفكرة. كان على وشك إصدار أمر لمراقبيه بمغادرة القارب عندما ظهر شن بي عند كتفه. كان يحمل مصباحاً زيتياً، لكن يمكن

رؤية وجهه في الضوء الخافت. كان تعبيره متوتراً مثلما كانوا يرونه دائماً، ويلمع من العرق.

قال: "اصعدوا، جميعكم". فتح تيموج فمه لتقديم عذر ما، لكن أفراد الطاقم كانوا قد تركوا قاربهم. كانوا يحملون سكاكين ووقفوا مستعدين، ولم يستطع تيموج العثور على كلمات لتهدئة خوفه المتزايد. كان واضحاً تماماً أنه لن يكون مسوحاً للركاب بمغادرة المكان ببساطة تحت جناح الليل، ليس بعد ما رأوه.

بدا أن شن بي يشعر بانزعاجه وأوما له. قائلاً: "لا تتمنى أن تشق طريقك بنفسك إلى المدينة في الظلام. لن أسمح بذلك".

فزرع تيموج، ومدّ يديه ليدفع بنفسه إلى إحدى العربتين. لاحظ كيف أشار أفراد الطاقم إلى هو سا ليصعد إلى العربة الثانية فيما سمحوا لخاسار بالصعود إلى الأولى بجانب شقيقه. بشعور غامر، أدرك أن شن بي كان قد فرقهم عمداً. تساءل إن كان سيرى باوتو أم سيتم إلقاؤه جانب الطريق وحجرته ممزقة. كانوا على الأقل لا يزالون يحملون أسلحتهم. كان خاسار يحمل قوسه ملفوفاً بقماش وتيموج يحمل سكينه الصغيرة، على الرغم من أنه كان يعرف أنه لا يستطيع شق طريقه بالقوة.

بقيت العربتان ساكنتين حتى خرجت صافرة خافطة من ظلال ألبية الميناء. قفز شن بي بهنوء عن العربة، وأطلق صافرة جوابية. راقب تيموج بقلق بينما كان شكل داكن يفصل نفسه عن الظلال ويمشي نحو مجموعتهم الصغيرة. كان أحد الجنود، أو شخصاً يشبههم إلى حد كبير. تكلم الرجل بنبهة منخفضة، وكافح تيموج لسماع الكلمات. شاهد شن بي يسلم الرجل حقيبة جلدية ثقيلة، وسمع صوت الرجل السعيد من الوزن.

قال شن بي: "أعرف عائلتك يا يان. أعرف قريبك، هل نقيم؟". تسمّر الرجل في مكانه وقد فهم التهديد. ولكنه لم يرد.

قال شن بي: "أنت أكبر من أن تكون حارس ميناء. بين يديك ما يكفيك لشراء نقاعذك، ربما شراء أرض زراعية صغيرة، مع زوجة ودجاج. ربما حان الوقت لتترك الميناء خلفك".

أوما الرجل في الظلام، وضع الحقيبة إلى صدره.

"إذا تم إلقاء القبض علي يا يان، لدي أصدقاء سيجدونك بغض النظر عن المكان الذي ستهرب إليه".

أوما الرجل برأسه مجدداً، متشنجاً. كان خوفه واضحاً وتساءل تيموج مجدداً عن هوية شن بي، وما إذا كان ذلك اسمه الحقيقي. بالتأكيد لن يثق أحد بوضع شحنة من الحرير الإمبراطوري المسروق بأيدي قبطان قارب بسيط.

اختفى الجندي بين الأبنية، وتحرك بسرعة مع تلك الثروة الكبيرة بين يديه. صعد شن بي مرة أخرى إلى العربة، وطلق السائقان بلسانيهما للبالغ لحثها على الانطلاق. ترك تيموج أصابعه تتلمس تحته بحثاً عن ملمس الحرير، لكنها وجدت بدلاً من ذلك قماشاً خشناً بخطوط تطريز كثيفة. كان الحرير مخفياً، لكنه تمنى أن يكون لدى شن بي المزيد من الرجال المرتشين الذين ينتظرون في باوتو. كان لا يشعر بما يجري حوله، مأخوذاً بالأحداث التي لا يمكنه السيطرة عليها. تفتيش واحد جيد عند أسوار المدينة ولن يرى جبال خينتي مجدداً. كما كان كوكشو قد علمه، تضرع إلى الأرواح لتقوده بأمان عبر المياه الداكنة للأيام القادمة.

بقى أحد أفراد الطاقم خلفهم لإعادة القارب إلى النهر. وحيداً، لم يكن يستطيع السيطرة عليه بسهولة وظن تيموج أنه سيقرب في مكان ما بعيداً عن أنظار المسؤولين الذين يستلمسون عن كل كبيرة وصغيرة. لم يكن شن بي من صنف الرجال الذين يقترفون الأخطاء، وتمنى تيموج أن يعرف ما إذا كان الرجل عدواً أم صديقاً.

كان تقدير هو ما للمسافة إلى باوتو صحيحاً، كما خمن تيموج. كانت المدينة مبنية على بعد حوالي ثمانية أميال من النهر؛ على بعد خمسة وعشرين لي، وفقاً لتقدير تشن للمسافات. كان الطريق جيداً، ممهداً بحجارة مسطحة غير مكسورة بحيث يستطيع التجار قطع المسافة من النهر بوقت معقول. كان القجر قد بدأ للتو بيزع عندما مَدَّ تيموج عنقه وشاهد الظل الداكن لسور المدينة يقترب منهم. مهما كان الذي سيجري، سواء أكان تفتيشاً للعربتين ينتهي بموته أم دخلاً هادئاً إلى باوتو، فإنه سيحدث بسرعة. شعر بعرق القلق ينخز جلده وحك إبطيه. إلى جانب الخطر القائم آنذاك، لم يكن قد دخل أبداً مدينة مبنية من الحجارة من قبل. لم يكن يستطيع إبعاد صورة تل من النمل يبتلعه بطريقة ما إلى حشد متدافع من الغرباء. كانت فكرة قيامهم بالضغط عليه قد جعلته يتفلس بصعوبة، ويشعر بالخوف. كان يشعر بعائلات شعبه بعيدة جداً عنه. مَدَّ تيموج عنقه نحو الظل الداكن الذي كان شقيقه، وكاد يمس أنه بشقيقه حتى لا يسمعه أحد.

"إذا اكتشفوا أمرنا عند البوابة، أو تم العثور على الحرير، ينبغي أن نهرب ونجد مكاناً نخفي فيه في المدينة".

حقق خاسار إلى حيث كان شن بي يجلس في مقمة العربة. "لنأمل ألا يصل الأمر إلى ذلك الحد. لن نجد بعضنا مجدداً أبداً، وأعتقد أن صديقنا ليس مجرد مهرّب بسيط".

استقام تيموج في جلوسه على الكيس القاسي عندما استدار شن بي لينظر إليهما. في الضوء الذي أخذ يشتد، كان الذكاء في نظرة الرجل القصير مريباً، ونظر تيموج خلفه إلى سور المدينة، وشعر بقلقه يتزايد.

لم يكونوا وحدهم على الطريق آنذاك. أظهر ضوء الفجر صفاء من العربات يتجمع أمام البوابات. وكانت قد أمضت الليل على الطريق، تنتظر أن يُسمح لها بالدخول. تجاوز شن بي تلك العربات وسط صخب ركابها، متجاهلاً الرجال المتناهبين الذين فقدوا مكانهم في الصف. انتشرت حقول الطين الأحمر إلى مسافات بعيدة، وكان كل حصاد الأرز يذهب لإطعام المدينة. لاحت باونو فوالهم جميعاً، وابتلع تيموج ريقه عندما نظر إلى الأعلى مراراً وتكراراً على الحجارة الضخمة.

كانت بوابة المدينة بناءً ضخماً من الخشب والحديد، ربما لإثارة إعجاب المسافرين. على كلا جانبيها، كان هناك برجان يزيد ارتفاعهما عن البوابة بمرة ونصف، مع جسر بينهما. كان يمكن رؤية الجنود هناك، وعرف تيموج أنهم يشاهدون بوضوح كل ما يمر تحتهم. رأى أنهم يحملون أقواساً، وشعر بمعدته تنقلص.

انفتحت البوابة، وحدث تيموج عندما دفعها المزيد من الجنود إلى الخلف، وملعوا الدخول بعمود خشبي له ثقل موازٍ. لم تتحرك أقرب العربات بينما كان الجنود يأخذون مواقعهم، مستعدين لعمل اليوم. شد سائقا شن بي اللجامين بهدوء، وأوقفا البغال. لم يظهر عليهما الخوف الذي كان تيموج يشعر به، وكافح ليتذكر الوجه القاسي الذي عرفه فتى صغيراً. لم يكن مفيداً أن يراه الجنود يتعرق في صبيحة يوم بارد، وفرك رذنيه على جبينه.

خلفهم، شد تاجر آخر لجام مطيته وتوقف، ونادى بتحية مرححة شخصاً إلى جانب الطريق. تحرك صف العربات ببطء إلى داخل المدينة، ورأى تيموج أن الجنود يوقفون واحدة من بين كل ثلاثة، ويتبادلون أحاديث مقتضبة مع السائقين. كان قد تم رفع العمود الخشبي للمرة الأولى ولم يتم إنزاله مجدداً. بدأ تيموج تكرار عبارات الاسترخاء التي كان كوكشو قد علمه إياها، مستمداً الراحة من معرفته بها. أغنية الريح. الأرض تحت القدمين. أرواح التلال. تحطيم السلاسل.

كانت الشمس قد ارتفعت عن الأفق في الوقت الذي وصلت فيه أولى عربتي شن بي إلى البوابة. كان تيموج يراقب أسلوب المفتشين، وفكر أنهم قد يمرون من دون ترحيب عندما تم تفتيش التاجر أمامهم والسماح له بالدخول. بخوف متزايد، رأى

الجنود ينظرون إلى سائق شن بي الذي لم تكن تبدو على وجهه أي تعبيرات. بدا أحدهم أكثر تأهباً من مرافقيه النعسانين وكان هو من تقدم إلى الأمام.

سأل الجندي: "ماذا ستفعل في باوتو؟". كان يوجه كلامه للسائق الذي شرع في الإجابة من دون ترابط. شعر تيموج بقلبه ينقبض عندما نظر شن بي من فوق رأس الجندي إلى المدينة. كانت خلف البوابة ساحة مكشوفة وسوق دبّ النشاط فيه للتو مع خيوط الفجر الأولى. رأى تيموج شن بي يشير بحذّة وكان هناك فجأة صوت حطام بين الأكشاك جعل الجندي يستدير إلى الخلف.

بدا أن الأطفال المتدافعين يأتون من كل أنحاء الساحة، يصرخون وينحرفون في مسارهم لتفادي أي صاحب محل. لدهشة تيموج، شاهد أشرطة من الدخان تخرج من أكثر من مكان وسمع الجندي يطلق للثلاثم ويصدر أوامر لمرافقيه. نادعت الأكشاك وانهار العديد منها عندما تم ركل الأعمدة التي تحملها. ارتفعت صرخات "حرامي!" وزدانت القوضى مع كل لحظة.

لطم الجندي عند البوابة عربة شن بي بقوة، على الرغم من أنه لم يكن واضحاً إن كان ذلك أمراً بالتوقف أو السير. مع خمسة آخرين، جرى للسيطرة على ما أصبح بسرعة شغباً. خاطر تيموج بإلقاء نظرة خاطفة إلى الأعلى، لكن رماة السهام على الجسر كانوا غائبين عن ناظره. كان يأمل بأن يكون ذلك قد شتّت انتباههم أيضاً وأرغم نفسه على التحديق إلى الأمام عندما طلق سائق شن بي بفسه ودخل المدينة.

اشتعلت النار في الساحة الصغيرة، وانتقلت من كشك إلى آخر، وطفقت ألسنتها مع أصوات الباعة. رأى تيموج جنوداً يركضون، لكن الأولاد كانوا سريعين واختفوا آنذاك في الشوارع والأزقة، وبعضهم يحمل بضائع مسروقة.

لم ينظر شن بي إلى القوضى بينما كانت عريته تبعدان عن الساحة إلى طريق أكثر هدوءاً. تضاملت الأصوات خلفهما، واسترخى تيموج على الأكياس، بمرح العرق عن جبينه.

كان يعرف أن تلك لم تكن مصادفة. كان شن بي قد أعطى إشارة. مرة أخرى، تسامع تيموج بشأن الرجل الذي التقوا به في النهر. مع مثل تلك الحمولة الثمينة بحوزته، ربما لم يكن يهتم بشأن بضع قطع نقدية إضافية على الإطلاق. ربما كان يريد فقط بعض الرجال الإضافيين للدفاع عنها.

ساروا عبر مآهة من الطرق، واستداروا مراراً وتكراراً إلى مسارات أصغر بين البيوت. شعر تيموج وخاسار بأنهما محاصران بين الأبنية، التي كانت قريبة جداً لدرجة أن الشمس لم تكن تستطيع مس الظلال التي تتشكل بينها. ثلاث مرات، تم

إرغام عربات أخرى على التراجع إلى أزقة جانبية لتسمح لهم بالعبور؛ وعندما ارتفعت الشمس، امتلأت الشوارع بعدد من الناس أكبر مما كان يتخيله تيموج أو خاسار. رأى تيموج اثني عشر محلاً يقدم طعاماً ساخناً في أوعية فخارية. لم يكن يستطيع أن يتخيل العثور على طعام كلما كان المرء جائعاً، من دون أن يضطر للذبح أو اصطياد حيوان للحصول على لحمه. كان عمال النهار يتجمعون حول التجار، يأكلون بأصابعهم ويمسحون أفواههم بقطع قمائية قبل العودة إلى العمل. كان العديد منهم يحمل قطعاً برونزية منقوبة مربوطة بسلك أو خيط. على الرغم من أن تيموج كان يعرف قليلاً قيمة الفضة، إلا أنه لم يكن قد رأى من قبل مقايضة القطع النقدية بالبيضائع وتعجب من كل ما هو جديد عليه. رأى رجالاً طاعناً في السن يكتب صكوك دفع، نجاجاً يزعم معروضاً للبيع، أكوام سكاكين ورجالاً يشحنونها على حجارة تنور بين أقدامهم. رأى صيغ الملابس باللون الأزرق أو الأخضر، متسولين وباعة تعاويز ضد الأمراض. كان كل شارع مزدحماً، يعلو فيه الصراخ ويمتلئ حيوية؛ ولدهشته، أحب تيموج ذلك.

قال بصوت خافت: "هذا رائع".

نظر إليه خاسار. وردّ قاتلاً: "هناك الكثير من الناس والمدينة كريهة". أشاح تيموج بنظيره بعيداً، غاضباً من شقيقه الأحقر الذي لم يستطع رؤية المتعة في مثل ذلك المكان. لبعض الوقت، كاد ينسى الخوف الذي كان يعتل في داخله. كان لا يزال يتوقع أن تعلو صرخة بطريقة ما، كما لو أن حراس البوابة تبعوهم إلى ذلك المكان في متاهة باوتو. لم يحدث ذلك ورأى شن بي يسترخي عندما شقوا طريقهم أبعد وأبعد عن الأسوار، واختفوا في قلب المدينة الكبيرة.

الفصل الثالث عشر



سارت العربتان على شوارع مرصوفة بالحجارة حتى وصلتا إلى بوابتين حديديتين متينتين، فتحتا حالما اقتربتا منهما. استغرق الأمر لحظات حتى دخلت العربتان، وتم إغلاق البوابتين خلفهما. نظر تيموج إلى الخلف، وعض شفته عندما شاهد مصراعين خشبيين يوضعان فوق الحواجز الحديدية، ويسدان الرؤية عن المارة. بعد الضوضاء وتجمهر الناس، كان ذلك سيعد مريحاً إن لم يكن براوده شعور بأنه محاصر. كانت المدينة قد جعلته مذهولاً ومفتوناً بتعقيدها. على الرغم من أنها كانت تثيرة، إلا أنها كانت تضغط بقوة على أحاسيسه، وتجعله يتوق للسهول المكشوفة، فقط ليأخذ نفساً قبل أن ينغمس فيها مرة أخرى. هز رأسه لتتقيه أفكاره، وكان يعرف أنه بحاجة لذهن صافٍ لمواجهة ما ينتظره.

أصدرت العربتان صوت صرير، وتمالمتا عندما قفز الرجال عنهما، وكان شن يي يطلق أوامر لأولئك الذين من حوله. ثرجل تيموج لينضم إلى خاسار، وقد عادت عصبيته بكامل قوتها. بدا أن شن يي يكاد لا ينتبه لركابه عندما خرج حشد من الرجال من المبنى يهرولون إليه، وحمل كل اثنين منهم لغة من الحرير على كتفهما. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى اختفت الحمولة الثمينة داخل المبنى وتساءل تيموج مجدداً عن الشبكة العنكبوتية من العلاقات التي يبدو أن شن يي يمتلكها في المدينة.

كان المبنى الذي يضم الساحة المرصوفة ملكاً بالتأكيد لرجل ثري، كما فكر تيموج. لم يكن على طراز البيوت نفسه التي مرّوا بها، على الرغم من أنه ربما كانت هناك بيوت أخرى أيضاً مخفية. طابق واحد مع سطح من الحجر الأحمر الذي يمتد بكل الاتجاهات حوله، على الرغم من أن القسم المواجه للبوابة يرتفع بنقاط استناد إلى مستوى ثانٍ. طرفت عينا تيموج إعجاباً بالعمل الذي تطلبتته مئات وربما آلاف قطع الحجر. لم يسمعه سوى مقارنة البناء بخيام التباد وأغصان الصفصاف التي كان قد عرفها كل حياته وشعر بالاحسد. ما هو الترف الذي عرفه شعبه من قبل في السهول؟

من كل الجوانب، كان السطح يمتد متجاوزاً الجدران، تحمله أعمدة من خشب مطلي باللون الأحمر لتشكل ممراً طويلاً. وقف رجال مسلحون عند الزوايا، وبدأ تيموج يدرك أنه ومرافقه سجناء شن بي. لم يكن هناك طريقة سهلة للهروب من ذلك المكان.

عندما سم تفرغ العريتين، قادهما السائقان بعيداً، وبقي تيموج واقفاً مع هو سا وخاسار، يشعر بأنه غير حصين تحت نظرات الغرباء. لاحظ أن خاسار كان قد مّد يده داخل قطع القماش التي تلف قوسه.

همس لخاسار، الذي قفز عندما ترددت أصداة أفكاره: "لا يمكننا شق طريق خروجنا بالقوة".

همس خاسار له: "لا أرى أحداً يفتح البوابتين ليسمح لنا بالخروج".

كان شن بي قد اختفى داخل المبنى، وشعر الرجال الثلاثة بالراحة عندما رأوه يعود إليهم. كان قد ارتدى ثوباً أسود طويل الردين، وانتعل خفاً جليداً. رأى تيموج أن الرجل القصير يضع سيفاً معقوفاً على رقبته، وبدأ مرتاحاً مع ثقله.

قال شن بي لدهشة تيموج الخاصة: "هذا جيا خاصتي: بيتي. أهلاً بكم فيه. هل تأكلون معي؟".

قال هو سا مشيراً نحو البوابة: "لدينا عمل في المدينة".

تقطب حاجبا شن بي. لم يكن هناك أثر لقبطان القارب النهري النمت في سلوكه. بدا أنه يتقن ما يقوم به تماماً ووقف ويداه مشبوكتان خلف ظهره، ووجهه صارم.

"أنا أصر. لدينا الكثير من الأمور نناقشها". من دون أن ينتظر ردهم، مشى عائداً إلى البيت ولحقوا به. ألقي تيموج نظرة مترتبة من فوق كتفه على البوابة بينما كان يدخل ظل الممر. كبت ارتعاشاً من فكرة الوزن الكبير للأجر فوق رأسه. لم يبد أن هو سا يشعر بالقلق هناك على الأكل، لكن تيموج تخيل أن العوارض الضخمة تتداعى، وت سحقهم جميعاً. كرّر إحدى أناشيد كوكشو بصوت خافت، ملتصقاً السكينة التي لم تأت.

كان الدخول إلى المبنى الرئيسي عبر باب خشبي مغلف بطبقة من البرونز اللامع، المنقوب عدة مرات بأشكال تزيينية. رأى تيموج أشكال خفافيش محفورة في المعدن وتسامل عن معناها. قبل أن يعلق عليها، دخل غرفة مزخرفة بشكل لم يسبق له أن رآه من قبل. ألقي خاسار الوجه الجامد على تعبيراته بدلاً من أن يبدو مندهشاً، لكن تيموج فغر فمه من الغلى الظاهر في بيت شن بي. بالنسبة لرجلين ولدا في خيام،

كان ذلك مذهشاً. كان الجو يعبق برائحة بخور غريبة، ولم يكن ذلك يناسب رجلين
كائنا قد ترعرعا في الرياح والجبال. لم يسمع تيموج سوى أن يلقي نظرة إلى الأعلى
بين الفينة والأخرى، قلقاً للغاية من الثقل الكبير فوق رأسه. بدا خاسار أيضاً غير
مرتاح ومطلقاً مفاصل أصابعه في الصمت.

جثمت أرائك وكراس أمام غرابيل خشبية وستائر من الحرير المصبوغ التي
تسمح بمرور الضوء من غرف أخرى في الخلف. منذ النظرة الأولى، بدا كل شيء
مصنوعاً من خشب ثمين بألوان متناسقة، تسر الناظرين. كانت هناك أعمدة من
الخشب الشديد اللمعان على طول الغرفة، والتي تصل إلى عوارض السقف. كانت
الأرضية مصنوعة أيضاً من آلاف القطع الخشبية المصقولة حتى تكاد تلمع. بعد قذارة
شوارع المدينة، كانت الغرفة نظيفة ومريحة، والخشب الذهبي يجعلها تبدو دافئة. رأى
تيموج أن شن بي كان قد استبدل خفيه بأخرين نظيفين عند الباب. متورداً من الخجل،
عاد تيموج ليفعل الشيء نفسه. بينما كان يخلع حذاءه، اقترب منه خادم، انحنى أمامه
لمساعدته وهو يحمل حذاءً نظيفاً في قطعة لباد أبيض.

رأى تيموج خطوطاً من دخان أبيض متصل ترتفع من أطباق نحاسية على
طاولة مزخرفة عند الجدار البعيد. لم يفهم ما يستحق مثل رمز الورع ذلك، لكن
شن بي أحضر رأسه أمام المذبح الصغير، وتتم دعاء شكر لعودته سالماً.
قال تيموج بحرص، مكافحاً للعثور على الكلمات المناسبة: "تعيش في بيت فائق
الجمال".

أمال شن بي رأسه بإيماءة يعرفونها، وكانت تلك إحدى العادات التي لازمته.
قال: "هذا لطف منك. أعتقد أحياناً أنني كنت أكثر سعادة عندما كنت شاباً، أنقل
البضائع عبر النهر الأصفر. لم يكن لدي شيء حينها، لكن الحياة كانت أبسط".
سأل هو سا: "من أنت الآن حتى يكون لديك مثل هذه الثروة؟".
أوما شن بي بدلاً من أن يرد.

قال: "سترفعون بالاستحمام قبل تناول الطعام. رائحة النهر عالقة بنا جميعاً". أشار
إليهم أن يلحقوا به، وتبادلوا النظرات بينما كان يقودهم عبر ساحة أخرى خلف الأولى.
عزل كل من تيموج وخاسار قائمتها عندما خرجا إلى ضوء الشمس، وتركوا الأعمدة
الخشبية الثقيلة خلفهما. كان يمكن سماع خرير الماء هناك، ومشى خاسار إلى بركة حيث
كانت أسماك كسولة تتحرك ببطء في ظله. لم يلاحظ شن بي أن خاسار قد توقف، لكنه
عندما نظر إلى الخلف، ورأى أن خاسار بدأ بخلع ملابسه، ضحك مسروراً.
قال: "ستقتل أسماكك! تابع السير إلى الحمام".

هزّ خاسار كتفيه من دون مبالاة، وشذّ رداءه فوق كتفيه. جذّ في السير خلف تيموج وهو سا، متجاهلاً متعة جندي كزي كزياً.
عند الطرف البعيد للساحة الثانية، رأى أبواباً مفتوحة وخيوماً من البخار تخرج إلى الهواء الدافئ. أشار إليهم شن بي بأن يدخلوا.
قال: "افعلوا كما أفعل. سوف تستمتعون".

تجرّد من ملابسه بسرعة، كاشفاً عن الجسد القصير الهزيل الممتلئ ندوباً الذي يعرفونه جيداً من القارب. رأى تيموج بركتي مياه محفورتين في الأرض، والبخار يتصاعد ببطء من إحدهما. كان سيقفز إليها، لكن شن بي هزّ رأسه، وبدلاً من ذلك رأى تيموج عبيدين يقتربان وشي بي يرفع ذراعيه. لدهشة تيموج، أفرغ العبدان دلاء ماء فوق سيدهما، ثم استعلا قطعاً قماشية مربوطة حول يديهما لفركه بمادة رغوية حتى أصبح جسده أملساً وأبيض منها. تبع ذلك المزيد من الدلاء وعندها فقط نزل إلى البركة سعيداً بذلك.

ابتلع تيموج ريقه بعصبية بينما كان يلقي برداته على الأرض. كان قدراً مثله، ولم يكن يستسيغ فكرة أن يفركه غرباء. أغلق عينيه بينما كان يتم إفراغ الدلاء فوق رأسه، ثم أبقاها مغلقتين بقوة بينما كانت الأيدي القاسية تفرك جسده، وتجعله يتمايل من جانب إلى آخر. كانت الدلاء الأخيرة من الماء شديدة البرودة ما جعله يشق.

دخل تيموج بحذر شديد إلى الماء الحار. شعر بعضلات ظهره وفخذيه تسترخي عندما وجد الكرسي الحجري تحت سطح الماء وتنفس الصعداء. كان الشعور رائعاً. كانت تلك هي الطريقة التي ينبغي أن يعيش المرء بها! خلفه، أبعد خاسار يدي العبيدين عندما حاولا فرك جسده بالقطع القماشية. وفقاً متجمدين من فعلته، قبل أن يحاول أحدهما مجدداً. من دون إنذار، وجّه خاسار لكمة إلى جانب رأس الرجل، وأوقعه أرضاً وهو يدور على الأجر القاسي.

أطلق شن بي ضحكة مدوية، وأصدر أمراً للعبيدين بالابتعاد. نهض الذي كان قد وقع على الأرض بحذر، وقد أحلى رأسه، بينما أخذ خاسار قطعة القماش، ومسح جسده حتى أصبحت القطعة سوداء. لم ينظر تيموج عندما رفع خاسار قدمه على رف حجري على طول الجدار لتنظيف أعضائه الحساسة. أنهى العملية بإفراغ دلو فوق رأسه، وكان يحقّ كل الوقت إلى الرجل الذي ضربه.

أعاد خاسار الدلو، وتتم شيئاً جعل العبد يتوتر ويّرمّ فيه. تحمل هو سا العملية بانزعاج أقل، ودخلا الماء معاً، أطلق خاسار شتائم بلغتين بينما كان يغمس نفسه فيه.

جلس الرجال الأربعة صامتين لبعض الوقت، قبل أن ينهض شن بي، ويغطس في البركة الأخرى، فلنوء بإحباط صامتين، متعبين من النمط المتكرر والتأخير. في البركة الثانية، أخرج خاسار زفيراً من البرد، وغطس برأسه تحت الماء، وخرج يشعر بأن طاقة جديدة تملأه. لم يكن أي من المغوليين قد عرف الماء الحار من قبل، لكن الغطس في الماء البارد لم يكن أسوأ من الأنهار في الوطن. نظر تيموج مطولاً إلى الحمام البخاري الذي كان قد تركه، لكنه لم يعد إليه.

في الوقت الذي استقروا فيه، كان شن بي قد خرج، وقام العبدان بتشييقه بالمناشف. لم يترث خاسار وتيموج وتركوا البركة خلفه، وخاسار ينفخ مثل سمكة ملقاة على شاطئ. لم يجرؤ العبدان على الاقتراب من خاسار مرة أخرى، وأعطياه بدلاً من ذلك قطعة كبيرة خشنة من القماش ليجفف نفسه. فعل ذلك بقوة حتى أضحت جلده يتورد احمراراً. كان قد حلّ الرباط الذي يربط شعره، وانسلت خصله السوداء الطويلة.

نظر تيموج على الكومة البالية من الملابس المتسخة التي كانت رداءه وكان يمد يديه إليها عندما لطمه عليهما شن بي، وأحضر العبدان ملابس جديدة. كانت هناك سعادة في التخلص من رائحة القوارب الكريهة، كما فكر تيموج وهو يمرر يديه فوق القماش الناعم. لم يسعه سوى أن يخمن ما يدور في ذهن شن بي بشأنهم عندما توجهوا لتناول الطعام.

كان الطعام وافراً، على الرغم من أن خاسار وتيموج بحثا من دون جدوى عن لحم الضأن بين الأطباق.

سأل خاسار وهو يختار قطعة من لحم أبيض بأصابعه: "ما هذا؟".

رد شن بي: "أفنى بالزنجبيل". أشار إلى وعاء آخر. "ستعرفون الكلب، أنا واثق من ذلك".

لوماً خاسار موافقاً.

رد وهو يغمس أصابعه في حساء بحثاً عن قطعة أخرى: "عندما تكون الأوقات صعبة". من دون أن تظهر عليه علامة على الاستمزاز، تناول شن بي زوجاً من العصي الخشبية وأظهر للمغوليين كيفية الإمساك بقطعة من الطعام بينهما. كان هو سا وحده مرتاحاً، وتوتر شن بي قليلاً عندما أسقط كل من خاسار وتيموج قطعاً من اللحم والأرز على القماش. مرة أخرى، علمهما، ووضع هذه المرة القطع في أطباق أمام المغوليين حتى يستطيعا التقاطها بأصابعهما.

حافظ خاسار على هدوء أعصابه. كان قد فرك جسده، غطس في الماء، وحصل على ملابس تجعله يحك. كان محاطاً بأثياء غريبة لا يفهمها، واعتدل الغضب تحت السطح. عندما تخلى عن استعمال العصي الغريبة ودفعها في وعاء الأرز، طفطق شن بي في الواقع بصوت خافت، ورفعهما بإيماءة حادة.

قال شن بي: تركهما هكذا إهانة، على الرغم من أنك لا تعرف ذلك. وجد خاسار أن التعامل مع طبق من الصراصير أسهل، وقضم أجزاء الحشرات المقلية بسعادة ظاهرة. قال وفيه مشغول بالطعام: "هذا أفضل".

كان تيموج مستعداً لتقليد كل ما يفعله شن بي، وغس قطعاً من عجين مقلي في ماء مالح قبل أن يعضغها. عندما نفذت الصراصير كلها، مَذَّ خاسار يده إلى كومة من البرتقال، وتناول اثنتين. بعد أن قضم قطعة من القشرة، قَشَّرَ الأولى بإبهاميه واسترخى تماماً عندما فصل الفصوص عن بعضها وتناولها. انتظر وشقيقه حتى يتكلم شن بي، وكان واضحاً تماماً أن صبرهما قد نفذ.

عندما انتهوا جميعاً، راقب شن بي جهود خاسار مع البرتقال، ثم وضع عصي الأكل على الطاولة ولم يقل شيئاً بينما كان العبيد يزيلون أي أثر لوجبة الطعام. عندما أصبحوا وحدهم مجدداً، استراح على أريكته. فقدت عيناه النظرة المقلعة واكتسبتا مرة أخرى صرامة قبطان القارب الذي عرفوه.

قال لتيموج: "لماذا جئتم إلى باونو؟"

رد تيموج مباشرة: "للتجارة. نحن تجار".

هزَّ شن بي رأسه. "التجار لا يحملون قوساً مغلولاً، أو يستعملونه كما يفعل شقيقك. أنتم من ذلك الشعب. لماذا أنتم هنا في أراضي الإمبراطور؟"

استلح تيموج ريقه بصعوبة بينما كان يحاول التفكير. كان شن بي يعرفهم منذ وقت طويل ولم يسلّمهم للسلطات، لكنه لا يستطيع وضع ثقته بالرجل، خاصة بعد كل تلك الغرابة والحيرة.

قال: "نحن من قبائل الخان العظيم، نعم. لكننا جئنا لإقامة علاقات تجارية بين شعبينا".

رد شن بي: "أنا تاجر. قمتوا عروضكم لي". لم يكن وجهه يفسح عن شيء، لكن تيموج شعر بفضول الرجل القصير الشديد.

قال تيموج ببطء وهو يختار الكلمات: "مأل هو سا من أنت لتمتلك مثل هذه الثروة. لديك هذا البيت والعبيد، لكنك تأخذ دور المهرب في النهر، ترشو الحراس وترش لصراف الأنظار عند بوابة المدينة. من أنت حتى تنق بك؟"

كانت نظرة شن بي باردة بينما كان يتفحصهم. "أنا رجل لست مرتاحاً من فكرة تجوالكم في مدينته. كم سيطول الأمر قبل أن يقبض عليكم جنود الإمبراطور؟ كم سيمر من وقت بعد ذلك قبل أن تخبروهم بكل ما رأيتموه؟".
انتظر بينما كان تيموج يترجم لشقيقه.

قال خاسار وهو يقسم برتقالة شطرين ويمص نصفها: "قل له إننا إذا لقينا حتفنا أو تم أسرنا، ستحترق باوتو عن آخرها. سيأتي جنكيز من أجلنا السنة القادمة. إنه يعرف أين نحن وسيرى هذا الرجل القصير بيته الثمين يشتعل بالسنة الذهب. قل له ذلك".

"ستفعل خيراً بأن تلتزم الصمت يا شقيقي إذا أردنا الخروج من هنا أحياء".

قال شن بي: "دعه يتكلم. كيف ستحترق مدينتي إذا لقيتم حتفكم؟".

لرعب تيموج، تكلم شن بي بلغة القبائل. كانت لهجته قاسية، لكنها كانت واضحة بما يكفي لكليهما. تجمد بينما كان يفكر بكل الأحاديث التي كان شن بي قد سمعها في الأسابيع التي سبقت الوصول إلى باوتو.

سأله متناسياً خوفه للحظة: "كيف تعرف لغتنا؟".

ضحك شن بي بصوتٍ حاد ولم يقل شيئاً يريح الرجال الجالسين إلى الطاولة.

"هل تعتقدون أنكم أول من يسافر إلى أراضي تشن؟ كان اليوغر قد سلكوا طريق الحرير من قبل، وبقي بعضهم هنا". صفق بيديه، ودخل رجل آخر إلى الغرفة. كان نظيفاً مثلهم ويرتدي ثوب تشن بسيطاً، لكن وجهه كان مغولياً، وأظهر عرض كتفيه أنه ترعرع مع قوس. نهض خاسار لتحيته، ضم يده وضربه على مؤخرته بقبضته. ابتسم الغريب من الترحيب.

قال خاسار: "من الجيد رؤية وجه حقيقي في المدينة".

بدا الرجل مأخوذاً تقريباً لسماع تلك الكلمات. قال وهو ينظر إلى شن بي: "لشيء نفسه بالنسبة لي. كيف هي السهول؟ لم أعد إلى الوطن منذ سنين عديدة".

رد خاسار: "إنها على حالها". خطرت له فكرة ونزلت يده إلى حيث يوجد سيفه عادة على ردفه. "هل هذا الرجل عبد؟".

رفع شن بي بصره إلى الأعلى من دون إحراج. "بالطبع. كان كيشان تاجراً ذات مرة، لكنه اختار أن يراهن معي".

هزّ الرجل كتفيه من دون مبالاة. "هذا صحيح. لن أبقى عبداً للأبد. بضع سنوات أخرى وسأكون قد وقيت ديني. ثم أعتقد أنني سأعود إلى السهول، وأعثر على زوجة".

وعنده خاسار: "اعثر علي أولاً عندما تفعل ذلك. سأمنحك بداية جديدة". راقب شن بي بينما كان كيشان يحني رأسه. قبل خاسار الإيماءة كما لو أنها لم تكن جديدة عليه، وتسمرت نظرة شن بي عليه.

قال: "أخبروني مجدداً كيف ستحرق مدينتي".

فتح تيموج فمه، لكن شن بي رفع يداً. "لا، لا أثق بك. تكلم شقيقك الحقيقة عندما كان يعتقد أنني لا أفهم ما يقول. دعه يخبرني بذلك".

ألقى خاسار نظرة على تيموج، وكان واضحاً أنه يستمتع بإحباط شقيقه. استغرق منه الأمر لحظة لينطق بكلماته. ربما سيرغب حتى شن بي بقتلهم عندما يسمعا. نقل يده إلى حيث كان يخفي سكيناً صغيرة في طيات رداءه.

قال خاسار أخيراً: "كنا في ما مضى ذئاباً، لكن شقيقي وحد القبائل. مملكة كزي كزبا هي أول من خضع لنا، وسيكون هناك المزيد". تحرك هو سا منزعاً من الكلمات، لكن لم ينظر إليه أي من الرجلين. جلس خاسار مثل الصخرة بينما كان يحرق إلى عيني شن بي.

"ربما ساموت هنا، الليلة، لكن إذا حدث ذلك، سيأتي قومي إلى تشن ويحطمون مدنكم الثمينة، واحدة تلو الأخرى، حجراً إثر آخر".

توتر وجه شن بي بينما كان يصغي. كانت معرفته باللغة تقتصر فقط على ما يحتاجه للتجارة ولا بد أنه كان سيفترح أن يكون الكلام بلغته إن لم يبدأ ذلك ضعفاً.

قال من دون أن يرد على كلمات خاسار الحادة: "تنتقل الأنبياء بسرعة عبر النهر. لقد سمعت بالحرب في كزي كزبا، على الرغم من أنها لم تقل إن شعبك حقق النصر. هل كان الملك ميتاً حينها؟".

رد خاسار: "ليس عندما غادرت. دفع جزية وقدم ابنته. فتاة جميلة، كما أعتقد".

ذكره شن بي: "لم تجب عن سؤالي سوى بالتهديدات. لماذا ستأتون إلى هنا، إلى مدينتي؟".

لاحظ خاسار التشديد الذي كان شن بي قد نطق به مدينتي. لم يكن يتمتع بحدّة ذهن للتلاعب بالكلمات، أو سرد سلسلة من الأكاذيب التي سيصدقها شن بي.

قال خاسار: "تحتاج إلى بنائين". سمع تيموج يطلق زفيراً حاداً من خلف كتفه، وتجاهله. "أريد أن نعرف أسرار مدنكم. لقد أرسلنا الخان العظيم بنفسه. باونو مجرد مكان على خريطة لا أهمية كبيرة له".

تمتم شن بي وهو يفكر: "إنها بلدتي".

قال خاسار مستشعراً أن اللحظة مناسبة: "يمكنك الاحتفاظ بها. لن يتم المساس بباوتو إذا حصلنا على وعد منك بمساعدتنا".

التنظر أن ينتهي شن بي من أفكاره، والعرق يتصبب على وجهه. كان واثقاً أن صرخة واحدة ستجعل الغرفة تمتلئ برجال مسلحين. كان صحيحاً أن جنكيز سينمر المدينة انتقاماً لهم، لكن شن بي لن يكون واثقاً من ذلك. بالنسبة له، كانوا يتفلقرون أو يكذبون.

كان كيشان من كسر حاجز الصمت. كان قد شحب لونه مما سمعه وخرج صوته خافتاً يمتلئ رعباً.

قال: "القبائل موحدة؟ هل اليوغر بينها؟".

أوما خاسار برأسه من دون أن يفارق بصره شن بي.

"الذيل الأزرق جزء من راية الخان العظيم. لقد سيطر علينا تشن لوقت طويل، لكن ذلك انتهى. لقد انطلقنا للحرب يا أخي".

راقب شن بي وجه كيشان بحرص، يراقب كيف أنت الأتباء إلى ظهور تعبير أمل ممزوج بالدهشة على وجهه.

قال فجأة: "سأعقد صفقة معكم. ستحصلون على كل ما تحتاجونه، من يدي. ستعودون إلى خانكم وتقولون له إن هناك رجلاً يمكنه الوثوق به هنا".

رد خاسار: "ما فائدة مهرب لنا؟". كاد تيموج يشن عندما تابع خاسار كلامه: "كيف يمكنك المساومة على مصير مدينة؟".

قال شن بي: "إذا فشلت، أو كنتم تكذبون، لن أخسر شيئاً. إذا كنتم تقولون الحقيقة، ستحتاجون إلى حلفاء، أليس كذلك؟ لدي نفوذ هنا".

قال خاسار: "هل ستخون البلاط الإمبراطوري؟ إمبراطورك؟". طرح السؤال ليختبر شن بي، ولدهشته، بصق الرجل القصير على الأرض اللامعة.

"هذه مدينتي. كل ما يدور هنا يصل إلى مسامعي. لا أحب النبلاء الذين يعتقدون أنهم يستطيعون وضع كل الرجال تحت عرياتهم مثل الحيوانات. لقد فقدت عائلتي وأصدقائي لجنودهم، رأيت أحبائي لي يتم شتقهم عندما رفضوا التخلي عني. لماذا أهتم لهم؟".

كان قد نهض بينما كان يتكلم، ووقف خاسار ليوجاهه.

قال خاسار: "كلمتي حديد. إذا قلت إنك ستحصل على هذه المدينة، ستكون لك لتحكمها عندما نأتي".

قال شن بي: "هل يمكنك أن تتكلم نيابة عن الخان؟".

رد خاسار: "إنه شقيقي. يمكنني التكلم نيابة عنه". لم يكن بوسع تيموج وهو سا
سوى أن ينظرا إلى الرجلين اللذين يحتقان على بعضهما إلى بعض.
قال شن يسي: "كنت أعرف أنك محارب على القارب. لقد كنت جاسوساً
سليماً".

رد خاسار: "كنت أعرف أنك لص، لكنك لص جيد". ضحك شن يسي بصوت
خافت وأمسك الرجلان بيدي بعضهما بقوة.

قال شن يسي: "لدي العديد من الرجال الذين يطيعونني. سأمنحك ما تريده
وسأحرص على عودتك سالماً إلى شعبك". جلس، وأمر بإحضار شراب بينما شرع
تيموج بالحديث. لم يفهم كيف استطاع الرجل القصير الوثوق بخاسار، لكن ذلك لم
يكن مهماً. كان لديهم حليف في باوتو.

عندما حل المساء، قبل خاسار، هو سا وتيموج عرضاً بالنوم بضع ساعات قبل
قضاء ليلة طويلة، وأووا إلى أسرة في غرف قبالة الساحة الثانية. لم يكن شن يسي
يحتاج أبداً إلى أكثر من بضع ساعات راحة منذ الأيام التي كان يهرب فيها من الجنود
في أزقة باوتو؛ كان ذلك منذ وقت طويل جداً. جلس مع كيشان واثنين من حراسه،
وتكلموا بصوت منخفض بينما كانا يلقان قطعاً من العاج على رقعة مخططة. التزم
كيشان الصمت لوقت طويل بينما كان يقطع القطع العاجية معاً بيده. كان يعرف
شن يسي منذ عشر سنوات تقريباً، ورأى رغبة جموحة بالسلطة تظهر في عينيه آنذاك.
كان الرجل القصير قد قضى على ثلاثة قادة آخرين لعصابات إجرامية في باوتو، ولم
يكن قد بالغ عندما قال لخاسار ألا شيء يجري في المدينة من دون أن يصل إلى
مسامعه.

رمى كيشان بقطعة عاجية وراقب ما يجري بينما كانت يد شن يسي تمتد لتلقطها.
كان الرجل الذي يدعوه صديقاً شارد الذهن تماماً عن اللعبة، وأفكاره في مكان آخر.
تسائل كيشان إن كان ينبغي به رفع مقدار الرهان والتخفيف قليلاً من دينه. قرر عدم
القيام بذلك بعد أن تذكر ألعاباً أخرى كان شن يسي قد تعامل معه بالطريقة نفسها تماماً،
ثم فاز باستمرار.

رأى شن يسي يتناول قطعة مختلفة ودار اللعب حول الطاولة، وصرخ أحد
الحارسين "بانغ" بينما كان كيشان يطلق الشنالم بصوت خافت.
عندما أظهر الحارس ثلاث قطع متماثلة، أنزل شن يسي يده إلى الأسفل. "لا مزيد
الليلة. تصبح أفضل يا هان، لكنك لن تستطيع التغلب علينا".

نهض كلا الحارسين، وأحنيا رأسيهما. كان قد تم إنقاذهما من أسوأ الأحياء الفقيرة، وكانا قويين ومخلصين للرجل الذي يحكم الجمعية السرية. بقي كيشان لأنه شعر بأن شن بي يرغب بالكلام.

قال كيشان بينما كان يجمع القطع العاجية فوق الطاولة: "لنت تفكر في الغرباء".
لوما شن بي برأسه، يحدق إلى الظلام عبر الأبواب. كانت الأمسية باردة آنذاك، وتساءل عما ستحمله الساعات القادمة.

"إنهم قوم غرباء يا كيشان. لقد قلت لك ذلك من قبل. سمحت لهم بالصعود على متن القارب لحماية حريري، عندما أصيب ثلاثة من رجالي بالمرض. ربما كان أسلافي بقودونتي في ذلك". تنهد وفرك عينيه من الإرهاق. "هل رأيت الطريقة التي لاحظ بها خاسار مواقع الحراس؟ كانت عيناه تتحركان دائماً. اعتقدت على القارب أنني لم أشاهده يرتاح أبداً، لذلك مثله تماماً. ربما يكون كل قومك كذلك".

هز كيشان كتفيه من دون مبالاة. "الحياة كفاح يا سيدي. أليس ذلك ما يعتقد به البوذيون أيضاً؟ في سهول وطني، يموت الضعيف باكراً. لطالما كانت الأمور على تلك الحال".

لم يسبق لي أن رأيت شخصاً يستعمل قوماً بمهارة ذلك الرجل. في ظلام دامس، على قارب بهتز، قتل ستة رجال من دون تردد. هل كل قومك ماهرون هكذا؟

انشغل كيشان يديه بقطع اللعبة الصينية، وأعادها إلى حقيبتها الجلدية. "لست ماهراً مثله، لكن البوغر يمتون العلم والتجارة أكثر من أي قبيلة أخرى. الذئاب معروفون بشراستهم". توقف قليلاً، وقد تسمرت يده. "لا أكاد أصدق أن القبائل قد اتحدت بقيادة رجل واحد، خان واحد. ينبغي أن يكون استثنائياً".

أغلق كيشان الحقيبة الجلدية بسرعة، ثم استرخى إلى الخلف. كان يريد شراباً لتهدئة معدته، لكن شن بي لم يكن يسمح بتناول الشراب عندما تكون الليلة بحاجة لأذهان صافية.

سأل كيشان بلطف: "هل سترحب بقومي عندما يزحفون إلى الأسوار؟". شعر بنظرة شن بي عليه، لكنه لم يرفع بصره إلى الأعلى من يديه المتشابكتين.

سأل شن بي: "هل تعتقد أنني سأخون مدينتي؟".
رفع كيشان بصره، وشاهد غضباً عارماً في الرجل الذي أصبح يثق به بمرور السنين.

"كل هذا جديد. ربما سستمر جيوش الإمبراطور هذا الخان الجديد، وسيلقي أولئك الذين يدعون أنفسهم حلفاء المصير نفسه. هل فكرت في ذلك؟".

تألف شن بي. "بالطبع، لكنني عشت وقتاً طويلاً مع قدم علي عتقي يا كيشان. هذا البيت، عبيدي، كل أولئك الذين تبعوني هم فقط كل ما تركه وزراء الإمبراطور نتيجة كسلهم وفسادهم. نحن بعيدون عن أنظارهم، مثل جردان في مستودعاتهم. أحياناً، يرسلون رجلاً لمعاينة الناس ويشق بضع مئات. يمكن أحياناً حتى بأشخاص عزيزين علي، أو أحباء لي." كان وجه شن بي مثل الحجر عندما تكلم، وعرف كيشان أنه كان يفكر بابه، الذي لم يكن أكثر من مجرد فتى عندما تم تعليقه بصنارة صيد داخل الميناء قبل سنتين. كان شن بي قد أنزل بنفسه جسد ابنه الذي كان يتأرجح في نسيم النهر.

قال كيشان: "لكن النار لا تعرف من تحرق. أنت تدعو ألسنة اللهب إلى وطنك، مدينتك. من يعرف كيف سينتهي الأمر؟".

كان شن بي صامئاً، كان يعرف مثل كيشان أنه يمكن تدبير اختفاء الغرباء الثلاثة. لطالما تم إلقاء جثث في النهر الأصفر، عارية ومنقخة تطفو على السطح. لن يعود الموتى إليه أبداً. على الرغم من ذلك، كان هناك شيء رآه في خاسار أشعل نعطشاً للنار كان شن بي قد أخفاه منذ صبيحة اليوم الذي حمل فيه جسد ابنه الرخو.

تأت قومك هؤلاء الذين يستعملون الأقواس والجياد. أكثرهم من خلاتك أكثر من رجال لا أعرفهم. منذ متى تعمل معي؟".

قال كيشان: "تسع سنوات يا سيدي".

"وقد حافظت على وعدك لي لتسوية دينك. كم مرة كنت تستطيع الهرب والعودة إلى قومك؟".

اعترف كيشان: "ثلاث مرات. ثلاثاً اعتقدت فيها أنني أستطيع الهروب قبل أن تسمع بالأمر".

رد شن بي: "أعرف عنها. أعرف قبطان القارب الذي قام بالمحاولة الأولى. كان أحد رجالي. لم تكن لتذهب بعيداً قبل أن يتم دق عتقك".

تقطب حاجبا كيشان لدى سماعه تلك المعلومة. "اختيرتني، إذًا".

"بالطبع. لست أحمق يا كيشان. لم أكن كذلك أبداً. لتدع النيران تأتي إلى باوتو. سأقف حياً على الرماد بعد أن ينتهوا من الأمر. ليتخل ضباط الإمبراطور عن تفاخرهم وسأكون قانعاً بذلك. سأعرف السعادة على الأقل".

نهض شن بي وتمطى، وطقق ظهره بصوت مسموع في الغرف التي يسودها الصمت.

"أنت مقامر يا كيشان، ولهذا السبب عملت لدي وقتاً طويلاً. لم أكن أبداً الأول. لقد جعلت هذه المدينة لي، لكن على الرغم من ذلك يجدر بي أن أحنى رأسي كلما رأيت أحد المفضلين لدى الإمبراطور ممطياً جواده في الشوارع. شوارعى يا كيشان، وعلى الرغم من ذلك أحنى وأبتعد إلى أوساخ قنوات الصرف بدلاً من الوقوف في طريقهم".

نظر شن بي إلى الظلام، وعيناه جامدتان في وجهه.
"سأقف الآن يا كيشان، وسيسقط الأجر كما يحلو له".

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الرابع عشر



عند منتصف الليل، بدأ مطر غزير ينهمر على مدينة باوتو. هنّ المطر على الشوارع وقعق على الأجر حتى بدا صوته مثل رعد بعيد. بدا شن بي سعيداً بالمقابل بالطقس بينما كان يسلم رجاله سيوفاً. حتى المتسولون سينكفون داخل أزقتهم فيما المطر ينهمر. كان ذلك فال خير.

عندما خرجوا إلى الشارع المظلم، حنق خاسار وهو سا على طول الطريق ليرى إن كان أحد يراقبهم. كان القمر متوارياً ولم يكن هناك سوى ضوء خافت عندما تنزاح السحب لتكشف عن فجوات بينها. كان تيموج قد افترض أن الماء سيخفف قليلاً من رائحة المدينة الكريهة. بدلاً من ذلك، بدا أنها تنتشر في الهواء، والرطوبة تحمل روائح قذارة البشر التي تغلغت في رنثيه وجعلته يشعر بالغثيان. كانت قنوات الصرف ممثلة آنذاك، ورأى تيموج أشياء داكنة رطبة لم يستطع تحديدها تظهر هناك، يحملها التيار. ارتعش، مدركاً فجأة الحشد البشري الكبير من حوله. من دون شن بي، لم يكن ليعرف أين يبدأ بحثه في مائة البيوت والمحلات، المكتسة بعضها فوق بعض في كل الاتجاهات.

كان اثنان من رجال شن بي قد انضموا إليهم عند البوابة. على الرغم من عدم وجود حنجر تجول رسمي، سيكون عشرة رجال موضع شبهة الجنود الذين لا يزالون في الشوارع. كلف شن بي أحد الرجال بمهمة استطلاع كل تقاطع طريق، ووجه اثنين آخرين للتسريث في الخلف والتأكد أنهم ليسوا ملاحقين. لم يستطع تيموج التخلص من الشعور بأنه يتجه نحو معركة. بينما كانت الأمطار تنهمر، أمسك القبضة الرطبة للسياف الذي منحه إياه شن بي، وكان يأمل بالألا يضطر لشهره. كان يرتعش عندما انطلقوا، يتحركون هرولة. تم إغلاق البوابتين خلفهم برنين مسموع، لكن لم ينظر أحد إلى الخلف.

في بعض الشوارع، كانت حواف السطح البارزة للمنازل تشكل سقفاً فوق جزء جاف من الطريق. تباطأ شن بي إلى المشي بينما كان يقود المجموعة تحت ذلك

السقف، ولم يكن يرغب بأن تجذب أصوات الأقدام التي تسير هرولة اهتمام القاطنين. لم تكن المدينة تغرق في ظلام دامس، أو نائمة. رأى تيموج أضواء من محالّ الحذّادين والمستودعات التي لا تزال تعمل في الليل. على الرغم من حيطة شن بي، إلا أن تيموج كان واثقاً أنه يشعر بعيون تراقبهم في أثناء انتقالهم سيراً على الأقدام.

في الدجّة، فقد تيموج الإحساس بالزمن حتى بدا أنه كان يجري طيلة نصف تلك الليلة. لم يكن هناك شكل محدد للشوارع التي يقطعونها أو يلتفون حولها، ولم تكن أحياناً أكثر من دروب متسخة يغطيها طين متجمد لطّخهم حتى كواحلهم. شعر تيموج بالإرهاق بعد وقت قصير فقط، وأمسك أحدهم أكثر من مرة بذراعه في الظلام ودفعه إلى الأمام، مرعّباً إياه على اللحاق بالباقيين. أطلق شتائم بصوت خافت عندما جعلته مثل تلك الحركة بطاً قناة للصرف، وعلق شيء طري وبارد بين أصابع قدميه. كان يأمل بأن تكون فاكهة متعفنة لا شيء أسوأ، لكنه لم يتوقف.

مرة واحدة فقط عاد الرجل الذي يسير أمامهم ليقود شن بي في طريق مختلف. تمنّى تيموج أن يكون الجنود يقضون الليل في تكتلات دافئة بدلاً من أن يتجمدوا ويثقلوا مثله.

أوقف شن بي رجاله اللاهثين أخيراً في ظل سور المدينة نفسه. استطاع تيموج رؤيته وكان مثل سدّ شديد الظلمة. إلى الجانب الآخر، كان يقع العالم الذي يعرفه واختبر شعور الحماية التي يوفرها للمدينة. كان مثل ذلك السور مفيداً لملك كزي كزيا فسي ينشوان. لم يستطع كل المحاربين الذين جمعهم جنكيز إحداث ثغرة في مثل ذلك الشيء. كان يمتد إلى مسافة بعيدة، يلوح فوق شارع عريض تحدّه بيوت تبدو مثل بيت شن بي. لم تكن تلك البيوت مخفية في أحياء فقيرة، وإنما تشغل مساحات جيدة، ويملأ شذا حدائق الزهور النسيم من حولها. حتى شكل الشوارع كان قد تغير في هذا الجزء من باوتسو. أسرعوا الخطفى عبر شبكة من الأحياء، المفصولة عن المدينة ببواباتها وأسوارها. كافح تيموج ليلتقط أنفاسه. كاد يختنق عندما ربت خاسار على كتفيه، وكان شقيقه يقف مرتاحاً كما لو أنه خرج في نزهة ليلية.

جاء الرجلان اللذان يسيّران خلفهم بسرعة، يهزان رأسيهما. لم يكن أحد يتبعهم. لم يتوقف شن بي للراحة، وهمس بأوامر لهم للابتعاد عن الأنظار بينما كان يقترب من السبوبة المغلقة. وقع بصر الرجل على تيموج واثقاً هناك ويداه على ركبتيه واقترب منه ليتكلم في أنفه.

"سيكون هناك حراس. سيوقظون قائدهم وساتكم إليه. لا تطلق أي تهديدات في مدينتي أبها المغولي. سيشرع المالك بقلق شديد لوجود غرباء في وقت متأخر في بيته، ولا أريد أن يتم سحب أسلحة".

استدار شن بي مبتعداً، يرتب رداءه الأسود بيديه بينما كان يقترب من البوابة. رافقه اثنان من رجاله، واختفت باقي المجموعة في إحدى الزوايا حيث لم يكن ممكناً رؤيتها. أمسك خاسار تيموج من ردفه، وسحب معه قبل أن يستطيع الاحتجاج. نقر شن بي بنفسه بإبهامه على البوابة، ورأى تيموج ضوءاً أصفر يسطع على وجهه عندما تم فتح نافذة في الخشب. قال شن بي بصوت حازم: "أخبر سيدك أن لديه زائراً بشأن عمل إمبراطوري. أيقظه إن كان نائماً".

لم يسمع تيموج الرد، لكن بعد وقت بدا طويلاً، فُتحت النافذة مجدداً، ونظر شن بي إلى وجه آخر.

قال الرجل بوضوح: "لا أعرفك".

وقف شن بي ساكناً من دون حراك.

"الجمعية الزرقاء تعرفك يا ليان. الليلة، ستفي ديونك".

فُتحت البوابة بسرعة، لكن شن بي لم يبطأ العبث.

"إذا كانت لديك أقواس تنتظر يا ليان، ستكون هذه ليلتك الأخيرة. لدي رجال معي، لكن الشوارع خطيرة. لا تفرح وسيكون كل شيء على ما يرام".

تستلم الرجل المتواري عن الأنظار رداً، وكان صوته يرتعش. عندها فقط أدار شن بي بصره نحو الآخرين، وأشار إليهم أن يلحقوا به.

رأى تيموج خوفاً في الرجل الذي تم استدعائه من فراشه. كان ليان عريض المنكبين مثل خاسار، لكنه ارتعش بشكل واضح للعيان، وأبقى عينيه منخفضتين بينما كان شن بي يدخل بيته.

لم يكن هناك سوى حارس واحد فقط عند البوابة، وأبقى عينيه بعيدتين عن أولئك الذين دخلوا. شعر تيموج بتقته تتزايد، ونظر حوله باهتمام حالما تم إغلاق البوابة المؤدية إلى الشارع. كان الجري تحت المطر وفي الظلام خلفهم متعباً، واستمتع بالطريقة الخائفة التي تصرف بها سيد البيت في باوتو.

وقف ليان كما لو أنه مذهول أمام شن بي، وشعره غير مرتب من النوم.

تمتم: "سأجعلهم يعتنون طعماً وشراباً"، لكن شن بي هز رأسه.

"لن يكون ذلك ضرورياً. دلتي على مكان يمكننا التكلم فيه على انفراد". نظر شن بي حوله على ساحة البيت. كانت أعمال البناء قد ازدهرت أيام الحكم الإمبراطوري. إضافة إلى إصلاح السور، كان مسؤولاً عن بناء ثلاث تكتلات ومضمار سباق في قلب المقاطعة الإمبراطورية. على الرغم من ذلك، كان بيته بسيطاً وأنيقاً.

ثبست نظرة شن بي على الحارس الوحيد، ورأى أنه يقف قريباً جداً من جرس يتكلى من عارضة خشبية.

لئن ترعّب بأن يستدعي رجلك الجنود إلى هنا يا ليان. قل له أن يبتعد عن الجرس، أو سأعتقد أنك تشك بكلمتي*.

أوما البناء للحارس، الذي فزع بشكل ظاهر للعيان، واتخذ موقعاً جديداً قرب البيت الرئيسي. ازدادت غزارة الأمطار، وارتفع صوت هطولها على الساحة الرئيسية. شعر البناء بالبرد، وبدا أنه ينكمش على نفسه. قادهم إلى البيت، وأخفى خوفه في ضوء المصابيح. رأى تيموج يده تهتز بينما كان يحمل فتيلاً مشتعلاً أطول مما يحتاجونه، كما لو أن الضوء يستطيع إبعاد خوفه.

جلس شن بي على أريكة قاسية بينما كان ينتظر أن ينتهي البناء من التجول في أرجاء الغرفة. وقف خاسراً، وهو سا، وتيموج معاً، يراقبون المشهد بافتتان صامت. اتخذ حارسا شن بي موقعين خلف سيدهما، ورأى تيموج عيني البناء تطرفان نحوهما، مقدراً الخطر.

أخيراً، لم يستطع التأخر أكثر من ذلك. جلس قبالة شن بي وهو يشيك يديه معاً لإخفاء الطريقة التي تهتز بها.

قال ليان: لقد دفعت الضريبة المستحقة للجمعية. هل كانت غير كافية؟

رد شن بي: ليس الأمر كذلك*. استغرق منه الأمر لحظة ليمسح ماء المطر عن وجهه، مرّ يده فوق شعره، ونثر القطرات على الأرضية الخشبية. جال ليان ببصره عليها. ليس ذلك ما جاء بك إلي*.

قيل أن يستطيع شن بي متابعة كلامه، تكلم ليان مجدداً، غير قادر على إيقاف نفسه. "العمال، إذا؟ عمل معي كل الرجال الذين استطعت تشغيلهم، لكن اثنين من أولئك الذين أرسلتهم لي لم يرغبوا بالعمل. بينما اشتكى الآخرون أنهم لا يحصلون على مستحقّاتهم. كنت على وشك طردهم هذا الصباح، لكن إذا كنت ترغب ببقائهم...".

كان شن بي يشبه شيئاً مصنوعاً من رخام بينما كان يتفحص شيخ البنائين.

"إنهم أبناء أصدقاء. سيقون، لكنني لست هنا لهذا السبب*.

أحنى البناء رأسه قليلاً. قال: "إذا، لا أفهم ما يجري*.

"هل لديك شخص يمكنه تولي أمر إصلاح السور؟".

"ابني يا مولاي*.

جلس شن بي ساكناً تماماً حتى نظر البناء إليه.

"لست مولاك يا ليان. أنا صديق أريد منك معروفاً*.

رد ليان مستشعراً الأسوأ: "أي شيء؟".

لوماً شن بي برأسه سعيداً.

"ستستدعي ابنك، وتخبره أن عليه تولي العمل سنة كاملة، وربما اثنين. لقد سمعت أشياء جيدة عنه".

وافق ليان مباشرة: "إنه ابن رائع. سيصغي إلى والده".

"أنت حكيم يا ليان. قل له إنك ستغيب ذلك الوقت، ربما لتجد مصدراً جديداً للرخام في مقلع في مكان ما. اخترع الكذبة التي تراها مناسبة، لكن لا تجعله يشك بالأمر. نكره أن ديون والده هي ديونه في أثناء غيابك وشرح له الضريبة التي ينبغي به دفعها للجمعية إذا كان يريد أن يعمل. لا أريد أن أضطر لتذكيره بنفسه".

قال ليان: "اعتبر الأمر منتهياً". كان يتعرق، كما لاحظ تيموج، وظهر خط لامع من القطرات على شعره. رأى أن البناء الضخم يستجمع شجاعته لي طرح سؤالاً.

"سأقول لزوجتي وأولادي الشيء نفسه، لكن هل لي بمعرفة الحقيقة؟".

هزّ شن بي كتفيه غير مبالي، وأسأل رأسه إلى الجانب.

"هل ستغير من الأمر شيئاً يا ليان؟".

"لا يا مولاي. أنا أسف...".

"هذا غير مهم. سترافق أصدقائي هؤلاء إلى خارج المدينة. يحتاجون إلى خبرتك يا ليان. أحضر أدواتك، وعندما ينتهي عملك، سأسعى بأن تحصل على مكافأة".

لوماً البناء برأسه تعيساً، ووقف شن بي فجأة.

تكلم إلى أولئك الذين تحبهم يا ليان، ثم تعال إليّ".

ترك البناء المجموعة وحدها، واختفى داخل ظلمة البيت. استرخى أولئك الذين بقوا قليلاً، مشى خاسار إلى ستارة حريرية، واستعمل القماش لتجفيف المطر عن وجهه وشعره. سمع تيموج نحيباً بعيداً لطفل بينما كان الرجل ينقل إلى عائلته ما تم إطلاعه به.

قال هو سا لشي بي: "لا أعرف ماذا كنا ستفعل لو أنك لم تكن هنا لمساعدتنا".

ابتسم سيد الجمعية السرية قليلاً.

"كنتم ستجولون في مدينتي حتى يقبض عليكم الجنود. ربما كنت سأحضر لمشاهدة وضع الجواسيس الغريباء على خوازيق أو شنقهم".

سأل تيموج: "هل فكرت بإخراجنا من المدينة؟"، قبل أن يرد شن بي، عاد ليان. كانت عيناه حمراوين، ولكنه وقف منتصباً وقد فقد بعضاً من خوفه. كان يرتدي معطفاً من قماش مشتمع ثقيل ضد المطر، وكانت فوق أحد كتفيه حقيبة جلدية يقبض عليها كما لو أنها تجعله يشعر بالراحة.

قال لشي بي: "لدي أدواتي. أنا مستعد".

تركوا البيت خلفهم، ومرة أخرى، أرسل شن بي رجالاً أمامهم ليتفقد إن كان هناك جنود يقومون بتورياتهم. كان هطول المطر قد خف، ورأى تيموج نجم القطب لوقت قصير عبر الغيوم. لم يكن شن بي قد شرح شيئاً، لكنهم اتجهوا غريباً على طول طريق مواز للسور ولم يسمع تيموج سوى الهرولة خلفهم.

في الظلام أمامهم، سمعوا صوتاً يصرخ عالياً، وتوقفت المجموعة كلها.

هسّ شن بي: "أخفوا سكاكينكم عن الأنظار". ابتلع تيموج ريقه بعصبية، وسمع وقع أقدام على الطريق الممهّد. انتظروا الرجل في الأمام أن يعود، لكن بدلاً من ذلك، سمعوا وقع نعل أخذية وجال شن بي ببصره في الأنحاء يبحث عن طرقات محتملة للهروب.

صرخ صوت في الظلام: "لا تتحركوا". كان تيموج قريباً بما يكفي ليرى شن بي يكثر.

كان هناك ستة جنود يرتدون دروعاً حديدية، يقودهم رجل يعتز خوذة لها ريش. تألوه تيموج لنفسه لرؤية الأقواس التي يحملونها. لم يكن أمام رجال شن بي فرصة كبيرة لشق طريقهم بالقوة. شعر بالرعب يزداد مثل مادة حمضية في حلقه، وبدأ يتراجع من دون تفكير. كانت قبضة خاسار الحديدية من أوقفته في مكانه.

سأل شن بي: "أين قائدكم؟ يستطيع لوجان أن يكون ضمامتي". رأى أنهم قد أمسكوا رجله من مؤخر عنقه. كالفح الرجل في القبضة، لكن شن بي لم ينظر إليه. تقطّب حاجبا الضابط الذي كان يعتز الخوذة ذات الريش من نبرة الكلام، وتقدم إلى الأمام عن رجاله.

لوجان ليس في الخدمة الليلة. ما هو عملك حتى تجري في الشوارع في الظلام؟

قال شن بي: "سيشرح ذلك لوجان". لعق شفته بعصبية. "قال لي إن اسمه سيسمح لنا بالمرور".

نظر الضابط إلى الخلف على الرجل البائس الذي كان مقبوضاً عليه من عنقه.

"ليس لي علم بذلك. ستعودون معي إلى التكتات وستسألونه".

تهدئ شن بي.

قال: "لا، لا، لن نفعل ذلك". دفع شن بي يده إلى الأمام بسكين في قبضته، وشق بها حنجرة الضابط مما جعله يتراجع إلى الخلف وهو يطلق صرخة مختنقة. أطلق الجنود في الخلف سهامهم مباشرة، مستهدفين المجموعة. صرخ أحدهم ثم وصل إليهم رجال شن بي وأعملوا سكاكينهم في الجنود.

شهر خاسار السيف الذي كان قد حصل عليه، وجار بأعلى صوته. جعلت قوة الصوت أقرب الجنود إليه يتراجع خطوة إلى الخلف، ولكمه خاسار ثم تقدم خطوة إلى الأمام ليضرب بمساعدته وجه الرجل. جعل التأثير قسماً الرجل تتهاران من تحته وتجاوز خاسار مندفعاً إلى الأمام، وضاع في زحمة العراك وهو يستعمل مرفقيه، قدميه ورأسه: أي شيء لإيقاع أعدائه أرضاً. لم يستطع أولئك الذين كانوا قد أطلقوا سهامهم سوى رفع أكتافهم للدفاع عن أنفسهم. حطم سيف خاسار إحدى تلك الأسلحة إلى قطع قبل أن يفرس التصل في عنق الجندي. في الظلام، تحرك بينهم مثل نسمة، وركل بركبة مكشوفة وشعر بها تتكسر. كانت حركة الجنود ثقيلة بندروعهم وكان خاسار أسرع منهم، بغير اتجاهه في كل مرة يستشعر فيها الخطر قبل أن يقترب منه. شعر بأن شخصاً يتعلق به من الخلف، وبمسك بذراعه التي تحمل السيف. وجه رأسه إلى الخلف بعنف، وضرب الرجل الذي يتعلق به بمرفقيه، وكوفي بصرخة ألم بينما كان المهاجم يتعد عنه.

صرخ تيموج عندما اصطدم أحد الجنود به. سقط أرضاً مع سيفه وقد سرق الرعب شجاعته. في مكان ما، بدأ جرس يرن. عندما تعرف على الصوت، شعر بأن أحداً يرفعه وصرخ، لكنه صمت عندما لطمه هو سا على وجهه. قال هو سا بحدّة، محرّجاً منه: "انهض. انتهى الأمر". أمسك تيموج بذراعه بينما كان ينهض، يحدّق إلى منظر خاسار محاطاً بأجساد ممزقة. قال خاسار: "هل تدعو هؤلاء جنوداً يا شن بي؟ إنهم يتحركون مثل الأغنام المريضة".

وقف شن بي مذهولاً عندما دفع خاسار سيفه في صدر رجل كان لا يزال يتحرك، وعثر على مكان تحت قطع الدرع الحديدية قبل أن يُرخي بكل ثقله عليه. لم يكن يصدق السرعة التي كان المحارب المغولي يتحرك بها. كان حراسه رجالاً استقاهم لمهارتهم، لكن خاسار كان قد جعلهم يبدون مثل مزارعين. وجد نفسه يرغب بالدفاع عن جنود مدينته، بقدر ما يكرههم.

رد: "هناك ست تكتات في المدينة، في كل منها خمسمئة أو أكثر من تلك الأغنام المريضة. ذلك كافٍ".

ركل خاسار إحدى الجثث بقدمه.

قال: "مياكلهم شعبي أحياء". فزع حينها ومس الترقوة. تلطخت يده بالدماء التي سرعان ما أضحت أقل كثافة في المطر حتى سألت بين أصابعه. قال تيموج: "أنت مصاب".

"أنا معتمد على القتال بالدرع يا شقيقي. لقد سمحت للضربة بأن تصل إلي". بغضب، ركل خاسار خوذة الضابط التي كانت قرب قدميه، مما جعلها تنزلق فوق حجارة الطريق.

كان هناك اثنان من رجال شن بي يستلقيان صريعين بين زملائهما، والدماء تسيل إلى برك مياه الأمطار الضحلة. فحسبهما شن بي، ومست أصابعه السهام التي برزت من صدريهما. فكر بسرعة بعد أن فسدت خططه.

قال: "لا يمكن لرجل أن يتفادى قدره. دعوهما هنا ليتم العثور عليهما. سيكون ضباط الإمبراطور بحاجة لجثث لعرضها على الحشود غداً".

ترك الجميع الرجلين الميتين ممددين على الحجارة. رأى تيموج أن آخرين بينهم أصيبوا بجراح وأنهم يلهثون مثل كلاب تحت الشمس. استدار شن بي إليه عندها، وهو يستشيط غضباً.

"أنت بأمان الآن أيها اللجان، لكنهم سيمزقون المدينة إرباً برباً بحثاً عنا. إذا لم أعمل على إخراجكم الليلة، ستبقون هنا حتى الربيع".

احمرت وجنتا تيموج إذلالاً. كانت كل المجموعة تحذق إليه، فيما أشاح خاسار بنظره بعيداً. أغمد شن بي سيفه، وتابع السير هرولة للوصول إلى الأسوار. كان الساعي قد نجا من القتال الدموي وتقدم أمامهم مرة أخرى.

كانت البوابة الغربية أصغر من تلك التي دخلوا منها في رحلتهم من النهر. شعر تيموج باليأس عندما رأى الضوء يزداد أمامهم، وسمع صراخاً. أياً كان المواطن الذي قرع جرس الإنذار، فإن ذلك أدى إلى إيقاف الجنود في ثكناتهم، ووجد شن بي صعوبة كبيرة في تفادي المراقبة. توجه إلى بناء مظلم قرب البوابة، طرق على الباب للسماح له بالدخول. استطاع تيموج سماع جلبة رجال مدرعين يقتربون عندما انفتح الباب وانسلوا إلى الداخل، وأغلقوه بسرعة خلفهم.

قال شن بي للرجل الذي أجاب على طريقه: "اجعل رجالاً يصعدون إلى أعلى النوافذ. اطلب منهم أن يخبرونا بما يروه". أطلق لعنة بصوت خافت حينها ولم يجرؤ تيموج على التكلم معه. دفعت رؤية الجرح البليغ القبيح على طول ترقوة خاسار تيموج للسيطرة على خوفه، وطلب من أحد رجال شن بي إبرة وخيطاً مصنوعاً من أعاء القطط. راق شقيقه بتألفه المعتاد فقط بينما كان تيموج يخييط الجلد بخط متعرج. كان الدم والمطر قد نظفاً الجرح، واعتقد أنه لن يتقيح. ساعد ذلك العمل في تهدئة ثقات قلبه ومنعه من التفكير بحقيقة أنه كان ممكناً إلقاء القبض عليهم في تلك اللحظة.

نادى أحد الرجال فوقهم، بهمس أجش بينما كان ينحنى إلى الأسفل.

تم إغلاق البوابة وتحصينها. أرى ربما مئة جندي، على الرغم من أن عدداً أكبر في الطريق إليها. يقف ثلاثون منهم عند البوابة".

سأل شن بي وهو ينظر إلى الأعلى إلى الرجل: "أقواس؟".

"عشرون، وربما أكثر".

"إذا، نحن محاصرون. سيفتشون المدينة بحثاً عنا". استدار إلى تيموج. "لم يعد بوسعي مساعدتكم. إذا عثروا عليّ، فسيفتلوني وسيكون للجمعية السرية الزرقاء قائد جديد. ينبغي أن أترككم هنا".

لم يكن البناء، ليان، قد قاتل مع الآخرين. ولم يكن مسلحاً، كان قد تنحى جانباً إلى قنوات الصرف حالما بدأ القتال. كان هو من رد على شن بي بصوت يندم في الصمت.

قال: "أعرف طريقاً للخروج من هنا، إذا لم تكونوا تمانعون بتوسيع أيديكم قليلاً". لمس الرجل في الأعلى نحوهم: "جنود في الشارع! إنهم يطرقون على الأبواب ويفتشون البيوت".

قال شن لي: "أخبرنا بسرعة يا ليان. إذا تم إلقاء القبض علينا، لن يصفحوا عنك".

لوما البناء برأسه، ووجهه متجههم. "ينبغي أن نذهب الآن. إنه ليس بعيداً من هنا".

كانت مصابيح شحم الضأن تشتعل وتقر، تلقي بضوء أصفر خافت عندما واجه جنكيز صفّاً من ستة رجال يجثون على ركبهم. كانت يدا كل واحد منهم مقيدتين خلف ظهره. كانت وجوههم جميعاً قاسية، كما لو أن الرعب من الخان لا يعتزل داخلهم. مشى جنكيز ذهاباً وجيئة أمام الصف، كان قد تم استدعاؤه من سرير تشاكاهاي ونهض غاضباً، حتى عندما رأى أن كثيرون هو الذي ناداه في الظلام.

كان الرجال الستة أشفاء، تتراوح أعمارهم من أصغرهم الذي كان بالكاد فتى إلى محاربين أشداء لديهم زوجات وأولاد.

قال جنكيز بحدّة: "قطع كل منكم عهداً لي". كان يقد غضباً في أثناء الكلام، وللحظة، كان يرغب بقص رؤوس الستة جميعاً.

"قتل أحدكم فتى من يوريانخي. ليتكلم ولن يموت سوى واحد منكم. إذا لم يفعل ذلك، سأقتلكم جميعاً". شمر سيف والده ببطء، وثررهم يسمعون الصوت. خارج دائرة ضوء المصابيح، شعر بوجود حشد يزداد عدده، وكان قد استيقظ من النوم لرؤية العدالة تأخذ مجراها. لم يكن ليخيب أملهم. وقف جنكيز أمام أصفر الأشفاء ورفع السيف كما لو أنه لا يزن شيئاً.

قال كوكشو بهدوء من طرف الظلام: "يمكنني معرفته يا مولاي". نظر الأشقاء إلى الأعلى ليروا الكاهن العراف يدخل نطاق الضوء الخافت، وعينه مرهقتان. ينبغي بي فقط أن أضع يدي على كل رأس لأعرف الذي تسعى إليه". أخذ الأشقاء يرتعشون بشكل ظاهر للعيان عندما أوماً جنكيز برأسه وهو يغمد سيفه.

"ألق تعالويذك أيها الكاهن العراف. لقد تم تمزيق الفتى إرباً. اعرف من فعل ذلك".

أحس كوكشو رأسه، ووقف أمام الأشقاء. لم يجرؤوا على النظر إليه، على الرغم من أن تعبيرات وجوههم القاسية كانت مجعدة وترتعش.

راقب جنكيز بذهول بينما كان كوكشو يضغط بيده قليلاً على رأس أول رجل ويغلق عينيه. اندفعت كلمات الكاهن العراف منه بصوت رخيم. اهتز أحد الأشقاء وكاد يقع قبل أن يكالغ ليجلس مجدداً.

عندما رفع كوكشو يده، تمايل الشقيق الأول، مذهولاً وشاحباً. كان الحشد خارج الضوء قد ازداد وتمتم المذات في الظلام. انتقل كوكشو إلى الرجل الثاني، وسحب نفساً عميقاً وهو يغلق عينيه.

قال: "الفتى... الفتى رأى...". وقف ساكناً وحبس أفراد المعسكر أنفاسهم لمراقبته. أخيراً، هز كوكشو نفسه، كما لو أنه يتخلص من عبء ثقل. "أحد هؤلاء الرجال خائن يا مولاي. لقد رأيت ذلك. لقد رأيت وجهه. قتل الفتى ليمنعه من نقل ما رآه".

بخطوة واسعة واحدة، تقدم كوكشو إلى الرجل الرابع في الصف، وكان أكبر الأشقاء. امتدت يده بحركة سريعة والتفت أصابعه مثل العظام في الشعر الأسود للرجل.

صرخ الشقيق وهو يكافح: "لم أقتل الفتى!".

همس كوكشو في الصمت المطبق: "إذا كذبت، ستسرق الأرواح روحك. اكذب مجدداً الآن، وأظهر للخان العظيم مصير الخونة والقتلة".

كان وجه المحارب شاحباً من الخوف عندما صرخ: "لم أقتل الفتى. أقسم على ذلك!". تحت يد كوكشو الثقيلة، اهتز فجأة وصرخ الحشد خوفاً. شاهدوا برعب كيف جحظت عينا الرجل في رأسه وفقر فمه مفتوحاً. وقع على جانبيه، متخلصاً من القبضة المرعبة بينما كان جسده يهتز ويتخلص، ومثانته تطلق دفعة كبيرة من البول الذي تبخر على العشب المتجمد.

وقف كوكشو يراقب ما يجري حتى توقف الرجل عن الحركة، عناءه يضاوان
في وميض المصابيح. أطبق صممت شديد على المعسكر. وحده جنكيز كان يستطيع
تحطيمه، وكان عليه أن يكافح للتغلب على مشاعر الدهشة والرهبة التي انتابته.
قال: "كفوا قيود الرجال الآخرين. لقد عرفنا من قتل القتي". عندها أحنى كوكشو
رأسه، وصرف جنكيز الحشد إلى بيوتهم لينتظروا برعب شروق الشمس.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الخامس عشر



رنت أجراس الإنذار عبر باوتو بينما كانوا يسرعون الخطى في الليل، يتبعون لسان. حتى الظلام لم يكن حالكا في بعض الأماكن، بعد أن استيقظ أصحاب البيوت وأضالوا مصابيح عند كل بوابة. ركضوا عبر بقع من الضوء حيث كان المطر يظهر مثل نقاط ذهبية، ثم يجتازون مواقع أخرى سوداء.

لم يكن الجنود قد رأوهم يغادرون، على الرغم من أن ذلك كان قاب قوسين أو أنسى. كان واضحاً أن لسان يعرف المنطقة جيداً، ولاندفع عبر الأثرة الضيقة خلف بيوت الأثرياء من دون تردد. كان معظم جنود الإمبراطور قد ظهرُوا في منطقة البوابات، لكنهم كانوا يشقون طريقهم إلى مركز المدينة، يضيّقون الخناق في أثناء بحثهم عن المجرمين الذين كانوا قد قتلوا رجالهم.

كان تيموج يلهث وهو يكافح للاستمرار في الجري. كانوا يجرون على طول السور، على الرغم من أن لسان استدار أحياناً بعيداً عنه لتفادي ساحات مكشوفة وتقاطعات طرق. كان خاسار يقفز إلى جواره، وعيناه تبحثان عن الجنود. بعد القتال، كان يتشم كلما نظر إليه تيموج، على الرغم من أن الأخير كان يشك بأن تكون ابتسامة أحمق لا يمكنه تخيل عواقب أن يتم إلقاء القبض عليه. كانت مخيلته قاسية بما فيه الكفاية لكليهما وشعر بالخوف وهو يجري، وتخيل قطعاً حديدية ساخنة في جسده.

توقف لسان قرب قسم هادئ من السور. كانوا قد تركوا الجنود المنتشرين مثل النمل والذين ينطلقون مسرعين خلفهم، لكن أجراس الإنذار كانت قد جعلت الناس يخرجون إلى بوابات بيوتهم، ينظرون بخوف إلى الرجال الذين يركضون.

استدار نحوهم لسان، يتنفس بصعوبة. "يتم إصلاح السور هنا. يمكننا التسلق باستعمال حبال سلال الأنقاض. لن تجدوا طريقة أخرى للخروج من باوتو الليلة".

قال شن بي: "أرني". جال ليان ببصره على الوجوه الشاحبة ونظر إلى كل نافذة يمكنه رؤيتها. ابتلع ريقه بعصبية، وأوماً برأسه، وقادهم إلى حيث يستطيعون وضع أيديهم على الحجارة القديمة لسور المدينة.

كانت الحبال مكنسة في الظلام، واستطاعوا رؤية الأشكال المخروطية للسلاسل الطرية التي يتم استعمالها لحمل الحجارة إلى الأعلى حيث يتم تخزينها في قلب السور. كانت ثلاثة حبال مشدودة وأمسك شن بي بواحدة منها بتعجب وسرور.

"لقد أبليت حسناً يا ليان. أليس هناك سالك؟"

رد ليان: "يتم إغلاقها في الليل. يمكنني تحطيم الأقفال بسهولة كبيرة، لكن ذلك سيغرقنا".

"إذاً، سيفي هذا بالغرض. أمسك هذا الحبل وأرني كيف يتم الأمر".

لغى الرجل بحقيبة أنواقه على الأرض، وبدأ للتسلق، بهمهم مع الجهد الذي يبذله. كان من الصعب معرفة ارتفاع السور في الظلام، لكنه بدا ضخماً لتيموج عندما حقق إلى الأعلى. شد قبضتيه في الظلام، وكان بأمس الحاجة ألا يشعر بالإذلال مجدداً أمام خاسار. كان سيسلقه. كانت فكرة أن يتم رفعه مثل كيس من المطارق كريمة للغاية.

انطلق هو سا وخاسار معاً، على الرغم من أن خاسار نظر إلى الخلف إلى تيموج قبل أن يبدأ للتسلق. كان يفكر من دون شك أن شقيقه الضعيف سينزلق ويسقط على شن بي مثل عقاب إلهي. حقق تيموج بغضب إليه حتى ابتسم خاسار وتسلق مثل جرد، وجعل الأمر يبدو سهلاً على الرغم من إصابته.

تمسك شن بي لرجاله: "سينتظر الباقون هنا. سأصعد إلى الأعلى مع هؤلاء، ثم أعود إليكم حالما ينزلون بأمان. ينبغي على أحد أن يسحب الحبال من الطرف الآخر". أعطى حبلًا سميكاً لتيموج وراقب بينما بدأ الشقيق الأصغر الارتفاع، بشد نفسه إلى أعلى السور بذراعين مرتعشتين. هز شن بي رأسه بسخط.

قال: "لا تقنع أبها الجبان". استطاع شن بي، الرجل ضئيل الحجم، الارتفاع بسرعة وترك تيموج يتسلق وحده في الظلام. كانت ذراعه تؤلمانه والعرق يتصبب على عينيه، لكنه أرغم نفسه على الارتفاع باستعمال الحبل الخشن، متعلقاً فوق الرجال في الأسفل. لم يكن هناك ضوء قرب القمة وكاد يقع مصدوماً عندما أمسكت به يدان فويتان، وسحبته إلى أعلى السور.

جلس تيموج يلهث، وتجاهله الآخرون مما كان مبعث راحة كبيرة له. كان قلبه يخفق بينما كانوا يقفون وينظرون إلى الخلف على المدينة. في الأسفل، تم تحرير سلاسل الحجارة وسحبوا الحبال بسرعة، وألقوا بها من الطرف الآخر.

كان السور بعرض عشرة أقدام في الأعلى وتم من الحبل على امتداده. أطلق ليان لعنة بصوت خافت عندما رأى أن الحبال لن تصل إلى الأرض خارج المدينة. قال: "سيكون علينا أن نقرر الجزء الأخير، ونأمل ألا يكسر أحدنا قنمه".

كان ينبغي سحب الحبل الأخير الذي ارتطم بالسور في طريقه إلى الأعلى مع حقيبة أدوات ليان، قوس خاسار وثلاثة سيوف مربوطة كلها معاً. أنزل ليان الحبل خارج السور وتوقف، منتظراً أن يصدر شن بي الأمر. قال شن بي: "اذهبوا الآن. سيكون عليكم أن تسبوا إلا إن وجدتم مكاناً تشترون منه بغلاً".

قال خاسار مباشرة: "إن أعطيت بغلاً، أليس هناك جيد تستحق السرفة في هذه الأرض؟".

"الأمر خطير جداً. شعبك موجود في الشمال، إلا إن كنت تنوي العودة على طريق كزي كزيا. لا تريد المسافة عن بضع مئات لي من هنا، لكن سيكون هناك دوريات من جنود الإمبراطور على كل طريق وتقاطع. سيكون من الأفضل أن تتجهوا غرباً خلف الجبال، وألا تسافروا سوى ليلاً".

قال خاسار: "سنرى. إلى اللقاء أيها اللص الصغير. لن أنسى كيف ساعدتنا". ربح على الحاقة البعيدة، ثم ألحق ليستند على مرفقيه قبل أن يمسك بالحبل الممتلي. تبعه هو سا بعد إيماءة فقط إلى شن بي، وكان تيموج سيفعل الشيء نفسه من دون كلمة لو أن الرجل القصير لم يضع راحة كفه على كتفه.

"حصل خلتكم على ما كان يريد. أريده أن يلتزم بالوعود التي تم قطعها باسمه". أوما تيموج بحدّة. لم يكن يهتم ما إذا قام جنكيز بحرق بلوتو عن آخرها.

قال: "بالطبع. نحن شعب نحترم كلمتنا". نظر إليه شن بي بينما كان ينزل إلى الأسفل، وقد بدا له أخرق وواهن كما هي عاداته. عندما أصبح قائد الجمعية السرية الزرقاء وحيداً على السور، تنهد. لم يكن يثق بتيموج، بعينه الحائرتين وخوفه الظاهر. كان قد شعر بأن في خاسار روحاً تتقد؛ إنه رجل قاسٍ، لكنه كان يأمل بأن يتذكر حسن دعابته وما أساء لهم. هنّ كتفيه غير مبالي عندما استدار عائداً إلى المدينة. لم يكن واقعاً تماماً من ذلك. لم يكن يستمتع بمسعة المقامرة، ولم يفهم أبداً أولئك الذين يستمتعون بها. تمت: "الأجر يتساقط. من يعرف أين سيقع؟".

كان الغبار يعلو الرجال الأربعة وقد تقرّحت أقدامهم بحلول اليوم العاشر. غير معتاد على السير، كان خاسار يمشي مترنحاً ومزاجه كان سيئاً. حالما أضحي خارج

نطاق سيطرة شن بي، لم يطرح ليان أيضاً سوى بعض الأسئلة قبل أن يلتزم الصمت تماماً. مشى مع أدواته فوق كتفه وعلى الرغم من أنه اشترك في تناول الأرناب البرية التي قتلها خاسار بقوسه، إلا أنه لم يحاول الاشتراك في الأحاديث بينما كان الآخرون يخططون مسارهم. جعلتهم رياح قوية يمشون وإحدى أيديهم على أثوابهم، يسكنون القماش بإحكام.

كان خاسار يرغب بسلوك أقصر الطرقات المؤدية إلى الشمال. كان تيموج قد جادل بذلك وتم تجاهله، لكن هو سا كان قد زوده بوصف لقلاع تشن والصور الذي يحمي الإمبراطورية من الغزاة. على الرغم من أن الصور كان متداعياً في بعض الأجزاء، لكن على الرغم من ذلك كان هناك حراس يمكنهم أن يشككوا خطراً على أربعة رجال لوحدهم. كان الطريق الأمن الوحيد يتمثل بالاتجاه غرباً على طول ضفتي النهر الأصفر حتى يصلوا الجبال التي تفصل مملكة كزي كزيا عن صحراء غوبي.

عند نهاية اليوم العاشر، كان خاسار قد أصرّ على دخول قرية تشن بحثاً عن جياذ. كان وشقيقه لا يزالان يحملان كمية صغيرة من الفضة والذهب؛ كافية لترويع فلاحين لم يكونوا قد رأوا شيئاً مماثلاً لتلك القطع النقدية من قبل. كان حتى العثور على تاجر لتسديل القطع الفضية بأخرى برونزية صعباً. غادروا خالي الوفاض، وانطلقوا مجدداً مع حلول الليل، غير راغبين بالبقاء في مكان واحد لوقت طويل.

عندما ارتفع القمر، كان الرجال المرهقون الأربعة قد دخلوا صيقاً في غابة صنوبر، يسحبون بسطة على دروب حيوانات، ويحاولون رؤية النجوم باستمرار لمعرفة طريقهم. للمرة الأولى في حياته، كان تيموج قد أصيب بالقلق من رائحة عرقه والأوساخ التي علقّت به، وتمنى أن يحظى بفرصة أخرى للاستحمام بأسلوب تشن. أمعن التفكير في تجربته الأولى في المدينة وشعر بالحنين لها، وتذكر نظافة بيت شن بي. لم يكن يهتم للمسولين، أو حشد البشر الذي يشبه الديدان في قطعة لحم عفنة. كان ابن وشقيق خان، ولن ينزلق أبداً إلى مثل تلك الحالة المزرية. كان اكتشاف طريقة عيش رجال أثرياء كما رأى يمثل إحياء بالنسبة له، وطرح أسئلة على ليان فيما كانوا يسبرون في الظلام. بدا البناء مندهشاً لأن تيموج لم يكن يعرف الكثير عن حياة المدينة، ولم يفهم كيف أن كل حقيقة جديدة كانت مثل الماء لروح جافة. أخبر تيموج عن تلامذة الصنعة، حيث يأتي مفكرون بارزون لتبادل الأفكار وإجراء النقاشات من دون إراقة دماء. كبناء، تكلم عن قنات صرف يتم بناؤها حتى في أشدّ أحياء المدينة فقراً، على الرغم من أن الفساد كان قد أعاق العمل أكثر من اثنتي عشرة سنة. استوعب تيموج كل ذلك، وبينما كان يمشي، حلم بالسير مع رجال متعلمين في ساحات

تضيئها الشمس، يناقشون قضايا عظيمة ويذاء مشبوكتان خلف ظهره. تثر بجذر غير ظاهر، وضحك عليه خاسار، وتحطمت تلك الصور في مخيلته.

كان خاسار من أوقف الرتل من دون إنذار، مما أدى إلى ارتطام هو ما يظهره. كان جندي كزي كزياً خبيراً بما يكفي ليلتزم الصمت. توقف ليان مرتبكاً، ورفع تيموج رأسه المتقل بأفكاره الخاصة، وقد حبس أنفاسه داخله. هل كانوا ملاحقين حقاً؟ كانوا قد رأوا مواقع حراسة على طريق قبل يومين، والتفوا حوله. هل يمكن أن تكون الأوامر صدرت بالعثور على الهاربين؟ شعر تيموج بوخزة بأس، وبات متأكداً فجأة أن شن يسي وشى بهم مقابل إنقاذ حياته. كان ذلك ما سيفعله تيموج. واستولى عليه الخوف في الظلام، بينما كان يرى الأعداء في كل ظل.

همس تيموج من وراء ظهر شقيقه: "ما الأمر؟".

أدار خاسار رأسه ذات اليمين وذات الشمال، يبحث عن صوت.

"سمعت أصواتاً. لقد تغيرت الريح الآن، لكنها كانت موجودة".

همس هو سا: "ينبغي أن نتجه جنوباً بضعة أميال حتى يفقدوا أثرنا. إذا كانوا يبحثون عنا، يمكننا الاستفادة من الغابة للاختباء في النهار".

قال خاسار: "الجنود لا يعسكرون في الغابات. سيكون التسلل بالقرب منا سهلاً للغاية. سنمضي قداماً، لكن ببطء. لنكن أسلحتكم جاهزة".

رفع ليان مطرقة ذات يد طويلة من حقيبة أدواته، هزها في يده قبل أن يضعها على كتفه الآخر. حقق تيموج إلى خاسار بغضب متزايد.

سأل: "ماذا يهنا من وجود آخرين في هذه الغابة؟ هو سا محق، ينبغي أن نلتف حولهم". رد خاسار: "إن كانوا يمتلكون جياداً، سيستحق الأمر المجازفة. أعتقد أن الثلج سيتمسكهم وقد نعت من العشي". من دون كلمة أخرى، مشى بخطوات واسعة إلى الأمام، وأرغمهم على اللحاق به. لعنه تيموج بصمت. لم يكن رجال مثل خاسار ليمشوا في شوارع المدينة التي بناها في مخيلته. ربما كانوا سيحرسون الأسوار، فيما يحصل رجال أفضل على الشرف والكرامة.

عندما ساروا على طول درب الضيق، أصبح ممكناً رؤية وهج نار بين الأشجار، وسمعوا جميعاً الأصوات التي التقطتها أذن خاسار حاداً السمع. وصلت ضحكة واضحة في نسيم الليل، وابتسم خاسار ابتسامة عريضة عندما سمع صهيل جواد.

تسلل الرجال الأربعة ببطء نحو الضوء، وكانت الهدافات والتحيات تخفي صوت حركتهم. عندما اقتربوا بما فيه الكفاية، استلقى خاسار على بطنه، ونظر إلى الفسحة الصغيرة حيث كانت الجذور القديمة تعلو بعضها على بعض بأشكال مجدولة.

كان هناك بغل، يشد حزاماً جليداً يقوده إلى جذع شجرة. لسعادة خاسار، كانت ثلاثة جياد كثة الشعر مقيدة على طرف فسحة الغابة. كانت صغيرة ونحيلة، تقف ورؤوسها إلى الأسفل. ركّز خاسار بصره عندما رأى الخيوط البيضاء للندوب على أردافها، فك قطعة القماش التي تلف قوسه، ووضع سهاماً على أجمة.

كان هناك أربعة رجال حول النار، ثلاثة منهم يسخرون من الرابع. كان جسده صغيراً ويرتدي ثوباً أحمر داكناً. كان رأسه الحليق يلمع من العرق في ضوء النار. لم يكن الآخرون يرتدون دروعاً، لكنهم يحملون سكاكين في أحزمتهم ولأحدهم قوس قصير يسنده على شجرة. كانت وجوههم قاسية وهم يستمرون في تسليّتهم، يتحركون إلى الأمام والخلف لضرب الرجل الضئيل الحجم. كانت معالم وجهه مليئة بالكدمات ومثورة، لكن أحد الرجال كان ينزف بشدة من أنفه ولم ينضم إلى الضحك مع الآخرين.

بينما كان خاسار يراقب، اصطدم الرجل الذي ينزف من أنفه بعصا، مما جعله يترنح. كان يمكن سماع وقع الضربة عبر السكون، وكثّر خاسار بينما كان يتلمّس وتر قوسه. تسلل عائداً إلى هو سا بعيداً عن الضوء، وصوته مجرد همس.

تحتّاج إلى جيادهم. لا يبدو أنهم جنود، ويمكنني القضاء على اثنين بالقوس إذا هاجمت الأخير. هناك شاب آخر ورأسه يشبه البيضة. ما زال يقاتل، لكن ليست لديه فرصة ضد ثلاثتهم.

قال هو سا: "ربما يكون راهباً. إنهم رجال أشداء، ويقضون كل وقتهم في التضرع والصلاة. لا تقلل من شأنه".

رفع خاسار عينيه، مستمتعاً. "لمضيت مفلولتي أتعلم استعمال الأسلحة من الفجر حتى الغسق. لم أرَ حتى الآن أحداً من شعبك يمكنه الوقوف ضدي".

تقطّيب حاجبا هو سا، وهزّ رأسه. "إذا كان راهباً، سيحاول ألا يقتل أولئك الذين يهاجمونه. لقد رأيتهم يعرضون مهاراتهم على ملكي".

تأفّف خاسار بلطف. "أنتم شعب غريب. جنود لا يمكنهم القتال ورهبان يستطيعون ذلك. أخبر ليان أن يجهّز مطرقة ليضرب رأساً عندما أطلق سهمي".

تقدم خاسار إلى الأمام بحذر مرة أخرى، وانتقل ببطء إلى موقف جثا فيه على ركبتيه. لدهشته، رأى أن الرجل الذي كان أنفه ينزف يستلقي على الأرض، يتلوّى ألماً. كان الصمت قد أطبق على الاثنين الآخرين. كان الراهب الشاب يقف منتصباً على الرغم من الكدمات التي أصيب بها، وسمعه خاسار يتكلم بهدوء مع أولئك الذين عذبوه. سخر منه أحدهم، ألقي عصاه جانباً، وسحب خنجرأً يبدو حاداً من حزامه.

شدّ خاسار قوسه، وعندما صرّ، نظر الراهب عبر النار إليه، وقفز فجأة على قدميه كما لو أنه مستعد للوثب بعيداً. لم يكن الآخرون قد لاحظوا شيئاً، واندفع أحدهم نحو الراهب وهو يحمل الخنجر يريد غرزه في صدره.

أخرج خاسار زفيراً، وأطلق سهماً أصاب قاطع الطريق في إبطه، وجعله يقع على الأرض. دار الآخر حول نفسه عندما صرخ ليان وهو سا، وهما يقفزان نحوه. عندما تحركا، تقدم الراهب من الرجل الأخير، وألزل ضربة على رأسه جعلته يسقط على النار. جاء هو سا وليان يجاران عندهما، لكن الراهب تجاهلهما، سحب الرجل الذي كان يهاجمه من ألسنة اللهب، وربت يديه على الشعر الذي كان الدخان قد بدأ يخرج منه. كان الرجل رخواً لكن لم يبدُ أن الوزن يعيق الراهب على الإطلاق.

عندما انتهى من ذلك، وقف الراهب لمواجهة القاتلين الجدد، وأومأ إليهم. كان الرجل الذي ينزف أنفه ينن أنذاك خوفاً وألماً. شدّ خاسار سهماً آخر إلى قوسه بينما كان يمشي، وكان تموج في أعقابهم.

رأى الراهب ما ينوي خاسار القيام به واندفع إلى الأمام، حتى لم يعد خاسار قادراً على رؤية الجسد الذي يتلوى ألماً. كان رأس الراهب الأصلع يجعله يبدو أكبر من فني بقليل.

قال له خاسار: "تتحّ جانبياً".

تلقى الراهب الكلمات من دون أي انفعال، لكنه لم يتحرك ووضع ذراعيه على صدره ليحقق إلى السهم.

قال خاسار، وهو يصرّ بأسنانه من جهد الإمساك بقوس مشدود: "أطلب منه أن يتحدّى جانبياً يا هو سا. قل له إننا بحاجة لجواده، وإنه بخلاف ذلك يستطيع المضي قدماً في طريقه حالماً أقتل هذا الرجل".

تكلم هو سا، ورأى خاسار وجه الراهب يشرق لسماع كلمات يعرفها. تبع ذلك تبادل لحديث حاد، وعندما لم يظهر على الراهب علامة على تراجع عن موقفه، أطلق خاسار لعنة بلغة تشن وخفف من شد التوتر.

قال هو سا أخيراً: "يقول إنه لم يكن بحاجة لنا وإن حياة الرجل ليست لنا لنقتضي عليها. قال أيضاً إنه لن يتخلّى عن جواده، لأنه ليس له، وإنما استعاره فقط".

سأل خاسار، وهو يتقدم باتجاه الراهب: "ألم يرّ القوس الذي أحمله؟".

"لن يهتم حتى إذا كان لديك اثني عشر سهماً مصوبة نحوه. إنه رجل دين ولا يخاف".

ردّ خاسار: "فتى دين، لديه جواد لثيموج. إلا إن أردت ركوب الجواد نفسه مع شقيقى؟".

قال هو سا مباشرة: "لا أمانع". تكلم إلى الراهب، اتحنى ثلاث مرات في سياق الحديث. أوما الفتى بحدّة في النهاية، وهو ينظر إلى خاسار.

قال هو سا: "يقول إنك تستطيع الحصول على الجياد. سيقى هنا وبعثنى بالجرحى".

هزّ خاسار رأسه عاجزاً عن فهم ما يحدث. "هل يشكرنى لإنقاذه؟".

بدا وجه هو سا خالياً من أي تعبير. لم يكن بحاجة لإنقاذ.

تقطب حاجبا خاسار من الراهب الذي كان يحتق إليه بهدوء.

قال خاسار فجأة: "سيحب خاسار هذا الرجل. أسأله إن كان يرغب بالمجيء معنا".

تكلم هو سا مجدداً وهزّ الفتى رأسه، من دون أن تترك عيناه خاسار.

"يقول إن عمل بوذا ربما يقوده إلى طرقا غريبة، لكن مكانه بين الفقراء".

تألف خاسار.

"الفقراء في كل مكان. أسأله كيف يعرف أن بوذا هذا لم يكن يرغب بأن نعر

عليه هنا".

أوما هو سا، وبينما كان يتكلم، بدا الراهب مهتماً تماماً بما يسمع.

قال هو سا: "سأل إن كان بوذا معروفاً بين قومكم".

ابتسم خاسار. "قل له إننا نؤمن بأب السماء فوق والأم الأرض تحت. الباقي

كفاح وآلم قبل الموت". ضحك بصوت خافت عندما طرقت عيناه هو سا لدى سماعه

تلك الفلسفة.

سأل هو سا: "هل ذلك كل ما يؤمنون به؟".

ألقى خاسار نظرة خاطفة على شقيقه. "بعض الحمقى يؤمنون بالأرواح أيضاً،

لكن معظمنا يؤمن بجواد جيد وذراع معنى قوية. لا نعرف بوذا هذا".

عندما نقل هو سا الكلام، أحنى الراهب الشاب رأسه ومشى بخطوات واسعة إلى

حيث كان جواده مقبلاً. رافقه خاسار وتيموج بينما كان يقفز على السرج، مما جعل

الحيوان يصهل ويركل بقائمتيه.

قال خاسار: "ذلك وحش قبيح. هل الفتى قادم معنا؟".

كان هو سا لا يزال يبتو متفاجئاً عندما أوما برأسه.

"إنه قادم. يقول إنه لا يمكن لرجل تخمين دريه، لكن ربما تكون محقاً بأنك كنت

مدفوعاً إليه".

قال خاسار: "حسناً، لكن قل له إنني لن أترك أعدائي أحياء، ويلبغى به عدم التخل بأموري مجدداً. قل له إنه إذا فعل ذلك، سأشطر رأسه الأصلع الصغير نصفين".

عندما سمع الراهب الكلمات، ضحك عالياً، ولطم على فخذه بينما كان يجلس منفرج الساقين على جواده.
تقطب حاجبا خاسار منه. قال وهو يشير إلى نفسه: "أنا خاسار من الذناب أيها الراهب. ما اسمك؟".

رد، وهو يضرب بقبضته مرتين على صدره مثل تحية: "ياو شوا". بدا أن ذلك ممتع للراهب وضحك بصوت خافت حتى كان عليه أن يمسح عينيه. حتى إليه خاسار.
قال أخيراً: "امتط الجواد يا هو سا. الجواد البني لي. انتهى المشي على الأقل".
لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً ليعتلوا الجياد. امتطى هو سا وتيموج جواداً واحداً معاً حالما تم حلّ السرج وإلقاؤه بعيداً. كان قطاع الطرقات الناجون قد التزموا الصمت قسياً أثناء الحديث، قلقين من أن حياتهم على المحك. راقبوا الغرباء يتعذون، وجلسوا منتصبين ليطلقوا اللعنات فقط عندما تأكدوا أنهم أصبحوا وحدهم.

كان الممر الذي يفصل مملكة كزي كزيا عن الحافة الجنوبية للصحراء خالياً عندما وصلت مجموعة الرجال الخمسة إليه. في جبال خينتي على بعد ألف ميل إلى الشمال، سيكون الشتاء قاسياً، ويهيمن على الأرض شهوراً عديدة قائمة. حتى عند الممر، كانت عاصفة شديدة البرودة تجارّ عبره كما لو أنها سعيدة بإطلاقها. لم يكن هناك حصن يجعل الممر مكاناً ساكناً آنذاك. بدلاً من ذلك، كانت الرياح تهب دائماً والهواء مليء بالرمال والغبار.

ترجل خاسار وتيموج عندما وصلا إلى الممر، متذكرين الجهد الدموي الأول للاستيلاء على الحصن الذي كان يقف هناك. كان جنكيز محقاً في ضرورة تفكيكه. كانت هناك بعض الكتل الضخمة في الرمال، لكن كان كل حجر آخر قد تم سحبه بعيداً. وحدها بعض القنوب المربعة في الصخور كانت تدل على أماكن تثبيت العوارض الخشبية والدعائم، لكن بخلاف ذلك بدا الأمر كما لو أن الحصن لم يكن له وجود أصلاً. لم يكن هناك عائق أمام القبائل التي تتجه شمالاً آنذاك وجعلت تلك الحقيقة وحدها خاسار يشعر بالقفر.

مشى مع تيموج على طول الممر، ينظران إلى الأعلى إلى الصخور الشاهقة على كلا الجانبين. راقبهما الراهب والبناء من دون أن يفهما ما يجري، ومن دون أن

يعرفا أن المكان كان يضم بين جنباته حصناً من الحجارة السوداء وأن مملكة كزي كزيا كانت محمية بشكل رائع.

نظر هو سا جنوباً، وأدار جواده ليحتق إلى الحقول المكشوفة لوطنه. دلت بقع دالكنة تلوح من بعيد على الأماكن التي كان يتم فيها حرق المحاصيل المتعفنة والرماد الذي يكسو الأرض. سيكون هناك جوع في القرى، وكان واقعاً من ذلك، وربما حتى في ينشوان. هز رأسه من الفكرة.

كان بعيداً طيلة حوالي أربعة شهور وسيكون أمراً جيداً رؤية أبنائه وزوجته مرة أخرى. تسأل كيف هي حال الجيش بعد الهزيمة النكراء التي تعرض لها على يدي الخان العظمى. كانت القبائل قد خرقت اتفاقية سلام قديمة وفزع عندما تذكر الدمار الذي نجم عن ذلك. كان قد خسر أصدقاء وزملاء في تلك الشهور ولم يكن طعم المرارة بعيداً أبداً عن فمه. كان الإذلال الأخير يمتثل في رؤية تسليم ابنة الملك إلى همجيين. ارتعش هو سا من فكرة إرغام مثل تلك المرأة على العيش في خيامهم اللتنة بين الأغنام والماعز.

حتق هو سا إلى الوادي، وأدرك ببعض الدهشة أنه سيفتقد لصحبة خاسار. على الرغم من كل فظاظة الرجل وميله نحو العنف، إلا أن هو سا كان يستطيع التطلع إلى الرحلة ببعض الفخر. لم يكن أحد غيره من كزي كزيا قد دخل خلصة إلى مدينة تشن وعاد حياً مع معلم بناء. كان صحيحاً أن خاسار كاد يتسبب بمقتله في إحدى القرى عندما شرب الكثير من شراب الأرز. فرك هو سا قشرة جرح على جانبته حيث كان جندي قد ضربه بسكين على طول أضلاعه. لم يكن الرجل متمركزاً هناك وكان يزور عائلته. لم يتذكر خاسار القتال عندما أفلق، وبدا أنه لا يفكر بالأمر مطلقاً. كان بطريقة ما الرجل الأكثر إثارة للغضب الذي سبق لهو سا أن رآه من قبل، لكن تغاوله المتهور كان قد أثر في جندي كزي كزيا وتسأل قلقاً إن كان يستطيع الاعتياد مجدداً على الانضباط الصارم لجيش الملك. كان ينبغي حمل الجزية السنوية عبر الصحراء وقرّر هو سا عندها أنه سيتطوع لقيادة الحراس في تلك الرحلة، فقط ليرى الأرض التي أنجبت القبائل.

عاد خاسار مشياً إلى مراقبه. شعر باحتياج لفكرة رؤية وطنه مجدداً وجلب البناء إلى جنكيز. اهتم الآخرين بالمقابل، مظهرأ سعادته. كان الغبار والأوساخ تغطيهم جميعاً من دون استثناء، والتراب يخفي كل معالم وجوههم. كان يلو شو قد بدأ يتعلم لغة القبائل من هو سا. لم يكن لدى ليان أنن لتعلم اللغة، لكنه أيضاً كان قد حفظ بعض الكلمات المعقدة. أشاروا برؤوسهم إلى خاسار مترددين، وغير واثقين من سبب مزاجه الجيد.

ثَبَّتَ هو سا ناظره على خاسار بينما كان يقترب منه. كان مندهشاً من الضيق في صدره من فكرة مغادرة تلك الصحبة، وكافح للعثور على الكلمات للتعبير عن ذلك. تكلم خاسار قبل أن يستطيع هو سا التفكير في أي شيء.

"لَقِيَ نظرة جيدة يا هو سا. لن ترى الوطن مجدداً لوقت طويل".
سأل هو سا وقد اختفى مزاجه المسالم: "ماذا؟".

هز خاسار كتفيه غير مهبال.

"لنبتك ملكك لنا سنة كاملة. لم تنفض سوى أقل من أربعة شهور وقد يمر شهران آخران قبل أن نصل إلى الجبال. سنحتاج إليك لترجم للبناء وتعليم اللغة للراهب. هل كنت تعتقد أنني سأتركك هنا؟ هل اعتقدت ذلك؟". بدا خاسار سعيداً من تعبير المرارة الذي ظهر على وجه هو سا.

"نحن عائدون إلى السهول يا هو سا. سنهاجم بعض التلال مستفيدين مما سيعملنا إياه البناء، وعندما نكون مستعدين سنذهب إلى الحرب. ربما بحلول ذلك الوقت، ستكون مفيداً لنا، وسأطلب من ملكك أن يبتدبك لنا سنة أخرى أو اثنتين. أعتقد أنه سيقطع سعرك من الجزية إذا طلبنا منه ذلك".

قال هو سا بحدّة: "تفعل ذلك لتعذبني".

ضحك خاسار بصوت خافت. "ربما قليلاً، لكنك رجل محارب يعرف تشن. سنحتاج إليك بالقرب منا عندما نهاجمهم".

حذق هو سا بغضب إلى خاسار. لطمه المحارب المغولي بسعادة على ساقه بينما كان يستدير مبتعداً، ينادي من فوق كتفه. "يتبني أن نحصل على الماء من القنوت. بعد ذلك، إنها الصحراء ووطن النساء والدلال. هل يمكن للرجل أن يطلب أكثر من ذلك؟ سأعثر لك على أرملة لتبتدبك دافئاً يا هو سا. إنني أسديك معروفاً إن كان لديك فقط عينان ترى بهما".

امتطى خاسار جواده مرة أخرى، واقترب من تيموج الذي كان ليان قد سحبه إلى السرج. انحنى مقترباً من شقيقه.

"السهول تتأدينا يا شقيقي. هل تشعر بذلك؟".

رد تيموج: "أشعر بها". في الواقع، كان يريد أن يعود إلى القبائل مثل خاسار، على الرغم من أن ذلك كان فقط لأنه يعرف تماماً ما سيحصلون عليه لأنفسهم. بينما كان شقيقه يحلم بالحرب والغنائم، رأى تيموج متداً في مخيلته وكل الجمال والقوة التي تتمتع بها.

القسم الثاني



www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل السادس عشر



وقف جنكيز بدرعه الكامل يراقب تدمير مدينة لنهي. كانت حقول الأرز قد أصبحت أوساخاً بنية رطبة على بعد عشرات الأميال في أي اتجاه عندما طوق جيشه الأسوار. كانت رابته المولفة من تسعة ذبول جيد تتكلى رخوة من دون نسيم بينما كانت أشعة شمس الغروب تشع على الجيش الذي كان قد أحضره إلى ذلك المكان. على كلا جانبيه، انتظر رماة السهام الأوامر، وجيادهم تضرب الأرض بحوافرها. وقف نابغ خلفه بمسك جواداً بلون الكستناء، لكن الخان لم يكن مستعداً آنذاك لامتناعه.

قريباً من الرتل الذي ينتظر، كانت خيمة من القماش الأحمر القاني ترفرف في الريح. على مسافة خمسين ميلاً حوله، كان جيش جنكيز قد سحق المقاومة حتى لم يعد هناك سوى المدينة، تماماً كما كانت ينشوان قد حمت ذات مرة ملك كزي كزيا. كانت الحاميات وحصون الطرقات فارغة بعد انسحاب جنود تشن أمام جيش لم يستطيعوا التصدي له. كانوا يشعرون بالخوف من الغزو أمامهم، وانسحبوا إلى أطراف المناطق التي يسيطر عليها جنود تشن، تاركين المدن مكشوفة. حتى السور العظيم لم يشكل عائقاً أمام منجنقات وسلام شعبه. كان جنكيز يشعر بالسعادة لرؤية أقسام شاسعة منه يتم تعطيمها إلى أنقاض لدى تجربة أدواته الحربية الجديدة. كان رجاله قد اكتسحوا المدافعين إلى أبعد نقطة يمكنهم الوصول إليها، حرقوا بيوت المعسكرات الخشبية بشيء من الضغينة. لم يستطع جنود تشن هزهم. كان كل ما استطاعوا القيام به الهرب أو التعرض للدمار.

كان جنكيز واثقاً أن تقديراً للموقف سيظهر مستقبلاً؛ عندما يظهر ضابط يستطيع قيادة تشن، أو عندما تصل القبائل إلى ينكيغ مستقبلاً. لن يكون ذلك اليوم.

كانت كزانيا قد سقطت في سبعة أيام، واحترقت وايران في ثلاثة فقط. رأى جنكيز الحجارة المدفوعة من منجنقاته تهدّ قطعاً من لنهي وابتم راضياً بذلك. كان

البناء الذي أحضره شقيقاه قد أظهر له شكلاً جديداً من العمليات الحربية ولن توقعه مجدداً الأسوار العالية. خلال سنتين، كان شعبه قد بنى منجنيقات وتعلم أسرار ونقاط ضعف أسوار تشن العالية. كان أبناءه قد أصبحوا طوال القامة وأقوياء وكان متواجداً ليرى الأكبر يصل إلى مشارف الرجولة. كان ذلك كافياً. كان قد عاد إلى أعداء شعبه وتعلم جيداً.

على الرغم من أنه كان يفت بعيداً عن صف المنجنيقات، إلا أنه كان يستطيع سماع الضربات المدوية بوضوح في الجو الساكن. لم يكن جنود تشن في الداخل يجرؤون على الخروج وقتال جيشه، وإذا فعلوا ذلك، كان سيرحب بالنهاية السريعة. لم تكن الضخمة الحمراء التي نصبوها تقديمهم آنذاك. قطعة إثر أخرى، كان يتم تحطيم الأسوار، وكانت الحجارة تنطلق من المنجنيقات في الهواء من قبل فرق من رجاله تتصيب عرقاً. كان ليان قد فتم له تصميمات لسلح أكثر ثروياً. تخيله جنكيز في ذهنه، وفكر مجدداً في النقل الموازي الذي قال ليان إنه سيفتح صخوراً كبيرة منات الأقدام بقوة ساحقة. كان بناء تشن قد وجد حافظاً في تصميم سلحة لحاكم بقدر مهارته. كان جنكيز قد اكتشف أنه يستطيع استيعاب رسوم ليان كما لو أنه يتمتع بالمعرفة منذ أمد طويل. كانت الكلمات المكتوبة لا تزال طلائع بالنسبة إليه، لكن القوة والاحتكاك، الواقع، الكتل الحجرية والحبال كانت كلها واضحة في ذهنه. كان سيدع ليان يبني آلهة العظيمة لمهاجمة ينكينغ.

لم تكن مدينة إمبراطور تشن تشبه لنهي ليتم إرغامها على الاستسلام. تألف جنكيز من الفكرة، وتخيل الخنادق والأسوار للضخمة التي كان ليان قد وصفها، والسمكة عند القاعدة بعرض سبعة رجال من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين. كانت أسوار كزانيا قد انهارت إلى فتوات تم حفرها تحتها، لكن أبراج حصن ينكينغ كانت مبنية على صخور ولا يمكن تفويضها. كان بحاجة إلى أكثر من المنجنيقات لتحطيم مدينة الإمبراطور، لكن كان هناك سلاح آخر في جعبته، وكان محاربوه يصبحون أكثر مهارة مع كل نصر يحققونه.

كان جنكيز قد فكر في بادئ الأمر أنهم سيعترضون على دورهم الجديد كعمال آلات. لم يكن شعبه قد برع في سلاح المشاة من قبل، لكن ليان كان قد أقنعهم بفكرة أنهم مهندسون، ووجد جنكيز أن الحديد منهم يفهمون علم القوى والأوزان. كان قد أظهر سعادته بالحصول على رجال يحطمون مدناً وكانوا يفتنون بفخر أمام ناظرية.

كشف جنكيز عن أسنانه عندما سقط جزء من السور إلى الخارج. كان مع تسويودي ألف منهم يعملون أمام أسوار لنهي. كان الجيش الرئيسي قد شكل أرتالاً

خارج بوابات المدينة الأربع، ينتظر الاندفاع نحوها عند أول إشارة على فتحها. رأى جنكيز تسوبودي يمشي بخطوات واسعة بين فرق المنجنيقات، بوجهه الضربات. كان كل ذلك جديداً تماماً، وشعر جنكيز بالفخر من الطريقة التي تأكل بها شعبه مع تلك الآلات. لو أن والده كان حياً ليرى ذلك.

من بعيد، أمر تسوبودي بتقدم المتاريس الخشبية إلى الأمام لحماية محاربيه. لم يكن بمقدور رماة المدينة استعمال أقواسهم من دون المخاطرة بحياتهم، وحتى عندما كان يحالفهم النجاح، كانت سهامهم ترتطم بالخشب من دون أي تأثير.

بينما كان جنكيز يراقب ما يجري، أطلقت مجموعة من المدافعين برؤوسها لسكب ما في قدر حديدي من فوق أعلى السور. وقع العديد منهم ضحايا السهام، لكن كان هناك دائماً المزيد لياخذوا مكانهم. تقطب حاجبا جنكيز عندما نجحوا في تليل اثني عشر رمتاحاً بسائل أسود. توارى المحاربون خلف مئاسهم الخشبي، لكن بعد لحظات فقط، تم إلقاء مشاعل على السائل، وانتشرت ألسنة اللهب التي كان صوتها أعلى من الصرخات المكثومة للرجال الذين احترقت رئاتهم.

سمع جنكيز رجالاً يطلقون اللعنات من حوله. نعثر رمتاحو تسوبودي بالمجموعات الأخرى، وأفسدوا الوثيرة السلسة للهجوم. في حالة الارتباك تلك، كان رماة تشن يستهدفون كل من بخطو خارج نطاق مئاسه لإبعاده أو وضع حدٍّ لألمه.

أصدر تسوبودي أوامر جديدة، وتحركت المجموعات ببطء إلى الخلف، تاركة الرجال المصابين حتى تم القضاء عليهم. أو ما جنكيز موافقاً بينما بدأت المنجنيقات تعمل مرة أخرى. كان قد سمع عن الزيت الذي يحرق، على الرغم من أنه لم يكن قد رآه يستعمل بمنزل تلك الطريقة. كان يشتعل بسرعة أكبر من شحم الضأن في مصابيح المغول، وقرر الحصول على كمية منه. ربما سيكون هناك بعض منه في لنهي عندما تسقط. امتلأ ذهنه بالآلاف التفاصيل التي ينبغي عليه تذكرها كل يوم حتى شعر بأن رأسه متورم من الخطوط.

استلقت جنث داكنة يفرج منها الدخان تحت السور واستطاع سماع هتاف خافت داخل المدينة. انتظر جنكيز أن يقوم تسوبودي بتحقيق اختراق، وقد بدأ صبره ينفد. لم يكن الضوء مستمر وفقاً طويلاً، وعند مغيب الشمس، سيكون على تسوبودي أن يأمر رجاله بالانسحاب ليلاً.

عندما صدحت المنجنيقات مجدداً، تسامل جنكيز عن عدد الذين قدومهم في الهجوم. لم يكن الأمر مهماً، كان تسوبودي يقود الأكل خيرة بين محاربيه وكانوا بحاجة للخبرة في الحرب. في السنتين اللتين كان قد قضاهما في جبال خينتي، كان

ثمانية آلاف فتى قد بلغوا مشارف الرجولة وحصلوا على جياذ للاتضمام إليه. كان معظمهم بقيادة تسوبودي ويدعون أنفسهم "الذئاب القوية" تكريماً لجنكيز. كان تسوبودي قد توسل تقريباً ليكونوا أول من يهجم على لنهي، لكن جنكيز كان قد خطط آنذاك للسماح لأولئك القسوة بقيادة الهجوم. إضافة إلى قائدهم الجديد، ينبغي أن تتخهم الجراح.

سمع جنكيز صرخات المصابين تحملها الرياح ونقر برباط رسفه من دون وعي على الصفائح المصقولة فوق فخذه. تهاوى قسمان آخران من السور. رأى برجاً حجرياً ينهار، ويدفع بمجموعة من الرماة نحو أقدام محاربي تسوبودي الذين تهللوا فرحاً. كانت أسوار لنهي آنذاك تشبه أسناناً مكسورة، وكان جنكيز يعرف أن الأمر لن يطول. تم سحب سلاخ على نواليب إلى جانب السور بينما تتحت فرق المنجليقات جانباً، مرهقة ومبتهجة بالنصر.

شعر جنكيز بالبهجة من حوله، واندفعت ذئاب تسوبودي القوية نحو المدافعين، وغطّوا الحجارة الرمادية الباهتة بأجسادهم فيما كانوا يتسلقون السور. غطّى الفضل رماة الهجوم من الأسفل، وكانوا رجالاً يستطيعون إصابة بيضة على بعد مئة خطوة. أصيب جنود تشن الذين ظهرُوا على الأسوار بالسهم وسقطوا إلى الخلف.

أوماً جنكيز بحدّة، وأمسك بلجام جواده ليمتطيه. صهل الحيوان، وقد شعر بمزاجه. نظر جنكيز إلى يمينه ويساره، ورأى وجوه أتباعه الذين ينتظرون بفراغ الصبر والصفوف والأرتال حول المدينة. كان قد شكّل جيوشاً ضمن الجيش، وأضحى كل من قائده يتولى أمر فرقة من عشرة آلاف رجل ويتصرف لوحده. كان أرسلان بعيداً عن مرمى البصر خلف لنهي، لكن جنكيز استطاع رؤية راية ذيل الحصان الخاصة بجيلم نرurf. ألقت أشعة الشمس عليهم جميعاً ضوءاً ذهبياً وبرتقالياً لامعاً، وكانت الظلال طويلة. نظر جنكيز إلى شقيقه، وكانا مستعدين للانطلاق نحو البوابتين الشرقية والغربية إذا تم فتحهما أولاً. كان خاسار وكشيون مهتمين بأن يكونا أول من يصل إلى شوارع لنهي.

عند كنفه، لم يكن الجسد الضخم لتولي الذي كان مرة تابعاً لإيلوك الذئاب يستحق أكثر من نظرة واحدة، على الرغم من أن جنكيز رأى الرجل يتسمّر في مكانه بكبرياء. كان الأصدقاء القدماء هناك، بحيوته بإيماءات من رؤوسهم. كان الصف الأمامي للسرقل مؤلفاً من عشرين جواداً فقط، ورجال أعمارهم تقارب الثلاثين سنة، يمثل عمره تقريباً. كان يرفع من معلويات جنكيز رؤية الطريقة التي ينظرون بها إلى الأمام، وهم يراقبون المدينة بتعطش.

صعد دخان في الهواء من اثني عشر مكاناً ضمن لنهي، مثل خيوط بعيدة لعواصف مطرية في السهول. راقب جنكيز وانتظر، ويداه تهتزان قليلاً من التوتر. جاءه صوت يعرفه، مقاطعاً أفكاره: "هل لي بمباركتك أيها الخان العظيم؟". استدار جنكيز وأومأ برأسه لكاهنه العراف، وكان الأول بين الرجال الذين مشوا الدروب الصعبة. كان كوكشو قد رمى بعيداً الملابس الرثة التي كان يرتديها أيام تبعيته لخان التيمنيز. كان يرتدي ثوباً من الحرير الأزرق الداكن، المربوط بحزام مذهب. كان يلف حول معصميه قطعاً جلدية مع نقود تشن مقبوبة، وكانت ترن عندما يرفع ذراعيه. أحس جنكيز رأسه من دون أي تعبير على وجهه، وشعر باللمسة الباردة لدم الخروف عندما مس كوكشو وجنتيه به. شعر بالطمأنينة تستولي عليه، ولقي رأسه منخفضاً بينما كان كوكشو ينشد ابتهاجاً للأم الأرض.

"سأرحب بالدماء التي ترسلها لها يا مولاي، كما لو أن الأسطار نفسها هطلت حمراء".

أخرج جنكيز زفيراً بطيئاً، منكباً تماماً الخوف في الرجال من حوله. كان كل منهم محارباً بالولادة، شنت أزره النيران والمعارك منذ السنوات الأولى، لكنهم على الرغم من ذلك أغلقوا أفواههم التي كانت تترثر عندما مشى كوكشو بينهم. كان جنكيز قد رأى الخوف يزداد وكان قد استفاد منه لفرض الانضباط على القبائل، مانحاً كوكشو سلطة برعائه.

سأل كوكشو: "هل أجمعهم يفكّن الخيمة الحمراء يا مولاي؟ الشمس تغرب والقماش الأسود جاهز للبيكل".

أمعن جنكيز التفكير بالأمر. كان كوكشو نفسه من اقترح تلك الوسائل لئلا الرعب في مدن تشن. في اليوم الأول، يتم نصب خيمة بيضاء خارج أسوارهم، وكان وجودها بحد ذاته يدل على عدم وجود جنود ينفذونهم. إذا لم يكونوا قد فتحوا أبوابهم بحلول المغرب، سيتم نصب الخيمة الحمراء عند القجر ويقطع جنكيز لهم وعداً بأن كل رجل في المدينة سي موت. في اليوم الثالث، كانت الخيمة السوداء تعني أن هناك موتاً من دون نهاية، من دون رحمة، لكل من يعيش في الداخل.

سيكون ذلك عبء لكل المدن إلى الشرق، وسامل جنكيز إن كانت سوف تستسلم بسهولة أكبر كما قال كوكشو. كان الكاهن العراف يفهم كيفية استعمال الرعب. سيكون صعباً ألا يسمح للرجال بسلب كل شيء بوحشية من أولئك الذين قاومهم، لكن الفكرة أعجبته. كانت السرعة مهمة جداً وإذا سقطت مدن من دون قتال، يمكنه التحرك بسرعة أكبر. أشار برأسه إلى الكاهن العراف، مانحاً إياه الشرف.

لم ينته اليوم بعد يا كوكشو. ستعيش النساء من دون أزواجهن. سينقل الطاعنون في السن أو الضعفاء ما حدث وسوف ينتشر الخوف".
قال كوكشو وعيناه تلمعان: "كما نشاء يا مولاي". شعر جنكيز بأحاسيسه تضطرم بالمقابل. كان بحاجة لرجال أنكياء إذا كان سيسلك الدرب الذي رسمه في مخيلته لنفسه.

نادى أحد الضباط: "مولاي الخان". استدار جنكيز نحوه، وشاهد أن محاربي تسويودي الشباب قد فتحوا البوابة الشمالية. كان المدافعون لا يزالون يقاتلون واستطاع رؤية بعض رجال تسويودي يسقطون فيما كانوا يكافحون للمحافظة على الأفضلية التي حققوها. من طرف عينه، دفع عشرة آلاف محارب بقيادة خاسار جياهم للجري وكان يعرف أن المدينة فتحت من مكانين على الأقل. كان كثيرون لا يزال متمركزاً عند البوابة الشرقية ولم يستطع سوى أن يراقب بإحباط بينما كان شقيقاه يندفعان إلى الداخل.

صرخ جنكيز وهو يدفع بعقبه على ردفي مطيته: "هجوم!". بينما كان الهواء يصفع وجهه، تذكر السباق عبر سهول الوطن في أيام غابرة. كان يحمل رماً من خشب البتولا بيده اليمنى، وكان ذلك ابتكاراً آخر. كان قلة فقط من أقوى الرجال قد بدأوا السدوب على استعماله، لكن الأمر كان يزداد بين القبائل. كان جنكيز يحمل الرمح والتصل إلى الأعلى، وجاز عبر الأرض، محاطاً بمحاربيه الملكيين.

كان يعرف أن هناك مدناً أخرى، لكن تلك الأولى ستبقى دائماً الأحدى في ذاكرته. جاز مع رجاله، واندفع الرتل بأقصى سرعة عبر البوابتين، بعثر المدافعين وتركهم مثل أوراق ملطخة بالدماء خلفه.

مشى تيموج عبر ظلام حالك إلى خيمة كوكشو. عندما دخل عبر الباب، سمع صوتاً مكتوماً ينتحب في الداخل، لكنه لم يتوقف. كان القمر غائباً عن السماء وكان كوكشو قد أخبره أنه بحلول ذلك الوقت سيكون أقوى وأكثر قدرة على التعلم. كانت النيران لا تزال تشتعل من بعيد في لهي المدمرة، لكن المعسكر كان هادئاً.

كان بالقرب من خيمة الكاهن العراف واحدة أخرى، منخفضة جداً حتى إنه كان على تيموج أن يحنو على ركبتيه لينخلها. كان هناك مصباح وحيد يشع بضوء خافت، وكان الهواء كثيفاً بالأبخرة التي جعلت تيموج يشعر بالتوار بعد عدة أنفاس فقط. كان كوكشو يجلس وقد وضع ساقاً على أخرى على أرضية مكسوة بالحرير الأسود المتفرض. كانت كل الأشياء في الداخل قد جاءت من يدي جنكيز وشعر تيموج بالصد بمنزج بخوفه من الرجل.

كان قد تم استدعائه وجاء بناءً على ذلك، لم يكن في وضع يسمح له بطرح أسئلة، جلس ووضع ساقاً فوق أخرى ليواجه الكاهن العراف، ورأى أن عيني كوكشو مغلقتان وأن النفس الأخير لم يكن أكثر من اهتزاز طفيف في الصدر. ارتعش تيموج في الصمت المطبق، وتخليل أرواحاً سوداء في الدخان الذي ملأ رئتيه، والذي كان يأتي من احتراق البخور في طبقين نحاسيين وتساؤل عن المدينة التي تم سلبه منها، كانت خيام شعبه مكاناً للعديد من الأشياء الغريبة في تلك الأيام النموية، وكان قلة منهم يستطيعون التعرف عليها.

سعل تيموج عندما أصبح الدخان كثيفاً جداً في رئتيه، رأى صدر كوكشو العاري يرتعش وفتح الرجل عينيه بتثاقل، يبحث عنه لكن من دون أن يراه. عندما عاد إليه تركيزه، ابتم له الكاهن العراف، وعينه مغلقتان بظلال قائمة.

قال كوكشو بصوت أجش من الدخان: "لم تأت إلي منذ دورة كاملة للقمر".

أشاح تيموج ببصره بعيداً.

"كنت منزعاً، كانت بعض الأمور التي أخبرتني بها... مقلقة".

ضحك كوكشو بصوت خافت، وهو يسعل بشكل متقطع وجاف: "كما يخاف الأطفال الظلام، كذلك يخاف الرجال السلطة. إنها تغويهم إلا أنها تستهلكهم. ليس مفيداً أبداً أن تلعب برفق". ثبت ناظره على تيموج حتى رفع الشاب بصره إلى الأعلى وفزع بشكل ظاهر للعيان. كانت عينا كوكشو الذابتان تلمعان بشكل غريب، والبؤبؤان أوسع مما كان تيموج قد رآهما من قبل.

تمتم كوكشو: "لماذا جئت الليلة إن لم يكن لتغمس يديك في الظلام مرة أخرى؟".

سحب تيموج نفساً عميقاً، بدا أن الدخان لم يعد يزجج رئتيه آنذاك وشعر بالنوار، وانقأ من نفسه تقريباً.

"سمعت أنك عثرت على قاتل عندما كنت غائباً في باوتو. لقد تكلم شقيقي الخان عن ذلك. قال إن الأمر كان مدهشاً وكيف أنك استطعت معرفة الرجل من صف من المحاربين الذين يجثون على ركبهم".

قال كوكشو وهو يهز كتفيه استخفافاً: "لقد تغير الكثير منذ ذلك الوقت. استطعت شتم ذنبه يا بني. إنه شيء يمكنك تعلمه". استجمع كوكشو إرادته لتركيز أفكاره. كان معتاداً على الدخان ويستطيع تحمله أكثر من رفيقه الشاب، لكن على الرغم من ذلك كانت هناك أضواء ساطعة تلمع عند أطراف عينيه.

شعر تيموج بأن كل أسباب قلقه تتبدد حالما جلس هناك مع ذلك الرجل الغريب الذي تنوح منه رائحة الدم على الرغم من أنوابه الحريرية الجديدة. تنفقت الكلمات منه ولم يعرف أنه يتلفظ بها.

همس تيموج: قال جنكيز إنك وضعت يديك على الخائن وقتلت كلمات بلغة قديمة. قال إن الرجل صرخ ومات أمامهم جميعاً من دون جرح.
وتوّد أن تفعل الشيء نفسه يا تيموج؟ ليس هناك أحد آخر هنا، وليس هناك خجل بيننا. قل الكلمات. هل هذا ما تريده؟
استرخى تيموج قليلاً، وترك يديه تنزلاّن إلى الأرضية المغطاة بالحزير حتى أصبح يشعر بها تنزلق تحت أصابعه بوضوح استثنائي.
"إنه ما أريده".

استعت ابتسامة كوكشو لدى سماعه ذلك، وظهرت لثته الداكنة عندما تراجعت شفطيه إلى الخلف. لم يكن يعرف هوية القاتل أو حتى إن كان موجوداً. كانت اليد التي وضعها على رأس الرجل تحمل نابين صغيرين وكيس سم مثبناً بشمع. كان الأمر قد استغرق منه عدة ليالٍ لاصطياد الأفعى الصغيرة السامة التي يريدّها، مخاطراً بالتعرض للسعها. بدأ بضحك بصوت خافت مجدداً عندما تذكر الدهشة على وجه الخان عندما ثلوت الضحية ألماً من مجرد لمسة. كان وجه الرجل المحتضر قد أضحى أسود تقريباً قبل أن يقضي نحبه، وكانت بقعاً الدم قد اختفت في شعره. كان كوكشو قد اختاره بسبب فتاة تشن التي كان قد اختارها زوجة له. كانت أثارت الرغبة في الكاهن العراف عندما مرت بخيمته لتجلب الماء ثم رفضته، كما لو أنها إحدى أفراد شعبه وليست أمة. ضحك بقوة عندما تذكر الإثراك الذي لمع في عيني زوجها قبل أن يسرقه الموت مع كل شيء آخر. منذ تلك اللحظة، كان كوكشو يتمتع بالمهابة والشرف في المعسكر. لم يكن أحد من عرّافى القبائل الآخرين يجروّ على تحذّي موقعه، ليس بعد أن أظهر قوته. لم يشعر بالذنب لاحتياله. كان مصيره الوقوف مع خان الأمة، منتصباً فوق أعدائه. إن كان عليه قتل ألف شخص للظفر بذلك، سيحكيّر أن الأمر يستحق ذلك الثمن.

رأى أن عيني تيموج تدعمان بينما كان يجلس هناك في الدخان الخافق. أخلق كوكشو فكّه بإحكام، مخفياً سعادته. كان بحاجة لذهن صافٍ لتوثيق العلاقة مع الشاب، وتمكينها بحيث لا يمكن فصلها أبداً.

ببطء، مّد كوكشو يده نحو قدر صغير فيه مادة سوداء كثيفة إلى جانبه، ورفع إصبعاً حتى أضحى ممكناً رؤية بذور صغيرة في النجلة. مّد يده إلى تيموج الذي فتح فمه من دون مقاومة، ودهن المادة على لسانه.

غصّ تيموج من الطعم المر، لكن قيل أن ييصق المادة، شعر بالخدر يسري في جسده بسرعة. سمع همسات خلفه وهزّ رأسه إلى الأمام والخلف عندما طبقت غشاوة على عينيه، يبحث عن أصل الصوت.

قال كوكشو راضياً: "أحلم بأسوأ الكوابيس يا تيموج. سأقودك. لا، أفضل من ذلك. سأجعلك ملكي".

كان الوقت فجراً قبل أن يخرج كوكشو مترنحاً من الخيمة، وعرق كبريه الرائحة يبلطخ ثوبه. كان تيموج فاقداً الوعي على الأرضية المغطاة بالحرير وسينام معظم النهار التالي. لم يكن كوكشو قد مسّ المادة بنفسه، غير واثق من الطريقة التي تجعله يهذي بها وغير متأكد إن كان تيموج سينتكر ما حدث. لم تكن لديه رغبة بوضع نفسه تحت سلطة شخص آخر، ليس عندما يكون المستقبل مشرقاً جداً. سحب أنفاساً عميقة من الهواء المتجمد وشعر بأن رأسه قد تخلص من آثار الدخان. كان يستطيع شم رائحته تخرج من مساماته وقبحة عندما استدار عائداً إلى خيمته وفتح الباب بقوة. كانت فناء تشن تجثو حيث تركها، على الأرض قرب الموقد. كانت فائقة الجمال، شاحبة ورقيقة. شعر بالرغبة تجتاحه مجدداً وتساءل عن قدرته على الاحتمال. ربما كانت آثار الدخان في رنتيه.

سأل: كم مرة عصيتني ونهضت؟^٢

قالت ترتعش بشكل ملحوظ: "لم أفعل ذلك".

مذ يده ليرفع رأسها، وانزلقت بداء عن وجهها مما أغضبه. تحولت الإيماء إلى ضربة لأوقعها على الأرض.

وقف بلهث فيما زحفت وجثت مرة أخرى. عندما كان يحل حزام رداءه، رفعت رأسها. كان هناك دم على قمها ورأى أن شفتها السفلى كانت قد تورمت. أثاره ذلك المنظر.

سألت والدموع تلمع في عينيها: "لماذا تؤذي؟ ماذا تريد غير ذلك؟".

قال وهو يبتسم: "القوة ضدك أيتها الصغيرة. ما الذي قد يريده أي رجل سوى ذلك؟ إنه شيء في دم كل واحد منا. ستكون جميعاً طغاة إذا استطعنا ذلك".

الفصل السابع عشر



أضحت مدينة بنكينغ الإمبراطورية هائلة قبل ساعات من بزوغ الفجر، على الرغم من أن ذلك كان بسبب الإسراف بتناول الطعام والشراب في مأدبة الفوانيس أكثر منه خوفاً من جيش المغول. عندما كانت الشمس تغيب، اعتلى الإمبراطور وي منصة لتراء الحشود المتدافعة، وكان ألف راقص قد أحدثوا جلبة بالصنجة والأبواق إحياء لذكرى الموتى. كان قد وقف عازي القنمين، مظهراً تواضعه أمام شعبه بينما كان مليون صوت ينشد 'عشرة آلاف سنة! عشرة آلاف سنة!' بصوت يهز المدينة. لم يكن هناك ليل في مأدبة الفوانيس. كانت المدينة تلمع مثل جوهرة، وآلاف الشعلات تضيء المساحات. حتى البحيرات الكبيرة الثلاث كانت تتوهج، وسطوحها السوداء مغطاة بقوارب صغيرة يحمل كل منها شعلة. كانت بوابة المياه مفتوحة على القناة الكبيرة التي تمتد ثلاثة آلاف لي وصولاً إلى مدينة هانغزو الجنوبية، وكانت القوارب تطفو مثل نهر من النار عبر الليل، تنقل الضوء معها. أسعدت هذه الرمزية الإمبراطور الشاب بينما كان يتحمل الضوضاء والدخان من الألعاب النارية التي دوت أصواتها وتردد صداها من الأسوار العظيمة. كان هناك الكثير منها لدرجة أن المدينة أضحت مغطاة بدخان البارود الأبيض، وأصبح الهواء نفسه مرأً على اللسان. كان سيتم البدء بإتجاب أطفال تلك الليلة، بالقوة أو من أجل المتعة. سيكون هناك أكثر من مئة جريمة وستتلقى البحيرات نفسها اثني عشر سكباً في أصعاقها الداكنة في أثناء محاولتهم عبورها سباحة. كان الأمر نفسه يتكرر كل سنة.

كان الإمبراطور قد تحمل أنشيد الإعجاب به، وتأثر من ضجيج المناداة باسمه من الأسوار وما خلفها. حتى المتسولون، والعبدة، والغاليات هتفوا له في تلك الليلة، وأناروا بيوتهم الأيلة للسقوط بالزيت الثمين. تحمل ذلك كله، على الرغم من أن نظرته فوق رؤوسهم كانت أحياناً بعيدة وباردة بينما كان يخطط لسحق الجيش الذي تجرأ على دخول أراضيهم.

لم يكن الفلاحون يعرفون شيئاً عن الخطر وحتى معلومات باعة الأنباء كانت شحيحة. كان الإمبراطور وي قد سعى إلى إسكات ناقلي الإشاعات، وإن كان اعتقالهم قد أزعج أولئك الذين يبحثون عن مثل تلك الإشارات، إلا أن الاحتفال مضى فمماً بكل مظاهره المعتادة، مليئاً بالشراب، والضجيج، والضوء. عندما رأى المعربون، تذكر الإمبراطور النيدان التي تتجمع على جثة. كان سلعته الإمبراطوريون قد عادوا بتقارير كثيفة. خلف الجبال، كانت المدن تشتعل لهيباً.

بينما كان القجر يضيء الأفق، اختفى الصباح والغناء في الشوارع أخيراً، مما جعله يشعر بالسكينة. كان آخر القوارب الخشبية الصغيرة المئالة قد اختفى إلى الأرباب ولم يعد أي صوت مسموعاً سوى بعض المفرقات النارية التي تنوي من بعيد. جلس الإمبراطور وي في جناحه الخاص وحنق إلى وسط بحيرة سونغى السلكن الدلكن، المحاطة بمئات البيوت الكبيرة. كان أقوى نبلاكه ينتشرون حول تلك البقعة المركزية الداكنة من المياه، تحت نظر الرجل الذي يستمنون قوتهم منه. كان يعرف اسم كل عضو من العائلات النبيلة التي تقالت وتنازعت مثل دبابير لإدارة مملكته الشمالية.

اختفى دخان وفوضى الاحتفال مع ضباب الصباح فوق البحيرات. مع مثل منظر الجمال العتيق ذاك، كان من الصعب استيعاب الخطر القادم من الغرب. على الرغم من ذلك، كانت الحرب قائمة وتمنى لو أن والده كان لا يزال حياً. كان الرجل العجوز قد أمضى حياته بسحق أنلسي إشارة على العصيان ضمن حدود الإمبراطورية وخارجها. كان الإمبراطور وي قد تعلم الكثير منه، لكنه شعر بوطأة موقعه الجديد. كان قد خسر آنذاك مديناً كانت جزءاً من أراضي تشن منذ الانفصال الكبير الذي شطر الإمبراطورية إلى قسمين قبل ثلاثمئة سنة. كان أسلافه قد عرفوا عصراً ذهبياً، ولم يستطع سوى أن يحلم بإعادة الإمبراطورية إلى سابق مجدها.

ابتمسم بسفيرة من فكرة أن والده لو كان قد سمع عن الحشد المغولي على أراضي العائلة، لثار غاضباً في أروقة القصر، وضرب العبيد لإبعادهم عن طريقه، ودعا الجيش للتأهب. لم يكن والده قد خسر معركة من قبل وكانت ثقته بنفسه ترفع من معنويات الجميع.

تنبه الإمبراطور وي من أفكاره عندما تتحجج أحدهم بلطف خلقه. نظر إلى الخلف من النافذة العالية ليرى وزيره الأول يلحنى إلى الأرض.
"جلالة الإمبراطور، القائد زهي زهونغ هنا كما طلبت."

رد الإمبراطور وهو يستدير مبتعداً عن منظر القجر معدلاً جلسته: "دعه يدخل ليرى أنلسي است منزعاً". جال ببصره في جناحه الخاص، ورأى أن كل شيء في

مكانه كالمعتاد. كانت طاولة الكتابة الخاصة به خالية من كومة الخراطم والأوراق ولم يكن هناك دليل على غضبه بينما كان ينتظر الرجل الذي سيخلصه من القبال. لم يسعه سوى التفكير بملك كزي كزيا والرسالة التي بعثها إليه قبل ثلاث سنوات. خجلاً، تذكر سوء كلماته والسعادة التي كان قد شعر بها عندما أرسلها. من كان يعرف حينها أن الخطر المغولي أكثر من بعض رجال قبائل يطلقون الصرخات؟ لم يكن شعبه قد شعر بالخوف أبداً من أولئك الذين يمكن التخفيف من أعدادهم كلما تسببوا بمشكلات. عرض الإمبراطور وي شفته من الداخل بينما كان يفكر بالمستقبل. إذا لم يكن ممكناً التغلب عليهم بسهولة، سيكون عليه تقديم رشوة للتنازل لمهاجمة أعدائهم القدامى. لذهب تشن تحقيق النصر في المعارك مثل الأقواس والرماح. تذكر كلمات والده بولع شديد، وتتمنى مرة أخرى لو أنه كان موجوداً ليقدّم نصائحه.

كان القائد زهي زهونغ رجلاً ضخم الجسد، وله بنية مصارع. كان رأسه حليفاً تماماً ويلسع من الزيت عندما انحنى. شعر الإمبراطور وي بأنه يحلّ جلسته تلقائياً لدى دخوله، وكانت تلك تركة ساعات عديدة في أرض التدريب. كان يبحث على الاطمئنان رؤية تلك النظرة الحادة والرأس الضخم مرة أخرى، فقد كانت تجعله يرتعش عندما كان فتى صغيراً.

عندما نهض زهي زهونغ، رأى الملك أنه يبدو فتاكاً، وشعر مرة أخرى بأنه فتى صغير. كالحفاظ على صوته ثابتاً عندما تكلم. لم يكن ينبغي بالإمبراطور أن يبدو ضعيفاً.

"إنهم قادمون إلى هنا أيها القائد. لقد سمعت التقارير".

تخصص زهي زهونغ الشاب الرقيق الوجه الذي يواجهه، متمنياً أن يكون الأب موجوداً. سيكون الرجل العجوز قد تصرف بطول ذلك الوقت، لكن عجلة الحياة كانت قد أخذته وكان ذلك هو الفتى الذي ينبغي أن يتعامل معه. شد القائد كلتا قبضتيه إلى جانبيه، وهو يقف مشدوداً بشكل آلم.

لم يعد لديهم أكثر من خمسة وستين ألف محارب يا جلالة الإمبراطور. فرسانهم رايمون ويتمتع كل واحد منهم بمهارة استثنائية في الرماية. إضافة إلى ذلك، تعلموا فن الحصار ولديهم أسلحة قوية للغاية. لقد حققوا انضباطاً لم أعرفه في تعاملاتي معهم من قبل. قال الإمبراطور الشاب بحدة: "لا تخبرني عن نقاط قوتهم! قل لي بدلاً من ذلك عن الطريقة التي سنحققهم بها".

لم يفعل زهي زهونغ من نبرة الصوت. كان صمته انتقاداً كليفاً، ولوح له الإمبراطور ليتابع كلامه، وقد صبغت الحمررة وجنتيه الشاحبتين.

"انهزم العدو، ينبغي أن نعرفه يا مولاي ابن السماء". قال اللقب مشدداً عليه للتذكير الإمبراطور بمكانته وقت الأرملة. انتظر القائد زهي زهونغ حتى شد الإمبراطور لحيته وسيطر على خوفه.
كنا في الماضي نبحث عن نقاط ضعف في تحالفهم. لا أعتقد أن هذا التكتيك سيجدي نفعاً هنا".

قال وي من دون تفكير: "لماذا؟". لأن يخيره الرجل عن الطريقة التي سيهزم بها رجال القبائل هؤلاء؟ كفتي، كان قد تحمل العديد من المحاضرات من القائد الأسير، وبدأ ألا مفر له منها حتى مع وجود إمبراطورية عند قدميه.

لم تتجاوز قوة مغولية السور الخارجي من قبل، يا جلالة الإمبراطور. لا يمكنهم سوى الصراخ أمامه". هز كتفيه استخفافاً. لم يعد الفاصل المنيع الذي كان عليه ذات مرة، ولم يعد هؤلاء المغول يخافون من قوتنا المتفوقة كما كانوا من قبل. لقد أصبحوا أكثر شجاعة نتيجة لذلك". توقف قليلاً، لكن إمبراطوره لم يتكلم مجدداً. فقدت نظرة القائد بعضاً من قوتها. ربما كان الفتى قد بدأ يفهم متى يبقى فيه مغلقاً.

"لقد عذبنا مستطعميهم، يا جلالة الإمبراطور. أكثر من اثني عشر شخصاً في الأيام القليلة الماضية. خسرتنا رجالاً لإحضارهم أحياء، لكن الأمر كان يستحق المحاولة لمعرفة العدو". تطلب حاجباً القائد عندما تذكر ذلك.

"لهم موحدون. لا أعرف إن كان عقد التحالف سينفطر بمرور الوقت، لكنهم أقوىاء هذه السنة على الأقل. لديهم مهندسون، وهو شيء كنت أعتقد أنني لن أراه أبداً. إضافة إلى ذلك، لديهم ثروة كزي كزي خلقهم". توقف القائد، ووجهه ينقش سماً من حليفهم السابق.

"سأستضع بقية الجيش إلى وادي كزي كزي يا جلالة الإمبراطور، عندما ينتهي هذا".

قال الإمبراطور وي بسرعة وقد بدأ صبره ينفذ: "المستطعمون أيها القائد".

تابع القائد الكلام: "إنهم يتكلمون عن جنكيز هذا كإنه شيء عظيم. لم أجد دليلاً على مجموعة نائمة بينهم، على الرغم من أنني لن أتوقف عن البحث. لقد فرقناهم من قبل بقطع وعود لهم بالسلطة والثروة".

قال الإمبراطور وي بحدّة: "قل لي كيف ستهزمهم أيها القائد، أو سأجد شخصاً يستطيع ذلك".

عند ذلك، أصبح فم زهي زهونغ خطاً حاداً في وجهه.

قال: "بعد تدمير السور الخارجي، لا يمكننا الدفاع عن المدن حول النهر الأصفر يا مولاي. الأرض منبسطة تماماً وتمنعهم أفضلية كبيرة. ينبغي بجلالة الإمبراطور أن يجهز نفسه لخسارة تلك المدن عندما تسحب الرجال إلى الخلف".

هذه الإمبراطور وي رأسه محبطاً، لكن القائد ضغط عليه.

"ينبغي ألا نسمح لهم باختيار المعارك. سوف تسقط لنهي كما سقطت كزامبا ووايان. بلوتو، وجينينغ، وكزيشنغ كلها على طريقهم. لا يمكننا إبقاء تلك المدن، وإنما التنازل لها فقط".
نهض الإمبراطور وي على قدميه غاضباً. "سيتم قطع الطرقات التجارية وسيعرف أعداؤنا أننا ضعفاء! طلبتك لتخبرني كيف أنفذ الأراضي التي ورثتها، وليس لتراقبها تحترق معي".

قال زهي زهونغ بحزم: "لا يمكن إيقاعهم يا جلالة الإمبراطور. سأحزن أنا أيضاً على الموتى عندما ينتهي الأمر. سوف أسافر إلى كل واحدة من تلك المدن وأنتز الرمال على جندي وأقدم عروضا للتعويض على سكانها. لكنها سوف تسقط. كنت قد أصدرت أوامر بسحب جنودنا من تلك الأماكن. سيخدمون جلالة الإمبراطور بشكل أفضل هنا".
كان الإمبراطور الشاب واجماً، ويده اليمنى ترتعش عند حافة ردايته. بإرادة كبيرة، ثبت نفسه.

تكلم بحرص معي أيها القائد. أريد نصراً، وإذا أخبرتي مرة أخرى أنه ينبغي بي التخلي عن أراضي والدي، سأقطع رأسك الآن".

نظر القائد في عيني الإمبراطور الغاضبتين. لم يكن هناك إشارة على الضعف الذي كان قد رآه من قبل. للحظة، تذكر والد الغنى وأسعدته الفكرة. ربما ستدفع الحرب الدماء في العروق بشكل لم يكن ممكناً من قبل.

"يمكنني جمع حوالى مئتي ألف جندي لمواجهةهم يا جلالة الإمبراطور. ستكون هناك مجاعة نتيجة تحويل الإمدادات إلى الجيش، لكن الحرس الإمبراطوري سيحافظ على النظام في ينكينغ. سيكون موقع المعركة من اختياري، حيث لا يستطيع المغول الإغارة علينا. أقسم لابن السماء إنني سأدمرهم عن بكرة أبيهم. كنت قد دربت العديد من الضباط وأقول لجلالتكم إنهم لن يفشلوا".

رفع الإمبراطور يداً إلى عيونه ينتظر وقيل كأساً من الماء البارد. لم يقدم مشروباً للقائد، ولم يفكر في الأمر، على الرغم من أن الرجل كان بعمر يفوقه ثلاث مرات وكان الصباح دافئاً. كان الماء من نبع جاید للعائلة الإمبراطورية وحدها.

قال ممثلاً وهو يرتشف الماء: "هذا ما أردت سماعه. أين ستقع المعركة؟"

"عندما تسقط آخر المدن، سيتحركون نحو ينكينغ. سيعرفون أنها المدينة التي يقيم فيها الإمبراطور وسيأتون إلينا. سأوقفهم في سلسلة من الجبال إلى الغرب، عند ممر يوهنغ الذي يدعى 'قم الغرير'. إنه ضيق بما يكفي ليعيق جيادهم وسنقتلهم جميعاً. لن يصلوا إلى المدينة. أقسم على ذلك".

قال الإمبراطور وانقا: "لا يمكنهم الاستيلاء على ينكينغ، حتى إذا فشلنا". نظر إليه القائد زهي زهونغ، مستائلاً إن كان الشاب قد غادر مرة المدينة التي ولد فيها. تتحجج القائد بلطف.

"هذا غير ممكن. سأنمرهم هناك، وعندما يمر الشتاء، سأذهب إلى وطنهم وأمحوهم عن وجه الأرض. لن يتمكنوا بالقوة مجدداً".

شعر الإمبراطور بمعنوياته ترتفع لدى سماعه كلمات القائد. لن يكون مضطراً للوقوف مكللاً بالعرار أمام والده في أرض مليئة بالموتى. لن يكون مضطراً للتعويض عن الفشل. للحظة، فكر مجدداً في المدن التي سيستولي عليها المغول، وثراعت له الدماء والسنة للهب. لكنه أبعدا عن ذهنه، وشرب رشفة أخرى من الماء. سيعيد بناءها. عندما يتم تمزيق آخر رجال القبائل إرباً، أو تثبيتهم بالمسامير إلى كل شجرة في الإمبراطورية، سيعيد بناء تلك المدن وسيعرف الناس أن إمبراطورهم لا يزال قوياً، ومحبوفاً من السماء.

قال الإمبراطور بصوت أضعف لطيفاً نتيجة تغير مزاجه: "قال والدي إنك مطرقة على أعدائه". مآ يده وأمسك بكف زهي زهونغ المغطى بالدرع. تذكر المدن التي سقطت عندما تسلح لك الفرصة لتجعلهم يعانون الأمرين. باسمي، ليكن العقاب شديداً. رد زهي زهونغ وهو يحني رأسه: "سيكون الأمر كما يشاء جلالة الإمبراطور".

مشى هو سا عبر المعسكر الشاسع، مستغرقاً في أفكاره. طيلة حوالي ثلاث سنوات، كان ملكه قد تركه مع الخان المغولي وكانت هناك أوقات كافح فيها ليتذكر ضابط كزي كزيا الذي كان عليه ذات مرة. كان جزء من السبب في ذلك أن المغول قبلوه من دون سؤال. بدا أن خاسار يحبه وكان هو سا قد أضعف أسيات عديدة يتناول الشراب الأسود في خيمة الرجل، وتقوم على خدمتهما زوجتا خاسار من تشن. ابتسم بغرابة بينما كان يمشي. لقد كانت أسيات جيدة. كان خاسار رجلاً كريماً ولم يكن يمانع أبداً بتقديم زوجاته لصديق.

توقف هو سا لحظة لتفقد مجموعة من السهام الجديدة، وكانت واحدة من مئة أخرى يتم صنعها من الجلد والخشب. كانت ممتازة، كما كان يتوقعها. على الرغم من أن المغول كانوا يزدرون الأنظمة التي كان يعرفها، إلا أنهم كانوا يعاملون الفواسم مثل ولد آخر لهم ووجدها الجيدة منها كانت تقي بالغرض.

كان قد أدرك منذ وقت طويل أنه يحب القبائل، على الرغم من أنه كان لا يزال يشنق إلى شاي بيته، المختلف جداً عن الشراب اللاذع الطعم الذي يشربونه ليقبهم

البرد. البرد! لم يكن هو سا قد عرف أبداً مثل ذلك الموسم القاسي الذي مرّ عليه في الشتاء الأول. كان قد أُرغف السمع لكل النصائح التي أسدوها له فقط ليبقى على قيد الحياة، وعلى الرغم من ذلك، كان قد عانى الأمرين. هنّ رأسه عندما تذكر الأمر وتعامل عما سيفعله إذا استدعاه الملك إلى الوطن كما سيفعل بالتأكيد يوماً ما. هل سيذهب؟ كان جنكيز قد جعله قائد مئة تحت قيادة خاسار وكان هو سا يستمتع بصحبة الضباط. كان واقعاً أن كل واحد منهم يستطيع تولي القيادة في كزي كزبا. لم يكن جنكيز يسمح بارتقاء الحمقى سلم القيادة، وكان ذلك مدعاة فخر لهو سا. كان قد ضمن أعظم جيش في العالم، كمحارب وقائد. لم يكن ذلك شيئاً سيراً بالنسبة لرجل، أن يكون موضع ثقة.

كانت خيمة زوجة الخان الثانية مختلفة عن كل الخيم الأخرى في المعسكر الشاسع. كان حرير تشن يزين الجدران، وعندما دخل هو سا، تلقأ مرة أخرى من رائحة الياسمين. لم تكن لديه فكرة كيف استطاعت تشاكاهاي الحصول على كمية منه، لكن في السنوات التي قضتها بعيداً عن وطنها، لم تكن كسولة. كان يعرف أن زوجات أخريات من كزي كزبا وتشن يلتقين في خيمتها بانتظام. عندما منع أحد الرجال زوجته عن ذلك، تهرأت تشاكاهاي على إيصال المشكلة إلى جنكيز. لم يفعل الخان شيئاً، لكن الزوجة من تشن أضحت حرة في زيارة أميرة كزي كزبا بعد ذلك. لم يتطلب الأمر سوى كلمة واحدة في سياقها الصحيح.

ابتسم هو سا عندما ألقى رأسه لها، ولم يعترض عندما وضعت فتاتان من تشن يديهما على كتفيه ونزعتا عنه رداءه الخارجي. كان حتى ذلك شيئاً جديداً. كان المغول يرتدون ملابس فقط لتقويم البرد ولم تكن لديهم أدنى فكرة عن آداب اللياقة.

قالت تشاكاهاي وهي تتحنن بالمقابل: "أهلاً بك في بيتي يا ابن بلدي. كان لطفاً منك أن تأتي". كانت تتكلم بلغة تشن، على الرغم من أن اللهجة كانت تلك السائدة في وطنه. تهجد هو سا عندما سمع النبرة، وعرف أنها فعلت ذلك لإسعاده.

رداً: "أنت ابنة ملكي، زوجة خالي. أنا خادمك".

قالت: "ذلك جيد يا هو سا، لكننا صديقان أيضاً، على ما أمل؟".

خفض هو سا رأسه مجدداً، أكثر من السابق. عندما رفعه، قبل كوباً من الشاي الأخضر الداكن وتلشق الرائحة بإعجاب.

نحن كذلك بالطبع، لكن ما هذا؟ لم يسبق أن شممت... سحب نفساً عميقاً آخر، وسمح للرائحة الدافئة بالدخول إلى رئتيه. كان مشتاقاً لوطنه عندها وقد جعلته المشاعر القوية يترنح عندما وقف.

يرسل والسدي القليل منه مع جزيته كل سنة يا هو سا. لقد تركته القبائل يذبل على الرغم من أنه من آخر كمية".

جلس هو سا بحرص، بهز الكوب فيما يرتشف الشاي.

"لطف كبير منك أن تتذكرني". لم يضغط عليها كثيراً، لكنه لم يكن يعرف لماذا استدعته في ذلك اليوم. كان يعرف أن أحدهما لا يستطيع قضاء الكثير من الوقت بصحبة الآخر. على الرغم من أنه كان من الطبيعي أن يهتم شخصان من كزي كزيا بعضهما ببعض، إلا أن أي رجل لا يمكنه زيارة زوجة خان من دون سبب. خلال سنتين، لم يكونا قد التقيا سوى ست مرات فقط.

قبل أن تتمكن من الرد، دخل رجل آخر. شبك يابو شو يديه معاً وانحلى لسيدة الخيمة. راقب هو سا بمتعة بينما كان الراهب يحصل أيضاً على كوب من الشاي الحقيقي وأطلق تنهيدة ارتياح عندما شم الرائحة. تقطب حاجبا هو سا فقط عندما أنهى يابو شو تحيته. إن كان لقاء زوجة خان في خلوة أمراً خطيراً، كان اتهام المرء بالتأمر أمراً أكثر خطورة. ازداد قلقه عندما انحنت الجاريتان وتركتا الثلاثة وحدهم. بدأ هو سا يقف على قدميه، وقد نسي الشاي.

وضعت تشاكاهاي يداً على ذراعه ولم يكن يستطيع التحرك من دون إبعاده عنه. جلس غير مرتاح ونظرت في عينيه. كانت عيناها واسعتين وداكنتين تبرزان من جلدها الشاحب. كانت جميلة ولا يوجد دلائل على دهن الضأن الكريه الرائحة حولها. لم يستطع كبت ارتعاش خفيف يسري في ظهره من لمسة الأصابع الباردة على جلده.

"لقد طلبت منك المجيء إلى هنا يا هو سا. أنت ضيفي. سيكون في الأمر إهانة إذا غادرت الآن، أليس كذلك؟ قل لي، لم أفهم بعد آداب أهل الخيم". كان ذلك توبيخاً وكذبة أيضاً. كانت تقهر الحالة المغولية تماماً. ذكر هو سا نفسه أن هذه المرأة قد ترعرت كواحدة فقط من عدة بنات لملكه. على الرغم من جمالها، إلا أنها لم تكن غارقة عن علاقات البلاط. استرخى في مكانه وأرغم نفسه على ارتشاف الشاي.

قالت بلطف جعل قلقه يتعمق: "لا يوجد أحد سماعنا هنا. تخاف المؤامرة يا هو سا، على الرغم من أنه ليس هناك شيء من هذا القبيل. أنا الزوجة الثانية للخان، أم لابن وابنته الوحيدة. أنت ضابط موثوق به وقد علم يابو شو أبناء زوجي الآخرين اللغة والمهارات الحربية. لن يجرؤ أحد على الهمس بشأن أي منا. إذا فعلوا ذلك، ساقطع ألسنتهم".

حدث هو سا إلى الفتاة الرقيقة التي يمكنها إطلاق مثل ذلك التهديد. لم يكن يعرف إن كانت لديها القوة لتحقيق ذلك. كم عدد الأصدقاء الذين كسبتهم في هذا المعسكر

بمكائنتها؟ كم عدد عبيد تشن وكزي كزيا؟ كان ذلك ممكناً. أرغم نفسه على الانقسام، على الرغم من أنه كان بارداً من الداخل.

"حسناً إذا، ها نحن ذا. ثلاثة أصدقاء، نشرب شايًا لذيذاً. سأتهيئ كوبى يا صاحبة الجلالة، ثم أغادر."

تسهدت تشاكاهي، واسترخت معالم وجهها. لدهشة كلا الرجلين، ظهرت الدموع في طرفي عينيها.

همست، وكان من الواضح أنها تكافح مع نفسها: "هل ينبغي أن أبقي وحيدة دائماً. هل أنا موضع شبهة حتى منكم؟". لم يكن هو سا ليتمّ بده أبداً ويلبس عضواً من عائلة كزي كزيا الملكية، لكن ياو شو لم يكن لديه مثل ذلك الوازع. وضع الراهب ذراعاً حول كتفها وتركها تريح رأسها على صدره.

قال هو سا بلطف: كنت وحيدة. تفهمين أن والدك قد منح خدمتي لزوجك. اللحظة، فكرت ربما أنك تتأمرين عليه. لماذا أرسلت في طلبنا وأبعدت فتاتيك إن لم يكن لذلك الأمر؟"

استقامت أميرة كزي كزيا في جلستها، وأعدت جديلة من الشعر إلى مكانها. ابتلع هو سا ريقه بصعوبة من جمالها.

قالت: "أنت الرجل الوحيد من قومي في هذا المعسكر. ياو شو الرجل الوحيد من تشن والذي ليس بجندي". بدا أنها قد نسيت دموعها وأضحى صوتها أقوى عندما تابعت الكلام: "إن أخون زوجي يا هو سا، ليس من أجلك أو من أجل ألف مثلك. لكن، لدي ولدان والنساء هن اللواتي يفكرن بالسنوات التي سنأتي. هل سنجلس نحن الثلاثة ونرى إمبراطورية تشن تشتعل بالسنة الذهب؟ هل سنرى تمزيق حضارة من دون أن نقول شيئاً؟". استدارت إلى ياو شو الذي كان يصغي باهتمام. "أين ستكون بوديتك عندها يا صديقي؟ هل ستراها تتعطم تحت حوافر هذه القبائل؟"

تكلم ياو شو للمرة الأولى عندما سمع ذلك، وبدا منزعجاً. "إذا كانت معتقداتي قابلة للحرق يا سيدتي، لن أثق بها، أو أعيش من أجلها. ستجو من هذه الحرب مع تشن، حتى إذا لم ينجأ أبناء تشن أنفسهم. يكافح الرجال ليكونوا أباطرة وملوكاً، لكنهم مجرد أسماء. لا يهم اللقب الذي يحمله الإنسان. سيبقى الحقول بحاجة للعمل فيها. سيبقى البلدات مليئة بالزبيلة والفساد". هز كتفيه غير مبالي. "لا أحد يعرف إلى أين سيأخذنا المستقبل. لم يعترض زوجك على تربية أبنائه على يدي. ربما ستجد كلمات بودا جذوراً في أحدهم، لكن الأحق هو من يتطلع إلى أبعد مما ينبغي."

قال هو سا بهندوء: "إنه محق يا صاحبة الجلالة. لقد تكلمت نتيجة الخوف والوحدة، وأنا أفهم ذلك الآن. لم أكن قد فكرت بمدى صعوبة هذا الأمر عليك". سحب نفساً عميقاً، وكان يعرف أنه يلعب بالنار، لكن جمالها سحره. "أنا صديقك كما قلت". ابتسمت تشاكاهاي عندها، وعيناها تلمعان بنموع جديدة. مدت يديها، وأمسك كل منهما بواحدة، وشعرا ببرودة أناملها بين أصابعهما.

قالت: "ربما كنت خائفة. لقد تخيلت مدينة أبي تحترق وانفطر قلبي على إمبراطور تشن وعائلته. هل تعتقدان أنهم سينجون من هذا؟".

رد ياو شو قبل أن يتكلم هو سا: "كل الناس يموتون. حياتنا ليست أكثر من طائر يخلق عبر نافذة من الضوء، ويصل مجدداً إلى الظلام. ما بهم هو ألا نتسبب بأي ألم. لنحيا حياة طيبة ينبغي أن ندافع عن الضعيف، وعندما نفعل ذلك، نكون قد أضأنا مصباحاً في الظلام سيدوم عدة أجيال قادمة".

ألقي هو سا نظرة خاطفة على الراهب الجليل، ولاحظ كيف أن رأسه الحليق يلمع. لم يكن يوافق على كلماته، وكاد يهز كتفيه استخفافاً من فكرة مثل تلك الحياة الجادة الخالية من المرح. كان يفضل فلسفة خلسار الأيسط بأن أب السماء لن يمنحه القوة ليضعيها. إذا كان رجل يستطيع شير سيفه، ينبغي أن يستعمله ولن يكون هناك خصوم أفضل من الضعفاء. إنهم على الأرجح لن يصيبوك بجرح قاتل عندما لا تكون منتصباً لهم. لم يقل شيئاً من ذلك بصوت عال وكان سعيداً لرؤية تشاكاهاي تسترخي وأوماً إلى الراهب.

"أنت رجل طيب يا ياو شو. لقد شعرت بذلك. سيتعلم أبناء زوجي الكثير منك، أنا واثقة من ذلك. ربما يوماً ما، ستكون لديهم قلوب بوندية".

نهضت فجأة عندها، وكانت تجعل هو سا يريق نفل الشاي البارد الذي يحمله. وضع الكوب إلى جانبه وانحنى لها مرة أخرى، ممثلاً لأن الاجتماع الغريب كان يقترب من نهايته.

قالت تشاكاهاي بلطف: "نحن من حضارة قديمة. أعتقد أننا نستطيع التأثير في حضارة جديدة، في أثناء نهضتها. إذا كنا حريصين، سيكون الأمر مفيداً لنا جميعاً". طرفت عينا هو سا على أميرة قومه، قبل أن يؤدي أداب المجاملة التي أعادته إلى الهواء الخارجي، ويا شو بجانيه. حنق كلا الرجلين بعضهما إلى بعض لحظة قبل أن يتخذا سبيلين مختلفين في المعسكر.

الفصل الثامن عشر



كان الهدوء والنظام المعتادان في التكتات الإمبراطورية في باوتو مفقوداً بينما كان الجنود يضعون معنائهم على العربات. كانت الأوامر من ينكينغ قد جاءت في الليل، ولم يُضِع القائد لوجان أي وقت. لم يكن ينبغي ترك أي شيء ذي قيمة للمغول، وكان عليهم تدمير كل ما لا يمكنهم حمله. كان لديه آنذاك رجال يستعملون المطارق، ينمرون مخازن السهام والرماح بكفاءة منهجية.

كان إخلاء المدينة صعباً، ولم يكن لوجان قد نام منذ تلقى الأمر. كان الجنود الذين يحملون باوتو من قطاع الطرقات والجمعيات السرية الإجرامية موجودين في المدينة منذ حوالي أربع سنوات. كان للعديد منهم عائلات هناك، وكان لوجان قد سعى عبثاً للحصول على إذن بإخراجهم معهم.

كانت رسالة القائد زهي زهونغ قد جاءت مع مراسل إمبراطوري، والأختام صحيحة. كان لوجان يعرف أنه يخاطر بخفض رتبته أو أسوأ من ذلك بالسماح للرجال الذين لديهم زوجات وأولاد تجميع عائلاتهم، لكنه لم يستطع تركهم للعدو. رأى مجموعة أخرى من الفتية تجلس في عربة وتنتظر حولها بعيون خائفة. كانت باوتو كل ما يعرفونه، وفي ليلة واحدة، طُلب منهم ترك كل شيء والتحرك بسرعة إلى أقرب حصن.

تهدد لوجان لنفسه. مع وجود الكثير من الناس، كان الحفاظ على السر مستحيلاً. لا شك أن الزوجات كن قد حذرن صديقاتهن، وقد انتشرت الأنباء مثل النار في الهشيم تلك الليلة. ربما لهذا السبب لم تتضمن الأوامر القيام بإخلاء عائلات رجاله.

خارج بوابات التكتات، كان يسمع أصوات الحشد المتجمع. هز رأسه من دون وعي منه. لم يكن بمقتوره إتقادهم جميعاً ولن يعصوا أوامره. شعر بالخجل من ارتياحه لأنه لم يكن مضطراً للبقاء في درب الجيش المغولي وحاول ألا يسمع الأصوات التي تنادي بارتياك ورعب في الشوارع.

كانت الشمس قد أشرقت، وخشي أن يكون قد تأخر كثيراً. لو أنه لم يرسل بطلب عائلات الجنود، لكان استطاع الخروج خلسة من المدينة في الليل، كما هي عليه الحال آنذاك، سوف يمرون عبر حشد معادٍ في وضوح النهار. أكد لنفسه أنه سيكون قاسياً بعد أن تم اتخاذ القرار. ستكون هناك إراقة للدماء إذا ازداد غضب المواطنين، وربما يقع قتال للوصول إلى بوابة النهر، التي تبعد أربعين خطوة عن التكتلات. لم تكن تبدو بعيدة جداً في اليوم السابق. تمنى أن يظهر حل آخر، لكن تربه كان محدداً ومرعان ما سيحين وقت الرحيل.

تخطاه اثنان من رجاله يحملان رسالتين شفهييتين. لم يوجه أي منهما التحية لقائده وشعر لوجان بغضبهما. لا شك أنهما كانا رجلين يحتفظان بغائبات أو لديهما أصدقاء في المدينة. كانوا جميعاً كذلك. سيكون هناك أعمال شغب عندما يرحلون، وستقلت العصابات من عقابها في الشوارع. كان بعض المجرمين مثل كلاب مسعورة، وندراً ما يخيفهم التهديد بالقوة. مع رحيل الجنود، سيظفرون بكل ما يستطيعون حتى يصل العدو ليعرقهم جميعاً.

جعلت تلك الفكرة لوجان يشعر ببعض الرضا، على الرغم من أنه كان لا يزال خجلاً من نفسه. حاول تنقيح ذهنه، والتركيز على مشكلة إخراج أرتال الجنود والعربات من المدينة. كان قد وضع رماة سهام على طول الصنف، مع أوامر للتشديد على الحشد إذا تعرضوا للهجوم. إذا فشل ذلك، ستحجز الرماح الرعاع وفقاً كافياً حتى يرحلوا عن باوتو، وكان واقعاً تقريباً من ذلك. بأي حال، سيكون الأمر قاسياً ولم يكن يستطيع الزهو بأنه من خطط لذلك.

جاء جندي آخر يجري وعرف لوجان أنه أحد أولئك الذين كانوا يتركزون عند بوابة التكتلة. هل بدأت أعمال الشغب آنذاك؟

"سيدي، هناك رجل يرغب بالتكلم معك. طلبت منه الذهاب إلى البيت، لكنه أعطاني هذا الرمز وقال إنك ستراه".

نظر لوجان إلى القطعة الصغيرة من المحارة الزرقاء التي تحمل علامة شن بي الشخصية. فزع مما رآه. لم يكن يرغب بفقد اللقاء، لكن العربات كانت مستعدة تقريباً وقد شكل الرجال أرتالاً أمام البوابة. ربما بسبب شعوره بالذنب، ألوماً برأسه موافقاً.

"اجعله يدخل من الباب الصغير وتأكد من عدم دخول أحد معه". انطلق الجندي مستعداً ووجد لوجان نفسه وحيداً مع أفكاره. سيموت شن بي مع الباقيين ولن يعلم أحد أبداً بالترقيات التي كانت بينهما طيلة سنوات. كان ذلك مفيداً لكليهما، لكن لوجان لن

يكون نادماً على التحرر من نفوذ الرجل القصير. حاول إبعاد الإزهاق الذي كان قد حل به عندما عاد الجندي مع قائد الجمعية السرية الزرقاء.

شرع لوجان بالكلام بعد أن جرى الجندي عائداً إلى مكانه في الصف: "لا يمكنني فعل شيء لك يا شن بي، تقضي أوامري بالانسحاب من باوتو والانضمام إلى تجمع الجيش أمام ينكينغ. لا يمكنني مساعدتك".

حلق شن بي إليه ورأى لوجان أنه كان مسلحاً بسيف على ردفه. كان ينبغي تجريدَه منه عند عتبة البوابة الرئيسية، لكن لم تكن أي من الأنظمة موضع تطبيق ذلك اليوم.

قال شن بي: "كنت أعتقد أنك ستكتب عليّ، ونقول لي إنك ستشارك في مناورات أو تدريب. لم أكن لأصدقك بالعلم".

قال لوجان وهو يهز كتفيه استخفافاً: "كنت بين أول من سيمسح بذلك اللبلة الماضية، ينبغي أن أتقيد بأوامري".

قال شن بي: "هل ستدع باوتو تحترق؟ بعد سنوات طويلة من إخبارنا أنكم حماة، ستهربون عند ظهور أول تهديد حقيقي؟".

شعر لوجان بأنه يشتعل غضباً.

"أنا جندي يا شن بي. عندما يأمرني فأنتي بالتحرك، أتحرك. أنا أسف".

كان وجه شن بي أحمر، على الرغم من أن لوجان لم يعرف إن كان ذلك ناجماً عن الغضب أو الإجهاد من الجري إلى التكتة. شعر بقوة نظرة الرجل واستطاع بالكاد الرد عليها بالمثل.

قال شن بي: "أرى أنك سمحت لرجالك باصطحاب زوجاتهم وأولادهم إلى برّ الأمان. لن تعاني زوجتك وأولادك عندما يصل المغول".

نظر لوجان بعيداً إلى الرتل. كانت هناك وجوه تستدير نحوه آنذاك، تنتظر كلمته لتبدأ المسير.

"لقد تجاوزت سلطتي حتى في ذلك يا صديقي".

أطلق شن بي زمجرة من حنجرتِه.

"لا تدع رجلاً بالصديق بينما تتركه ليلقى حتفه". كان غضبه واضحاً آنذاك ولم يستطع لوجان النظر في عينيه عندما تابع الكلام.

"ستدور العجلة يا لوجان. سيدفع أسيادك ثمن قسوتهم تماماً كما ستدفع ثمن هذا العار".

قال لوجان وهو يحلق بعيداً: "يلبني أن أغادر الآن. يمكنك إخلاء المدينة قبل وصول المغول. يمكن إنقاذ الكثيرين إذا أمرت بذلك".

ربما سأفعل يا لوجان. بالمحصلة، لن تكون هناك سلطة أخرى في باوتو بعد أن ترحل". كان كلا الرجلين يعرفان أنه من المستحيل إخلاء السكان من باوتو. لم يكن جيش المغول بعيداً أكثر من مسيرة يومين. حتى إذا استطاعوا العثور على كل قارب واستعملوا النهر للهرب، لن تكون هناك أماكن كافية للجميع. سيتم ذبح سكان باوتو في أثناء هروبهم. تخيل لوجان حقول الأرز تجري فيها الدماء، وأطلق زفيراً طويلاً. كان قد تأخر كثيراً آنذاك.

تستم وهو ينظر في عيني شن بي: "خطأ طيباً". لم يفهم نظرية الانتصار التي رآها تلمع هناك وكاد يتكلم مجدداً قبل أن يقرر أن الامتناع أفضل. مشى بخطوات واسعة إلى مقدمة الرتل، حيث كان أحدهم يمسك بحصانه من أجله. بينما كان شن بي يراقب ما يجري، تم فتح بوابات التكنة وتسمّر أولئك في مقدمة الركب فيما أطبق الصمت على الحشد.

كانت الطرقات محاطة بالناس الذين ينظرون إلى ما يحدث. كانوا قد تركوا المسلك خالياً لجنود الإمبراطور وعرباتهم، لكن الوجوه كانت باردة تشي بالكراهية وأصدر لوجان أوامره بصوت عالٍ حتى يكون رماة جافزين، وسمع الحشد ذلك بينما كان يدفع جواده للخروج هرولة من المدينة. كان الصمت مرعباً وتوقع أن تتطلق التناغم في أي لحظة. قبض رجاله على سيوفهم ورمائحهم بعصبية، محاولين ألا ينتهبوا وجوه الناس الذين يعرفونهم بينما كانوا يتركون التكنة خلفهم. كان المشهد نفسه سيتكرر في التكنات الأخرى وسيلتقون بالرتلين الثاني والثالث خارج المدينة قبل أن يتحركوا شرقاً إلى بنكينغ وممر بادغر. ستصبح باوتو حينها من دون حماية، للمرة الأولى في تاريخها.

راقب شن بي رتل الحراس يرحل، متجهاً نحو بوابة النهر. لم يكن لوجان يعرف أن الكثير من رجال شن بي في الحشد، وأنهم هناك للحفاظ على النظام ومنع مواطنين متهورين من إظهار امتعاضهم من الانسحاب. لم يكن يريد من لوجان تأخير رحيله، لكنه لم يستطع مقاومة رؤيته مكللاً بالعار قبل أن يغادر. كان لوجان صوتاً متعاطفاً في الحامية لسنوات طويلة، على الرغم من أنها لم يكونا صديقين. كان شن بي يعرف أن الأوامر بالرحيل ستكون قاسية على الرجل وكان قد استمع بكل لحظة من خزيه. كان الأمر يتطلب مقاومة كبيرة حتى لا يظهر رضاه الداخلي. لن يكون هناك صوت منشق عندما يصل المغول، ولا جنود يتلقون أوامر بالقتال حتى النهاية. كانت خيالة الإمبراطور قد أسقطت باوتو في يدي شن بي في صبيحة يوم واحد.

تقطب حاجباه عبوساً عندما وصل رتل الجنود إلى بوابة النهر ومرّ لوجان تحت ظل منصات رماة السهام المهجورة. كان كل شيء يعتمد على شرف الشقيقتين

المغوليين اللذين ساعدهما. تمنى أن يعرف حق المعرفة ما إذا كان خاسرًا ونموذج موضع ثقة، أم أنه سيرى مدينته الغالية تتحول إلى أنقاض. راقب الحشد عند التكة الجنود المنسحبين بصمت مخيف، وتضرع شن بي بابتهاال إلى أرواح أسلافه. تذكر تابعه المغولي كيشان، وتضرع بابتهاال أخير إلى أب سماء ذلك الشعب الغريب، طالباً منه العون في الأيام القادمة.

منحنيًا على حاجز خشبي لحظيرة ماعز، ابتسم جنكيز عندما رأى ابنه تشاغاتاي وسمع هتاف الفتى يتردد في أنحاء المعسكر. كان قد ملح الفتى الذي يبلغ من العمر عشر سنوات ذراعاً ذلك الصباح، مصنوعاً خصيصاً لجسده الصغير. كان تشاغاتاي واقعاً جداً لينضم إلى المحاربين في معركة، لكنه كان سعيداً بالذرع، بقود فرسه الجديدة في أنحاء المعسكر لبراء الرجال الأكبر سناً. علت الانبساطات الوجوه عندما رأوه يلوح بقوسه ويتأوب على إطلاق صيحات الحرب والضحكات.

تمطى جنكيز، مرر يداً على طول القماش السميك للخيمة البيضاء التي كان قد أمر بنصبها أمام أسوار باوتو. كانت مختلفة عن خيام شعبه حتى يتعرف عليها أولئك الموجودون داخل المدن ويتوصلون لقائهم بأن يستسلموا. كانت أعلى بمرتين حتى من خيمته الكبيرة، ولم تكن مبنية بإحكام وتهتز مع للريح، وكانت جوانبها تعلو وتهبط مثل النفس. كانت رايات من ذيول الخيل ترف على رماح طويلة على جانبيها وتهتز كما لو أنها حية.

ظهرت باوتو مغلقة أمامهم وشامل جنكيز إن كان شقيقه محقين في حكمهما على شن بي. كان المستطعمون قد عادوا بأنباء عن خروج رتل من الجنود من المدينة قبل يوم واحد فقط. كان بعض المحاربين الشباب قد قادوا جيادهم قريباً بما يكفي لتسجيل إصابات قاتلة بأقواسهم قبل أن يتراجعوا إلى الخلف. إن كانوا قد فتروا الأعداد بشكل صحيح، لم يكن لدى المدينة جنود يدافعون عنها ووجد جنكيز أن مزاجه جيد. بطريقة أو بأخرى، ستسقط المدينة مثل الأخريات.

كان قد تكلم إلى بناء باوتو الذي أكد له أن شن بي لن ينسى اتفاقهم. بقيت عائلة لسان داخل الأسوار التي كان قد ساعد على بنائها وكانت لديه أسباب عديدة لتسليم المدينة سلمياً. رفع جنكيز بصره إلى الخيمة البيضاء. كان لديهم حتى مغيب الشمس يستسلموا، وإلا سيرون الخيمة الحمراء في اليوم التالي. ولن تتقدم أي اتفاقية حينها. شعر جنكيز بعينين تنظران إليه واستدار ليرى ابنه البكر جوشي إلى الجانب الآخر من حظيرة الماعز. كان الفتى يراقبه بصمت، وعلى الرغم مما كان قد وعد

بورت به، إلا أن جنكيز شعر كأنه يستجيب لتحدّ، نظر في عيني الفتى ببرود حتى وجد جوشي نفسه مرشحاً على النظر بعيداً، عندها فقط تكلم جنكيز إليه.
”ستحل ذكرى مولدك خلال شهر. سأجعلهم يصنعون درعاً آخر لك بحلول ذلك الوقت“.

زمّ جوشي شفته ساخراً.
”سأبلغ اثنتي عشرة سنة. لن يطول الأمر قبل أن أنطلق مع المحاربين. ليست هناك فائدة من ألعاب الأطفال حتى ذلك الوقت“.

لقد تفكير جنكيز. كان العرض كريماً. كان سينكلم مجدداً، لكن انتباه كليهما تشتتت بعودة تشاغاتي. جاز الفتى على فرسه وقفز إلى الأرض، وكاد يقع بينما كان يمسك نفسه على الحظيرة الخشبية ويربط اللجام حول عمود بعقدة سريعة. أطلقت الماعز في الحظيرة ثغاءً من الخوف، وانطلقت مبتعدة عنه إلى الطرف الآخر. لم يسمع جنكيز سوى أن يبتسم من سرور تشاغاتي غير المتكلف، على الرغم من أنه شعر بنظرة جوشي تستقر عليه مجدداً، والتي دائماً ما تراقبه.

أشار تشاغاتي نحو مدينة باوتو الهادئة، التي تقع على بعد أقل من ميل.
قال وهو ينظر نحو جوشي: لماذا لا نهاجم ذلك المكان يا أبي؟
ردّ جنكيز بصير: ”لأن عمّيك قطعاً وعداً لرجل داخلها. مقابل البناء الذي ساعدنا على التغلب على كل المدن الأخرى، سنترك هذه المدينة على حالها“. توقف لحظة.
”إذا استسلمت اليوم“.

قال جوشي فجأة: ”وعداً؟ مدينة أخرى، وأخرى بعد ذلك؟“. بينما كان جنكيز يستدير نحوه، عدل جوشي من وقفته. ”هل سلفضي حياتنا نستولي على هذه الأماكن واحدة تلو الأخرى؟“.

شعر جنكيز بالدم يتدفق في وجهه من نبرة الفتى، ثم تذكر وعده لبورت بأن يعامل جوشي مثل أشقائه. لم يكن يبدو أنها تفهم الطريقة التي يستفز بها كلما سلحت له فرصة بذلك، لكن جنكيز كان بحاجة للهدوء في خيمته الخاصة. استغرق منه الأمر لحظة ليمسّط على غضبه.

قال: ”إنها ليست لعبة نمارسها هنا. لم أختر سحق مدن تشن لأنني أستمع بالذباب والحرارة في هذه الأرض. أنا هنا، وأنت هنا لأنهم استغلونا ألف جيل. لقد كان ذهب تشن السبب في جعل كل قبيلة تعادي القبائل الأخرى لوقت أطول مما يستطيع أي شخص أن يتذكره. عندما ساد السلم لجيل، أطلقوا التناز علينا مثل كلاب برية“.

رد جوشي: لم يعد يمكنهم فعل ذلك الآن. التناز مشتقون وشعبنا أمة واحدة، كما قلت. نحن أقوياء للغاية. إنه التأثير إذاً الذي يقودنا؟. لم يكن الفتى ينظر مباشرة إلى والده، وإنما يخالط باللقاء نظرات خاطفة فقط عليه عندما يتدبر جنكيز بصره بعيداً، على الرغم من وجود اهتمام حقيقي في عينيه.

تألف والده.

بالنسبة إليك، التاريخ مجرد قصص. لم تكن قد ولدت بعد عندما تبعثر التناز. لم تعرف ذلك الوقت وربما لا يمكنك فهمه. نعم، هذا ثار، في جزء منه. ينبغي أن يعرف أعداؤنا أنهم لا يستطيعون مهاجمتنا الآن من دون عاصفة تطيح بهم. شهر سيف والده وعرضه للشمس، ولمع المعدن المصقول بخط ذهبي على وجه جوشي.

"هذا سيف جيد صنعه حرفي ماهر. لكن إذا دفنته في الأرض، إلى متى سيبقى نصله حاداً؟".

قال جوشي مفاجئاً لياه: "ستقول إن القبائل مثل السيف".

رد جنكيز، غاضباً لمقاطعة محاضراته: "ربما". كان الفتى حاداً جداً لمصلحته الخاصة. يمكن أن أضر كل ما حققته حتى الآن، ربما على يدي ابن أحرق واحد لم يكن صبوراً للإصغاء إلى والده. ابتسم جوشي لدى سماع ذلك، وأدرك جنكيز أنه قد اعترف به ابناً على الرغم من أنه حاول إخفاء تعبير الغطرسة عن وجهه.

فتح جنكيز البوابة إلى حظيرة الماعز، وخطى خطوة داخلها، وهو يشهر سيفه. كاحت الماعز للابتعاد عنه، وفقرت على ظهور بعضها وأطلقت ثغاء صاخباً.

"بنكائك يا جوشي، قل لي ما سيحدث إن هاجمتني الماعز".

قال جوشي بسرعة خلفه، محاولاً الاشتراك في صراع الإرادات: "ستقتلها جميعها". لم ينظر جنكيز إلى الخلف بينما كان جوشي يتكلم.

قال جوشي: "ستطرحك أرضاً. هل نحن ماعز إذاً، موحدون كأمة؟". بدا أن الفتى عثر على فكرة ممتعة وفقد جنكيز أعصابه، ومد ذراعه ليدفع جوشي من فوق السياج ليقع على الأرض بين الحيوانات. فركضت خائفة تطلق ثغاء، حاول بعضها القفز من فوق الحاجز.

"نحن الذئب أيها الفتى، والذئب لا يهتم للماعز التي يقتلها. إنه لا يفكر بأفضل طريقة لقضاء وقته حتى يصبح فمه ومخاليه مخضبة بالدماء ويكون قد هزم كل أعدائه. وإذا سخرت مني مجدداً، سأجعلك تنضم إليهم".

نهض جوشي ليقف على قدميه، والوجه الخالي من التعبيرات يكلل معالمه مثل قناع. في ما يخص تشاعاتي، كان الانضباط سيحظى بالموافقة، لكن جنكيز وجوشي

وقفا يواجهان بعضهما بصمت مطبق، ولم يكن أحدهما يرغب بأن يكون أول من يستدير مبتعداً. لاح تشاغلتي في طرف عين جوشي، يستمتع بإذلاله. في النهاية، كان جوشي لا يزال طفلاً وقاضيت عذراء بالتموع من الإحباط بينما كان بشيح ببصره عن والده، ويتسلق الحاجز الخشبي عائداً من حيث أتى. سحب جنكيز نفساً عميقاً، وكان يبحث آنذاك عن طريقة ما لتهدئة الغضب الذي كان يشعر به.

"يلبني ألا تفكر بهذه الحرب كشيء نقوم به قبل أن نعود إلى حياتنا الهادئة. نحن محاربون، وقد يكون الحديث عن السيوف والذئاب خيالياً جداً. إذا قضيت شبابي في تحطيم قوة إمبراطور تشن، سيكون كل يوم ممتعاً بالنسبة لي. لقد حكمت عائلته لوقت طويل بما يكفي وقد ظهرت عائلتي الآن. لن نعانى من أيديهم الباردة علينا بعد الآن".

كان جوشي يتفلس بصعوبة، لكنه تمالك نفسه ليطرح سؤالاً واحداً. "إذا ليست هناك نهاية لهذا؟ حتى عندما تكبر، وتشيب، ستبقى تبحث عن أعداء لقتالهم؟".

رد جنكيز: "إن بقي أحد منهم. لا يمكن إيقاف ما بدأت به. إذا خسرت الشجاعة يوماً، إذا ترددنا، سيأتون إلينا بأعداد أكبر مما يمكننا تخيله". حاول العثور على شيء يقوله ليرفع من معنويات الفتى. لكن بحلول ذلك الوقت، سيكون أبنائي بعمر مناسب ليطوفوا الأراضي الجديدة ويجعلوها تخضع لحكمنا. سيكونون ملوكاً. سيأكلون الطعام الشهى ويتقنون سيفاً مرصعة بالجواهر ويلبسون ما يدينون به لي".

كان خاسار وتيموج قد تجاوزا حافة المعسكر ليبحثا إلى أسوار باوتو. كانت الشمس منخفضة فوق الأفق، لكن النهار كان حاراً وكلا الرجلين يتصببا عرقاً في الهواء الكثيف. لم يكونا قد تعرقا أبداً في الجبال العالية لوطنهما، وكان التراب يسقط مثل الغبار عن جلدتهما الجاف. في أراضي تشن، أصبح جسدهما كرهبي الرائحة وكان الذباب يستهدفهما بشكل مستمر. بدا تيموج خاصة شاحياً ومتوعكاً وألمته معدته عندما تذكر آخر مرة كان قد رأى فيها المدينة. كان قد أمضى أسابيع عديدة في خيمة خاسار المليئة بالدخان وكانت بعض الأشياء التي رآها قد أزعجته. عندما شعر بالتوتر في حنجرته، سعل. بدا أن ذلك جعل الأمر أسوأ حتى أنه شعر بالدوار والمرض.

شاهده خاسار يعود إلى حالته الطبيعية من دون أن يتعاطف معه.

رائحة أنفاسك كريهة يا شقيقي الصغير. لو أنك فرس، كنت سأذهبك وأطعمك للقبائل".

رد تيموج بوهن وهو يمسح فيه بظاهر يده: "أنت لا تفقه شيئاً كالمعتاد". كان التورّد في خنثيه بثلاثي تدريجياً وبدا جلده شاحباً في ضوء الشمس.
رد خاسار: "أعرف أنك تقتل نفسك لتقبل قلمي ذلك الكاهن العراف القذر. لقد بدأت رائحتك تصبح مثله، كما لاحظت".

ربما كان تيموج سيتجاهل ملاحظة شقيقه اللاذعة، لكن عندما رفع بصره، كان هناك خوف في عيني شقيقه لم يكن قد رآه من قبل. كان قد شعر به في آخرين قرنوه بكاهن الخان العراف. لم يكن خوفاً بالضبط، إلا إن كان من المجهول. كان قد صرف ذهنه عنه من قبل باعتباره جهل الحمقى، لكن رؤية الشيء نفسه في خاسار كان ممتعاً بشكل غريب.

قال: لقد تعلمت الكثير منه يا شقيقي. أحياناً كنت أخاف من الأشياء التي أراها.
قال خاسار بلطف: "تتمتع القبائل أشياء كثيرة عنه، لكن لا شيء منها جيد. سمعت أنه يأخذ الأطفال الذين لا تربدهم أمهاتهم. ولا يراهم أحد مجدداً". لم يكن يلظر إلى تيموج بينما كان يتكلم، مفضلاً تركيز بصره على أسوار باوتو. "يقولون إنه قتل رجلاً بمجرد لمسة".

استراح تيموج ببطء من التشنج الذي أصابه نتيجة سعاله. ثم قال كذباً: لقد تعلمت استدعاء الموت بمثل تلك الطريقة. الليلة الماضية، عندما كنت نائماً. كان الأكم مريحاً ولهذا السبب أسعل اليوم، لكن الجسد سيتعافى ويستبقى المعرفة".

نظر خاسار من الجانب إلى شقيقه، محاولاً معرفة إن كان يقول الحقيقة.
قال: "أنا واثق أنها كانت خدعة من نوع ما". ابتسم تيموج له وظهر أن لثته ملطخة بالمعجون الأسود مما جعل التعبير فظيماً.

قال تيموج بلطف: "لا داعي للخوف مما أعرفه يا شقيقي. المعرفة ليست خطيرة. وحده الإنسان خطير".

تأفف خاسار. وقال:

"ذلك هو نوع الكلام الصبياني الذي يعلمك إياه، أليس كذلك؟ تبدو مثل ذلك الراهب البوذي يلو شو. هناك أحد لا يخاف من كوكشو على الأكل. إنهما مثل كبشي ربيع على أراضي الآخر كلما التقيا".

قال تيموج بحدّة: "الراهب أحمق. لا ينبغي به تعليم أولاد جنكيز. ربما يكون أحدهم خاناً يوماً ما وستجعلهم تلك البوذية ضعفاء".

رد خاسار مبشماً: "ليس والراهب يعلمهم إياها. يمكنه كسر ألواح بيديه، وهذا ما لا يستطيع كوكشو القيام به. أحبه، على الرغم من أنه لا يلفظ كلمة بشكل صحيح". قال تيموج مقلداً صوت شقيقه: "يستطيع كسر الألواح. بالطبع ستأثر بمثل ذلك الشيء. هل يمنع الأرواح المظلمة من دخول المعسكر في الليالي التي لا يوجد فيها قمر؟ لا، إنه يصنع الحطب".

رغماً عنه، وجد خاسار أن غضبه يزداد. كان هناك شيء بهذه الثقة الجديدة في تيموج لا يحبه، على الرغم من أنه لم يستطع التعبير عن ذلك بالكلام. لم يسبق أن رأيت إحدى أرواح تثن تلك التي يدعي كوكشو أنه يعدها. أعرف تماماً أن بعثوري استعمال الحطب". ضحك بصوت خافت ساخراً بينما احمر وجه تيموج غضباً، وأصبح مزاجه أكثر حدة. "إذا كنت مضطراً للاختيار بينهما، سأفضل رجلاً يقاتل على طريقته وسأغامر بفرصتي مع أرواح فلاحتي تثن الموتى". رفع تيموج ذراعه إلى شقيقه غاضباً، ولدهشته، فزع خاسار. تراجع الرجل الذي سيُدفع نحو مجموعة من الجنود من دون تفكير خطوة إلى الوراء عن شقيقه الصغير وهبطت يده إلى سيفه. للحظة، كاد تيموج يضحك. كان يريد أن يرى خاسار الدعاية، ويذكر أنهما كانا مرة صديقين، لكنه شعر بعد ذلك ببرودة تسري في جسده وفرح من الخوف الذي كان قد رآه.

"لا تسمخر من الأرواح يا خاسار، ولا من الرجال الذين يسيطرون عليها. لم تقطع أشواطاً بعيدة عندما اختفى القمر وترى ما كنت قد رأيت. كنت ساموت في عدة مناسبات لو أن كوكشو لم يكن هناك ليقودني في طريق العودة إلى الأرض". كان خاسار يعرف أن شقيقه قد رأى رد فعله على شيء ليس أكثر من راحة كسف مفتوحة وتسارع خفقان قلبه في صدره. لم يكن جزء منه يصدق أن تيموج الصغير يعرف أي شيء لا يعرفه هو، لكن كانت هناك أسرار وكان قد شاهد كوكشو في الولائم يدفع سكاكين في جسده من دون أن تسيل منه قطرة دم واحدة. حدث خاسار إلى شقيقه بإحباط، قبل أن يستدير ويمشي عائداً إلى خيام قومه، إلى العالم الذي يعرفه. وحيداً، شعر تيموج بلذة الانتصار.

عندما واجه باوتو، فُتحت بوابات المدينة، وصنحت أبواب تحذير في المعسكر خلفه. كان المحاربون سيّسابقون إلى جباههم. ليركضوا، كما اعتقد، مستعجلاً بالنصر على شقيقه. كانت عوارض المرض قد زالت ومشى واثقاً نحو البوابة المفتوحة. تسامح إن كان شن بي سيضع رماة سهام على الأسوار، مستعدين للغدر به. لم يكن ذلك مهماً بالنسبة إليه. شعر بأنه متعب وكانت قنماء خفيفتين على أرض صخرية.

الفصل التاسع عشر



كانت مدينة باوتو هادئة عندما ركب شن بي جنكيز في بيته. رافق هو سا الخان وانحنى شن بي كثيراً له، معزراً عن امتثانه للمحافظة على الوعود التي تم قطعها. قال شن بي بلغة القبائل، منحنيماً مجدداً عندما تقابل وجهاً لوجه مع جنكيز للمرة الأولى: "أهلاً بك في بيتي". كان جنكيز أطول منه، وأطول حتى من خاسار. كان الخان يرتدي درعاً كاملاً ولديه سيف يربطه بحزام إلى ردفه. شعر شن بي بشدة البأس في داخله، وكان قوياً أكثر من أي شخص سبق له أن التقى به. لم يرد جنكيز على التحية الرسمية، وبالكاد ألوماً برأسه بينما كان يمشي بخطوات واسعة إلى الساحة المكشوفة. كان على شن بي أن يتحرك بسرعة ليقوده إلى البيت الرئيسي، وفي عجلته، لم يلاحظ أن جنكيز ينظر إلى السقف الضخم وشذ من قامته لينخل. كان هو سا وتيموج قد وصفا البيت له، لكنه كان لا يزال يشعر بالقصور لرؤية كيف يعيش رجل ثري في قلب مدينة.

في الخارج، كانت الشوارع خالية حتى من المسؤولين. كان كل بيت قد أقام متراًساً ضد رجال القبائل الذين تجولوا في الشوارع، ينظرون عبر البوابات ويبحثون عن أشياء تستحق الاستيلاء عليها. كان جنكيز قد أصدر أوامر بترك المدينة سليمة، لكن لم يكن أحد يعتقد أن الأمر يتضمن مخزون شراب الأرز. كانت صور الآلهة التي يتم وضعها في البيوت مطلوبة بشكل خاص. كان رجال القبائل مقتنعين بأنهم لا يستطيعون تأمين حماية كافية لخيامهم وجمعوا أي تماثيل صغيرة يبدو أنها مناسبة.

انتظر حرس شرف من المحاربين خارج البوابة، لكن في الحقيقة كان جنكيز يستطيع التجول وحيداً في أي مكان في المدينة. كان الخطر الوحيد المحتمل يأتي من رجال يمكنه السيطرة عليهم بكلمة.

كان على شن بي أن يكافح لإخفاء عصبية بينما كان جنكيز يمشي في أنحاء البيت، يستعصم الأشياء. بدا الخان متوتراً ولم يكن شن بي واثقاً كيف يبدأ الحديث

معه. كان قد تم إرسال حراسه وخدمه بعيداً لعقد ذلك اللقاء وهذا البيت خالياً بشكل غريب.

قال شن بي ليكسر حاجز الصمت: "أنا سعيد أن البناء كان مفيداً لك يا مولاي". كان جنكيز يفحص قدراً أسود مصقولاً ولم يرفع بصره بينما كان يعيده إلى مكانه. كان يبدو ضحكاً جداً في الغرفة، كما لو أنه يستطيع في أي لحظة هدم العوارض الخشبية وجعل المكان بأسره ينهار. قال شن بي لنفسه إن سمعته فقط هي التي تجعله يبدو قوياً، لكن جنكيز نظر إليه عندها بعينين صفاوين شاحبتين جعلت أفكاره تتجمد. مرّر جنكيز إصبعاً على نقوش القدر المؤلفة من أشكال في حديقته، ثم استدار إلى مضيقه.

"لا تخف مني يا شن بي. قال هو سا إنك رجل حققت الكثير، رجل لم يكن لديه شيء لكنه على الرغم من ذلك نجا وأصبح ثرياً في هذا المكان". ألقى شن بي نظرة على هو سا لدى سماعه تلك الكلمات، لكن لم يظهر على جندي كزي كزي أي شيء. لمسة واحدة في حياته، شعر شن بي بالارتباك. كان موعوداً بالحصول على باوتو، لكنه لم يكن يعرف إن كان الخان سيحافظ على كلمته. لم يكن يعرف أنه عندما تتمرّ رياح قوية بيت شخص، لا يمكنه سوى أن يهز كتفيه لا مبالياً ويعرف أنه القدر الذي لا يمكن مقاومته. كان اللقاء مع جنكيز يشبه ذلك بالنسبة إليه. كانت اللواتي التي عرفها طيلة حياته قد أصبحت شيئاً عفا عليه الزمن. بأمر واحد من خان المغول، يمكن تدمير باوتو عن بكرة أبيها.

وافقه شن بي: "أنا رجل ثري". قبل أن يستطيع متابعة كلامه، شعر بعيني جنكيز تحتقان إليه، والذي بدا مهتماً فجأة. رفع الخان القدر المصقول مرة أخرى وأشار بها. في يديه، بدت هشة بشكل لا يصدق.

"ما هي الثروة يا شن بي؟ أنت رجل مدن، شوارع وبيوت. ماذا تساوي؟ هذه؟" تكلم بسرعة ووفر هو سا لشيء بي وقتاً للرد بترجمة ما قاله الخان. ألقى شن بي نظرة امتنان على الجندي.

"استغرقت القدر ألف ساعة عمل لصنعها يا مولاي. عندما أنظر إليها تجعلني أشعر بالسعادة".

قلب جنكيز القدر بين يديه. بدا محبطاً ونظر شن بي إلى هو سا مجدداً. رفع الجندي حاجبيه، مطالباً بالمزيد.

تابع شن بي: "لكنها ليست ثروة يا مولاي. لقد تضررت جوعاً، لهذا أعرف قيمة الطعام. لقد شعرت بالبرد، لهذا أعرف قيمة الدفء".

هز جنكيز كتفيه استخفافاً، "تعرف النعجة ذلك، هل لديك إبهاء؟". كان يعرف الجواب، لكنه أراد على الرغم من ذلك أن يفهم الرجل الذي جاء من عالم مختلف جداً عن عالمه.

"لدي ثلاث بنات يا مولاي. لقد أخذوا ابني مني".

"إذاً، ما هي الثروة يا شن بي؟".

نتيجة تلك الأسئلة، أصبح شن بي هادئاً جداً. لم يكن يعرف ما يريد الخان، لهذا أجاب بصدق.

"الثأر ثروة يا مولاي، بالنسبة لي. الفترة على الوصول إلى أعدائي وقتلهم. تلك هي الثروة. أن أحظى برجال يقتلون ويموتون من أجلي هي الثروة. بناتي وزوجتي هن ثروتي". بلطف كبير، تناول القدر من يدي جنكيز، ثم رمى بها على الأرض الخشبية. تحطمت إلى قطع صغيرة تناثرت على الخشب المصقول.

"كل ما عدا ذلك لا قيمة له يا مولاي".

ابسم جنكيز قليلاً. كان خاسار قد نقل الحقيقة عندما قال إن شن بي لن يخاف. "أعتقد لو أنني ولدت في مدينة، ربما كنت عشت حياتك يا شن بي؛ على الرغم من أنني لم أكن لأثق بأشقتي، وأعرفهم كما هي عليه الحال الآن". لم يرد شن بي بأنه لم يثق سوى بخاسار، لكن بدا أن جنكيز يخمن ما يدور في خلده.

"تكلم خاسار بالخير عنك. لن أنقض وعده الذي قطعته باسمي. باوتو لك. إنها مجرد خطوة على الطريق إلى ينكنغ بالنسبة لي".

رد شن بي، وقد سرت فيه قشعريرة ارتياح: "أنا سعيد يا مولاي. هل تشاركني كوباً من الشراب؟". لوماً جنكيز موافقاً وانزاح ضغط كبير عن الغرفة. استرخى هو سا بشكل ظاهر للعيان بينما كان شن بي ينظر حوله تلقائياً بحثاً عن خادم ولم يجد أحداً. بثبات، جمع الأكواب بنفسه، وخفاه بطنان على قطع الخزف الثمينة التي كانت مرة تزق بيت إمبراطور. اهتزت يداه قليلاً بينما كان يسكب الشراب في ثلاثة أكواب وعندها فقط جلس جنكيز. جلس هو سا على كرسي آخر، ونجم عن درعه صوت صرير بينما كان يستقر في مكانه. أحنى رأسه قليلاً لشي بي عندما تلاقت نظراتهما مجدداً، كما لو أنه قد اجتاز اختباراً من نوع ما.

كان شن بي يعرف أن الخان لن يضيع وقتاً بالجلوس إلا إن كان يريد شيئاً. نظر إلى الظلمة، وكان وجهه خالياً من أي تعبير عندما تناول جنكيز الكوب من يده. أدرك شن بي أن الخان أيضاً لم يكن مرتاحاً ويبحث عن الكلمات المناسبة.

قال شن بي بينما كان جنكيز يرتشف شراب الأرز، ويختبر طعماً لم يكن يعرفه من قبل: "لا بد أن باوتو تبدو صغيرة لك يا مولاي".

رد جنكيز: "لم يسبق أن دخلت مدينة من قبل، إلا لحرقها. إن رؤية مدينة بهذا الهدوء شيء غريب بالنسبة لي".

تجرع جنكيز ما في الكوب وملاء بنفسه، ومرّر القارورة لشي بي ثم إلي هو سا.

قال شن بي: "مرة أخرى، لكن الشراب قوي وأريد أن يبقى ذهني صافياً".

رد جنكيز متأنفاً: "إنه بول حصان، على الرغم من أنني أحب الطريقة التي يلهي بها".

قال شن بي بسرعة: "سأرسل مئة قارورة إلى معسكرك يا مولاي".

نظر إليه قائد المغول من فوق حافة كوبه وأوما برأسه. "أنت كريم".

قال شن بي: "ليس هذا بكثير مقابل المدينة التي ولدت فيها".

بدا أن جنكيز ارتاح عند ذلك، واسترخى على الأريكة.

"أنت رجل ذكي يا شن بي. قال لي خاسار إنك كنت تحكم المدينة حتى عندما كان الجنود هنا".

"ربما يكون قد بالغ قليلاً يا مولاي. سلطتي أقوى بين الطبقات الدنيا من حنالي الميساء والتجار. يعيش النبلاء حياة مختلفة، ونادراً ما كنت أجد طريقة للاستفادة من سلطتهم".

تألف جنكيز. ولم يكن يستطيع التعبير عن الانزعاج الذي يشعر به وهو جالس في مثل ذلك البيت، المحاط بألف آخر. كان يشعر تقريباً بضغط البشر من حوله. لقد كان خاسار محقاً: بالنسبة لشخص ترعرع في رياح السهول النظيفة، تبدو رائحة المدينة فظيعة.

سأل جنكيز: "أكرههم إذاً، هؤلاء النبلاء؟". لم يكن سؤالاً اعتيادياً وفكر شن بي في الجواب بحرص. كانت لغة القبائل تفتقر للكلمات التي يحتاجها، لهذا تكلم بلغته وترك هو سا يترجم.

"يعيش معظمهم حياة منغلقة تماماً حتى إنني لا أفكر بهم يا مولاي. يقوم قضائهم بتطبيق قوانين الإمبراطور، لكلهم لا يقتربون من النبلاء. إذا سرفت أنا، يمكن أن يقطعوا يدي أو يسلخوا جلدي حتى الموت. إذا سرق نبيل مني، لن تكون هناك عدالة. حتى إذا أخذ ابنة أو ابناً مني، لا يمكنني فعل شيء". انتظر بصبر حتى ينتهي هو سا من الكلام، وكان يعرف أن مشاعره قد أصبحت واضحة عندما حنق جنكيز إليه. قال: "نعم، أكرههم".

قال جنكيز: "كانت هناك جثث معلقة على بوابات الثكنات، عندما دخلت المدينة. دزبنتان أو ثلاث. هل قمت بذلك؟".

"صِفْتِ ديوناً قديمة يا مولاي، قبل أن تصل".

أوما جنكيز برأسه، وأعاد ملء كلا الكوبين.

"ينبغي بالرجل أن يصفّي ديوته دائماً. هل يشعر كثيرون بما تشعر به؟".

ابتسم شن بي بمرارة. "أكثر مما يمكنني إحصاؤه يا مولاي. لبلاد تشن نخبة

تحكم أضعاف عددها من الناس. من دون جيشهم، لن يكون لديهم شيء".

سأل جنكيز بفضول كبير: "إن كانت أعدادكم أكبر، لماذا لم تثوروا ضدهم؟".

تسدد شن بي، استعمل مرة أخرى لغة تشن، وكانت الكلمات تخرج من فمه

بسرعة كبيرة.

"لا يستطيع الخبازون، البذالون، والبحارة تشكيل جيش يا مولاي. العلاقات

النبيلة لا ترحم عند أول إشارة على ظهور تمرد. كانت هناك محاولات في الماضي،

لكن لديهم جواسيس بين الشعب وحتى جمع أسلحة كان يجعل جنودهم يتدققون علينا.

إذا وقعت ثورة ضدهم، يمكنهم الاتصال بالإمبراطور الذي سيرسل جيشه. يمكن

إخضاع بلدات بأكملها بقوة السيف أو حرقها. لقد سمعت بذلك، في حياتي". ثرثد،

مدرّكاً أن هو سا يتكلم خلفه وأن الخان ربما لم يكن مهتماً بمثل تلك الأعمال. رفع

شن بي يداً لإيقاف جندي كزي كزيا الذي التزم الصمت. لقد تم إبقاء باوتو،

بالمحصلة.

قِيم جنكيز الرجل الذي يواجهه، مفتوناً به. كان قد جعل القبائل تعتلق فكرة الأمة

بالقوة، لكن رجالاً مثل شن بي لم يكونوا يؤمنون بها، ليس بعد. ربما كانت كل مدينة

تخضع لحكم الإمبراطور، لكن سكانها لم يكونوا ينظرون إليه كقائد لهم، أو يشعرون

بأنهم جزء من عائلته. كان من الواضح أن النبلاء استمدوا سلطتهم من الإمبراطور.

كان من الواضح أيضاً أن شن بي يكرههم لغطرستهم، واثروتهم، وسلطتهم. يمكن أن

تكون المعرفة مفيدة.

قال: "لقد اختبرت نظرتهم لقومي يا شن بي. لقد أصبحنا أمة لمقاومتهم، لا،

لسحقهم".

سأل شن بي، بعد أن سمع المرارة في نبرة صوته قبل أن يكبح نفسه: "وهل

ستحكم عندها كما فعلوا؟". شعر بحيرة خطيرة في الحديث إلى خان، كما أنرك، كان

الانتهاب والاحتراس المعتادان في نبرة صوته واضحين تحت تلك النظرة الصفراء.

لأرتياحه، ضحك جنكيز بصوت خافت.

"لم أفكر في ما سيحدث بعد المعارك. ربما سأحكم. ليس ذلك حقاً للمنتصر؟".

سحب شن بي نفساً عميقاً قبل أن يرد. "نن تحكم، نعم، لكن هل سيمنحني محاربوك الأدنى مرتبة مثل إمبراطور بين أولئك الذين هزمتم؟ هل سيسفرون منهم ويأخذون كل ما ليس من حقهم؟".

حقيق إليه جنكيز. "النبل عائلة الإمبراطور؟ إذا كنت تسأل إن كانت عائلتي ستأخذ ما تريده، بالطبع ستفعل ذلك. القوي يحكم يا شن بي. أولئك الذين ليسوا أقوىاء يحلمون بالأمر". توقف قليلاً، محاولاً استيعاب ما يحدث. سأل: "هل تريد مني تقييد قومي بقوانين ثانوية؟".

سحب شن بي نفساً عميقاً آخر. كان قد أمضى حياته مع الجواسيس والأكاذيب، يكافح حتى لا يأتي يوم يقوم به جيش الإمبراطور بإخراجه بالنار والدم من المدينة. لم يكن ذلك اليوم قد جاء. بدلاً من ذلك، وجد نفسه يواجه شخصاً يمكنه أن يتحدث أمامه من دون أي قيد. لم يكن ليحظى مجدداً بمثل تلك الفرصة أبداً.

"أفهم ما كنت قد قلت، لكن هل سينتقل ذلك الحق إلى أبنائهم وأحفادهم بعد ذلك؟ عندما يقتل واهن قاسي فتى بعد مئة سنة من الآن، أن يجرؤ أحد على الاحتجاج لأن نماعك تسري في عروقه؟".

بقي جنكيز ساكناً من دون حراك. بعد وقت طويل، هز رأسه. "لا أعرف نبله. نحن هؤلاء، لكن أبنائي سيحكمون من بعدي، إذا كانوا يتمتعون بالقوة. ربما بعد مئة سنة، سيكون أحفادي لا يزالون في الحكم وقد أصبحوا هؤلاء النبلاء الذين تدرّبهم". هز كتفيه استخفافاً، وأفرغ كوبه في فمه.

تابع قائلاً: "معظم الرجال مثل الأغنام. إنهم ليسوا مثلاً". كان قد أطاح برد شن بي. "هل تشك بذلك؟ كم عدد الأشخاص في هذه المدينة الذين لديهم مثل نفوذك، سلطنتك، حتى قبل أن أصل؟ لا يمكن لمعظم الناس تولي القيادة؛ إن الفكرة ترعبهم. على الرغم من ذلك، بالنسبة لأشخاص مثلك ومتلي، لا توجد متعة أكبر من معرفة أنه لا توجد مساعدة قادمة. القرار ملكتنا وحدنا". أشار بعنف بكوبه. فضن شن بي الختم الشمعي لقاورة أخرى وسكب الشراب مرة أخرى.

أطبق صمت متكلف على المكان. لدهشة كلا الرجلين، كان هو سا من تكلم. قال: "سدي أبناء. لم أُرهم منذ ثلاث سنوات. عندما يكبرون، سيلحقون بي إلى الجيش. عندما يسمع الرجال أنهم أبنائي، سيتوقعون الكثير منهم. سيكون ارتقاؤهم أسرع من رجال ليسوا معروفين. أنا قانع بذلك، وأصل بجد وأحمل أي شيء لتحقيقه".

قال شن بي: "إن يكونوا نبلاء أبدأ، هؤلاء الجنود من صلبك، سيأمر فتى من طبقة راقية بإلقائهم في النار فقط ليحافظ على قدر مثل التي كسرتها الليلة".
تقطب حاجبا جنكيز، منزعجا من الصورة. "هل كل الرجال سواسية لديك؟"

هزّ شن بي كتفيه من دون مبالاة. كانت أفكاره تدور بفعل الشراب ولم يكن يعرف أنه يتكلم بلغة تشن.

"لمست أحمق. أعرف أن لا قانون يحكم الإمبراطور، أو عائلته. كل القوانين تصدر عنه والجيش الذي يديره. لا يمكنه أن يخضع للقوانين مثل رجال آخرين. بالنسبة إلى باقي الناس، لآلاف الطفيليين الذين يتغنون من يده، لماذا سيُسمح لهم أن يقتلوا ويسرقوا من دون عقاب؟" أفرغ كوبه في فمه بينما كان هو سا يترجم ما قاله، ويومئ برأسه كما لو أن الجندي يتكلم موافقا على ذلك.

تمطى جنكيز، متعنيا للمرة الأولى أن يكون تيموج هناك ليجادل في تلك المسألة نيابة عنه. كانت نيته التكلم إلى شن بي وفهم السلالة الغريبة التي عاشت في المدينة. بدلا من ذلك، جعل الرجل القصير رأسه يدور.

قال جنكيز: "إذا أراد أحد المحاربين الزواج، يعثر على عدو ويقتله، ويسئولي على كل ما يملكه. يمنح الجياد والماعز لوالد الفتاة. هل تلك جريمة قتل وسرقة؟ إذا صنعت ذلك، سأجعلهم ضغفاء". كان رأسه يدور من الشراب، لكن مزاجه كان جيدا، ومرة أخرى ملأ الأكواب الثلاثة.

سأل شن بي: "هل يأخذ هذا المحارب من عائلته، ومن قبيلته؟"

قال جنكيز: "لا. سيكون مجرمًا، ويزدرية الجميع إن فعل ذلك". حتى قبل أن يتكلم شن بي مجدداً، رأى إلى أين يريد الرجل القصير الوصول.

قال شن بي وهو ينحني إلى الأمام: "إذا، ماذا عن قبائلك الآن بعد أن اتحدت معاً؟ ماذا ستفعل إن أصبحت كل أراضي تشن لكم؟"

كانت تلك فكرة أصابته بالنوار. كان صحيحاً أن جنكيز قد منع آنذاك شباب القبائل من مقاتلة بعضهم، وقدم بدلاً من ذلك هدايا زواج من قطيعه الخاص. لم يكن ذلك حلاً يمتد وقتاً طويلاً. ما كان شن بي يقترحه هو مجرد توسعة لذلك السلام، على الرغم من أنه سيتضمن أراضي يصعب تخيل اتساعها.

قال بكلمات بطيئة: "سأفكر بالأمر. تستحق مثل هذه الأفكار الغنية إيمان النظر فيها خلال أكثر من جلسة واحدة". ابتسم. "خاصة أن إمبراطور تشن يجلس بأمان في مدينته ونحن قد انطلقنا للتو. ربما سأكون السنة القادمة عظماً مبعثراً".

قال شن بي: "أو ستكون قد سحقت النبلاء في فلاعهم ومدنهم، وحظيت بفرصة لتغيير كل شيء. أنت رجل صاحب رؤية. لقد أظهرت ذلك عندما استثبتت باوتو".
هز جنكيز رأسه وقد تشوش بصره. كلمتي جديد. عندما يضيع كل شيء آخر، تبقى على حالها. لكن لو أنني لم استثنِ باوتو، لكنت مجرد مدينة أخرى".
رد شن بي: "لا أفهم".

أدار جنكيز بصره الحاد إليه مجدداً. "إن تستلم المدن إذا لم يكن في ذلك فائدة لها". رفع قبضة شد عليها بقوة وثبتت نظرة شن بي عليها. "الآن، أهدد برافقة الدماء، بشكل أسوأ من أي شيء يمكنهم تخيله. حالما أنصب الخيمة الحمراء، يعرفون أنهم سيخيمون كل رجل ضمن الأسوار. عندما يرون السوداء، يعرفون أنهم سيموتون جميعاً. هز رأسه. "إن كان الموت هو كل ما أفتنه، لن يكون لديهم خيار سوى أن يقاتلوا حتى آخر رجل". أنزل قبضته ومد يده مجدداً طلباً لكوب جديد ملاء شن بي يدين مرتعشتين.

"إذا استثبتت مدينة واحدة فقط، سينتشر النبا بأنهم ليسوا بحاجة للقتال. يمكنهم أن يختاروا الاستسلام عندما ترتفع الخيمة البيضاء. لهذا السبب استثبتت باوتو، ولهذا لا تزالون أحياء".

تذكر جنكيز السبب الآخر الذي دعاه لعقد لقاء مع شن بي. بدا أن ذهنه قد أضاع سرعة بديته المعادة وفكر ربما بأنه ما كان ينبغي عليه أن يشرب كثيراً.

"هل لديك خرائط في هذه المدينة؟ خرائط للأراضي إلى الشرق من هنا؟".
شعر شن بي بالذهول مما كان قد رآه. كان الرجل الذي يواجهه فاتحاً لن يوقفه نبلاء تشن الضعفاء وجيوشهم الفاسدة. ارتعش فجأة، ورأى مستقبلاً مليئاً بالسنة الذهب.

قال القيس: "هناك مكتبة؟ لقد كانت ممنوعة علي حتى الآن. لا أعتقد أن الجنود دمروها قبل أن يرحلوا".

رد جنكيز: "أريد خرائط. هل ستبحث عنها من أجلي؟ هل ستساعدني في التخطيط لتدمير إمبراطورك؟".

كان شن بي قد جراه في الشرب كواباً بكوب وكانت أفكاره تنور بسرعة في رأسه. فكر في ابنه الميت، الذي شغفه نبلاء لم يكونوا حتى لينظروا بعين العطف إلى رجل من أصل وضيع. ليتغير العالم، كما فكر. ليحترقوا جميعاً.

"إنه ليس إمبراطوري يا مولاي. كل ما في هذه المدينة لك. سأبذل قصارى جهدي. إذا أردت كتاباً لمن قوانين جديدة، سأرسلهم إليك".

أوما جنكيز ثملاً، رد ساخراً: "كتابة، إنها مكتوبة الكلمات".
"إنها تجعلها حقيقية يا مولاي، تجعلها دائمة".

في الصباح التالي لاجتماعه مع شن بي، استيقظ جنكيز وهو يشعر بصداخ سيئ جداً لدرجة أنه لم يغادر خيمته طيلة اليوم إلا ليتقيأ. لم يتذكر الكثير بعد الانتهاء من القسارورة السادسة، لكن كلمات شن بي رنت في ذهنه بين الحين والآخر وناقشها مع كثيرون وتيموج. لم يكن شعبه قد عرف سوى حكم الخان، وكانت كل العدالة تنبثق من حكم رجل واحد. نظراً إلى ما آلت إليه الأمور آنذاك، كان جنكيز يقضي كل يوم يفصل في النزاعات ويعاقب المجرمين في القبائل. كان ذلك كثيراً جداً بالنسبة إليه، إلا أنه لم يكن يستطيع السماح للقادة الأدنى منه استئناف أنوارهم، أو المخاطرة بخسارة كل شيء.

عندما أصدر جنكيز الأمر بالتحرك أخيراً، كان من الغريب أن يتركوا مدينة من دون روبية أسنة الذهب في الأفق خلفهم. كان شن بي قد زوده بخرائط لأراضي تشن على طول الطريق إلى البحر الشرقي، وكانت أطم من أي شيء ظفروا به من قبل. على الرغم من أن شن بي بقي في بلوتو، إلا أن البناء ليان كان قد وافق على مرافقة جنكيز إلى ينكنغ. بدا أن ليان يعتبر أسوار مدينة الإمبراطور تحدياً شخصياً لمهارته وكان قد جاء إلى جنكيز ليقدم عرضاً قبل أن يطلب أحد منه ذلك، لم يكن ابنه قد أهمل عمله في أثناء غيابه وفكر جنكيز أنه كان سيختار بين المضي قدماً مع جيش الغزو أو الاستقرار لتقاعد هادئ.

استمرت الرحلة العظيمة في أراضي تشن، وكانت الكتلة الرئيسية للعربات والخيام تتحرك ببطء، لكنها محاطة دائماً بعشرات أو آلاف الفرسان الذين يبحثون عن أدنى فرصة للغزو بمدح قادتهم. كان جنكيز قد سمح للمراسلين بالسفر من بلوتو إلى مدن أخرى على طريقهم إلى الجبال غرب ينكنغ وسرعان ما أتى الفرار. كان الإمبراطور قد سحب الحامية من هوهت، ومن دون الجنود للشذ من أررها، استسلمت المدينة من دون إطلاق سهم واحد، ثم قُتلت ألفي شاب ليتم تدريبهم على فن الحصار واستعمال الزمام. كان شن بي قد أظهر قيمة ذلك بطريقته الخاصة، وانتقى الأفضل في مدينته لمرافقة المغول وتعلم مهارات القتال. كان صحيحاً أنه لم تكن لديهم جياد، لكن جنكيز منحهم كمشاة لأرسلان وقلوا الاضطباط الجديد من دون نقاش.

كانت حامية جينينغ قد رفضت الانصياع لأمر الإمبراطور وبقيت البوابات مغلقة. تم حرقها عن آخرها بعد نصب الخيمة السوداء في اليوم الثالث. كانت ثلاث

ممن أخرى قد استسلمت بعد ذلك. تم أسر الشباب والأقوياء، وسوفهم مثل الأغنام. كان هناك ببساطة الكثيرون للاستفادة منهم كجنود من دون أن يفوقوا القبائل عدداً. لم يكن جنكيز يريد، لكنه لم يكن يستطيع ترك الكثيرين خلفه. كان قومه يقود نصف عدده من الأسرى مجدداً عبر الأرض، وكل يوم كانت هناك جثث خلفهم. عندما أصبحت الليالي أكثر برودة، تجمع أسرى تشن وتهاشموا بهمة مستمرة كانت غريبة في الظلام.

كان واحداً من آخر فصول الصيف التي عرفها أي منهم. قال الشيوخ إن الشتاء التالي سيكون بارداً للغاية ولم يكن جنكيز يعرف ما إذا كان عليه المضى قدماً نحو العاصمة أو ترك الحملة لسنة أخرى.

كانت الجبال أمام ينكينغ قد ظهرت للعيان آنذاك وكان مستطلعو بلاحقون مراقبي الإمبراطور كلما ظهر في الأفق. على الرغم من أن جيادهم كانت سريعة، إلا أنه تم إلقاء القبض على بعض مراقبي تشن وأضاف كل منهم تفصيلاً للصورة التي كان جنكيز يبنها.

في صبيحة أحد الأيام التي كانت فيها الأرض متجمدة في الليل، جلس على كومة من السروج الخشبية وحقن إلى الشمس الواهة التي كانت قد ارتفعت فوق سلسلة من الصخور الخضراء الشاهقة التي تحمي ينكينغ منها، وكان الضباب يحجبها. أطول من القسم بين غوبي وكزي كزيا، كانت تجعل حتى الجبال التي يتذكرها من وطنه تبدو أقل إثارة للاهتمام. على الرغم من ذلك، تكلم المراقبون الذين تم إلقاء القبض عليهم في الممر المعروف باسم بادغر وشعر بأنه يتم سحبه إليه. كان الإمبراطور قد جمع قوته هناك، معتمداً على جيش واحد يبدو ضخماً أمام الجيش الذي كان جنكيز قد أحضره إلى ذلك المكان. يمكن أن ينتهي كل شيء هناك وتصبح كل أحلامه رماداً.

ضحك بصوت خافت لنفسه من تلك الفكرة. مهما كان الذي يحمله المستقبل، فسيفاقبه برأس مرفوع وسيف مشهور. سيفالغ حتى النهاية، وإذا سقط أمام أعدائه، سيكون قد قضى حياة جيدة. كان جزء منه يشعر بالفصمة من فكرة أن أبنائه لن يعيشوا طويلاً بعد موته، لكنه نفّس عن كاهله الضعيف. سيعيشون حياتهم الخاصة بهم كما فعل هو. إذا اجتاحتهم رياح أحداث كبيرة، سيكون ذلك قدرهم. لن يستطيع حمايتهم من كل شيء.

في الخيمة خلفه، سمع أحد أولاد تشاكاهاي يصرخ. لم يستطع تحديد ما إذا كان الابن أم الابنة. أشرق وجهه عندما فكر بالفئة الصغيرة التي على الرغم من أنها كانت قد بدأت تخطو خطواتها الأولى للتو، إلا أنها كانت تدفع برأسها بحنان في ساقه كلما

رأته. كان قد رأى غيرة كبيرة في بورت عندما شاهدت ذلك الفعل البسيط وتهدد عندما تذكر الأمر. كان فتح مدن العدو أقل تعقيداً بكثير من النساء في حياته، أو الأولاد الذين أنجبهم له.

من طرف عينه، شاهد شقيقه كثيون يقترب، يمشي بخطوات واسعة على أحد دروب المعسكر في شمس الصباح.

ناداه كثيون: "هل هربت إلى هنا؟". أما جنكيز برأسه، وربت على مكان إلى جانبه على السروج. انضم إليه كثيون وسلم جنكيز إحدى شطيرتين ساخنين من لحم الضأن وخبز القطير المشبع بالدهن الدافئ. تناول جنكيز شطيرته ممثماً. كان يشم رائحة الثلج في الهواء وناق لشهور البرد القادمة.

سأل جنكيز، وهو يقطع جزءاً من الخبز بأصابعه ويمضغه: "هل أتى خاسار هذا الصباح؟".

"إيه في الخارج مع هو سا والذئاب الغنية، يعلمهم كيفية تنفيذ هجوم ضد مجموعة من الأسرى. هل رأيت ذلك؟ منح الأسرى رماحاً! خسروا ثلاثة شباب أمس ضدهم".

قال جنكيز: "سمعت". كان خاسار يستفيد من مجموعات صغيرة فقط من الأسرى للتدريب. أدهش جنكيز أن عدد الراغبين بالاشتراك كان قليلاً جداً، حتى مع الوعد بمنح كل منهم رماً أو سيفاً. بالتأكيد كان من الأفضل لهم أن يلقوا حتفهم بتلك الطريقة بدلاً من عدم المبالاة والكسل. هن كفيه استخفافاً من تلك الفكرة. كان ينبغي تعليم شباب القبائل القتال، كما كانوا قد فعلوا ذات مرة ضد أبناء جنسهم. كان جنكيز شبه واثق من أن خاسار يعرف ما يقوم به.

كان كثيون يراقبه بصمت، وابتسامة ساخرة على وجهه.

قال: "لم تسأل أبداً عن تيموج".

كشّر جنكيز. كان شقيقه الأصغر مصدر قلق بالنسبة إليه، وبدأ أن علاقة خاسار به سيئة. في الحقيقة، لم يكن يستطيع جعل نفسه يهتم بشأن تعصب تيموج الديني الأخير. كان قد أحاط نفسه برقع ثمن التي تم الاستيلاء عليها، وبنكبة على قوامتها حتى على ضوء المصباح في الظلام.

طرح كثيون سؤالاً ليغير الموضوع: "إنّ، لماذا تجلس هنا؟".

تألف شقيقه، "هل ترى الرجلين اللذين ينتظران بالقرب من هنا؟".

اعترف كثيون: "عرفت أحد أبناء وبلا، البكر". لم تكن عيناه الحاذقان تفوتان شيئاً.

"كنت قد طلبت منهما عدم الاقتراب مني حتى أوف. عندما فعل ذلك، سيأتيان مع أسئلة ومطالب، كما يفعلان كل صباح. سيجعلانني أقرر أي منهما له الحق

بامتلاك مطية خاصة، لأن أحدهما يمتلك الفرس والآخر الجواد. ثم سرعاناً بأن أصدر أمراً لأحد الحذائين الذي يصادف أن يكون قريباً لهما بصنع درع جديد، ليست هناك نهاية لهذا.

تأوه من الفكرة. "ربما تستطيع تأخيرهما بما يكفي لأبتعد من هنا".

ابتسم كثيرون من ورطة شقيقه.

قال: "وأنا الذي كنت أعتقد ألا شيء يخيفك. عين شخصاً آخر للتعامل معهما.

ينبغي أن تكون خالي الذهن للتخطيط للحرب مع القادة".

أوما جنكيز برأسه، مستعضاً.

"لقد قلت ذلك من قبل، لكن بمن أستطيع أن أثق في مثل هذا الوضع؟ ينبغي أن

يصنع بالقوة مثل أي رجل في القبائل". خطر جواب لكليهما في الوقت نفسه، لكن كان

كثيرون من تكلم.

"سيكون تشريعاً لثيموج أن يتولى المهمة. نعرف أنه سيفعل ذلك".

لم يرد جنكيز، وتابع كثيرون كما لو أنه شعر بعدم وجود معارضة.

"يبدو من غير المحتمل أن يسرق منك مثل رجال آخرين، أو يسيء استعمال

المنصب. امنحه لقباً مثل سيد التجارة. سيدبر المعسكر خلال بضعة أيام". عندما رأى

أن شقيقه لم يتأثر، اختار كثيرون منهجاً مختلفاً.

"قد يرغمه ذلك أيضاً على قضاء وقت أقل مع كوكشو".

رفع جنكيز بصره عند ذلك، ورأى أن الرجلين اللذين ينتظران قد تقدما خطوة إلى

الأمام تحسباً للهوضه. فكر في الحديث الذي كان قد أجراه مع شن بي في باتو. كان

جزء منه يريد أن يتخذ كل قرار بنفسه، لكن كان صحيحاً أن لديه حرباً ينتصر فيها.

قال مشروداً: "حسن جداً. قل له إن المهمة له لسنة. سأرسل له ثلاثة محاربين

تعرضوا للتشويه في المعارك من أجل ذلك العمل. سأمنحهم شيئاً يقومون به وأريد أن

يكون أحدهم رجلاً يا كثيرون، ويقدم تقارير لك فقط. سيحظى شقيقنا بفرص عديدة

لحصول على القسدة من كل شيء يمر بين يديه. لن يضر القليل، لكن إذا كان جشعاً،

أريد أن أعرف". توقف عن الكلام لحظة. "ونأكد أن يفهم أن كوكشو لا علاقة له أبداً

بنوره الجديد". تلهذ عندها. "إذا رفض، من يوجد غيره؟".

قال كثيرون بكل ثقة: "إن يرفض، إنه رجل أفكار يا شقيقي. سيمنحه النور

السلطة التي يريدتها لإدارة المعسكر".

قال جنكيز وهو ينظر إلى بعيد: "لدى تشن قضاء لإقرار قوانين وفض النزاعات.

أتساءل إن كان شعبنا سيقبل بمثل هؤلاء الرجال بينهم؟".

سأل كشيون: "إذا لم يكونوا من عائلتك؟ سيكون رجالاً شجاعاً إن حاول تسوية نزاعات دموية، بغض النظر عن اللقب الذي يحملة. في الواقع، سأرسل اثني عشر حارساً آخر إلى تيموج للحفاظ على سلامته. شعبنا ليس بعيداً عن إظهار استيائه بهم في الظهر. إنه ليس خانهم، بالمحصلة".

تألف جنكيز. "لا شك أنه سيجعل أرواحه الداكنة تنتزعه في الهواء. هل سمعت بالقصص التي تكبر من حوله؟ إنها أسوأ من تلك التي تخص كوكشو. أفسأل أحياناً إن كان كاهني العراف يعرف ما قد صنعت يداه".

"نحن من سلالة خانات يا شقيقتي. نحكم أينما كنا".

ربت جنكيز على ظهره. "سنتكشف إن كان إمبراطور تشن يشعر بالطريقة نفسها. ربما سيجعل جيشه يستسلم عندما يرانا قادمين".

"هل سيكون ذلك هذه السنة إذا؟ في الشتاء؟ أعتقد أن الثلج سيساقط عما قريب".

"لا يمكننا البقاء هنا من دون مراخ أفضل. ينبغي أن أتخذ القرار بسرعة، لكنني لا أحب فكرة ترك جيشهم عند معبر بادغر من دون تحذ. يمكننا أن نتحمل برداً يجعلهم بطينين وعديمي الفائدة".

قال كشيون: "لكنهم سيكونون قد حصنوا الممر، غرسوا الرماح في الأرض، حفروا الأنفاق، وأي شيء يمكنهم التفكير فيه. لن يكون الأمر سهلاً علينا".

نظر جنكيز بعينه الشاحبتين إلى شقيقه، وأشاح كشيون بصره بعيداً إلى الجبال التي سيحاولون عبورها.

قال جنكيز: "إنهم متفطرسون جداً يا كشيون. لقد افترقوا خطأ عندما سمحوا لي بمعرفة مكائهم. يريدون أن يهاجمهم في مكن قوتهم، حيث ينتظروننا. لم يوقفتني سورهم، ولن توقفتني جبالهم وجيشهم".

ابتسم كشيون. كان يعرف الطريقة التي يفكر فيها شقيقه. "لرى أنك أرسلت المستظلمين كلهم إلى سفوح الجبال. هذا غريب إذا كنا سنخاطر بكل شيء لشن هجوم عبر الممر".

ابتسم جنكيز بشكل غريب. "يعتقدون أن جبالهم عالية جداً بحيث لا يمكن تسلقها يا كشيون. يمر أحد أسوارهم الأخرى عبر السلسلة الجبلية ووحدها القمم العالية تؤمن الحماية لهم، وارتفاعها شاقق بالنسبة إلى الرجال". تألف. "بالنسبة إلى جنود تشن، ربما، لكننا ولدنا في الثلج. أتذكر أن والدي أخرجني من الخيمة عارياً عندما كنت في الثامنة من عمري. يمكننا تحمل الشتاء وعبور السور الداخلي".

كان كثيرون قد انتخب أيضاً عند باب خيمة والدهما، وصرخ مطالباً بإعادته إلى الداخل. كانت عادة قديمة يعتقد الكثيرون أنها تجعل الأولاد أقوىاء. تساءل كثيرون إن كان جنكيز قد فعل الشيء نفسه مع أبنائه، وفيما كان يقلب الفكرة، عرف أنه فعل ذلك. لم يكن شقيقه ليتسامح مع الضعف، على الرغم من أنه قد يحطم أبنائه في عملية جعلهم أقوىاء.

أنهى جنكيز وجبته، ولحق الدهن اليابس بين أصابعه. "سيجد المستطلعون دروباً حول الممر. عندما يكون أفراد تشن يرتعشون في خيامهم، سننقض عليهم من كل الاتجاهات. عندها فقط يا كثيرون، ساهجم على ممر بادغر وأدفع شعبهم أمامي".
سأل كثيرون: "الأسرى؟".

رد جنكيز: "لا يمكننا إطعامهم. يمكن أن يقدموا لنا خدمة إذا تلقوا سهام ورماح أعدائنا". هز كتفيه استخفافاً. "سيكون ذلك أسرع بالنسبة إليهم من للتضور جوعاً حتى الموت".

عند ذلك، نهض جنكيز على قدميه، ونظر إلى الغيوم الكثيفة التي ستحول سهل تشن إلى قفرٍ من الثلج والجليد. لطالما كان الشتاء وقتاً للموت، عندما لا ينجو سوى الأقوى. تنهد عندما شاهد حركة من طرف عينه. كان الرجلان اللذان يراقباه قد شاهداه بنهض وأسرعاً بالاهتراب منه قبل أن يغير رأيه. حنق جنكيز إليهما بكراهية.
قال وهو يخطو مبتعداً: "قل لهما أن يذهبا لرؤية تيموج".

الفصل العشرون



كان المستطلعان يتضوران جوعاً. كانت حتى عصيدة الجبن والماء في أمتعتهما قد تجمدت عندما تسلقا عالياً فوق ممر بادغر. إلى الشمال والجنوب، كان سور تشن الثاني يمر عبر الجبال. كان أقل ضخامة من السور الذي اجتازته القبائل لدخول أراضي تشن، على الرغم من أن هذا السور لم يُترك ليتداعى بمرور القرون. محفوظاً بالجليد، كان يشق طريقه عبر أودية بعيدة، مثل أفعى رمادية في منطقة بيضاء. ربما كان يبدو ذات مرة معجزة للمستطلعين المغول، إلا أنهم بهزون الآن لكثافتهم استخفافاً به. لم تكن جيوش تشن قد عملت على بناء سورها على قمم الجبال تماماً. كانت تعتقد أنه لن يستطيع أحد النجاة من الصخور والمنحدرات الشاهقة للجليد الصلب، وأن البرد الشديد على ذلك الارتفاع سيجعل الدم يتجمد في العروق بالتأكيد. كانوا مخطئين. اجتاز المستطلعان مستوى الجدار إلى عالم من الثلج والجليد، يبحثان عن طريق عبر الجبال.

كانت تلوج جديدة قد تساقطت على السهول، ونزلت من سحب عاصفة على القسم التي تكتلها. كانت هناك لحظات تحفر فيها الرياح الهوجاء ثقباً في الغطاء الأبيض، وتكشف الممر والأعمدة التي تشبه قوائم العنكبوت للسور الداخلي الذي يمتد بعيداً. من ذلك الارتفاع، رأى كلا الرجلين الكتلة الداكنة لجيش تشن على الطرف الآخر البعيد. لم يكونا يستطيعان رؤية قومهما في السهل، لكنهم كانوا هناك أيضاً، ينتظرون عودة المستطلعين.

صرخ تاران لإسماع صوته في الرياح: "ليس هناك طريق للتقدم. ربما حالف ببراخ والآخرين حظ أفضل. ينبغي أن نعود أدراجنا". كان تاران يشعر بالجليد في عظامه، والبرد الشديد ينهش كل مفصل فيه. كان واقعاً أنه قريب من الموت، وكان من الصعب عدم إظهار خوفه. بالكاد تألف مرافقه فيسك من دون أن ينظر إليه. كان كلاهما جزءاً من مجموعة تتألف من عشرة أشخاص، وهي إحدى مجموعات عديدة

كانت قد خرجت إلى الجبال للعثور على طريق لمهاجمة مؤخر جيش تشن. على الرغم من أنهما قد انفصلا عن زملائهما في الليل، إلا أن تاران كان لا يزال يثق بفيساك لاكتشاف مسلك، لكن البرد كان يشلّه، وكان أفسى من أن تتم مقولمته.

كان فيساك رجلاً قد تجاوز الثلاثين من العمر، فيما لم يكن تاران قد بلغ الخامسة عشرة من عمره بعد. قال الرجال الآخرون في مجموعته أن فيساك يعرف قائد الذئاب القلبية، وأنه يحيي تسوبودي مثل صديق قديم كلما التقيا. ربما كان ذلك صحيحاً. مثل تسوبودي، كان فيساك من قبيلة يوريانخي البعيدة في الشمال وكان يبدو أنه لا يشعر بالبرد. نزل تاران عن منحدر جليدي، وكاد يقع. ثبتت نفسه بفرس سكينه في صدع، وكانت يده تنزلق عن القبضة عندما اهتز ليقف. شعر بيد فيساك على كتفه، ثم بدأ الرجل الأكبر سناً بهرول مجدداً وترنح تاران خلفه محاولاً اللحاق به.

كان الفتي المغولي ضائعاً في عالمه الخاص من اليأس والاحتمال عندما رأى فيساك يتوقف أمامه. كانا يتبعان مسار سلسلة صخور شرقية، زلقة وخطيرة جداً وكان فيساك قد استعمل حبالاً ليربط نفسه بتاران حتى يستطيع أحدهما إنقاذ الآخر. وحده الحبل المشدود إلى خصره ألقا تاران من الخلود إلى النوم، وعندما تابع سيره قطع خمس خطوات قبل حتى أن يدرك أن فيساك قد جثم في مكانه. ربح تاران على الأرض وأطلق أنبداً مكبوتاً، وسقط الجليد عن رداءه بقطع حادة. كان يضع في يديه قنازين مصنوعين من جلد الأغنام، لكن أصابعه كانت على الرغم من ذلك متجمدة عندما ملأ فمه بالتلج ومضغه. كان العطش شيئاً يتذكره من المحاولات السابقة في القسم. مرة تجمد الماء في قارورته، ولم يكن هناك شيء سوى التلج لتزوييه. لم يكن كافياً أبداً لإرواء عطشه الشديد.

عندما ربح في مكانه، تسامى كيف تمكنت الجياد من النجاة في الوطن، عندما كانت الأنهار تتحول إلى جليد. كان قد رآها تجثم على التلج وبدا ذلك كافياً بالنسبة إليها. مصعباً بالدوار والإرهاق، فتح فمه ليسأل فيساك. ألقى المستطلع الأكبر سناً نظرة عليه وأشار له بأن يصمت.

شعر تاران بحواشه تنتبه، وبدأ خفقان قلبه يزداد. كانا قد اقتربا من مستطلي تشن من قبل. كان قائد الجيش في العمر يرسلهم رغباً عنهم للمراقبة وتقديم تقارير له. بعد أن جعلت العاصفة الرؤية على بعد أكثر من بضع خطوات صعبة، أضحت المرتفعات ساحة تنافس قاتل بين القوتين. كان شقيق تاران الأكبر قد تعثر بأحد هؤلاء، وكاد يسقط على الرجل. تذكر تاران الآن التي كان شقيقه قد أعادها معه كغنيمة وإثبات على ذلك. تسامى إن كان سيحظى بفرصة ليعود تذكراً خاصاً به ويقف

شامخ الرأس بين المحاربين الآخرين. كان أقل من الثلث قد قتلوا أعداء لهم وكان معروفاً أن تسويودي يختار ضباطه من بين ذلك العدد وليس أولئك الذين لم تتضح شجاعتهم. لم يكن لدى تاران سيف أو قوس، لكن سكينه كانت حادة وفرك معصميه الخدرين لتسكينهما.

كانت ركبتاه تؤلمانه، لكنه زحف حتى أضفى قريباً من فيسك، وكانت الريح العاصفة تخفي صوت أي حركة. نظر إلى الأرض البيضاء، باحثاً عما رآه الرجل الأكبر سناً. كان فيسك مثل تمثال وحاول تاران تقليد سكونه، على الرغم من أن البرد نسل إلى من الأرض وكان يرتعش بشكل مستمر.

هناك، تحرك شيء على الأرض البيضاء. كان مستطلعو تشن يرتدون ملابس باهتة يمزج لونها مع الثلج، مما يجعلهم غير مرئيين تقريباً. تذكر تاران القصص التي كان يسميها رجال القبائل المستون بأن الجبال تخفي أكثر من مجرد رجال عندما تهب العاصفة الثلجية. كان يأمل بأن تكون مجرد قصص خيالية لإخافته، لكنه أمسك سكينه بإحكام. من طرفه، رفع فيسك ذراعه، مشيراً نحو شيء ما. كان قد رأى الشكل أيضاً.

مهما كان، إلا أنه لم يتحرك مجدداً. انحنى فيسك مقترباً منه ليهمس في أذنه، وفيما كان يفعل ذلك، رأى تاران شكل رجل ينهض وهو يلفظ عنه كتلة من الثلج، وقوس في يديه.

كان فيسك حاضراً البديهة. رأى عيني تاران تتسعان وألقى بنفسه أرضاً، واستدار بطريقة ما بينما كان يفعل ذلك. سمع تاران صوت انطلاق سهم من دون أن يراه، وفجأة كان هناك دم على الثلج وفيسك يصرخ غضباً وألماً. كان قد قيل له كيف يتصرف ضد قوس وعمل ذهنه بشكل حاد بينما كان يندفع إلى الأمام. لم يكن لديه سوى بضع ثقات للقلب قبل أن يشد الرجل الوتر للخلف لإطلاق سهم آخر.

أسرع تاران على الأرض الشائكة التضاريس، والحبل الذي يربطه إلى فيسك يمتد عبر الثلج في إثره. لم يكن لديه وقت ليقطعه. رأى أن مستطلع تشن يكافح مع سلاحه وألقى بنفسه عليه مما جعله يسقط أرضاً. طار القوس مبهتداً ووجد تاران نفسه عالقاً في صراع مع رجل أقوى منه.

نقالات بصمت وهما يلهتان، وحيدان في البرد الشديد. كان تاران قد سقط على رأس الجندي وحاول يائساً الاستفادة من ذلك. ضربه بركبتيه ومرفقيه، وكانت يدا عنوه تسمكان بيده التي تحمل سكينه. كان تاران يحقق في عيني الرجل عندما نفع رأسه بقوة إلى الأسفل على أنف عنوه، وشعر به يتكسر وسمعه يصرخ عالياً. كانت يدا الرجل لا تزالان

تمسكان بيده التي تحمل السكين وضرب برأسه مراراً وتكراراً، ودفع بجبينه في الوجه الدامي تحته. استطاع وضع يده الحرة تحت ثفن الرجل، ودفع بها على العنق المكشوف. ابتعدت القبضة التي كانت تمسك بمعصمه وأثنت الأصابع مخالفاً في عينيّه، محاولة أن تسب له العيى. رفع تاران رأسه وضرب برأسه إلى الأسفل من دون أن ينظر.

انتهى الأمر بسرعة مثلما بدأ. فتح تاران عينيّه ليرى جلدي تشن يحرق بعينين انطفأ نورهما إلى الأعلى. كانت سكينه قد نزلت إلى الأسفل من دون حتى أن يشعر بها ولا تزال ظاهرة من رداء الرجل المطرز بالفرو. استلقى تاران يلهث في الهواء العليل، غير قادر على التقاط أنفاسه. سمع فيسك ينادي وأدرك أن الصوت كان يصدر منذ بعض الوقت. كالح عذبا حتى لا تبدو على وجهه أي تعبيرات، محاولاً استرجاع انضباطه. لن يشعر بالخل أمام المحارب الأكبر سناً.

بهزة واحدة، حرر تاران سكينه ودفع نفسه بعيداً عن الجثة. كان الرجل قد التفت حول قدميه في القتال وخطا مبتعداً عنه، وركله بعيداً. نادى فيسك مجدداً، وكان الصوت أضعف من ذي قبل. لم يستطع تاران تحويل ناظريه عن الرجل الذي كان قد قتلته، لكنه لم يتوقف عن التفكير. استغرق الأمر لحظات ليلازع الرداء الثقيل عن الجسدي، ولفه حول نفسه. بدأ الجسد أصفر من دون الرداء ووقف تاران يحرق إلى الأسفل إلى الدم السائل على الثلج، وكانت حلقة من فطريات تشير إلى المكان الذي كان فيه الرأس. شعر بالدم يتجمد على جلده وحك وجهه بقوة، وشعر بالتقزز فجأة. عندما نظر مجدداً إلى فيسك، كان مرافقه قد استطاع الجلوس وينظر إليه. أوماً تاران إلى الرجل الأكبر سناً، ثم مَدَّ يده ليبتز أن ضحيته الأولى.

وضع القطعة المخيفة في جيبه، وترنح في مشيته عائداً نحو فيسك، وكان لا يزال يشعر بالدوار. كان البرد قد اختفى في أثناء القتال، لكنه عاد بقوة ووجد نفسه يرتعش، وأسنانه تصطك كلما فتح فكه.

كان فيسك يلهث، ووجهه يضيح ألماً. كان السهم قد أصابه في جانبه تحت الأضلاع. رأى تاران النهاية السوداء للسهم تبرز منه، وقد بدأ الدم يتجمد آنذاك مثل شمع أحمر. مَدَّ ذراعه لمساعد فيسك على الوقوف على قدميه، لكن الرجل الأكبر سناً هز رأسه متعباً.

تمتم فيسك: "لا يمكنني الوقوف. دعني أجلس هنا وتابع طريقك".

هز تاران رأسه، رافضاً قبول ذلك. دفع فيسك ليفف على قدميه، على الرغم من أن وزنه كان ثقيلاً عليه. تأوه فيسك وسقط تاران معه، وانتهى به الأمر جاثياً على ركبتيه في الثلج.

قال فيساك: "لا يمكنني المضي قدماً. دعني أموت. استطلع مسلك عودة الرجل بأفضل ما تستطيع. لقد جاء من الأعلى. هل تفهم؟ لا بد من وجود طريق هناك". قال تاران: "يمكنني سحبك على رداء الجندي، مثل مزلاج". لم يصدق أن صديقه كان يستسلم وبدأ وضع رداء القرو على الثلج. كانت ساقاه تذلاّنه عندما فعل ذلك وأسند نفسه على صخرة، منتظراً أن يستعيد قوته.

همس فيساك: "يلبغي أن تجد مسلك العودة أيها الفتى. لم يأت من جانبنا على الجبال". كانت أنفاسه تخرج على فترات تصبح أطول وجلس وعيناه مغلقتان. نظر تاران خلف فيساك إلى حيث يستلقي الجندي مضرباً بدمائه. جعلت الذكرى المفاجئة لما حدث معدته تنقبض وانحنى على نفسه وتقيأ. لم يكن هناك شيء صلب ليخرج منه، على الرغم من أن شريطاً من سائل أصفر سميك انطلق من بين شفتيه ورسم خطوطاً في الثلج. مسح لمة، غاضباً من نفسه. لم يكن فيساك قد شاهد ذلك. ألقي نظرة على مرافقه، وكان الثلج يغطي وجهه. هزه تاران، لكنه لم يستجب. كان وحيداً والريح تعصف من حوله.

بعد وقت، نهض تاران مترنحاً وعاد إلى حيث كان جندي تشن يستلقي ساكناً من دون حراك. للمرة الأولى، نظر تاران إلى ما وراء الجثة وعادت القوة تسري في جسده. قطع الحبل بسكين، ثم مشى مترنحاً، تسلق بثبور والزللق أكثر من مرة. لم يكن هناك درب، لكن الأرض بدت صلبة بينما كان يمسك بقبضته الثلج ويتسلق المنحدر. كان ينشج كل شهيق في الهواء العليل عندما توقفت الريح ووجد نفسه بملاذ صخرة كبيرة من الغرانيت. كانت اللقمة لا تزال بعيدة إلى الأعلى، لكنه لم يكن بحاجة للوصول إليها. أمامه، رأى حبلًا واحداً حيث كان الجندي قد تسلق إلى تلك المنطقة. لقد كان فيساك محقاً. كان هناك مسلك إلى الجانب الآخر ولم يكن السور الداخلي الثمين لتشن يوفر حماية أفضل من السور الخارجي.

وقف تاران خدراً في البرد، وأفكاره تتوارد ببطء. أخيراً، ألوما لنفسه ثم بدأ يمشي عائدًا إلى حيث الرجلين الميتين. لن يفتل. كان تسوبودي ينتظر الأنباء. خلفه، كان الثلج يتساقط غزيراً، يخفي الجثتين ويزيل كل آثار الصراع التموي حتى غطى كل شيء مرة أخرى.

لم يكن المعسكر هادئاً في الثلج. كان قادة جنكييز يجعلون رجالهم يجولون فيه، يتدربون على إجراء مناورات ولحن الزمامة، ويشدون من عضدهم. كان المحاربون يغطون أيديهم ووجوههم بطبقة سمكة من دهن الضأن ويتدربون لساعات على إطلاق

السهام وهم يقودون جيادهم بأقصى سرعتها على دمي مصنوعة من القش، بعيدة بعضها عن بعض عشر خطوات. كانت دمي القش المصنوعة على شكل رجال تهتز مرة ثلث الأخرى ويجري الفتية ليسحبوا السهام منها، ويقتروا الوقت اللازم لهم قبل أن يأتي الفارس التالي للتصويب عليها.

كانت أعداد السجناء الذين أسروهم من المدن لا تزال تُقَدَّر بالآلاف، على الرغم من ألعاب الحرب التي أرغمهم خاسار على خوضها. كانوا يجلسون أو يقفون معاً خارج الخيام. لم يكن يراقب الرجال الذين يتضورون جوعاً سوى عدد قليل من الرعيان، لكنهم لم يهربوا. في الأيام الأولى، كان البعض قد فر، لكن كل محارب في القبائل كان يستطيع تقفي آثار غنمة ضالعة ولم يعيدوا معهم سوى رؤوس، وكانوا يرفعونها عالياً أمام حشد الأسرى كتحذير للآخرين.

كان الدخان يظهر فوق كل خيمة عندما يعمل موقدها، والنساء يطبخن الحيوانات المذبوحة ويحضرن الشراب الأسود لندفة رجالهن. عندما يتكرب المحاربون، يأكلون ويشربون أكثر من المعتاد، ويحاولون إضافة طبقة من الدهن لإبعاد البرد. كان من الصعب بقاء تلك الطبقة مع بقاء الفرد اثنتي عشرة ساعة على السرج كل يوم، لكن جنكيز كان قد أصدر الأمر وتم ذبح حوالي ثلث القطعان لسد جوع الرجال.

أحضر تسوبودي تاران إلى الخيمة الكبيرة حالما قدم المستطلع الشاب تقريره. كان جنكيز هناك مع شقيقه خاسار وكشيون وخرج عندما سمع تسوبودي يقترب. رأى الخان أن ذلك الفتى مع تسوبودي كان مرهقاً، يرتجف قليلاً من البرد. كانت هناك دوائر سوداء تحت عينيه وبدا كما لو أنه لم يأكل منذ أيام.

قال جنكيز: تعال معي إلى خيمة زوجتي. ستضع لحماً ساخناً في معدتك ويمكنك أن تستكلم". أحلى تسوبودي رأسه وحاول تاران فعل الشيء نفسه، خائفاً من التكلم إلى الخان نفسه. هزول خلف الرجلين بينما كان تسوبودي يتكلم عن المسر الذي عثر عليه مع فيسماك. فيما كانوا يتكلمون، ألقى الفتى نظرة على الجبال، وكان يعرف أن جثة فيسماك المستجدة هناك في مكان ما. ربما سيكشف ذوبان الثلج في الربيع جثته مرة أخرى. كان تاران يشعر ببرد شديد وحاول التفكير، وعندما أصبح بمنأى عن الريح، تناول وعاء من اللحم المطبوخ بيدن خذرتين، ودفعه في فمه من دون ظهور أي تعبير على وجهه.

راقب جنكيز الشاب، معجباً بشهيته الكبيرة والطريقة التي ينظر بها إلى لسر الخان الجائم على عموده. كان الطائر الأحمر مغطى الرأس، لكنه استدار نحو الوافد الجديد الشاب وبدا أنه يراقبه بالمقابل.

اهتمت بورت بالمستطلع، وأعدت ملء وعائه حالما أفرغه. منحته قربة من الشراب الأسود أيضاً، والذي جعله يسعل ويمنم، ثم أوما برأسه عندما توردت وجنتاه المتجمدتان مرة أخرى.

سأله جنكيز عندما فقدت عينا تاران نظرتيهما المذهولة: "هل وجدت طريقاً للجنور؟" "وجدتها فيساك يا مولاي". بدا أن فكرة ما تشغل باله وتحسس جيبه بأصابع قوية، وأخرج شيئاً كان واضحاً أنها أنثى. رفعها بفخر.

"كثلت جندياً هناك كان ينتظرنا".

أخذ جنكيز الآن منه، وفحصها قبل أن يعيدها إليه.

قال بصبر: "لقد أبليت حسناً. هل يمكنك العثور على الطريق مجدداً؟".

أوما تاران برأسه، وهو يقبض على الآن وكأنها تعويذة. كانت أحداث كثيرة قد وقعت خلال مدة وجيزة، وأصيب مرة أخرى بالقلق لأنه كان يتكلم مع الرجل الذي شكّل أمة من القبائل. لن يصدق صدقائه أبداً أنه قد التقى الخان نفسه، وكان تسوبودي يراقب مثل والد فخور بابنه.

"يمكنني ذلك يا مولاي".

ابتسم جنكيز، وهو ينظر بعيداً. أوما إلى تسوبودي وهو يرى البهجة التي ظهرت على وجهه.

"أذهب ونم الآن أيها الفتى. اسرح وتناول الطعام حتى تشبع، ثم نم مجدداً. ينبغي أن تكون قوياً لتقود إخوانك". ربت على كتف تاران الذي تمايل في مكانه.

قال تسوبودي: "كان فيساك رجلاً صالحاً يا مولاي. كنت أعرفه جيداً".

نظر جنكيز إلى المحارب الشاب الذي كان قد سلّمه قيادة عشرة آلاف من شعبه. رأى لمسة حزن في عينيه وفهم أن فيساك كان من القبيلة نفسها. على الرغم من أنه كان قد منع الحديث عن العائلات القديمة، إلا أن بعض العرى كانت عريقة الجنور.

قال: "إذا كان يمكن العثور على جثته، سأجعلهم يجلبونها إلى هنا لنفنها بشكل لائق. هل لديه زوجة، أولاد؟".

رد تسوبودي: "نعم يا مولاي".

قال جنكيز: "سأحرص على أن يتم الاعتناء بهم. لن يأخذ أحد قطيعهم، أو يرغم زوجته على الالتحاق بخيمة رجل آخر".

كان ارتياح تسوبودي واضحاً.

قال: "شكراً لك يا مولاي". ترك جنكيز ليأكل مع زوجته واصطحب تاران إلى الخارج حيث الريح العاصفة مرة أخرى، يمسك به من مؤخر عنقه لإظهار اقتنائه به.

كانت العاصفة لا تزال قوية بعد يومين عندما جمع خاسار وكشيون رجالهما، كان كل منهما قد قدم خمسة آلاف محارب سيقدوهم تاران فوق القسم إلى الدرب الذي كان قد عثر عليه. كانوا قد تركوا جيادهم خلفهم ولم يكن جنكيز قد أضاع هذين اليومين. ثم صنع ألف رمية للترتب على الرماية، كما تم وضع رجال من الفئس، والخشب والقماش على كل جواد متوفر. إذا كان بمقدور مستطلعي تشن رؤية السهل في الثلج، لن يلاحظوا أن عدد الرجال قد أصبح أقل.

وقف خاسار مع شقيقه، يفرك الذهن على كل وجه آخر استعداداً للتسلق الصعب الذي سيتبع ذلك. بخلاف المستطلعين، كان رجالهما يحملون أقواساً وسيفاً إضافة إلى مسنة سهم في كنانتين ثقيلتين مربوطتين إلى ظهورهم. بينهما، كان العشرة آلاف رجل يحملون مليون سهم؛ وقد أمضوا سنتين من العمل الشاق لصنعها حتى أصبحت أكثر قيمة من أي شيء آخر يمتلكونه. من دون غابات البتولا، لم يكن بمقدورهم تعويضها. كان ينبغي تغليف كل شيء يحملونه بقماش مشبع بالدهن منعاً لتأثره بالرطوبة وتحركوا بصعوبة تحت الطبقات الإضافية، يضربون الأرض بأقدامهم بقوة ويشبهون أيديهم التي يضعونها في قفازات معاً اتقاء البرد.

كان تاران منتصب القامة وفخوراً بقيادة شقيقي الخان، مبتلناً إثارة لأن جل ما عليه القيام به هو الوقوف ساكناً من دون حراك. عندما أصبحوا مستعدين، أوما خاسار وكشيون للفئس، ونظروا إلى الخلف إلى رتل الرجال الذين سيمبرون الجبال سيراً على الأغدام. سيكون الصعود سريعاً وصعباً، وامتحاناً قاسياً حتى على أشد الرجال. إذا اكتشفهم مستطلعو تشن، كان الرجال يعرفون أنه ينبغي عليهم الوصول إلى الممر العالي قبل أن يتم الإبلاغ عن تحركاتهم. سيتحركون كل من يتوقف خلفهم.

عصفت الريح بالصفوف عندما انطلق تاران، ونظر إلى الخلف عندما شعر بعيونهم تلاحقه. رأى خاسار عصبيته وابتسم، مشتركاً بلحظة الإثارة تلك مع شقيقه كشيون. كان ذلك اليوم أشد برودة من أي يوم على الإطلاق، لكن مزاجه كان جيداً بين الرجال. أرادوا سحق الجيش الذي ينتظرهم على الجانب الآخر من الممر. أكثر من ذلك، أعجبتهم فكرة الظهور خلفهم وتشيت دفاعاتهم المحكمة. كان جنكيز نفسه قد خرج ليراهم ينطلقون.

كان جنكيز قد قال لشقيقه: "لديكم حتى فجر اليوم الثالث يا كشيون. ثم سأعير الممر".

الفصل الحادي والعشرون



استغرق الأمر حتى صبيحة اليوم التالي للوصول إلى البقعة العالية بين القمم التي لقي فيها فيساك حتفه. نبش تاران جثة صديقه من تحت كومة ثلج، ومسح ما تراكم على المعالم الرمادية بصمت مطبق.

تمتم خاسار لكشيون، الذي ابتسم: "يمكننا وضع راية في يده لتحديد الدرب". كان صف المحاربين يمتد إلى أسفل الجبل، وبدأ أن العاصفة ستهدأ، لكنهم لم يطلبوا من المستطلع الشاب أن يسرع بينما كان يأخذ قطعة من قماش أزرق ويلقيها حول جثمان فيساك، ويقتحم لأب السماء.

وعف تاران، وأحس رأسه للحظة قبل أن يقطع بسرعة المسافة الأخيرة من الأرض المتجمدة التي تقود إلى المنحدر. تجاوز الرتل الجسد المتجمد، وألقى كل رجل نظرة على الوجه الميت وتمتم بضع كلمات تحية أو تضرعاً.

عندما أصبح العمر العالي خلفهم، كان تاران على أرض جديدة، وأضحت الخطوات بطيئة بشكل يسبب الإحباط. كان ضوء الشمس يبهل الأبصار من كل الاتجاهات، وكان الاستمرار في التحرك شرقاً صعباً. عندما كشفت الريح الجبال على كلا الجانبين، حتى خاسار وكشيون إلى البعيد، بدققان في تفاصيل التضاريس. بحلول الظهيرة، قترا أنهما أصبحا في منتصف المنحدر، وكان حصنا المرر بعينين جداً إلى الأسفل منهما.

جعل سفح شديد الانحدار يبلغ طوله أكثر من خمسين قدماً حركتهم تنبأطاً مجدداً، على الرغم من أن حبالاً قديمة دلت على المكان الذي كان مستطلع تشن قد تسلق منه. بعد أيام في البرد، أضحت الجبال قصبة فثبتوا حبالاً جديدة، وهبطوا المنحدر بحرص شديد مستعينين بأيديهم وأرجلهم. أولئك الذين يمتلكون قفازات وضعوها في ملابسهم للنزول ثم وجدوا أن أصابعهم أصبحت زرقاء ومتبسة بسرعة كبيرة. كانت لسعة البرد شديداً يدعو للقلق بالنسبة للرجال الذين يتوقع أن يستعملوا أقواسهم. فيما كانوا

يسرعون الخطى على طول المنحدرات، كان كل محارب يفتح ويقبض يديه، أو يتسهما تحت إبطيه ويترك رذني قميصه يهتران بحرية.

انزلق العديد على الأرض المتجمدة ووقع أولئك الذين كانوا قد أخفوا أيديهم بقوة أكبر. نهضوا بصلاية، ووجوههم قاسية من الريح بينما كان رجال آخرون يتجاوزونهم من دون النظر إليهم. كان كل منهم يعتمد على نفسه ويكافح للبقاء واقفاً على قدميه بدلاً من أن يتركه الآخرون خلفهم.

كان تاران من أطلق صرخة تحذير عندما تشعب المسلك. تحت مثل ذلك الغطاء من الثلج، كان بالكاد أكثر من ثنية في السطح الأبيض، لكنه تعرج باتجاه آخر ولم يعرف أي منهما سيأخذهم إلى الأسفل.

جاءه خاسار، ورفع قبضته لإيقاف أولئك الذين في الخلف. امتد صف الرجال حتى جئة فيسك تقريباً. لم يكونوا يستطيعون التأخر وغلطة واحدة في ذلك المكان قد تعني موتاً بطيئاً، محاصرين ومجهدين في طريق مسدود.

قضم خاسار قطعة من الجلد على شفته، ونظر إلى كشيون على مستلهم منه شيئاً. هز شقيقه كتفيه.

قال كشيون متعباً: "ينبغي أن نتابع السير شرقاً. يتجه الرب الجانبى نحو الحصنين".

رد خاسار وهو يحذق إلى البعيد: "ربما هناك فرصة أخرى لمفاجأتهم من الخلف". لم يعد الرب مرئياً على بعد أكثر من عشرين خطوة فيما كانت الريح والثلج يعصفان بالمكان.

نكسه كشيون: "يريدنا جنكيز خلف تشن بأسرع ما يمكن". راقب تاران الحديث مفتوناً، لكن كليهما تجاهلا الفتى.

قال خاسار: "لم يكن يعرف أن هناك درباً آخر يقود إلى خلف الحصنين. يستحق الأمر إلقاء نظرة عليه، على الأقل".

هز كشيون رأسه، غاضباً. "لدينا ليلة واحدة أخرى في هذا المكان المقفر، ثم سيتحرك عند الفجر. إذا ضعت، قد تتجمد حتى الموت".

نظر خاسار إلى وجه شقيقه الذي يبدو عليه القلق واليأس. "لاحظت أنك متأكد أنني سأسلك ذلك الرب. يمكنني إصدار أمر لك بسلوكه". تسلم كشيون. لم يكن جنكيز قد عين أي منهما قائداً وفكر أن ذلك خطأ عند التعامل مع خاسار.

قال بصير: "لا يمكنك ذلك. سأمضي قدماً، معك أو من دونك. لن أوقفك إذا أردت سلوك الطريق الآخر".

أوما خاسار مستغرقاً في التفكير. على الرغم من نبرة صوته الهادئة، إلا أنه كان يعرف المخاطر.

"سأنتظر هنا وأقود آخر ألف. إذا لم يكن الترب يقود إلى أي مكان، سأسرع بالعودة واتضم إليك في الليل". تصالفاً على عجل، ثم انطلق كثيرون وتارن مجدداً، وتركوا خاسار هناك لبحث الآخرين على إسراع الخطى.

كان عد تسعة آلاف رجل يمشون ببطء قد استغرق وقتاً أطول مما كان يعتقد. عندما أصبح آخر ألف في مرمى نظره، كان النهار قد شارب على نهايته. اقترب خاسار من محارب يترنح وأمسك به من كتفه، وصرخ لإسراع صوته في الريح.

قال: "تعالوا معي". من دون أن ينتظر رداً، خطا في الترب الآخر، وخلص تقريباً حتى رذفيه في ثلج جديد. لم يناقش الرجال المتعبون خلفه الأمر، وكل منهم خدر من الإرهاق والبرد.

من دون شقيقه ليتكلم إليه، أمضى كثيرون العديد من الساعات المتبقية من ضوء النهار صامتاً. كان تارن لا يزال يقودهم، على الرغم من أنه لم يكن يعرف الترب أكثر من أي منهم. كان الطريق إلى الأسفل أكثر وضوحاً على الطرف الآخر من الجبل، وبعد وقت طويل، بدا الجو أفضل. ترك كثيرون أنه لم يعد يلهث بقوة لملء رئتيه بالهواء، وعلى الرغم من أنه كان مرهقاً، إلا أنه شعر بأنه أقوى وعلى أهبة الاستعداد. انتهت العاصفة في الظلام واستطاعوا رؤية النجوم للمرة الأولى منذ عدة أيام، ساطعة وكاملة عبر الغيوم المتحركة.

بدأ أن البرد قد امتد عندما تقدم الليل، لكنهم لم يتوقفوا، وأكلوا اللحم المقدد من جيوبهم ليمدّهم بالقوة. كانوا قد ناموا الليلة الأولى على المنحدرات، وجهز كل رجل حفرة لنفسه كما تفعل الذئاب. كان كثيرون قد تمكن من النوم بضع ساعات فقط وكان متعباً كثيراً. من دون أن يعرفوا مدى اقترابهم من جيش تشن، لم يكن ليجرؤ على السماح لهم بالراحة مجدداً.

بدأ السفح يصبح أقل انحداراً بعد بعض الوقت. كانت أشجار البتولا الشاحبة تختلط بالصنوبر الأسود، وتتمو بكثافة شديدة في بعض الأماكن حتى إنهم كانوا يسرون على أوراق ميتة بدلاً من الثلج. وجد كثيرون أن منظرها يبعث على الراحة، وأنها دليل على اقترابهم من نهاية رحلتهم. على الرغم من ذلك، لم يكن يعرف إن كانوا قد تجاوزوا جنود تشن، أم لا يزالون يمضون بموازاة معر بادر.

كان تاران يعاني أيضاً وراه كثيرون يحرك ذراعيه بشكل دائري بين القينة والأخرى. كانت تلك خدعة مستطعم قديمة لإرغام الدم على العودة إلى أطراف الأنامل حتى لا تتجمد وتصبح سوداء. قلّده كثيرون وأرسل أمراً على طول الصف لفعل الشيء نفسه. جعلته فكرة قيام صف من الجنود بتحريك أيديهم مثل أجنحة العصافير يضحك بصوت خافت، على الرغم من الألم الذي شعر به في كل عضلة.

ارتفع القمر بديراً وساطعاً فوق الجبال، وأضاء الرتل المتعب بينما كان يمشي مجهداً إلى الأمام. كانت القمة التي تسبقها عالية فوقهم، بمثابة عالم آخر. تسامح كثيرون عن عدد الرجال الذين سقطوا في الممرات العالية، وبقا هناك مثل فيسك. كان يأمل بأن يشعر الآخرون بضرورة حماية كائنات سهامهم قبل أن يغطيها الثلج. كان ينبغي أن يتذكر إصدار ذلك الأمر ودمدم غاضباً من نفسه بينما كان يمشي. كان بزوغ القمر لا يزال بعيداً، ولم يسهه سوى أن يأمل بالعثور على الطريق إلى جيش تشن قبل أن يهاجمه جنكيز. توارت الأفكار إلى ذهنه بينما كان يمشي بخطوات واسعة في الثلج، وركّز على خاسار لحظة، ثم على أولاده في المعسكر. أحياناً، كان يحلم كما لو أنه في خيمة دافئة وكان الأمر يتطلب حركة ما ليجد نفسه لا يزال يمشي. مرة، وقع وكان تاران من أسرع عائدات لمساعدته على النهوض. لن يدعوا شقيق الخان يموت على طرف الممر، وأخذ آخرون كئاشي سهامه^١ وكان ممثلاً لذلك على الأقل.

شعر كما لو أنه كان يمشي منذ وقت طويل عندما تجاوزوا صف الأشجار ورهض تاران أمامه. قلّده كثيرون القتي قبل أن يزحف إلى الأمام على ركبتيه اللتين تؤلمانه. خلقه، سمع لعنات مكتومة عندما ارتطم رجاله بعضهم ببعض في ضوء القمر، متبهِين من غفلتهم نتيجة التوقف المفاجئ. نظر كثيرون حوله بينما كان يزحف إلى الأمام. كانوا في منطقة ليست شديدة الانحدار، وبدا أن أمامهم وادياً أبيض رائعاً يمتد إلى ما لا نهاية. على الطرف الآخر، ارتفعت الجبال مجدداً بمنحدرات شاهقة وانتابه شك بأن يستطيع أي شخص تسبقها. إلى يساره، كان ممر بادغر ينتهي بمنطقة سهل كبير على بعد لا يتجاوز الميل. بدت رؤية كثيرون أكثر حدة من المعتاد في ضوء القمر ونظر عبر الفراغ، الجميل والقاتل. كان بحر من الخيام والرايات يمتد حتى نهاية الممر. ارتفع الدخان فوقه ليلاقي الضباب من القمم، وعندما عادت أحاسيس كثيرون إليه، شم رائحة الحطب المحترق في الجو.

تأوه لنفسه. كان قادة تشن قد جمعوا جيشاً عرمرماً لم يستطع رؤية نهايته. كان ممر بادغر ينتهي بسهل من الجليد والثلج، ويفسر تقريباً قاعدة القمم العالية قبل الطريق الذي يقود إلى مدينة الإمبراطور. على الرغم من ذلك، كان جنود تشن

يملاؤنه وينتثرون بعيداً حتى السهل خلفهم. كانت الجبال البيضاء تخفي مدى انتشارهم، لكن حتى مع ذلك، كان لديهم رجال أكثر مما كان كشيون قد رأه من قبل. لم يكن جنكيز يعرف عددهم وكان سيطلق ببطء عبر الممر بعد ساعات قليلة.

بنوبة خوف مفاجئ، تسامع كشيون عن إمكانية رؤية رجاله من المعسكر. لا بد أن مستطليعي تشن كانوا يجوبون المنطقة. سيكونون حرقى إن لم يفعلوا ذلك، وقد كان هناك مع رجل من المحاربين يمتد حتى يصل إلى المسلك الأبيض بين التلال. كانوا بحاجة لعنصر المفاجأة وكان قد تخلى عنه تقريباً. ربت على كتف تاران شاكرأ إياه على التحذير وابتسم الفنى سعيداً بذلك.

وضع كشيون خططه، وأرسل الأمر على طول الخط. كان الرجال خلفه سيتراجعون مسافة كافية حتى لا يكشف الفجر وجودهم لأعدائهم الذين يمتلكون عيوناً حادة. نظر كشيون إلى السماء الصافية وتمنى أن يتساقط المزيد من الثلج ليغطي آثارهم. كان الفجر يوشك أن يبرز وتمنى أن يكون خاسار قد وصل إلى برّ الأمان. ببطء وألم، بدأ صف المحاربين يتحرك عائداً على المنحدر إلى الأشجار التي تركوها خلفهم. لمعت في ذهن كشيون ذكرى عن طفولته عندما تساق جبالاً. كان قد اختبأ مع عائلته في جرف صخري في تلال وطنه، وكان الموت والتضور جوعاً قريبين دائماً. مرة أخرى، سيختبئ، لكنه سيخرج هذه المرة وهو يجار بصوت عالٍ وسيهجم جنكيز معه.

صمت، وتضرع إلى أب السماء أن ينجو خاسار وألا يتجمد حتى الموت على المنحدرات العالية، ضائعاً ووحيداً. عيس كشيون من الفكرة. لم يكن إيقاف شقيقه سهلاً. إن كان أحد سينجح في ذلك، فيكون خاسار.

• • •

مرّر خاسار بدأ جبهة وذهاباً فوق حنجرته، طالباً من الرجال خلفه أن يصمتوا. كانت العاصفة قد انتهت أخيراً واستطاع رؤية نجوم فوق رأسه، تبدو من خلال غيوم تتحرك في الجو. كان القمر بضوءه المفلوح المقررة ووجد نفسه على حافة حادة فوق منحدر شاهق. بقيت أنفاسه حبسة خلفه ورأى البرج الأسود لأحد حصني تشن تحته، أسفل قدميه تقريباً، لكنه معزول بفجوة من السواد فوق صخور حادة جداً لم يستقر عليها سوى القليل من الثلج. استقرت كتل صخرية كبيرة حول الحصن كانت قد انزلقت من الجبال وتسامع خاسار إن كان رجاله يستطيعون تنفيذ الهبوط الأخير. كان الحصن نفسه مبنياً على قمة تل يطل على الممر، وكان من دون شك مليئاً بالأسلحة

التي ستسحق أي شخص يمر عبره. إلا أنهم لن يتوقعوا هجوماً من الصخور التي تقع خلفهم.

كان هناك ضوء قمر على الأكل. عاد إلى حيث كان رجاله قد بدأوا يتجمعون. كانت الرياح قد هدأت حتى غدت نسمة رقيقة، وكان قادراً على نقل أوامره هساً، وبدأ بأن طلب منهم تناول الطعام ونيل قسط من الراحة في أثناء تمرير حبالهم إلى الأمام. كان الألف الأخير قد تلقى تدريباته على يد كشيون ولم يكن خاسار يعرفهم، لكن الضباط تقدموا إلى الأمام وأومأوا برؤوسهم فقط عندما سمعوا الأوامر. انتشر الأمر بسرعة وبدأت أول مجموعة مؤلفة من عشرة أشخاص ربط الحبال معاً ولقها قرب الحافة. كانت باردة وأيديهم لا تحسن التعامل مع العقد، مما جعل خاسار يتساءل إن كان يرسلهم إلى حتفهم.

هسس للمجموعة الأولى: "إذا وقع أحدكم فليبق صامتاً. إن صرختم، فستوقعون الحصن تحتنا. قد تتجون حتى إذا سقطتم على الثلج الكثيف". هسس واحد أو اثنان منهم عند سماع ذلك، ونظرا من فوق الحافة وهزاً رأسيهما.

قال خاسار: "سأذهب أولاً". نزع قفازيه المصنوعين من القرو وفزع من البرد عندما أمسك بالحبل الثمين. كان قد تسلق منحدرات صخرية أسوأ، كما قال لنفسه، على الرغم من أن ذلك لم يحدث عندما كان متعباً أو يشعر بالبرد. رسم تعبير ثقة بالنفس على وجهه بينما كان يتأرجح على الحبل. كان الضباط قد ربطوا الحبل إلى جذع شجرة بتولا سقطت منذ زمن بعيد وكانت تبدو صلبة. استند خاسار إلى الحافة وحاول ألا يفكر في الفجوة خلفه. كان واثقاً ألا أحد يمكنه النجاة منها.

قال بينما كان يمضي قدماً: ليس أكثر من ثلاثة رجال على الحبل". دفع نفسه بعيداً قدر استطاعته، وبدأ الهبوط على الصخر المتجمد. "اربطوا بعض الحبال الإضافية معاً وإلا سيغرق نزولنا الليل بأكمله". كان يصدر الأوامر لإخفاء توتره، وأرغم نفسه على إظهار الوجه البارد ليخفي خوفه. اجتمعوا حول الحافة لمراقبته، حتى تجاوزها أخيراً وبدأ الهبوط إلى الأسفل. بدأ أقرب الرجال يربطون المزيد من الحبال معاً للسماح بنزول رجل آخر وأوماً أحدهم إلى أصدقائه واستلقى على بطنه لتثبيت الحبال التي تهتز وكان يمسك بها خاسار. اختفى هو أيضاً من فوق الحافة.

انتظر جنكيز بنفاد صبر بزوغ الفجر. كان قد أرسل مستطلعين إلى أبعد مكان يمكنهم الوصول إليه في الممر، لهذا عاد بعضهم وسهام مغروسة في دروعهم. كان آخرهم قد عاد إلى المعسكر عند غروب الشمس، وسهمان ببرزان من ظهره. كان

أحدهما قد نفذ من الحديد الخارجي وترك شريطاً من الدم يلطّخ قتميه وقاتمّي جواده الخلفيتين. سمع جنكيز تقريره قبل أن يتم الاعتناء بجروح الرجل، فقد كان بحاجة للمعلومات.

كان قائد تشن قد ترك الممر مفتوحاً، قبل أن يتراجع المستطلع نتيجة عاصفة السهام التي واجهها، كان قد رأى حصنين كبيرين بلوحيان فوق قطعة من الأرض تحتها، لم يكن جنكيز يشك بأن الجنود داخلهما كانوا مستعدين لإرسال الموت إلى أي شخص يحاول شق طريقه بالقوة. كانت حقيقة أن الممر غير مغلق تثقله. كان ذلك يوحي بأن القائد يريد منه أن يشن هجوماً مباثراً وكان واثقاً أنه يمكن دفع جيش المغول إلى حيث يوجد رجاله وسحقهم في منطقة ضعفهم.

عند بدايته، كان الممر بعرض ميل، لكن تحت الحصنين، كانت الأسوار الصخرية تضيق إلى مسافة لا تزيد عن بضع عشرات الخطوات. كانت حتى فكرة أن تتم محاصرتهم هناك ويصبحوا غير قادرين على شن هجوم تجعل معدة جنكيز تستقلص، ولهذا أبعداها عن ذهنه حالما خطرت له. كان قد فعل كل ما يستطيعه وسيهاجم شقيقه حالما تصبح الرؤية كافية للتصويب، لم يكن يستطيع إعادتهما إليه، حتى إذا وجد خطة أفضل في اللحظات الأخيرة. كانا ضالعين بالنسبة إليه، تخفيهما الجبال والتلوج.

كانت العاصفة قد هدأت على الأقل. نظر جنكيز إلى النجوم، التي كانت تكشف الحشد الكبير من الأسرى الذين ساقهم إلى بداية الممر. كانوا سينطلقون في مقدمة جيشه، ويتلقون سهام رماة تشن. إذا خرج من الحصنين زيت ناري، سينحمل الأسرى الحروق التي ستجتم عن ذلك.

كان الهواء شديد البرودة في الليل، لذلك لم يستطع النوم وسحب أنفاساً عميقة، وشعر بالصقيع يدخل رنتيه. لم يكن القجر بعيداً، قلب خططه مرة أخرى، لكن لم يكن هناك شيء آخر ليفعله. كان رجاله مستعدين تماماً، وأفضل مما كانوا عليه منذ شهور. كان أولئك الذين سيقودون الرجال إلى الممر محاربين متمرسين يرتدون دروعاً جيدة. كان قد زود الصفوف الأولى للرجال بالرماح، لمساعدتهم في دفع الأسرى إلى الأمام. كانت ذئاب تسوبودي الفتية ستسير خلفهم، ثم محاربو أرسلان وجيلم. كانوا عشرين ألفاً لأن يهربوا مهما حمي وطيس المعركة.

شهر جنكيز سيف والده، ورأى قبضة رأس الذئب تلمع في ضوء النجوم. لوح به في بده، وجار بينما كان يفعل ذلك. كان المعسكر صامتاً من حوله، على الرغم من وجود عيون تراب دائماً. كان قد أخضع جسده لتدريب علمه إياه أرسلان لتأمين

عضلاته وجعله قوياً. كان الراهب ياو شو يدرّب أبناءه بشكل مماثل، وبقي أجسادهم مثل أي أداة أخرى. تعرق جنكيز بينما كان يستعمل سيفه على تلك الحال. لم يكن بسرعة الضوء كما كان من قبل، لكن قوته كانت قد ازدادت وكان لا يزال رشيقاً على الرغم من ندوب الحديد من الجروح القديمة.

لم يكن يرغب بالانتظار حتى الفجر. فكّر في العثور على امرأة، وكان يعرف أنها ستساعد على حرق بعض من طاقته الملتببة. ستكون زوجته الأولى بورت نائمة في الخيمة، محاطة بأبنائه. كانت زوجته الثانية لا تزال ترضع ابنتهما الصغيرة. عند ذلك أشرق وجهه.

أغمد سيفه بينما كان يمشي بخطوات واسعة عبر المعسكر إلى خيمة تشاكاكي، التي كانت تتنصب في مكانها. ضحك بصوت خافت بينما كان يمشي. امرأة داخلة ومركة قادمة. كانت الحياة في مثل تلك الليلة أمراً رائعاً.

في خيمته، كان القائد زهي زهونغ يرتشف كوباً من شراب الأرز الساخن، وقد جفاه الكرى. كان الشتاء قد أطبق على الجبال واعتقد أنه يستطيع قضاء أبرد الشهور في الميدان مع جيشه. لم تكن تلك فكرة تبعث على السرور. كان لديه أحد عشر ابناً مع ثلاث زوجات في ينكينغ، وعندما كان في الوطن، كان هناك دائماً شيء يشتت انتباهه. اكتشف أن رثابة حياة المعسكر مريحة مقارنة بما كان يحدث، ربما لأنه كان قد اختبره طيلة حياته. حتى هناك في الظلام، كان يسمع تسمية كلمات السر عند تغيير الحراس وشعر بشيء من الطمأنينة. لطالما كان النوم يداعبه ببطء وكان يعرف أن جزءاً من أسطوريته بين الرجال أن يبقى مستيقظاً ليلة بعد أخرى، وأنواء المصاييح ظاهرة عبر القماش السميك لخيمة القيادة. كان ينام أحياناً والمصاييح لا تزال مشتتة، لكن الحراس كانوا يعتقدون أنه لا يحتاج إلى الراحة مثلهم. كان يعتقد أن زيادة دهشتهم ليس بالأمر السيئ. كان الرجال بحاجة لتلك لا تظهر عليه أي من علامات ضعفهم.

فكّر في الجيش الكبير حوله والاستعدادات التي كان قد أجراها. كانت أفواج حملة السيوف والرماح تفوق لوحدها محاربي المغول عدداً. كان إطعام مثل ذلك العدد الكبير يعني ببساطة إفراغ مخازن ينكينغ. لم يكن بمقدور التجار سوى التحيب غير مصطنعين ما يروونه عندما عرض عليهم الوثائق التي كان الإمبراطور قد وقّعها. جعلته الذكرى ييشم. كان باعة الحبوب البدينون أولئك يعتقدون أنهم قلب المدينة. كان مسلحاً بالنسبة لزهي زهونغ أن يذكرهم بمكمن القوة الحقيقية. من دون الجيش، لم تكن بيوتهم القفحة تساوي شيئاً.

كان إيطعام مئتي ألف رجل كل الشتاء سبحانه المزارعين إلى مسؤولين على بعد ألف ميل شرقاً وجنوباً. هزّ زهي زهونغ رأسه عندما خطرت له تلك الفكرة، وكان ذهله مشغولاً للغاية بالتفكير في محاولة النوم. ما الخيار الذي لديه؟ لم يكن أحد يقاتل في الشتاء، لكنه لا يستطيع ترك الممر من دون حراسة. حتى الإمبراطور الشاب يفهم أنه قد تنقضي شهر قبل أن تتدلع المعركة. عندما يأتي المغول في الربيع، سيكون لا يزال هناك. تسأل زهي زهونغ مرتاحاً إن كان خاتمهم يعاني من مشكلات النموين نفسها التي يعاني منها. كان يشك بذلك. ربما كان رجال القبائل يأكلون بعضهم ويعتبرون ذلك شيئاً.

ارتعش عندما تسأل هواء الليل البارد إلى خيمته، وشذّ بطائياته حول كتفيه الضخمين. لم يكن شيء قد بقي على حاله منذ توفي الإمبراطور العجوز. كان زهي زهونغ قد منح ولاءه المطلق للرجل الذي يوفر. في الحقيقة، كان العالم قد اهتز عندما توفي أخيراً، وقضى الأمر بينما كان نائماً بعد مرض طويل. هزّ رأسه، حزناً. لم يكن الابن مثل الأب. بالنسبة لجيل القائد، لم يكن هناك سوى إمبراطور واحد. كانت رؤية شاب يفكر للخبرة على عرش الإمبراطورية تهش أسس حياته بأكملها. كانت تلك نهاية حقبة وربما كان ينبغي عليه أن يتقاعد مع موت الرجل العجوز. كان ذلك رد فعل مناسب ويستحق التقدير. بدلاً من ذلك، كان قد تريت قليلاً ليرى تنصيب الإمبراطور الجديد ثم جاء المغول. لم يكن التقاعد ليتحقق قبل سنة أخرى، على الأقل. كثر زهي زهونغ عندما وجد البرد طريقه إلى عظامه. تذكر أن المغول لا يشعرون بالبرد. كان يبدو أنهم قادرين على تحمله مثل ثعب بري، من دون شيء يحميم سوى طبقة وحيدة من الفراء فوق جلودهم العارية. كانوا يثيرون الشمزازة. لم يكونوا يبنون شيئاً، أو يحققوا شيئاً خلال حياتهم القصيرة. كان الإمبراطور القديم قد أنقاهم في مكانهم، لكن العالم قد تغير وقد تجرأوا الآن على تهديد بوابات المدينة العظيمة. لن يرحمهم عندما تنتهي المعركة. إذا سمح لرجالهم بالعبث كما يحلو لهم في معسكرهم، فمن يبقى من القبائل سيربي ألف طفل ستلده نساوهم بعد فترة. لن يسمح لهم بالتوالد مثل القمل لتهديد بتكسب مجداً. لن يرتاح حتى يقع آخرهم ميتاً وتصبح الأرض خالية. سيحرقهم جميعاً، وفي المستقبل، إذا تجرأ عرق آخر على الوقوف ضد تشن، ربما سيتكرر المغول ويتخلص من مكانه وطموحاته. كان ذلك رد الفعل الوحيد الذي يستحقونه. ربما تكون تلك هي الأسطورة التي سيركها عندما يتقاعد، والنار الدموية والتهاني الذي ستتردد أصدائه عبر القرون القادمة. سيكون الموت لأمة بأكملها. كان الخلود من نوع ما هي الفكرة التي لمعته. توارث الأفكار في ذهنه عندما كان المعسكر نائماً. قرر أن يترك المصايح مشتعلة وتسأل إن كان سينام على الإطلاق.

عندما ظهرت خطوط الفجر الأولى خلف الجبال، نظر جنكيز إلى الغيوم التي
لقت القمم العالية. كانت السهول في الأسفل لا تزال غارقة في الظلام وشعر بخفقان
قلبه يزداد لرؤية ذلك المشهد. كان جيش الأسرى الذي سينفعه عبر الممر يلتزم
الصمت. كان شعبه قد تجتمع خلف فرسانه، وأيديهم تمسك بالرماح والأقواس
منتظرين أمره. لم يكن سيبقى سوى ألف فقط في الخلف لحماية النساء والأولاد في
المعسكر. لم يكن هناك أي خطر. سيتم التصدي لأي تهديد على السهول وسحقه.
شد جنكيز يديه على لجام جواده البني. عند أول إشارة على بزوغ الفجر، بدأ
الفتيان بقرع الطبول ووصل صوت الحرب إلى أذنيه. انظر ألف منهم في صفوف
مع طبول مربوطة إلى صدورهم. ترددت أصدااء الصوت الذي صدر عنهم عن
الجبال وجعلت نبضه يتسارع. كان شقيقاه في مكان ما متقدم، متجمدين تقريباً بعد
رحلتهم عبر الجبال العالية. كانت تقع خلفهم المدينة التي نثرت بذور تشن بين شعبه
طيلة ألف سنة، ترشوهم وتذبذبهم مثل قطيع من الكلاب عندما ترى ضرورة لذلك.
ابتسم لنفسه من تلك الصورة، متسائلاً عن مكانة ابنه جوشي فيها.
كانت الشمس مخفية عندما ارتفعت فوقهم، ثم خلال لحظة، أضاء السهول لون
ذهبي وشعر جنكيز بالدفء بمس وجهه. ارتفع بصره عن الأرض. لقد حان الوقت.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الثاني والعشرون



انتظر كشيون بينما كان الفجر يرسم ظلالاً من الأشجار . كان جنكيز سيتحرك عبر المر بأسرع ما يستطيع، لكن الوصول إلى جيش تشن الرئيسي سيستغرق منه بعض الوقت. كان الرجال حول كشيون يقومون بتجهيز أقواسهم ويفكّون السهام المربوطة بإحكام في كتفاتهم. كان اثنا عشر رجلاً قد لقوا حتفهم في الممرات العالية، وانفجرت قلوبهم في صدورهم فيما كانوا يلهثون في الهواء الرقيق. كان ألف آخرون قد ذهبوا مع خاسار. حتى من دون هؤلاء، كان لا يزال ممكناً إطلاق تسعمئة ألف سهم على عدوهم عندما يحين الوقت.

كان كشيون قد بحث من دون جدوى عن مكان لا تكون فيه صفوف الرجال مرئية لتشن، لكنه لم يجده. سيكون رجاله مكتوفين في الوادي، وليس لديهم سوى وابل من السهام لصّد أي هجوم عليهم. فامتعض كشيون من تلك الفكرة.

وبالكاد كان النشاط قد دب في معسكر تشن في برد الفجر. كان الثلج قد أزال علاماتهم الفارقة هناك، وبدأت الخيم الباهتة جميلة ومتجمدة، والمكان هادئاً لا يوحى بعدد الرجال المقاتلين داخله. كان كشيون يفتخر بحدة بصره، لكن لم يكن هناك إشارة على أن جنكيز قد تحرك أخيراً. تغير الحراس عند الفجر، واتجه المئات منهم عائدين إلى خيامهم لتناول الطعام والنوم فيما تركز آخرون في مكانهم. لم يكن الذعر قد دبت فيهم بعد.

كان كشيون قد شعر باحترام مزوج بالضعيفة للقائد الذي نظم المعسكر البعيد. قبل الفجر تماماً، تم إرسال فرسان لاستطلاع الوادي، وساروا على امتداده إلى الجنوب قبل أن يعودوا. كان واضحاً أنهم لا يتوقعون أن يكون العدو قريباً، وكان كشيون قد سمعهم يتنادون في أثناء انطلاقهم، من دون أن ينظروا إلى القسم وسفوح الجبال. لا شك أنهم كانوا يعتقدون أنها مهمة سهلة أن يقضوا الشتاء داخلين مطمئنين، محاطين بذلك العدد الكبير من السيوف.

فزرع كثيرون عندما ربت أحد الضباط على كتفه ودفع بشطيرة من اللحم والخبز في يده. كانت دافئة ورطبة نتيجة التصاقها بجذ شخص ما، لكن كثيرون كان قلقاً وأوماً فقط شاكرين فيما كانت أمثاله توضع فيهم. كان سيحتاج إلى كل قوته. حتى بالنسبة لرجال كانوا قد ولدوا مع قوس، كان رمي مئة قوس بسرعة كبيرة سينترك أكتافهم وأنزعهم تضحك أليماً. همس بأمر للرجال لتشكيل ثنائيات في أثناء انتظارهم، والاستفادة من ثقل الشخص الآخر لتثبيت العضلات وإبقاء البرد بعيداً. كان المحاربون كلهم يعرفون فائدة مثل ذلك العمل. لم يكن أحدهم يرغب بأن يفشل عندما تحين اللحظة. كان معسكر تشن لا يزال هادئاً، ابتلع كثيرون آخر قطعة خبز بعصبية، وملاً فيه بالسلاح حتى أصبح رطباً بما يكفي لينزلق الطعام عبر حلقة. كان عليه توقيت هجومه بشكل ممتاز. إذا انطلق قبل أن يصبح جنكيز تحت الأنظار، فسيتمكن قائد تشن من تحويل جزء من جيشه الضخم لسحق رماة كثيرون. إذا تأخر في ذلك، سيفقد جنكيز ميزة الهجوم الثاني وربما يلقى حتفه.

بدأت عينا كثيرون تولمسه من جهد التحديق إلى مسافة بعيدة. لم يكن بجرؤ على النظر بعيداً.

بدأ الأسرى يتأوهون عندما تحركوا نحو الممر، مستشعرين ما ينتظرهم. كانت الصفوف الأولى من الفرسان المغول تسد طريق العودة ولهذا لم يكن لديهم خيار سوى الهرولة إلى الأمام. رأى جنكيز بعضاً من الشباب يندفعون بين اثنين من محاربيه، راقت آلاف العيون محاولة الهرب باهتمام شديد، ثم انشأحت بأبصارها عندما تم قطع رؤوس الرجال بضربات سريعة.

تردنت أصدااء الطبول، والجياد والرجال، من الأسوار العالية للممر عندما دخلوا إليه. بعيداً في الأمام، كان مستطعمو تشن يتسابقون عائدين يحملون الأنباء لقائدهم. كان العدو سيعرف أنه قادم، لكنه لم يكن يعتمد على المفاجأة.

مشى حشد الأسرى مجيهاً إلى الأمام على الأرض الصخرية، ينتظر برعب الإشارة الأولى من رماة تشن. كان التقدم بطيئاً مع وجود أكثر من ثلاثين ألف رجل يمشون أمام فرسان المغول وقد وقع بعضهم، واستلقوا مرهقين على الأرض عندما وصل إليهم الفرسان. طعنوا أيضاً بالرمح سواءً قاتلوا أم لا. تم حث الآخرين على المضي قداماً بصرخات حادة من رجال القبائل، كما لو أنهم يزعمون ويصيحون على ماعز في الوطن. كان الصوت المألوف غريباً في مثل ذلك المكان. ألقى جنكيز نظرة أخيرة على صفوفه، ولاحظ موقع قائده الموثوقين قبل أن يفتح بتوق إلى الأمام. كان طول الممر ميلين ولان يستدير عائداً.

رأى كشيون حركة تنسم بالذعر في معسكر تشن أخيراً. كان جنكيز يتحرك وكان التبا قد وصل إلى الرجل في القيادة. قاد الفرسان جيادهم خيلاً بين الخيام، وكانت تلك أفضل الجياد التي يراها كشيون حتى ذلك الوقت. ربما كان الإمبراطور يحتفظ بأفضل السلالات لجيشه الإمبراطوري. كانت الجياد أكبر من الجياد التي يعرفها وتلمع في شمس الفجر بينما كان فرسانها ينتظمون بالتشكيل في مواجهة ممر بادغر.

استطاع كشيون رؤية أفواج من حملة الأقواس والرماحين يسرعون إلى الصفوف الأولى وقد فزع من عددهم الكبير. قد يتلع مثل ذلك الحشد الضخم شقيقه في هجوم واحد. كان تكتيكة المفضل في تطويق العدو مستحلاً في ذلك المكان الضيق.

استدار كشيون إلى الرجال خلقه ووجد أنهم يحذقون اتجاهه، ينتظرون الكلمة. "عندما أصدر الأمر، اخرجوا من أماكنكم مسرعين. سنشكل ثلاثة صفوف عبر الوادي، ونقترب منهم قدر المستطاع. لن نستطيعوا سماعي من صوت الأقواس، لهذا أصدرنا أمراً بإطلاق عشرين سهماً ثم التوقف. سائق وأقوم بإزالة ذراعي لإطلاق عشرين أخرى."

قال رجل من وراء كتفه، وهو يحرق إلى ما وراء كشيون: "فرسانهم منزعجون. سيسحقوننا". كانوا جميعاً فرساناً. كانت فكرة وقوفهم وحيدتين ضد هجوم تنافي كل ما كانوا يعرفونه.

قال كشيون: "لا، لا شيء في العالم يمكنه أن يقف أمام شعبي المسلح بالأقواس. ستجعل السهام العشرون الأولى الذعر يندب بينهم، ثم سنتقدم. إذا هجموا علينا، وسيفعلون ذلك، سنضع سهماً طويلاً في حجرة كل رجل."

نظر مجدداً إلى وادي معسكر تشن. كان يبدو أنذاك كما لو أن شخصاً وكل جحر نمل. كان جنكيز قائماً.

نتم كشيون: "انقلوا الأمر ليكون الرجال مستعدين". سال العرق على جبينه. كان ينبغي أن يكون تقديره ممتازاً. "سننتظر قليلاً. عندما ننتقل، سنتطرق مسرعين."

في منتصف الطريق تقريباً داخل الممر، وصل الأسرى إلى مواقع رماة السهام الأولى. كان جنود تشن قد اتخذوا مواقع على مصاطب صخرية على ارتفاع خمسين قدماً فوق الأرض. رآهم الأسرى أولاً وابتعدوا عن الجانبين، وتباطأ الجميع عندما تمركزوا في الوسط. كانت إصابات جنود تشن محققة وأرسلوا سهماً تظن على الحشد. عندما تعالت الصرخات، رفعت الصفوف الثلاثة الأولى مع جنكيز أقواسها.

كان كل منهم يستطيع إصابة جناح طائر، أو ثلاثة رجال في صف وهو يقود فرساً تعدو بأقصى سرعتها. عندما أصبحوا في نطاق الرمي، اندفعت سهامهم في الهواء. وقع الجنود على رؤوس أولئك المارين في الأسفل. ترك المحاربون الصدوح الدامية خلفهم وتابعوا طريقهم بعد أن أرغموا الأسرى الذين ينتحبون على الهرولة. ظهرت الثغرة الأولى بين صدعين صخريين كبيرين بعد مسافة قصيرة داخل الممر. تدافع الأسرى نحوها، وترنحوا وهم يركضون بينما كان المغول يصرخون بوجوههم ويدفعونهم برماحهم. استطاعوا جميعاً رؤية الحصنين الكبيرين اللذين يهيمنان على الممر الوحيد بينهما. كانت تلك أبعد نقطة استطاع أي مستطلع رؤيتها قبل أن يعود أتراجه. بعد ذلك، كانوا على أرض جديدة ولم يكن أحد يعرف ما ينتظرهم.

كان خاسار يتصيب عرقاً. استغرق الأمر وقتاً طويلاً ليهبوط ألف رجل باستعمال ثلاثة حبال فقط، وكلما كان المزيد منهم يصل سالماً إلى الأرض المنبسطة، كان ذلك يفره بأن يترك الآخرين. كان الثلج صيقاً بما يكفي ليفوص الرجال حتى وسطهم عندما يتحركون ولم يعد يعتقد أن ذلك أن الرب كان مسلك صيد للرجال في الحصن، إلا إن كان لم ينتبه إلى درجات محفورة في الصخور. كان رجاله قد اكتشفوا طريقهم إلى مؤخر الحصن، لكن في الظلام، لم استطع رؤية طريق للدخول إليه. مثل نظيره إلى الجانب الآخر من الممر، كان الحصن مصمماً ليكون متيناً على أي شخص يعبر ممر بادغر. وفقاً لما يعرفه، كان يتم سحب أولئك الذين يتسكنون من ذلك إلى الأعلى بالحبال.

كان ثلاثة من رجاله قد وقعوا في أثناء نزولهم، وعكس كل التوقعات، كان أحدهم قد نجا بعد أن هبط على كتلة ثلج عتيقة وكان يليغي بمرافقي المحارب المذهول أن يسارعوا لإخراجه من ذلك المكان. لم يكن الأخران محظوظين واصطدما بصخور مكشوفة. لم يصرخ أي منهما وكان الصوت الوحيد المسموع هو نعيب يوم الليل العائد إلى أعشاشه.

عندما بزغ الفجر، كان خاسار قد نقل الرجال عبر الثلج الكثيف، وكان أولهم يحقق تقدماً بطيئاً وهم يخوضون فيه. لاح الحصن أسود فوق رؤوسهم ولم يكن بوسع خاسار سوى أن يطلق اللعنات محيطاً، مقتنعاً أنه كان قد فصل عشر قوة كشيون دونما سبب وجيه.

عندما وصل إلى درب على مساره، شعر بالاثارة. بالقرب منه، وجدوا كومة كبيرة من الحطب، مخفية عن الممر في الأسفل. كان يبدو منطقياً أن يحصل محاربو

تشن على الحطب من المنحدرات الصخرية خلفهم، ويكتمونه لاستعماله في الشتاء الطويل. وجد أحد رجال خاسار فأساً طويلة اليد مخفية في الحطب. كان النصل مطلياً بالزيت ولا تظهر عليه سوى بقع من الصدأ. ابشم عندما رآها، وعرف أنه لا بد من وجود طريق للدخول إلى الحصن.

تجمد خاسار مكانه عندما سمع وقع أقدام وأصوات عويل الأسرى من بعيد. كان جنكيز قائماً وكان لا يزال في موقع لا يمكنه فيه مساعدة شقيقه. قال للرجال حوله: "لا مزيد من الحذر. ينبغي أن ندخل إلى ذلك الحصن. تقدموا إلى الأمام واعتروا على الباب الذي يستعملونه لإختال الحطب". اندفع مسرعاً ثم لحقوا به، يرفعون سيوفهم وأقواسهم في أثناء ذلك.

كان القائد زهي زهونغ في وسط دوامة من المبعوثين الذين يركضون من حوله، ويصدرن أوامره بالسرعة التي يتلقى بها الأبناء. لم يكن قد نام، لكن ذهنه كان يتقد طاقة وسخطاً. على الرغم من أن العاصفة قد انتهت، إلا أن الهواء كان لا يزال شديد البرودة والجليد يمتد على أرض المر ويغطي المنحدرات حوله. كانت الأراضي المتجمدة ستجعل السيوف تنزلق. كانت الجياد ستقع وسيشعر كل رجل هناك بأن البرد يسمق قوته. نظر القائد بكابة إلى حيث كان حطب الطهي معداً لكن أحداً لم يشعله بعد. كان سيأمر بتحضير الطعام الساخن، لكن الإنذار انطلق قبل أن يأكل جيشه ولم يكن لديه وقت لذلك آنذاك. لا أحد يذهب إلى الحرب في الشتاء، كما حدث نفسه، وسفر من اليقين الذي شعر به في الليل.

كان قد استقر عند نهاية المر طيلة شهور بينما نهب جيش المغول الأراضي التي خلفه. كان رجاله مستعدين. عندما يصبح المغول ضمن المدى، سيتلقون ألف سهم كل عشر دقائق للقلب وكانت تلك هي البداية فقط. ارتعش زهي زهونغ عندما هبت الريح، وعصفت بالمعسكر. كان قد أحضرهم إلى المكان الوحيد الذي لا يمكنهم فيه استعمال تكتيكات حرب السهول. كان مرر بلاذغر سيحرس جناحي الجيش أفضل من أي قوة من الرجال. ليأتوا، كما اعتقد.

نظر جنكيز شزراً إلى الأمام عندما تنفخ الأسرى تحت الحصنين. كان المرر مزدحماً بالرجال البعيدين جداً عن قومه وبالكاد كان يستطيع رؤية ما يحدث. من بعيد، سمع صرخات تعود مع الهواء المتجمد ورأى نيراناً تندلع فجأة. كان الأسرى في الخلف قد رأوها أيضاً وترنحوا في الحشد المجنون أمام فرسانه، خائفين. من دون

أمر منه، نزلت الزماح وأرغمتهم على التحرك إلى الأمام نحو الفتحة بين الحصنين، بغض النظر عن الأسلحة التي يمتلكها تشن، كان من الصعب إيقاف ثلاثين ألف أسير. كان بعضهم قد تجاوز الثغرة آنذاك واندمعوا وراءها، انقطع جنكيز على جواده وكان يأمل فقط بأنه في الوقت الذي يصبح فيه تحت الحصنين، سيكون جنود تشن قد استنفدوا زيتهم وسهامهم. استلقت الجثث ساكنة على الأرض، وكان هناك المزيد منها كلما القرب من المكان الضيق.

فوق رأسه، رأى جنكيز رماة على الحصنين، لكن لدهشته، كان يبدو أنهم يسددون على الممر نفسه، يطلقون سهماً إثر آخر على رجالهم. لم يفهم الأمر وسيطر القلق على أفكاره من ذلك التطور. على الرغم من أن الأمر بدا هدية، إلا أنه لم يكن بحسب المفاجآت عندما يدفع إلى مثل ذلك المكان. شعر بالأسوار الصخرية تضغط عليه، وترغمه على متابعة الطريق.

سمع بالقرب من الحصنين ضربات مكتومة لمنجنيقات، وكان ذلك صوتاً يعرفه جيداً ويفهمه. رأى سحابة دخان تنتشر في الهواء فوق الممر واندلعت النيران فوق أسوار الحصن إلى يمينه. سقط الرماة محترقين من منصاتهم وتعالى الهتافات من الجانب الآخر. شعر جنكيز بقلبه يقفز من مكانه. لم يكن هناك سوى تفسير واحد وجار بأوامر لتقليص عرض الرتل حتى يمر من الطرف الأيمن لممر بادر، بعيداً عن اليسار قدر ما يستطيع أفرادهم.

كان كثيرون أو خاسار قد استولى على الحصن. أيًا يكن الشخص الموجود في الأعلى، سيكرمه جنكيز عندما تنتهي المعركة، إذا بقي كلاهما على قيد الحياة.

كانت الكثيرون من الجثث تستلقي على أرض الممر، لهذا كان على جواده أن يخطو عليم. وصهل بانزعاج. شعر جنكيز بقلبه يخفق خوفاً عندما اعترض ظل وجهه. كان أسفل الحصنين تقريباً، في قلب منطقة القتل التي صممها نبلاء تشن منذ أمد طويل. كان آلاف من أسراهم قد ماتوا وكانت هناك أماكن يصعب رؤية الأرض فيها من الجثث. على الرغم من ذلك، كانت طليعة جيشه المرهقة قد اندفعت إلى الأمام، وأفرادها يركضون آنذاك مطلقين صرخات مرعبة. لم تكن قبائل المغول نفسها قد خسرت رجالاً واحداً وتهلّل جنكيز فرحاً. مر أسفل الحصن إلى الجهة اليمنى، وصرخ عالياً بأفراد قومه الموجودين فيه والذين كانوا قد شقوا طريقهم بالقوة إليه. لم يكونوا يستطيعون سماعه، وبالكاد استطاع سماع نفسه.

انحنى إلى الأمام على السرج، يريد أن يبحث فرسه على الجري عنواً. كان من الصعب جعل جواده يهرول والسهم في الجو، إلا أنه سيطر على نفسه، ورفع يداً

مبسوطة الكف لجعل الرجال يلقون في أماكنهم. كان أحد الحصنين يحترق من الداخل، وألسنة اللهب تشتعل في فتحات الرماية. عندما نظر جنكيز إلى الأعلى، اتهازت منصة خشبية اشتعلت بها النيران، وسقطت على الأرض أسفلها. سهلت الجياد خوفاً وانفج بعضها إلى الأمام، تجزي في أعقاب الأسرى.

وقف جنكيز على السرج لينظر إلى الممر. ابتلع ريقه بعصبية عندما رأى خطأ داكناً يعبر نهايته. كان الممر هناك ضيقاً مثل الثغرة بين الحصنين، وبشكل دفاعاً طبيعياً ممتازاً. لم تكن هناك طريقة للمرور سوى بتدمير جيش إمبراطور تشن. كان الأسرى قد وصلوا عندها إلى هناك وسمع جنكيز أنذاك قرقعة وابل من السهام مثل الرعد، وكان صوتها عالياً في المكان المحصور لدرجة أنها أدت أذنيه مع كل ضربة.

انفج الأسرى يتخطون من خوفهم، والسهام تهمر عليهم بينما كان كل رجل يتلقى المزيد والمزيد من الضربات، ثم ينور ويتمزق إرباً وهو يسقط. ركضوا نحو عاصفة من النصال وكشف جنكيز عن أسنانه، وكان يعرف أن دوره سيأتي.

كان المبعوث القائد شاحباً من الخوف، ولا يزال يرتعش مما رآه. لم يكن شيء في حياته العسيلة حتى تلك اللحظة قد جعله مستعداً لرؤية مذبح الممر. قال: "لقد استولوا على أحد الحصنين أيها القائد، وحولوا المنجنيقات على الآخر".

نظر القائد زهي زهونغ بهتوء إلى الرجل، منزعاً من الخوف الذي أظهره. ذكر الرجل: "لا يمكن للحصنين سوى التخفيف من أعدادهم. سوفقهم هنا". بدا أن المبعوث يستمد الثقة من القائد الرصين وأخرج زهياً طويلاً. انتظر زهي زهونغ أن يسيطر المراسل على نفسه، ثم أشار إلى أحد الجنود القريبين منه.

قال: "خذ هذا الرجل واجلده حتى ينسلخ الجلد عن ظهره". فغر المبعوث فمه عندما سمع الأمر. "عندما يتعلم للشجاعة، يمكنك أن تترفق به، أو عندما يتلقى ستين ضربة بالعصا، أيهما يأتي أولاً".

أحس المبعوث رأسه خجلاً بينما كان يتم اقتياده بعيداً، وللمرة الأولى ذلك الصباح، أضحم زهي زهونغ وحيداً. أطلق لعنة بصوت خافت للحظة قبل أن يخرج من خيمته بخطوات واسعة، متعطشاً للمعلومات. كان يعرف أنذاك أن المغول يدفعون أسرى تشن أسامهم، وأنهم يتصدون للدفاعات بأفراد من شعبه. كان زهي زهونغ

يستحسن التكتيك بصمت، حتى عندما كان يفكر بطريقة لمواجهة. يمكن أن يكون عشرات آلاف الرجال غير المسلحين بخطورة جيش إذا وصلوا إلى خطوطه. سيسببون الإرباك لفرق رماة السهام التي كان قد نشرها على طول الممر. أمر جندياً ينتظر أن يرسل عربات جديدة من السهام إلى الجبهة وراقبه بينما كان يجري مبتعداً. كان الخان ذكياً، لكن الأسرى سيشكلون درعاً حتى يموتوا فقط وكان زهي زهونغ لا يزال واقفاً من نفسه. كان ينبغي على المغول أن يقاتلوا من أجل كل قدم من دون وجود مساحة للمناورة، سيتم سحبهم ونبحهم.

انتظر، متسائلاً إن كان ينبغي عليه الاقتراب أكثر من جبهة القتال. من مكانه البعيد عنها، كان يستطيع رؤية دخان أسود يرتفع من الحصن المستولى عليه وأطلق اللعنات مجدداً. كانت خسارة مثله، لكن الإمبراطور لن يهتم عندما يموت آخر رجل من القبائل.

كان زهي زهونغ يأمل بقتل العديد منهم قبل أن يفتح الممر أمام جيشه، ويضغط عليهم أكثر. سوف يتسابقون إلى الأسام نحو الثغرة ويكتشفون أنهم عرضة للهجوم من كل جانب، وستضيع طليعة جيشهم في حشد من الجنود المتحرسين. كان ذلك تكتيكاً جيداً. كان البديل إغلاق الممر تماماً. كان قد خطط لكلا الأمرين ووازن بينهما. هذا نبض قلبه المتسارع، وأظهر أنه واثق من نفسه للرجال من حوله. بيد ثابتة، تناول دورق ماء وسكب كوباً، وأخذ يرتشف بينما كان يحثق إلى الممر.

من طرف عينه، رأى حركة في الوادي المغطى بالثلج. نظر إلى هناك وتجمد للحظة. كانت خطوط داكنة من الرجال تخرج من بين الأشجار، تشكل صفوفاً بينما كان يراقب ما يجري.

ألقى زهي زهونغ الدورق جانباً بينما كان المبعوثون يتسابقون عبر المعسكر لينقلوا إليه آخر التطورات. لم يكن من الممكن تسليق القمم. كان ذلك مستحيلاً. حتى في صدمته، لم يتردد، وأصدر أوامر قبل أن يصل المبعوثون إليه.

جار: لتنظيم فرق الفرسان من واحد إلى عشرين في التشكيل! حافظوا على الجناح الأيسر واكتسحوا تلك الصفوف. تسابق الفرسان لنقل الأوامر وبدأت نصف قوة فرسانه الانفصال عن الجيش الرئيسي. راقب تشكيل خطوط المغول، التي تخطو عبر الثلج نحوه. لم يسمح لنفسه بأن يشعر بالذعر. كانوا قد تسلقوا القمم سيراً على الأقدام وسيكونون مرهقين. سيفضي عليهم رجاله.

بدا أن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً من عشرين ألف فارس إمبراطوري لتشكيل صفوف على الجناح الأيسر، وعند ذلك، كانت خطوط المغول قد توقفت. شذ زهي

ز هونغ قبضتيه فيما كانت الأوامر تنتقل ذهاباً وإياباً على طول الصف وبدأ فرسانه يدفعون جيادهم للجري هرولة نحو العدو، الذي يقف في الثلج. لم يكن يستطيع رؤية أكثر من عشرة آلاف منهم، على الأكثر. لم يكن المشاة يستطيعون الوقوف ضد هجوم منضبط. سيتم تدميرهم.

فيما كان القائد يراقب، زاد فرسانه من سرعتهم، ورفعوا سيوفهم لتحصد رؤوساً. أرغم نفسه على النظر إلى الخلف إلى الممر، وفيه جاف. كانوا قد دفعوا الأسرى أمامهم، استولوا على أحد الحصنين والتفوا حوله من فوق القمم. إذا كان ذلك كل ما لديهم، سوف يستطيع على الرغم من ذلك تحطيمهم. للحظة، اهتزت ثقته بنفسه وفكر بإغلاق الممر. لا، لم يصل الأمر إلى ذلك الحد بعد. كان احترامه لخان المغول قد ازداد كثيراً، لكن القائد بقي واقعاً فيما كانت صرخات فرسانه تتردد في أنحاء الوادي.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الثالث والعشرون



على بعد تسعمئة خطوة، دفع فرسان تشن جيادهم للجري بأقصى سرعة. كان ذلك مبكراً للغاية، كما ظنّ كشيون. وقف بهدوء يراقب مع تسعة آلاف رجل كانوا برفقته. على الأقل لم يكن الوادي عريضاً جداً بحيث يمكن تطويقه بسهولة. كان يشعر بعصبية الرجال من حوله. لم يكن أحد منهم قد واجه أبداً هجوماً سيراً على الأقدام، وفهموا ما يشعر به عدوهم بالتأكيد. لمعت أشعة الشمس على دروع تشن والسيوف التي رفعها الفرسان، مستعدين لسحق الصف.

صرخ كشيون: تذكروا هذا! لم يقابلنا هؤلاء الرجال في الحرب من قبل. لا يعرفون ما يمكننا القيام به. سهم واحد لإيقاعهم أرضاً، ثم آخر لقتلهم. اختاروا رجالكم وعند إشارتي، أطلقوا عشرين!.

سحب قوسه إلى الخلف حتى أذنه، وشعر بقوة ذراعه اليمنى. كان قد تدرب طيلة سنوات لهذا الغرض، وقام ببناء عضلات حتى أصبحت مثل الحديد. لم تكن ذراعه اليسرى بقوة اليمنى وكانت كتلة العضلات على كتفه تجعله يبدو مائلاً عندما يكون عاري الصدر. شعر بالأرض تهتز بينما كان حشد الفرسان يقترب منهم. على بعد ستمئة خطوة، جال ببصره على صفوفه، وخاطر بإلقاء نظرة على الرجال في الخلف. كانوا قد شنوا أقواسهم، مستعدين لإرسال الموت إلى العدو. كان جنود تشن يصرخون في أثناء اقترابهم، وصوتهم يملأ الوادي ويصل إلى خطوط المغول الصامتة. كانوا مسلحين جيداً ويرتدون دروعاً ستحميهم من العديد من السهام. لاحظ كشيون كل تفصيل عندما اقتربوا بسرعة مخيفة. كان أبعد مدى للقتل أربعمئة يارد وتركهم يقتربون من دون التعرض لهم. على بعد ثلاثمئة يارد، رأى من طرف عينه أن رجاله ينظرون إليه، منتظرين أن يطلق سهمه.

عند منتهي يارد، كان صف الفرسان يشكل سوراً. شعر كشيون بالخوف يزداد داخله بينما كان يصدر أمره.

صرخ مزمجرأ بينما كان يطلق سهمه: "القضوا عليهم!". انطلق تسعة آلاف سهم في لحظة، تطلق في الهواء.

ترنح الهجوم كما لو أنه اصطدم بخندق. سقط رجال عن سروجهم ووقعت جباد. ارتطم أولئك الذين في الخلف بهم وجيادهم نعدو بأقصى سرعتها، وعند ذلك، وضع كثيرون السهم الثاني على الوتر وسحب للخلف. انطلق وابل آخر من السهام على الرجال المهاجمين.

لم يكن فرسان تشن يستطيعون التوقف، حتى إذا كانوا قد فهموا ما يجري. انهارت الصفوف الأولى وتلقى أولئك الذين عبروا بجيادهم فوقها موجة أخرى من السهام، وأصيب كل رجل بسهمين أو ثلاثة كانت تتطلق بسرعة لا يمكن معها رؤيتها. أفلت اللجاء من الأصابع، وحتى عندما أنقذهم الذراع أو الترس، إلا أن قوة الصدمة الكبيرة قذفت بهم إلى الأرض.

عد كثيرون بصوت عالٍ بينما كان يطلق السهام، مستهدفاً الوجوه المكشوفة لجنود تشن الذين كانوا يقتربون منه. عندما لم يكن يرى وجهاً، كان يصوب على الصدر ويعتمد على رأس النصل الثقيل ليخترق قطع الحديد. شعر بأن كثفيه بدأتاً تؤلمانه عندما وصل إلى السهم الخامس عشر. كان الفرسان المهاجمون قد استفادوا طاقاتهم ولم يقتربوا منهم. مذ كثيرون يده إلى الأسفل ووجد أنه قد استعمل عشرين سهماً.

صرخ، وهو يجري بهبط: "عشرون خطوة إلى الأمام، معي!". مشى رجاله معه، يسحبون حزاماً جديدة من السهام من كناناتهم. رآهم جنود تشن يتحركون وكان لا يزال هناك آلاف يكافحون عبر صفوف الموتى. كان العديد منهم قد سقطوا من دون أن يصابوا بجروح، وتعثرت جيادهم بالموتى والحيوانات النافقة. صرخ الضباط بأوامر لاعتلاء الجياد مجدداً وصاح الجنود عندما رأوا المغول يتقدمون إلى الأمام.

رفع كثيرون قبضة ذراعهم اليمنى فتوقف الصف. رأى أحد ضباطه يلطم شاباً بقوة كانت كافية لجعله يترنح.

قال الضابط بحدة: "إذا رأيتك تضرب جواداً آخر، سأقتلك بنفسي!". ضحك كثيرون بصوت خافت.

صرخ، وتردد الأمر على طول الصف: "عشرون أخرى! صوبوا على الرجال!". كان فرسان تشن قد تعافوا من انهيارهم الأول واستطاع رؤية ضباطهم يعتمرون خوذات عليها ريش يحثون جنودهم على التقدم إلى الأمام. سدد كثيرون على واحد منهم عندما استدار الرجل على جواده، يلوح بسيف في الهواء.

تسبعت تسعة آلاف سهم آخر ذاك الذي أطلقه كثيرون وأصاب الرجل في عنقه. عند ذلك المدى، كانوا يستطيعون انتقاء ضحاياهم وكان وابل السهام مدمراً. تحطمت الهجمة الثانية بفعل السهام التي أُرِثت في الجو وبدأ جنود تشن يشعرون بالذعر. استطاع بضعة رجال الخروج سالمين من تلك القوضى، والسهام تبرز من دروعهم. على الرغم من أن إصدار الأمر كان مؤلماً، إلا أن كثيرون جأروا: "الجيداء! للرجال من حوله وسقطت الجياد وقد تحطمت عظامها.

كانت عشرة سهام تنطلق كل ستين دفقة قلب ولم يكن هناك تأجيل. مات أكثرهم شجاعة بسرعة ولم يبق سوى الضعفاء والخائفين، وحاولوا الاستدارة بجيادهم للعودة إلى رجالهم. كانت الخطوط خلفهم مزدحمة بجياد سقطت بعد تلقيها السهام، وكان فرسانها معلقين على السروج والسهام تبرز من صنروهم.

كانت كتف كثيرون تؤلمه عندما أطلق سهمه الأربعين وانتظر حتى ينتهي الرجال حوله من ضرباتهم. كان الوادي أمامهم مليئاً بالدماء والموتى، وكانت هناك بقع حمراء من حوافر الجياد وأقدام الجنود في الثلج. لم تكن لديهم فرصة لشن هجوم آنذاك وعلى الرغم من أن ضباط تشن كانوا لا يزالون يصرخون بجنودهم لشق طريقهم بالقوة، إلا أنهم لم يكونوا يستطيعون القيام بذلك مرة أخرى.

جرى كثيرون إلى الأمام من دون إصدار أمر ولحق به رجاله. عذ عشرين خطوة، ثم ترك إثارته تتغلب على حكمه الصائب، ومشى عشرين خطوة أخرى حتى أضحي قريباً بشكل خطير من مجموعة من الرجال والجياد المنهارة. كانت مئة يارد فقط تفصل القوتين عندما ألقي كثيرون بعشرين سهماً آخر على الثلج الذي لم يمسه أحد وقطع العقدة التي تربطها معاً. انتحب جنود تشن خوفاً عندما رأوا ذلك وتم شد الأكواس مجدداً. كان الذعر ينتشر بين صفوفهم وأصابتهم المزيد من السهام مما جعلهم يتشتتون.

في البداية، كان الاضطراب بطيئاً ومات كثيرون كانوا يحاولون الهرب في أثناء دفعهم إلى الأمام من الخلف. أطلق المغول بشكل منهجي على أي شيء يمكنهم رؤيته. سقط الضباط بسرعة وصرخ كثيرون بصوت عالٍ عندما رأى الاضطراب ينتشر. تنحى أولئك الذين لم يكونوا قد اقتربوا من الصفوف الأولى جانباً وأصيبوا بالخوف.

صرخ كثيرون برجاله: "ببطء الآن!". أطلق سهمه الخمسين بينما كان يناديهم وفكر في الاقتراب من الجنود ليكتمل الاضطراب. حذر نفسه عندها، على الرغم من أنه كان يريد الجري وراء الجنود الهاربين. كان هناك وقت، كما قال لنفسه. تسببات الحركة كما كان قد أمر وازدادت الدقة بشكل أكبر، وسقط مئات الرجال

مع أكثر من سهم في كل منهم. ستون، وقد أضحت الكائنات آنذاك خفيفة على ظهورهم.

توقف كثيرون. كان قد بعثر الفرسان والعديد منهم يفرون عائدين. كان لا يزال باستطاعتهم تنظيم صفوفهم، على الرغم من أنه لم يكن يخاف من هجوم آخر، ورأى فرصة لإحراق الهزيمة بصفوفهم الخلفية. كان يعرف أن الاقتراب منهم خطير. إذا وصل جنود تشن إلى رجاله، قد يستطيعون تحويل الهزيمة إلى نصر. نظر كثيرون إلى الوجوه البشوشة حوله واستجاب لها بضحكة.

قال: "هل ستمشون معي؟". نهلوا فرحاً ومشى بخطوات واسعة إلى الأمام، سحب سهماً آخر من كتلته. هذه المرة، أمسك به على الوتر فيما كانوا يسيرون نحو الصفوف الأولى من الموتى. كان العديد منهم لا يزال حياً واستولى بعض المغول على سيوفهم الثمينة، واستغرق الأمر منهم لحظات ليضعونها بها تحت حزام ملايسهم. كاد كثيرون يقع أرضاً بسبب جواد ينطلق عبر الصف. مذبذبة ليمسك التلجأ لكنه أخطأ، وأوقف الجواد اثنان من رجاله على بعد مسافة قصيرة. كانت هناك مئات الجياد التي فقدت فرسانها وقد أمسك بأخر بينما كان يجري، ويصهل فرحاً من صف الزمالة الصلب. عمل كثيرون على تهدئة الجواد بفرك أنفه وشاهد أن فرسان تشن بدؤوا يعدون تشكيل صفوفهم. كان قد أظهر لهم ما يستطيع شعبه فعله بالأقواس. ربما كان الوقت قد حان ليعرفوا ما يستطيعون فعله عن صهوة جواد.

صرخ: "خذوا السيوف واستطوا الجياد!". مرة أخرى، تكرر الأمر ورأى رجاله يندفعون فرحين فوق الموتى ليقفزوا على سروج جياد تشن. كان هناك عدد أكثر من كافٍ منها، على الرغم من أن بعضها كان لا يزال خائفاً وملطخاً بدماء فارسه الأخير. قفز كثيرون إلى السرج، ووقف على الركاب ليرى ما يفعله العدو. تمنى لو أن خاسار كان هناك لرؤية ذلك. كان شقيقه سيحب انتهاز فرصة الهجوم على جيش تشن باستعمال جيادهم. صرخ متحمساً وضرب بكعبه رنفي جواده، وانحنى منخفضاً فوق السرج عندما انطلق جواده قافزاً إلى الأمام.

• • •

كانت الفوضى نعم نهاية المعركة عندما مرّ جنكيز فوق جنث القتلى. كانت أقواس جنود تشن قد قتلت تقريباً أسراء كلهم، وتكدس نصف مليون سهم حديدي تحت الأقدام. على الرغم من ذلك، كان بعض الأسرى قد هربوا إلى صفوف تشن مذعورين. كان جنكيز قد راهم بمسكون بأسلحة ويقيمون متاريس بأيدي ملطخة بالدماء.

أضحي وابل السهام المنتظم منقطعاً عندما وصل آخر الأسرى إلى الصلوف. شق المئات طريقهم إلى ما خلف الصف الأول، وهم يضربون ويركلون بيأس. عندما كانوا يجنون سلاحاً، كانوا يستعملونه ليضربوا به على نطاق واسع حولهم حتى يتم القضاء عليهم.

عندما تقدم جنكيز إلى الأمام، شعر بالسهم من حوله وانحنى فوق سرجه عندما مرّ أحدها قريباً جداً منه. كان جيش تشن الكبير أمامه وقد فعل كل ما يستطيع. اتسعت الثغرة عندما وصل إليها وأدرك أن جانباً واحداً فقط كان سوراً من صخور. من مكان بعيد في الخلف، كان قد فكر في الثغرة كبوابة عظيمة، لكن بالقرب منها، رأى أن تشن كانوا قد رفعوا جذع شجرة ضخمة عالياً إلى أحد الجانبين. كانت هناك حبال تمتد إلى الأعلى وأدرك جنكيز أنه يمكن إسقاطها على الممر نفسه، وشطر جيشه نصفين. إذا سقطت، سيقتضي عليه، بينما كان الذعر يسري فيه، تباطؤ تقدمه حتى توقف أمام تل من جثث القتلى. صرخ جنكيز محبطاً، منتظراً أن يتلقى ضربة أو أن تسقط الشجرة. نادى رجالاً أمامه بأسمائهم، وأمرهم بالتقدم سيراً على الأقدام وأشار إلى الجذع الضخم الذي سيحطم في حال سقط كل أماله. كاتحوا للوصول إلى الحبال وقطعوها.

خلف الثغرة، استطاع جنكيز رؤية حركة في خطوط تشن. كان هناك خطأ ما وخاطر بالوقوف على ركابه ليتحقق من ماهيته. كان آخر الأسرى يدفع المناريس الضعيفة التي تحمي جنود تشن في أثناء تجهيزهم لأسلحتهم. حبس جنكيز أنفاسه عندما انضم جنوده إلى الأسرى المجهدين، وكانت سيوفهم مثل خطوط لامعة في الشمس. كانت الأكواس قد صمتت أخيراً واستطاع جنكيز رؤية أيدٍ تطلب المزيد.

كانت السهام قد نفذت منهم أخيراً، كما كان يأمل. كانت الأرض قد أصبحت سوداء بسبب مسامير صغيرة حديدية كانت قد ملأت كل جثة ملقاة على الأرض. وإذا بقيت الشجرة في مكانها فسيحقق اختراقاً في صفوف تشن. شمر جنكيز سيف والده، وشعر بضغط مفاجئ يشبه انهيار سدّ. خلقه، رفع المغول رماحاً أو سيوفاً طويلة وضربوا بأقدامهم على أرذاف جيادهم، وأرغموها على القلز فوق الجثث. تم تحطيم المناريس الباقية. مرّ جنكيز تحت ظل الشجرة الضخمة ولم يستطع التوقف بينما كان يواجه جيش إمبراطور تشن.

انتشر الفرسان بين جنود تشن، وأعملوا سيوفهم عميقاً بين صفوفهم. ازداد الخطر مع كل مسافة كانوا يقطعونها، وكانوا يواجهون رجالاً ليس أمامهم فحصب، وإنما على كلا الجانبين أيضاً. ضرب جنكيز أي شيء يتحرك، بأسلوب جزّار يمكنه

المواظبة عليه طيلة ساعات. أمامه، رأى صفاً من الفرسان المذعورين يصطدمون بخطوط جنودهم، ويشتكونها. لم يستطع التوقف لحظة للنظر إلى الخلف إلى الشجرة وذلك العدد الكبير من السيوف ينور حوله. فقط عندما اصطدم صف آخر من المحاربين بالفرسان الذين يدفعون جيادهم للجري بأقصى سرعتها، رفع بصره إلى الأعلى بعد أن أدرك أن محاربي قومه يمتطون جياد تشن. صرخ بصوت أحش عندها، وشعر بالذعر والارتباك الكبيرين في صفوف أعدائه. خلفه، كان رجاله يدمرون أفواج التشاب الضعيفة فيما كانوا يشقون طريقهم عميقاً داخل الصفوف المحتشدة. لم يكن ذلك كافياً من دون الهجوم الجانبى، لكن جنكيز رأى الفرسان ينشرون الفوضى في صفوف تشن، وكان أفضل فرسان العالم يدفعون بقوة وسط أعدائهم.

أصاب سيف جواده في عنقه، وتسبب بجرح بالغ تدفق منه الدم على وجوه الجنود المقاتلين. شعر جنكيز بالجواد يترنح وقفز عنه، وأسقط رجلين أرضاً عندما سقط عليهما بكل ثقله.

كان شعوره بالمعركة غائباً في تلك اللحظة ولم يكن يوسعه فعل شيء سوى الاستمرار بالقتال على الأقدام، على أمل أن يكون ذلك كافياً. كان المزيد من محاربيه يتدفقون خارج الممر ويدفعون نحو المركز... كان جيش المغول يدخل مثل قبضة مدرعة تجعل صفوف تشن تكور حول نفسها.

لم يسع زهي زهونغ سوى أن يراقب ما يجري فاعراً فمه بينما كان المغول يدمرون صفوفه الأمامية. كان قد رأى إيقاف فرسانه ثم دفعهم إلى الخلف نحو الجيش الرئيسى مما نشر الذعر في الصفوف. كان واقعاً من قدرته على جعلهم يشككون في مكانهم، لكن المغول اللعينين لحقوا بهم بعد ذلك على جياد مسروقة. كانوا يمتطون الجياد بمهارة مذهشة، ويتوازنون عليها بشكل مستاز فيما يطلقون وابلاً من السهام بسرعة كبيرة، ويفتحون ثغرة. رأى فوجاً من حملة السيوف ينهار ثم تراجعت الصفوف الأولى عند الممر وانفجعت موجة جديدة منهم عبر جلونه كما لو أنهم أطفال يحملون سيوفاً.

فغر القائد فمه، وذعنه غير قادر على استيعاب ما يجري. كان ضباطه ينظرون إليه بانتظار أوامره، لكن أحداثاً كثيرة كانت تقع بسرعة كبيرة وتجمد في مكانه. لا، كان لا يزال يعتقد استعادة زمام المبادرة، كان أكثر من نصف جيشه لم يلتحم بعد بالعدو كما أن عشرين فوجاً من الفرسان كانوا ينتظرون على طول الصف. طلب إحضار جواده وامتطاه.

صرخ: "أغلقوا الممر"، وتسايق مبعوثوه على طول الصف إلى المقدمة. كان لديه رجال جاهزون لتنفيذ الأمر، إذا كانوا لا يزالون على قيد الحياة. إذا استطاع إيقاف تدفق المغول عبر الممر، يمكنه محاصرة وتدمير أولئك الذين اخترقوا صفوفه. كان قد رفع الشجرة كملاذ أخير، لكنها أضحت الشيء الوحيد الذي يمكنه توفير وقت كافٍ له لإعادة تجميع قواته.

رأى تسوبودي جنكييز يندفع عبر نهاية الممر، وحصانه يهتد بسرعة كبيرة. شعر بضغط كبير يزداد حوله عندما بدأ المزيد من الرجال يتبعون خانهم عبر الثغرة. صرخت ذئاب تسوبودي القتية من الإثارة. كان العديد منهم لا يزالون محاصرين بين رجال وجياد لا يمكنهم تحريكها. كان بعضهم قد استدار عائداً في الحشد المتدافع ويكافح للعودة إلى القتال في الأمام.

لم يعد تسوبودي يرى جنكييز عندما شاهد أحد الجياد فوق رأسه يشك عندما تسلقه الرجال. نظر إلى الأعلى، وفهم في لحظة بأن الشجرة غير الثابتة يمكن أن تسقط وتفصله عن أولئك الذين عبروا الثغرة.

لم يلاحظ رجاله الخطر وركلوا جيادهم ليحثوها على التحرك إلى الأمام، يصرخون كما ينبغي لشباب مثلهم. أطلق تسوبودي لعنة عندما اشتد جيل آخر. كانت الشجرة ضخمة، لكنها لا تتطلب الكثير لرميها إلى الأسفل.

جار برجاله، مشيراً إلى الاتجاه بينما كان يسحب سهماً ويطلقه بأسرع ما يستطيع: "صوبوا إلى هناك!". أصاب سهمه الأول أحد جنود تشن في حنجرته ووقع مبتعداً عن الجبل، لكن المزيد ركضوا لتنفيذ أمر زهي زهونغ وبدأت الشجرة تنقلب. ردت ذئاب تسوبودي القتية بعاصفة من السهام، وقضت على عشرات الرجال. كان الوقت قد تأخر. دفع آخر جنود تشن الجذع الضخم فوقهم تماماً، وسقط محدثاً دويًا هائلاً في الممر. لم يكن تسوبودي بعيداً أكثر من عشرين خطوة عن السهل حيث سقط الجذع. تراجع جواده خوفاً وكان عليه أن يشد اللجام ليمسيطر عليه مجدداً.

حتى الأسرى الناجون تلهبوا مما هم فيه نتيجة الصوت. بينما كان تسوبودي يحثق خائفاً ومذهولاً، أطلق الصمت على الصفوف المزدحمة للحظة قبل أن تخرج صرخة واحدة مرعية من محارب سحقت ساقاه. كان جانب الشجرة بمد الممر بارتفاع رجل. لم يكن بمقدور أي جواد القفز فوقها. شعر تسوبودي بالآلاف العيون تتحول تلقائياً نحوه، لكنه لم يكن يعرف ما ينبغي عليه فعله.

نقلصت معدته عندما رأى صفوفاً من رماحي ثشن تظهر خلف الحاجز. تم
إرعام أولئك الذين تجرأوا على إظهار وجوههم على التراجع إلى الخلف، لكن
أسلحتهم بقيت، وكان هناك خط من حديد ثقيل ظهر مثل أسنان على طول الجذع.
فابتلع تسوبودي ريقه الجاف.

صاح: "مؤوساً! أريد مؤوساً هنا!". لم يكن يعرف كم سيستغرق الأمر لتحطيم
مثل ذلك الجذع الضخم. حتى بلجحوا في ذلك، كان خاتمه سيقى عالقاً على الطرف
الأخر.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الرابع والعشرون



رأى جنكيز الشجرة تسقط فصرخ غاضباً، وبثر رأس رجل عن كتفيه بضربة قوية واحدة. كان في بحر من الرايات الحمراء والذهبية، التي ترفرف بأصوات مثل خفق أجنحة الطيور. كان يقاتل وحيداً، وبائساً. لم يكونوا قد أتركوا بعد من يكون. حاول أولئك القريبون منه فقط القضاء على المحارب الذي يقاتل ويمرر في وجههم. كان يتور ويدفع بينهم، ويستعمل كل قطعة من الدرع كسلاح؛ وأي شيء يمكن أن يبقيه حياً. ترك خلفه الأثم ولم يتوقف عن الحركة أبداً. كان التوقف يعني الموت في مثل ذلك الحشد من الرايات.

شعر مقاتلو تشن بالتروند المفاجئ الذي اعترى أعداءهم وجاروا بتحد، وقد عانت نفثهم إليهم. استطاع جنكيز رؤية قوة كبيرة من الفرسان الجدد تتدفق على طول الجناح ولم يعد يستطيع رؤية شقيقه كشيون. كان مترجلاً بين أعداء، والغبار في كل مكان وعرف أن الموت على بعد خطوة فقط.

عندما شعر بالأساس، سحق فارس جنوداً في طريقه وسحب الخان خلفه بقوة كبيرة. كان المصارع تولي. لهث جنكيز بالشكر للمحارب الضخم فيما كانا يستعملان سيفيهما ضد أولئك الذين يصرخون بهما. فطقت السهام على درعيهما.

صرخ تولي من فوق رؤوس جنود تشن المحتشدين مدافعاً عن الخان: "إلي". رأى جواداً من دون فارس ووجهه جواده نمرود. بينما كان جنكيز يمتطي السرج الفارغ، تلقى ضربة على فخذه وصرخ ألماً. ركل بقوة، وكسرت قدمه فك الرجل. جعله الجرح يتنبه من حالة اليأس التي كانت تسيطر عليه ونظر حوله بين الضربات، وأصبح لديه انطباع عن ساحة المعركة.

كانت القوضى عارمة. بدا أن مقاتلي تشن يقاتلون دون تشكيلات، ربما ظنوا أن أعدادهم الكبيرة كافية. على الرغم من ذلك، كان قائدهم إلى الشرق يعمد تنظيمهم. كان الفرسان على طول الجناح سيصلون إلى رجال جنكيز بعد الانتهاء من قتال حشد

الجنود. هزّ جنكيز رأسه لإبعاد الدم عن عينيه. لم يتذكر أنه أصيب بجرح، لكن رأسه كان مكشوفاً بعد أن وقعت خوذته بعيداً. استطاع تنفّس الدم ويصق إلى الأسفل بينما كان يضرب عنق جندي آخر.

صرخ تولى، ووصل صوته بعيداً: "الخان!". سمعه كثيرون واستجاب له، وكان يلوح بسيفه في يده. لم يستطع الوصول إلى شقيقه وكان العديد من رجاله قد لقوا حتفهم آنذاك، وسُحِقوا تحت الأقدام. ربما بقي معه خمسة آلاف رجل. كانت كل كداناتهم خاوية وكانوا بعيدين جداً عن مقر بادغر والخان.

لوح كثيرون بسيفه وأحدث جرحاً بليغاً على طول ردف جواده. تنفّس الدم بينما كان الحصان يصرخ وينطلق فوق الرجال، ويضربهم في طريقه. كرّر كثيرون النداء اليائس لرجالهم أن يلحقوا به، وبالكاد كان يستطيع قيادة الجواد المصاب. مرّ غير جنود تشن، يضرب أي شيء يمكنه الوصول إليه. كان الجواد يجري بجنون وسمع كثيرون عظم قلبه الصدري ينكسر عندما اصطدم بعقبة ما. اندفع من فوق رأس الجواد، وضرب رجلاً آخر بذرعه. صرخ أحد محاربيه خلفه وقبض كثيرون على ذراع منخلفة، مذهولاً يشعر بالألم بينما كان يجلس على السرج خلفه.

قاتل الخمسة آلاف كما لو أنهم قتلوا عقولهم، من دون تفكير بسلامتهم. جرح أولئك الذين حوصروا جيادهم كما فعل كثيرون، وجعلوها تركل وتسهل فيما كانت تنعو نحو السهل المكشوف بين الجبال. كان عليهم الوصول إلى جنكيز قبل أن يلقى حتفه.

شعر كثيرون بالجواد الثاني يتعثّر وكاد يقع مرة أخرى. استعاد توازنه بطريقة ما واندفع عبر الخطوط نحو أرض مكشوفة، وقد اتسعت عينا الجواد خوفاً. كانت الجياد التي لا يمتطيها فرسان في كل مكان وقفز كثيرون على أحدها من دون تفكير، وكاد يمزق ذراعه اليمنى في فم الجواد بينما كان يمسك بالجام. خرج من ساحة المعركة ثم كادح للسيطرة على الجواد المذعور حتى هذا مجدداً. كان رجاله قد جاؤوا معه، على الرغم من أنه لم يكن هناك أكثر من ثلاثة آلاف بعد الهجوم القوي على قلب جيش تشن.

صرخ كثيرون، وهو بهزّ رأسه ليكون صاحياً: "هجوم!". بالكاد كان يرى رأسه يسطع لماً من أثر السقوط الأول على الأرض. شعر بأن كل وجهه متورم بينما كان يدفع جواده للجرى بأقصى سرعته على طول جناح الجيش عائداً إلى شقيقه. على بعد نصف ميل أمامه، كان مؤخر صف فرسان زهي زهونغ المؤلف من عشرين ألف جواد ورجل يُهاجم لإغلاق الممر. كان كثيرون يعرف أن عددهم كبير جداً، لكنه لم يخفف سرعته. رفع سيفه بينما كان ينطلق، ووضع ألمه جانباً وأظهر أسناناً حمراء للرياح.

لم يكن أكثر من ألف قد تمكنوا من عبور الممر قبل أن تسقط الشجرة. كان نصف هؤلاء قد لقوا حتفهم وتجمع الباقون حول خانهم، مستعدين للدفاع عنه حتى آخر رجل. تحرك جنود تشن حولهم مثل دبابير، لكنهم قاتلوا مثل رجال ميهوسين، وطيلة الوقت، كان جنكيز يلقي نظرات إلى الخلف على الجذع الذي يسد الممر. كان رجاله مولودين للحرب، وكل منهم أكثر مهارة من جنود تشن الذين قاتلوا من فوق ركاب جيادهم وماتوا. كانت كل كائناتهم خاوية، لكن العديد من الرجال ناوروا مع جيادهم كما لو أنهم مخلوق واحد. كانت الجياد تعرف متى تتراجع عن سيف يلوح في الهواء ومتى تركز صدر أي شخص بجرؤ على الاقتراب كثيراً. مثل جزيرة في بحر هائج، تحرك فرسان المغول أمام جيش تشن ولم يستطع أحد إسقاطهم أرضاً. قبعقت سهام الأقواس على دروعهم، لكن الأنفاج كانت محاصرة ولم تستطع التسديد جيداً. لم يكن أحد يرغب بالاقتراب من تلك السيوف المضرجة بالدماء والمحاربين الشرسين. كان أولئك الذين يقاتلون مع جنكيز ملطخين بالدماء، وأيديهم تلتصق بسيفوفهم. كانوا رجالاً يصعب قتلهم. كانوا يعرفون أن خانهم معهم وأن كل ما عليهم فعله هو الصمود حتى تستم إزالة الحاجز. حتى عندها، بدأ عندهم يتناقص، على الرغم من أنهم كانوا يقضون على عشرة أو عشرين مقابل كل رجل يسقط منهم. بدأ المزيد ينظرون إلى الممر، وعيونهم منجهممة ويأسهم يزداد فيما يتابعون القتال.

وصل جيلم وأرسلان معاً إلى الممر المسدود، وشاهدوا تسوبودي شاحياً. أوما القائد الشاب إلى الرجلين.
قال جيلم بحدة: تريد المزيد من العمال مع القزوس. بهذا المعدل، سيستغرق الأمر ساعات.

حدق إليه تسوبودي ببرود. "القيادة لك أيها القائد. كنت فقط أنتظر قدمك إلى هنا". أدار جواده بعيداً عنهما من دون أن ينطق بكلمة أخرى، وسحب نفساً عميقاً ليصرخ من فوق رؤوس رجاله. قال بحدة: ترجلوا أيها الذئاب! أقواس وسيوف! على الأقدام! معي!.

فيما كان القائدان البارزان يتوليان مهمة الإشراف على فرق القزوس، تسلق تسوبودي جذع الشجرة، ونظر إلى الأسفل على رمحي تشن قبل أن يركل أحد الأسلحة جانباً ويقلز عليهم. تبعه رجاله بالدفاع كبير جعل فرق القزوس تبتعد عنهم. لم يكونوا يدعوا قائدهم الشاب يذهب وحيداً لإثقاذ الخان وكانوا نشيطين وغاضبين من خدع مقاتلي تشن.

نظر جنكيز عالياً عندما انضم الذئاب الفتية إلى المعركة. شقوا طريقهم ضمن جنود تشن المتفاجئين من الخلف، وفتحوا ثغرة كبيرة في صفوفهم. بدا أن أولئك الذين أصيبوا بجراح لم يشعروا بها لأن عيونهم كانت مغلقة على تسويدي بينما كان يشق طريقه إلى الأمام. كان قد رأى الخان وكانت ذراعه لا تزال مرتاحة ذلك اليوم. ضرب جنود تشن بصف لا يتعدى عدد أفراده الاثني عشر شخصاً، وكانوا محاربين شباباً يتحركون بسرعة كبيرة ولا يمكن إيقافهم. فتحوا ثغرة أوصلتهم إلى جنكيز فوق درب من القلبي.

نادى جنكيز تسويدي: "لقد كنت أنتظركم! ماذا تريدون مني في هذا الوقت؟".

ابتسم القائد الشاب لرؤية خانه حياً، حتى عندما ابتعد عن سيف بنار وطعن الرجل الذي يحمله. سحب السيف وهو يطلق تهيدة كبيرة وتعثر بجثة عندما تراجع إلى الخلف. كان جنود تشن ينزفون حولهم، لكنهم كانوا لا يزالون يحتشدون بأعداد كبيرة بدا معها أنه يمكن تطويق حتى الألف الذي يقوده تسويدي. عند خاصرة جيش تشن الكبير، صدحت أبواق الفرسان واستدار جنكيز على السرج عندما تراجعت صفوف تشن بانتظام، وفتحت طريقاً لشن هجوم. نظر المحاربون المغول بعضهم إلى بعض عندما دفع فرسان تشن جيادهم للجري بأقصى سرعتهم انطلاقاً من صفوفهم. كثر جنكيز، وكان يلهث فيما تجمع رجاله حوله.

قال: "تلك جياد جيدة، سأكون أول من يختار منها عندما تنتهي". ضحك أولئك الذين سمعوه، ثم، كرجل واحد، دفعوا جيادهم للجري خبياً، واتحنوا فوق السروج. تركوا تسويدي وحيداً للسيطرة على الأرض حول الممر ودفعوا الجياد للجري بأقصى سرعتهم قبل أن تصطدم القواتان بعضهما ببعض.

لقى قائد فرسان تشن حتفه في أول لحظة من القتال مع فرسان المغول. على صوت الحوافر، كان رجاله يلقون حتفهم من فوق سروجهم. لوح أولئك الذين استطاعوا تفادي الضربة سيوفهم في الهواء عندما انخفض فرسان المغول أو تمايلوا جانباً. كانوا قد تدربوا على هذا طيلة حياتهم. دفع جنكيز جواده للانطلاق بأقصى سرعته، صيقاً بين صفوف الفرسان، وكانت ذراعه التي تحمل السيف تولمه. لم تكن هناك نهاية لهم وتلقى ضربة جديدة فوق ردفه حيث كان الدرع قد انكسر. جعلته ضربة أخرى يتراجع إلى الخلف ورأى السماء الشاحبة تهتز فوقه قبل أن يستعيد توازنه. لم يسقط ولم يكن بمقدوره ذلك. سمع صرخات عندما اصطدمت جياد كثيرون بفرسان تشن من الخلف وتساءل إن كان سيلتقي شقيقه في الوسط أو سيموت أولاً.

كانت هناك أعداد كبيرة من الأعداء. لم يكن يتوقع أن ينجو أنذاك وجعل ذلك مزاجه أفضل ودفعه ليقود جواده بين أعدائه في لحظة فرح غامر. كان من السهل أن يتخيل والده معه. ربما سيكون الرجل المعجوز فخوراً أخيراً. لم يكن أبناؤه ليختاروا نهاية أفضل.

خلفه، كان قد تم تحطيم الشجرة أخيراً إلى ثلاثة أجزاء. قاد أفراد جيش المغول جيادهم ببطة إلى الساحات المغطاة بالجليد، متجهين ومصممين على الثأر لخائهم. قاد جيلم وأرسلان جواديهما في المقدمة وكان كل من الأب والابن مستعدين. نظرا إلى رايات وأعلام تشن التي ترفرف من بعيد.

نادى أرسلان ابنه: "لن أغير حياتي يا جيلم إن استطعت العودة بالزمن. سوف أكون هنا".

رد جيلم بانتسامة: "لن ستكون غير هنا أبها الرجل المعجوز؟". وضع سهماً على وتر القوس وسحب نفساً عميقاً قبل أن يطلق أول سهم على صفوف العدو.

كان زهي زهونغ يراقب ما يجري بإحباط عندما فتح الممر وتدفق منه عشرون ألف محارب، مستعدين للقتال. لم تكن الآلة قد وضعت الخان بين يديه. كان فرسان زهي زهونغ يشككون مع قوة الخان الصغيرة، فيما انتفعت مجموعة أخرى بين جنود تشن مثل نصر بمزق بطن ظبي يجري. لم يكن يبدو أن المغول يتواصلون في ما بينهم، وعلى الرغم من ذلك كانوا يعملون معاً عبر ساحة المعركة، بينما كان هو المركز الوحيد للقيادة. فرك زهي زهونغ عينيه، وحقن إلى سحب الغبار فيما كانت المعركة دائرة.

كان رماحوه غارقين في فوضى وقد ترك بعضهم السهل، وكانت أشكالهم تبدو أنذاك مثل بقع بعيدة بين التلال. هل يمكنه إنقاذ المعركة؟ كانت الخدع كلها قد انتهت. وصل الأمر إلى القتال على سهل منبسط وكان لا يزال متوقفاً بالعدد.

أصدر أوامر جديدة لمبعوثيه وراقب فيما كانوا يدفعون جيادهم للجرى بأقصى سرعتها عبر ساحة المعركة. كان المغول من الممر يمتطرون رجاله بسهم إثر آخر، ويشقون طريقهم وسط الجيش الذي كان ينتظرهم. كانت الدقة المتناهية ترغم صفوفه على التراجع على بعضها، مما جعلها تتجمع حيث ينبغي عليها أن تكون متباعدة. مسح زهي زهونغ العرق عن جبينه عندما رأى فرساناً يدفعون عبر رماحيه كما لو أنهم غير مسلحين. لم يسهه سوى أن يراقب ما يجري متجمداً

عندما انفصلوا إلى مجموعات من مئات، هاجموا من كل الزوايا بأقواسهم، ومزكوا جيشه شرّ تمزيق.

بدا أن الأمر استغرق لحظة فقط قبل أن تلاحظ إحدى مجموعات الغزو أنه يقف هناك، يوجّه المعركة. رأى زهي زهونغ وجوههم تشرق عندما شاهدوا رايات الحرب الضخمة حول خيمة قيادته. بينما كان يحنق، رأى اثني عشر قوساً مشدودة باتجاهه وآخرين يشنون لجام جيادهم لتحويل اتجاهها. كان المدى بعيداً جداً بالتأكيد. كان مئات من حرسه الشخصي يقفون في طريقهم، لكنهم لم يستطيعوا منع سهام وشعر القائد فجأة بالخوف. كانوا مثل شياطين، هؤلاء الرجال من السهول. كان قد جرب كل شيء وتفلسفوا مع ذلك نحوه. كان العديد منهم قد تعرض لجروح في القتال، لكن بدا أنهم لا يشعرون بالألم بينما كانوا يسحبون أقواسهم بأيدي ملطخة بالدماء ويوجهون جيادهم نحوه.

انفرس سهم في صدره، وبرز من درعه مما جعله يصرخ. كما لو أن الصوت حرز خوفه، فقد أعصابه تماماً وصرخ بحارسه، سحب جواده بقوة وحشية وقفز محنياً ظهره على السرج. طنت سهام أخرى فوق رأسه، وقتلت رجالاً حوله. كان القائد زهي زهونغ قد فقد رباطة جأشه في مواجهة موته، وتبعثر ثقله بنفسه. ضرب بعقبه على ردف جواده الذي انطلق بأقصى سرعة عبر الصفوف تاركاً حراسه وراءه.

لم ينظر إلى الأسفل إلى وجوه جنوده الذين اتسعت عيونهم دهشة عندما رأوه يتخلى عنهم. ألقى الكثيرون أسلحتهم وركضوا ببساطة، مقتنين به. سقط بعضهم أرضاً عندما اصطدم بهم جواده فيما كانوا يتحركون ببطء شديد. أضحت رؤيته مشوشة في الريح شديدة البرودة ولم يعرف شيئاً سوى الحاجة للهرب من المغول قساة الوجوه الذين يلاحقونه. خلقه، أصيب جيشه بانهيار كامل واستمرت المذبحة. انقطع جيش جنكيز نحو جنود الإمبراطور، وقتلوا منهم حتى أصيبت أزرعهم بالإرهاق وأضحت أفواه جيادهم بيضاء من اللعاب.

حاول ضباط بارزون ثلاث مرات تجميع رجالهم، وفشلت كل محاولة لأن جنكيز استطاع الاستفادة من الأرض الواسعة لشن هجمات وسقطهم. عندما نفذت آخر سهام جيلم، عملت الرماح جيداً بسرعة كاملة، وجعلت رجالاً يسقطون صرعى من تأثير الصدمة. كان جنكيز قد رأى قائد شن يهرب ولم يعد يشعر بالجروح القوية التي أصيب بها. ارتفعت الشمس عالياً فوق ساحة القتال، وبحلول الظهر، تكثفت قوات الإمبراطور في جبال من القتلى الملطخين بالدماء، وتبعثر الباقون في كل اتجاه مطاردتين.

فسيما كان زهي زهونغ يقود جواده، فقد ذهبه الخدر الذي كان قد حل به. ثلاث أصوات المعركة من بعيد بينما كان يقود جواده بأقصى سرعة على طول الطريق إلى بنكينغ. نظر إلى الخلف مرة فقط إلى الحشد المتشابك من الرجال المتقاتلين، وكان العار والغضب مريرين. كان بعض حرسه الخاص قد امتطوا جيادهم للحاق بقائدهم، متمسكين بولاتهم له على الرغم من فشله. من دون كلمة، قادوا جيادهم في تشكيل حوله، وكانت هناك كثيية من حوالى مئة فارس تقترب من بوابات مدينة الإمبراطور.

عرف زهي زهونغ رجلاً يقود جواده إلى جانبه، وكان ضابطاً بارزاً من بلوتو. لم يستطع في البداية أن يتذكر اسمه ولم يسعه سوى أن يستغرب من الأفكار التي تدور في ذهنه. لاحظت المدينة بسرعة أمامهم وتطلب الأمر جهداً وإرادة كبيرين ليستعيد رباطة جأشهم ويجعل قلبه الذي يخفق بقوة يبدأ. لوجان. تذكر أخيراً أن اسم الرجل كان لوجان.

كان القائد يتصيب عرفاً في درعه عندما نظر إلى الأسوار العالية والخندق المحيط بالمدينة. بعد الفوضى وإراقة الدماء، بدت المدينة مسالمة وواحدة وهي تستيقظ ببطء لاستقبال يوم جديد. كان زهي زهونغ قد سبق أي مبعوثين وبقي الإمبراطور غير مدرك للكارثة التي وقعت على بعد عشرين ميلاً فقط.

قال للرجل إلى جانبه: "هل تريد أن يتم إعدامك يا لوجان؟".

رد الرجل: "لدي عائلة أيتها القائد". كان شاحباً، ويفهم ما يواجهونه.

رد زهي زهونغ: "إذاً، أصغ إلي واتبع لأوامري".

تم التصرف على القائد من بعيد وإنزال البوابة الخارجية فوق مساحة من الأرض تغمرها المياه. استدار زهي زهونغ على السرج لإصدار أوامر للرجال خلفه.

قال بسرعة: "يلغي إختيار الإمبراطور. يمكننا القيام بهجوم مضاد مع حرس المدينة". رأى أن للكلمات تأثيرها في الرجال المهزومين، وأنها جعلتهم يشدون قاماتهم فوق سروجهم. كانوا لا يزالون يتقون بقائدهم لإنقاذ شيء من الكارثة. جعل زهي زهونغ وجهه يبدو مثل قناع بينما كان يدخل إلى المدينة، وكانت أصوات الحوافر على الطرقات العميدة عالية في أذنيه. كان قد خسر؛ وأساء من ذلك، كان قد هرب.

كان القصر الإمبراطوري بناءً ضخماً داخل المدينة، محاطاً بحدائق فائقة الجمال. توجه زهي زهونغ نحو أقرب بوابة كانت ستقوده إلى غرفة الاستقبال. تسأل

إن كان الإمبراطور الشاب مستيقظاً في تلك الساعة، كان سيتنبه خلال وقت قصير جداً، عندما يسمع الأنباء.

تم إرغام الحراس على الترحل عند البوابة الخارجية، ومشوا بخطوات واسعة إلى الداخل على طول طريق عريض تحيط به أشجار الزيزفون. قابلهم خدم، ثم تفرقوا عبر سلسلة من القاعات. قبل أن يلتقوا الإمبراطور، سَدَّ جنود من حرس الإمبراطور الخاص طريقهم.

لم يظهر أي شيء على زهي زهونغ عندما سَلَمَ سيفه وانتظر أن يتنحوا جانباً. كان جنوده سيقفون في القاعات الخارجية فيما يتابع هو طريقه. تخيل بأنه كان يتم إيقاف الإمبراطور وي في تلك اللحظة، وعبيده يطوفون حوله حاملين الأنباء بأن القائد قد عاد. سيفرق القصر بالشائعات، لكنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً بعد. ستظهر الصورة الكاملة للمأساة لاحقاً، لكن ينبغي أن يعرف الإمبراطور أولاً.

مرَّ وقت طويل قبل أن يرى زهي زهونغ أبواب حجرة الاستقبال تُفتح أمامه ومشى بخطوات واسعة على الأرض الخشبية نحو الشكل الجالس على كرسي في الطرف الآخر. كما كان يعتقد، كان وجه الإمبراطور منتفخاً من النوم، وقد مشط شعره على عجل حتى أن خصلاتاً منه كانت تتمايل فوق رأسه.

قال الإمبراطور وي بصوت متكلف: "ما هي الأنباء المهمة جداً؟".

شعر القائد بالهدوء أخيراً وسحب نفساً عميقاً بينما كان يجثو على ركبتيه.

قال: لقد منحني جلالة الإمبراطور شرفاً كبيراً. رفع رأسه عندها وجعلت العينان اللتان ظهرتتا من الوجه المكتئب الإمبراطور الشاب يمسك رداءه خوفاً. كان هناك جنون فيهما.

وقف زهي زهونغ ببطء، ينظر حوله في القاعة. كان الإمبراطور قد صرف وزراءه لسماع الرسالة الخاصة من قائد جيشه. وقف ستة عبيد في أطراف الغرفة، لكن زهي زهونغ لم يكن يكثرث لهم. كانوا سيحملون الأنباء للمدينة كما فعلوا دائماً. أخرج زهيراً طويلاً. كان ذهنه مشوشاً ذلك الوقت، لكنه كان صاحباً على الأقل. قال، أخيراً: لقد دخل المغول عبر الممر. لم أستطع صدّهم. رأى الإمبراطور يشحب، ولون جلده يصبح مثل الشمع في الضوء القادم من نوافذ عالية.

سأل الإمبراطور وي وهو ينهض ليقف أمامه: "الجيش؟ هل تم إرغامنا على

الانسحاب؟".

لقد تحطم يا جلالة الإمبراطور.

حدثت عنا قائد الجيش إلى الشاب الذي يواجهه ولم ينظر أحدهما بعيداً هذه المرة.

"خدمت والدك بإخلاص يا جلالة الإمبراطور. معه، كنت سأنتصر. معك، أيتها الأكل شائناً، خسرت".

غمر الإمبراطور وي فيه مذهباً. "جئت إلي بهذا التبا وتجرو على إهانتني في قصري؟".

تخذه القائد. لم يكن لديه سيف، لكنه سحب سكيناً طويلة من حيث كان يخفيها تحت درعه. شقق الإمبراطور الشاب لدى رؤيتها، وقد شعر بالخوف ينتابه فجأة. لم يكن والدك ليسمح لي بالمجيء إليه يا جلالة الإمبراطور. كان ينبغي ألا تنق بكائد جيش عائد من هزيمة. "هز زهي زهونغ ككتيه استخفافاً. بعد أن خذلتك، أصبحت أستحق الموت. ما الخيار الذي لدي غير هذا؟".

سحب الإمبراطور نفساً عميقاً لينادي حراسه. اتدفع زهي زهونغ نحوه وأطبق بدأ حول حجرته، وأخذ الصرخة. شعر بيدتين تضربان على درعه ووجهه، لكن القنسى كان ضعيفاً واشتدت قبضته عليه. كان يستطيع خنقه عندها، لكن تلك ستكون إهانة لابن رجل عظيم. بدلاً من ذلك، وجد مكاناً في صدر الإمبراطور بينما كان يتلوى ويقاوم، وغرس السكين في قلبه.

سقطت البدان بعيداً وعندها فقط شعر بألم الخنوش على وجنتيه. بل الدم الثوب حول السكين ورفعته القائد ليعيده إلى كرسيه.

كان العبيد يصرخون وتجاهلهم زهي زهونغ، ووقف أمام جثة الإمبراطور الشاب. لم يكن هناك خيار، كما قال لنفسه.

فُتح الباب الخارجي على مصراعيه وانفتح حراس الإمبراطور إلى الداخل. رفعوا أسلحتهم ووقف زهي زهونغ لمواجهتهم، ورأى أشكال رجاله يملأون الممر في الخلف. كان لوجان قد التزم بالأوامر التي صدرت له وكان ملطخاً بالدماء آنذاك. لم يستغرق أمر الإجهاز على آخرهم وقتاً طويلاً.

وقف لوجان وصدره يعلو ويهبط، يحثق مستغرباً إلى الوجه الأبيض للإمبراطور الميت.

قال خائفاً: لقد قتلته. ماذا سنفعل الآن؟.

نظر القائد إلى الرجال المرهقين الملطخين بالدماء الذين نقلوا ساحة المعركة إلى مثل ذلك المكان. ربما سينتخب لاحقاً على كل ما كان قد خسره، وكل ما اقترفته بداء، لكن الوقت لم يكن مناسباً لذلك آنذاك.

"سنقول للشعب إن الإمبراطور مات وإنه ينبغي إغلاق المدينة وتحسينها. المغول قادمون إلى هنا ولا يمكننا فعل شيء آخر".

قال لوجان: لكن من سيكون الإمبراطور الآن؟ أحد أولاده؟ كان شاحياً جداً ولم ينظر مجدداً إلى الجسد المسجى على العرش.
رد زهي زهونغ: "صبر أكبر أبنائه لا يتجاوز السادسة. بعد الانتهاء من الجنازة، اجلبه إلي. سأحكم كوصي عليه".
حشد لوجان إلى قائده. وهمس: "يها الإمبراطور الجديد"، وردت الكلمات أولئك الموجودون حوله. بذهول تقريباً، اتحنى لوجان حتى مس جبينه الأرض الخشبية. تبعه الجنود الآخرون وابتم القائد زهي زهونغ.
قال بلطف: "عشرة آلاف سنة. عشرة آلاف سنة".

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الخامس والعشرون



تحولت السماء إلى اللون الأسود فوق الجبال، ووصل النخان إلى بعد أميال. كان العديد من جنود تشن قد استسلموا في النهاية، لكن القبائل كانت قد فقدت الكثير من أفرادها ولم تظهر أي رحمة. استمر القتل عدة أيام حول الممر، وكان هناك محاربون يلاحقون كل ناج من الجنود الهاربين ويذبحونهم مثل حيوانات الغرير في الوطن.

ثم إشعال نيران عظيمة من عصي الرماح والرايات. كانت العائلات قد مرت بسبعة عبر الممر خلف المحاربين، وأحضرت معها عربات وأدوات الكير لتذويب رؤوس الرماح والحصول منها على القولا. تم سحب مؤن تشن إلى المنحدرات الناجية حتى يتم الحفاظ عليها.

لم يتم أحد بتعداد جثث تشن، ولم تكن هناك حاجة لذلك. لم يكن بوسع كل من رأى جبال الجثث أن ينساها أبداً. ساعد الأولاد والنساء في تعرية الجثث من دروعها وكل شيء ذي قيمة. كانت الرائحة مريبة بعد يوم واحد فقط وامتلأ الهواء بالذباب الذي طفق واحترق في دخان النيران.

على حافة النار، انتظر جنكيز قادة جيشه. كان يرغب برؤية المدينة التي كانت قد أرسلت مثل ذلك الجيش ضده. جاء كشيون وخاسار للاتضمام إليه، وحقاً يرهبة إلى الخلف إلى حقل الدم والنار الذي يمتد بعيداً. كانت النيران تلقي بظلال متحركة على جبال الوادي وحتى القبائل كانت خائفة وهي تغني بأصوات خافتة على قتلها.

انتظر الأشقاء الثلاثة بصمت بينما كان الرجال الذين استدعاهم جنكيز يقودون جيادهم هرولة نحوه، وقاماتهم مشدودة. جاء تسوبودي أولاً، شاحباً وفخوراً بغرزات سونداء فيحة على طول نراعه الأيسر. جاء جيلم وأرسلان معاً، ولونهما داكن بسبب النيران. كان هو ما وليان البناء آخر الواصلين. لم يبق سوى تيموج في الخلف لنقل المعسكر إلى نهر على بعد عشرة أميال شمالاً. كانت السنة الذهب ستبقى مستعرة

لياساً، حتى من دون قيام القبائل بتغذيتها. كان الذباب يصبح أسوأ وأضحي تيموج
عليلاً من الطنين المستمر ورائحة القتلى العفنة.

لم يكن جنكيز يستطيع أن يشح بناظريه بعيداً عن السهل. كان واثقاً أن ما يراه
يعني موت إمبراطورية. لم يكن قد اقترب من قبل من الهزيمة والدمار مثلما كانت
عليه الحال في المعركة عبر الممر. كان ذلك قد ترك أثره فيه وعرف أن بمقدوره
دائماً إغلاق عينيه واستحضار الذكريات. كان قد تم لف ثمانية آلاف من رجاله بقمائش
أبيض وأخذهم إلى الجبال. نظر إلى حيث يستلقون مثل أصابع من عظام في الثلج،
بعداً عنه. آنذاك، كانت الصقور والذئاب تنهش لحمهم. كان قد بقي فقط ليشهد تقديمهم
إلى السماء، وتكريمهم مع عائلاتهم.

قال للفائدة: تيموج يدير المعسكر. قلنر بنكينغ هذه وإمبراطورها. ضرب بعقبه
على ردفه جواده الذي اندفع يجري إلى الأمام. بينما تبعه الآخرون، كما كانوا يفعلون
دائماً.

مدينة على سهل كبير، كانت بنكينغ آنذاك أضخم مدينة رآها أي منهم. فيما كانت
تظهر أمامهم، تذكر جنكيز كلمات وين تشاو، دبلوماسي تشن الذي كان قد التقاه قبل
عدة سنوات. كان قد قال إن الرجال يستطيعون بناء مدن مثل جبال. كانت بنكينغ
إحدى تلك المدن.

كانت تنهض على صخرة رمادية داكنة ترتفع خمسين قدماً على الأقل من
أساسها إلى قمته. أرسل جنكيز ليان وهو سا حول المدينة لعد الأبراج الخشبية
التي ترتفع أكثر من ذلك. عندما عاد، كان قد قطعاً أكثر من خمسة أميال وعداً
أكثر من ألف برج تقريباً، وقد بدت مثل أشواك على طول الأسوار. كان الأسوأ
وصف أسلحة الألواس الضخمة على الأسوار، والتي يقوم عليها جنود صامتون
يراقبون ما يجري.

راقب جنكيز ليان بحثاً عن إشارة ما على أن البناء لم يكن خائفاً، لكن الرجل
كان يطاقى رأسه بشكل واضح فوق السرج. مثل المغول، لم يكن قد زار العاصمة
من قبل ولا يستطيع التفكير بطريقة لتحطيم أسوار بذلك الحجم.

على زوايا المستطيل الضخم، انتصبت أربعة حصون منفصلة عن الأسوار
الرئيسية. كان هناك خندق عريض بين الحصون والأسوار ويوجد آخر يطوقها من
الخارج. كانت قناة كبيرة الثغرة الوحيدة في الأسوار نفسها، وتمر عبر بوابة
ضخمة من الحديد والتي كانت بالمقابل محمية بمنصات عليها رماة سهام

ومنجنبيقات. كانت القناة تمتد نحو الجنوب، إلى أبعد نقطة يمكن لأحدهم رؤيتها. كان كل ما يتعلق بينكينغ ضخماً جداً ولا يمكن تخيله. لم يستطع جنكيز التفكير بطريقة لفتح البوابات.

في البداية، بقي جنكيز وقادة جيشه قريبين مثلما كانوا من ينشوان، أو بعض مدن تشن الأخرى إلى الغرب. ثم صبح صوت في هواء المساء وتجاوزهم شيء داكن جعل جواد كثيرون يترنح من قوة تأثيره. كاد جنكيز يقع عندما تراجع جواده ولم يسمعه سوى التحديق بذهول إلى سهم انغرس حتى منتصفه في الأرض الطرية، وكان مثل جذع شجرة أمس أكثر منه سهماً.

من دون أي كلمة، تراجع قادة جيشه إلى ما بعد مدى السلاح المعطوف، وانخفضت معنوياتهم أكثر بعد أن فهموا جزءاً آخر من الدفاعات. كان الاقتراب أكثر من خمسمئة خطوة يعني دعوة المزيد من الأعمدة الضخمة برؤوسها الحديدية. كانت مجرد فكرة غوص أحدها في حشد من فرسانه تيث الرعب في القلوب.

استدار جنكيز فوق السرج إلى الرجل الذي كان قد حطم أسواراً أقل ضخامة. سأل: "هل يمكننا الاستيلاء على المكان يا ليان؟". لم ينظر البناء إلى عينيه وحقق إلى المدينة. أخيراً، هز رأسه.

قال: "ليس لمدينة أخرى سور بهذا العرض في الأعلى. من ذلك الارتفاع، سيكون لديهم دائماً مدى أوسع مما يمكنني الوصول إليه. إذا بنينا متاريس حجرية، ربما أستطيع حماية المنجنبيقات؛ لكن إذا كنت أستطيع الوصول إليهم، يمكنهم بالتأكيد الوصول إلي وتحويل المنجنبيقات إلى حطب".

حقق جنكيز بإحباط باتجاه بينكينغ. كان الوصول إلى ذلك الحد والتوقف على الرغم من ذلك عند العقبة الأخيرة بثير الحقن. قبل يوم واحد فقط، كان بهني خاسار على استيلائه على الحصن في الممر وكثيرون على هجومه الموفق. كان يعتقد عندها أنه لا يمكن إيقاف شعبه، وأن النصر سيتحقق بسهولة دائماً. كان جيشه يعتقد ذلك بالتأكيد. كان محاربون يتهايمسون أن العالم له ليستولي عليه. بمواجهة بينكينغ، كان يشعر بسخرية الإمبراطور من مثل ذلك الطموح.

لم يظهر على وجه جنكيز أي تعبير عندما استدار إلى شقيقه. "ستجد العائلات هنا أرضاً جيدة لجمع القوات. سيكون هناك وقت للتخطيط للهجوم على هذا المكان".

أولاً خاسار وكثيرون متشككين. كانوا يستطيعان أيضاً رؤية الفتح الكبير بتوقف عند قدمي بينكينغ. مثل جنكيز نفسه، كانوا قد أصبحوا معتادين على الإيقاع السريع

والمثير للاستيلاء على المدن. كانت عربات شعبهم آنذاك محملة بالذهب والثروة التي تكسر محاورها في أي رحلة طويلة.

سأل جنكيز فجأة: "كم سيستغرق تجويع مثل هذه المدينة؟"

لم تكن لدى ليان أي فكرة مثلهم، لكنه لم يرغب بأن يقر بهجله.

"كنت قد سمعت أن أكثر من مليون من رعايا الإمبراطور يعيشون في ينكيغ. من الصعب تخيل إطعام مثل ذلك العدد الكبير، لكن بالطبع لديهم صوامع ومخازن كبيرة. كانوا يعرفون أننا قادمون منذ شهر". رأى جنكيز يقطب حاجبيه وتابع كلامه بسرعة. "يمكن أن يصل الأمر إلى ثلاث سنوات، أو حتى أربع، يا مولاي".

تأوه خاسر بصوت عالٍ من التقدير، لكن أصغره تسويودي أشرق وجهه. ثم بعد لديهم جيش لفك الحصار يا مولاي. لا حاجة بك لإبقائنا جميعاً هنا. إذا لم نستطع تحطيم الأسوار، ربما سندمج لنا بالانتشار في هذه الأرض الجديدة. نظراً للظروف الحالية، ليس لدينا حتى خرائط لما يوجد خلف ينكيغ".

نظر جنكيز إلى القائد، ورأى التعطش في عينيه. وشعر بمزاجه يتحسن.

"هذا صحيح. إذا كان علي الانتظار حتى يصبح هذا الإمبراطور جلدأ وعظماً قبل أن يستسلم، على الأقل لن يتوقف قادة جيشي عن العمل". أشار بذراعه إلى أرض تبدو من بعيد شاسعة جداً بشكل لا يمكن لأي منهم أن يتخيله.

"عندما تستقر العائلات، تعالوا إلي من أي اتجاه وستكون الأرض لكم. لن نصنع الوقت هنا ونصبح بدنيين وكسالى".

ابتسم تسويودي، وحماسته تلهب الآخرين وتبدل مزاجهم السيئ الذي كان سائداً سابقاً.

رد: "كما تشاء يا مولاي".

بدرع أسود مصقول لامع، مشى القائد زهي زهونغ غاضباً بينما كان ينتظر وزراء الإمبراطور للانضمام إليه في قاعة التتويج. كان النهار هادئاً واستطاع سماع نعيب الغربان في الخارج. لم يكن هناك شك بأن الذين يأخذون بالإشارات سيستتجون شيئاً من الطيور المزعجة، إذا رأوها.

كانت جنازة الإمبراطور وي قد انتهت منذ عشرة أيام، ومزق نصف سكان المدينة ملابسهم ووضعوا الرماد على جلودهم قبل أن يتم حرق الجثة. كان زهي زهونغ قد تحمل خطباً لا تنتهي من عائلات النبلاء. لم يكن أحد منهم قد ذكر طريقة موت الإمبراطور، ليس وزهي زهونغ يحرق إليهم وحراسه يققون وأيديهم على

مقابض سيوفهم. كان قد قضى على رأس الإمبراطورية، وأنهى الأمر بضرية واحدة إلا أن كل شيء آخر بقي على حاله.

كانت القوضى عارمة في الأيام القليلة الأولى، لكن بعد إعدام ثلاثة وزراء رفعوا عقيرتهم بالكلام، انهارت أي مقاومة أخرى، ومضت الجنازة الكبيرة قتماً كما لو أن الإمبراطور الشاب كان قد توفي في أثناء نومه.

كان مفيداً اكتشاف أن النبلاء الحاكمين كانوا قد أعدوا خططاً للمناسبة قبل وقت طويل من وقوعها. كانت إمبراطورية تشن قد نجت من ثورة وحتى من مؤامرة لقتل الإمبراطور من قبل. بعد موجة الاعتداءات الأولى، عادت الأمور إلى مجراها وارتاح الجميع تقريباً. كان الفلاحون في المدينة لا يعرفون شيئاً سوى أن ابن السماء كان قد ترك جسده القاني. انتحبوا بجهل في شوارع المدينة على غير هدى بهستيريا وأسى.

لم يكن ابن الإمبراطور الصغير قد بكى عندما سمع بموت والده. في ذلك على الأقل، كان الإمبراطور وي قد جعل عائلته تستعد جيداً. كان لدى والدة الفتى إيراك كافي لتعرف أن أي احتجاج سيغني موتها، وكانت قد بقيت صامتة خلال الجنازة، شاحبة وجميلة فيما كانت تراقب جثة زوجها تتحول إلى رماد. عندما انهارت محرقة الجنازة وارتفعت ألسنة اللهب، اعتقد زهي زهونغ بأن نظرتها تستقر عليه، لكن عندما نظر إلى الأعلى، كان رأسها منخفضاً تضرباً لإرادة الألهة. إرادته، كما اعتقد، على الرغم من أن النتيجة كانت نفسها.

صك القائد أسنانه غضباً بينما كان يعيش. أولاً، كانت الجنازة قد استغرقت وقتاً أطول مما كان يعتقد أنه ممكن ثم قيل له إن التتويج سيستغرق عدة أيام أخرى. كان ذلك يثير الحنق. كانت المدينة مفعوجة ولا أحد من الفلاحين يعمل فيما تجري أحداث عظيمة أمامهم. كان قد تحمل جلسات قياس لا تنتهي لتفصيل ملابس جديدة تليق بمنصبه كوصي. كان قد بقي صامتاً حتى عندما ألقى الوزراء بعصية على مسامحه محاضرات عن مسؤولياته الجديدة. بالإضافة إلى كل ذلك، كان خان المغول يتجول مثل نلب عند الباب، ويراقب المدينة.

في ساعات فراغه، كان زهي زهونغ قد صعد الدرجات إلى اثني عشر مكاناً على السور لمشاهد القبائل القفرة تستقر على الأرض الإمبراطورية. اعتقد أحياناً أنه يستطيع شم لحم ضأنهم العفن وحليب ماعزهم في النسيم. كان من المزعج أن يتغلب عليه رعاة الأغنام، لكنهم لن يستولوا على بلكينغ. كان الأباطرة الذين بنوا المدينة يرغبون بأن تكون استمرامناً لقوتهم. لن تسقط بسهولة، كما أخبر زهي زهونغ نفسه.

كان لا يزال يستيقظ في الليل من كوابيس يتصور فيها نفسه ملاحقاً، فرقة سهام الأقواس مثل بعض يطن في أذنيه. ما الذي كان يستطيع فعله غير ذلك؟ لم يكن أحد يعتقد أن المغول يستطيعون تسلق أعلى القمم لتطويقهم. لم يعد زهي زهونغ يشعر بذل الهزيمة. لقد كانت الآلهة ضده وعلى الرغم من ذلك منحتة المدينة بين يديه كوصي. كان سيراقب جيش المغول يتحطم على الأسوار، وعندما تتخضم الجروح، سيمسك رأس خائهم بيديه ويدفنه في أصق حفرة غائط في المدينة.

جعلت الفكرة مزاجه يتحسن بينما كان ينتظر ظهور الإمبراطور القتي. في مكان ما بعيد، كان يسمع أجراًساً تفرع، معلنة ظهور ابن السماء الجديد على الشعب. فُتحت الأبواب إلى قاعة التتويج لتكشف الوجه الذي يتسبب عرفاً لروين تشو، الوزير الأول.

قال عندما رأى زهي زهونغ: "مولاي الوصي! أنت لا ترتدي ثوبك! سيكون جلالة الإمبراطور هنا في أي لحظة". بدا كما لو أنه على وشك الانهيار، بعد أيام من تنظيم الجنازة والتتويج. وجد زهي زهونغ الرجل البدين مثيراً للغضب وأسعده التأثير الذي كانت كلماته ستتركه.

لقد تركتها في غرفتي، أيها الوزير. لن أحتاج إليها اليوم".
لقد تم التخطيط لكل لحظة من الاحتفال يا مولاي الوصي. ينبغي...".
قال زهي زهونغ بحدة: "لا تقل لي ينبغي. أحضر القتي إلى هنا وضع التاج على رأسه. أشدوا، غنّوا، أشعلوا البخور، افعلوا ما يحلو لكم، لكن قل كلمة واحدة لي بشأن ما ينبغي عليّ فعله وسأقطع رأسك".

ففر الوزير منه دهشة، ثم أخفض عينيه، وكان يرتعش بشكل ظاهر للعيان. كان يعرف أن الرجل الذي يواجهه قد قتل الإمبراطور. كان قائد الجيش خائناً قاسياً ولم يكن روين تشو يشك بأنه سيقرب المزيد من الدماء في يوم التتويج. أحلى رأسه بينما كان يمشي إلى الخلف، ويفتح الأبواب. سمع زهي زهونغ الخطوات البطيئة لسير شخص وانتظر بصمت بينما كان الوزير يلتقي القادم. ضحك بصوت خافت عندما سمع الخطوات تسرع.

عندما فُتحت الأبواب مجدداً، كانت هناك نظرة خوف مؤكدة في حاشية القتي البالغ من العمر ست سنوات والذي سيصبح إمبراطوراً. رأى زهي زهونغ أنه كان يتحمل الموقف جيداً، على الرغم من أنه لم يلم كثيراً في الأيام الماضية. سباطاً التقدم مجدداً عندما تجاوز زهي زهونغ، متجهاً نحو العرش الذهبي. كان الرهبان البوذيون يلوحون بأوعية بخور تملأ الهواء بدخانها. كانوا يشعرون

بالتوتر أيضاً لرؤية قائد الجيش مرتدياً درعه، والرجل الوحيد الذي يحمل سيفاً في الغرفة. مشى خلفهم بينما كان ابن الإمبراطور وي يأخذ مكانه على العرش. كانت تلك بداية المرحلة النهائية فقط. كانت تلاوة الألقاب وحدها تستمر حتى الظهيرة.

راقب زهي زهونغ ما يجري بغضب بينما كان الوزراء يرتاحون في أماكنهم، ويجلسون مثل طلويس حول مركز الاحتفال. جعلته الرائحة بشعر بالنعاس ولم يسمعه سوى أن يفكر بالمغول في السهول خارج المدينة. في البداية، كان قد شدد على الحاجة لإجراء الطقوس، وكانت تلك طريقة للحفاظ على النظام بعد أن قتل الإمبراطور. كانت المدينة ستثور من دون يد قوية تحكمها وكان من الضروري السماح للتبلاء ممارسة تقاليدهم كما يحلو لهم. كما أنه كان متعباً آنذاك من الأمر. كانت المدينة هادئة في حزلها والمغول قد بدأوا يبنون منجنيقات ضخمة، ويرفعون أسواراً من الحجارة لحماية أسلحتهم.

في إشارة إلى نفاذ صبره، مشى زهي زهونغ بخطوات واسعة إلى الأمام، مقاطعاً صوت الراهب الرتيب. تجمد الفتى الصغير عندما نظر إلى الشكل الذي يرتدي درعاً داكناً. أخذ زهي زهونغ التاج الإمبراطوري من حيث كان موضوعاً على وسادة من الحرير المذهب. كان ثقيلاً بشكل مدهش، وللحظة، امتلأ رغباً من فكرة تسليمه. كان قد قتل الرجل الذي كان يضعه.

وضعه بإحكام على رأس الإمبراطور الجديد. قال: كسون، أنت إمبراطور، ابن السماء. سيكون عهدك حكيماً. تجاهل الصدمة في وجوه الرجال حوله. أنا الوصي عليك، وبذلك اليمنى. حتى تبلغ العشرين من العمر، ستطيعني في كل شيء، من دون نقاش. هل تفهم ذلك؟

استلأت عيناً الفتى الصغير بالدموع. لم يكن يدرك تماماً ما يحدث، لكنه تمتم رداً: "أنا... أنا أفهم".

"انتهى الأمر إذاً. ليسعد الشعب. سأنهب إلى السور".

ترك زهي زهونغ الوزراء المذهولين خلفه في غفلتهم وفتح الأبواب على مصراعها ومشى خارجاً من القصر. كان البناء يشرف على بحيرة سولغي التي تغذي القناة الكبيرة، وسمح له الموقع من أعلى الدرجات بالنظر إلى المدينة بينما كان الرعايا ينتظرون الأنباء. كان كل جرس سيقرع وسيشرب الفلاحون طيلة أيام. سحب نفساً عميقاً وارتعش بينما كان يقف هناك، ونظر إلى الأسوار الداكنة. خلفها، كان أعداؤه يبحثون عن نقطة ضعف. لكنهم لن يدخلوا.

جلس تيموج بحدق حالماً إلى ثلاثة رجال كانوا مرة زعماء بين قومهم. استطاع رؤية نغطرسهم في كل عمل يقومون به، وازدراؤهم له يكاد يظهر في نظراتهم. متى سيفهمون ألا سلطة لهم في النظام الجديد الذي كان شقيقه قد وضعه؟ لم يكن هناك سوى صوريخان واحد، رجل واحد أعلى شأنًا منهم جميعاً. كان شقيقه يجلس أمامهم، وعلى الرغم من ذلك كانوا يجروون على التكلم إلى تيموج كما لو أنهم أنداد له.

فيما كانت القبائل تنصب خيامها في السهل أمام بنكينغ، كان مصدر سعادة لتيموج إبقاء الرجال ينتظرون كما يرغب. كان جنكيز قد أظهر ثقته به بمنحه لقب سيد التجارة على الرغم من أن تيموج نفسه كان قد حدد طبيعة الدور بمواجهة معارضة فظة. كان سعيداً بالسلطة التي يتمتع بها ويتسم دائماً عندما يفكر في طول المدة التي أبقي فيها كوكشو ينتظر رؤيته قبل يوم. كان الكاهن العراف شاحباً من الغضب في الوقت الذي سمح له فيه تيموج أخيراً بالدخول إلى خيمة الخان. كان سماح الخان له باستعمال خيمته لإدارة عمله دليلاً على دعم جنكيز في إشارة لم يكن أحد غافلاً عنها. لم تكن هناك فائدة من اللجوء إلى جنكيز إذا لم يكونوا يقبلون بحكم صدر باسمه. كان تيموج قد تأكد من أنهم يفهمون ذلك. إذا كان كوكشو يرغب بجمع رجال لاستكشاف معبد على بعد مئة ميل، كان ينبغي أن تتم الموافقة على الطلب بطريقة توزيع الغنائم من قبل تيموج نفسه.

شبهك تيموج يديه أمامه، وهو بالكاد يصغي إلى الرجال الذين كانوا زعماء. كان الأب ويلا يستند على اثنين من أبنائه، لأنه لم يكن قادراً على الوقوف وحده. كان من اللباقة أن يعرض عليه كرسيًا، لكن تيموج لم يكن بالشخص الذي يمسى جروحاً قديمة. وقفوا وتكلموا عن الرعي والأخشاب، بينما كان ينظر بعيداً.

كان ويلا يقول: "إذا لم تسمحوا للقطعان بالانتقال إلى مراعي جديدة لا تحمل إحدى علاماتكم الصغيرة، فسنضطر إلى ذبح حيوانات موفورة الصحة بدلاً من أن نتضور جوعاً". كان جسده قد أصبح أضخم منذ قطع جنكيز وتري قديمه. كان تيموج يستمتع برؤية وجه الرجل يصبح أحمر اللون غضباً ونظر إليه متكاسلاً من دون أن يرد عليه. لم يكن أحدهم يحسن القراءة أو الكتابة، كما ذكر نفسه بارتياح. كانت العلامات فكرة رائعة، وتحمل رمز ذنب ملتهب في ساحات من خشب الصنوبر. كان لديه رجال في المعسكر يطلبون رؤية مثل تلك العلامة إذا شاهدوا محاربين يقطعون أشجاراً، أو يتفاسمون ثروة من غنيمة، أو أي شيء آخر. لم يكن النظام مكتملاً بعد، لكن جنكيز كان قد دعمه بإعادة أولئك الذين يشكون خالي الوفاض، ووجوههم شاحبة من الخوف.

عندما أنهى الرجال خطبتهم المطولة، تكلم إليهم تيموج بلطف كما لو أنهم يناقشون حالة الطقس. كان قد اكتشف أن نبرة الصوت الناعمة تساعد في تهدئة غضبهم وكان يسعد التعامل معهم بتلك الطريقة.

قال وهو يهز رأسه مؤنباً: "في كل تاريخنا، لم نكن قد جمعنا هذا العدد الكبير من الناس في مكان واحد. ينبغي أن تكون منظمين، إذا أردنا العيش برخاء. إذا سمحت للجميع بقطع الأشجار كما يحلو لهم، فلن يبقى شيء للشقاء القادم. هل تفهمون؟ وفقاً لما تجري عليه الأمور الآن، نأتي بالأخشاب فقط من الغابات التي تبعد مسيرة أكثر من ثلاثة أيام، ونجرها إلى هنا. يستغرق ذلك وقتاً وجهداً، لكنكم سترون الفائدة السنة القادمة".

يقتصر ما أغضبهم كلامه اللطيف، إلا أن الجزء البهيح كان أنهم لا يستطيعون نقض منطقهم. كانوا رجال قوس وسيف وكان قد اكتشف أنه يستطيع نسج دوائر حولهم فيما هم مرصون على الاستماع إليه.

سأل خان ويلا المقعد: "فكرة الرعي؟ لا يمكننا تحريك معزاة من دون أن يطلب أحد رجالك المشوهين علامة على موافقتك. يزداد قلق القبائل من يد حاكمة لم يعرفوها من قبل".

ابتسم تيموج للرجل الغاضب، ورأى كيف أن وزنه قد أصبح مجهداً لابنيه اللذين يقفان عند كتفيه.

"أه، لكن لم يعد هناك قبائل يا ويلا. ألم يكن ذلك درساً تعلمته؟ كنت أعتقد أنك تتذكره كل يوم؟". أوماً بإشارة من يده ووضع خادم من تشن كوباً من الشراب الأسود في يده. كان تيموج قد عثر على كادره بين أولئك الذين سباهم جنكيز من المدن. كان بعضهم خدماً لعائلات نبيلة ويعرفون كيف يعاملون رجلاً في مكانته. كان يبدأ كل يوم بحمام ساخن في حوض حديدي ثم بناءه خصيصاً لذلك الغرض. كان الرجل الوحيد في المعسكر الذي يفعل ذلك، وللمرة الأولى في حياته، استطاع أن يشم رائحة قومه. تنفضن أنفه من تلك الفكرة. كانت تلك هي الطريقة التي ينبغي أن يحيا عليها الإنسان، كما قال لنفسه، وهو يرتشف الشراب فيما كانوا ينتظرون.

"هذه أيام جديدة أيها السادة. لا يمكننا الانتقال من هنا حتى تسقط المدينة، وهذا يعني أن ندير عمليات الرعي بحرص. لو أنني لم أضع بعض القيود، لأصبحت الأرض خالية من العشب بحلول الصيف وأين ستكون حينها؟ هل سيكون شقيقي بعيداً عن قطعانته ألف ميل؟ لا أعتقد أن هذا ما نريثونه". هز كتفيه استخفافاً. "ربما نجوع قليلاً نهاية الصيف. ربما سنضطر لنذبح بعض القطعان، إذا لم تستطع الأرض إطعام

الكثير منها. ألم أرسل رجالاً للبحث عن الملح لتقديد اللحم؟ سينضون الإمبراطور جوعاً قبل أن نجوع نحن".

حسناً إلى الرجال بإحباط صامت. كانوا يستطيعون المجاهرة بأمثلة عن قيادته في المعسكر التاسع. كان لديه جواب لكل منها. ما لم يستطيعوا التعبير عنه كان غضبهم عند استدعائهم لتقديم فروض الطاعة عند كل مناسبة يصدر فيها حكم جديد من تيموج. لم يكن ينبغي إقامة مراحيض بالقرب من المياه الجارية. كان ينبغي تزويج الجياد فقط وفقاً للاتحة سلالات الدم التي وضعها تيموج بنفسه، من دون استشارة أحد. لم يعد بمقدور رجل يمتلك مهرة وجواداً رائعين تزويجها معاً من دون طلب إذن بذلك. كان ذلك يضايقهم جميعاً وكان صحيحاً أن الاستياء يعم المعسكر.

لم يجرؤوا على رفع غيبتهم بالشكوى علانية، ليس وجنكيز بدعم شقيقه. لو أنه استمع إلى شكواهم، لكان فوض سلطة تيموج وألغى المنصب الجديد. كان تيموج يفهم ذلك، ويعرف شقيقه أفضل بكثير مما يعرفونه. حالما منحه جنكيز ذلك الدور، لم يكن ليتدخل في أي شيء. استفاد تيموج من الفرصة ليظهر ما يمكن لرجل ذكي تحقيقه عندما لا يكون مقيداً.

قال تيموج: "إذا كان هذا كل شيء، لدي آخرون ينبغي أن أراهم هذا الصباح. ربما تفهمون الآن لماذا مقابلتي صعبة. اكتشف أن هناك دائماً بعض الأشخاص الذين يتكلمون النهار بطوله قبل أن يفهموا ما ينبغي بنا فعله هنا؛ وما ينبغي أن نصبح عليه".

لم يكن قد منحهم شيئاً وكان إحباطهم وغضبهم مثل شراب بارد بالنسبة إليه. لم يستطع مقاومة المضي قدماً في تعليقاته اللاذعة.

"إذا كان هناك شيء آخر، أنا مشغول، لكن يمكنني تخصيص بعض الوقت للإحصاء إليكم بالطبع".

قال الرجل المقعد متعباً: "أنت تتصت، لكنك لا تسمع".

مد تيموج يديه أسفاً.

"اكتشفت أن كل من جاء قبلي لم يستطع فهم المشكلات التي تعانيون منها. هناك حتى أوقات تتم فيها التجارة في هذا المعسكر من دون دفع عُشر الخان وإرساله لي".

حسناً إلى الخان العجوز الذي كان يستند على ابنه وتكلم فيما اهتزت نظرة الرجل المتقدمة. إلى أي مدى كانت معرفة تيموج واسعة؟ كانت هناك إشاعات أنه يدفع لجواسيس لينقلوا إليه أنباء كل التعاملات التي تحدث، وكل صفقة وتبادل للثروة. لم يكن أحد يعرف مدى نفوذه.

تتهجد تيموج وهز رأسه كما لو أنه محبط.

"كنت أمل أن تعلمني بالأمر من دون أن أطلب ذلك منك يا ويلا. ألم تبع اثنتي عشرة جواداً إلى أحد عمالنا من تشن؟". ابتسم مشجعاً. لقد سمعت أن السعر كان جيداً، على الرغم من أن الجياد لم تكن من أفضل نوعية. لم أتلقَ بعد العُشر عن الجوانين والذي تكين به لشقيقي، على الرغم من أنني افترض أنه سيصلني قبل مغيب الشمس. هل افترض ذلك شيء معقول، برأيك؟".

تسامل خان ويلا عن يكون قد خاله. بعد مرور بعض الوقت، أوما برأسه وابتسم تيموج.

"ممتاز. ينبغي أن أشكرك لابتعادك عن أولئك الذين ما زالوا يعتبرونك تمثل السلطة. تذكر أنني هنا دائماً في حال كان أي شيء آخر بحاجة إلى اهتمامي".

لم يقف عندما استداروا ليغادروا خيمة الخان. نظر أحد أولئك الذين لم يتكلموا إلى الخلف بغضب ظاهر وقرّر تيموج أن يراقبه. كانوا يخافون منه، لدوره ككاهن عراف ومن ظل شقيقه. كان كوكشو قد قال الحقيقة في ما يتعلق بذلك. ربما كانت رؤية الخوف في عيني رجل آخر أروع شعور بنتاب الإنسان. كان ذلك يجعله يشعر بالقوة والرشاقة اللتين لا يشعر بهما بخلاف ذلك سوى من العجينة السوداء التي يقدمها له كوكشو.

كان هناك رجال آخرون ينتظرون رؤيته، وكان قد استدعى بعضهم بنفسه. فكَرّ في قضاء فترة بعد الظهر معهم، وفي نزوة انتابته، قرر خلاف ذلك. أدار رأسه إلى الخادم.

قال: "ربما كوب من الشراب الأسود الممزوج بماء ملعقة من دوائي". كانت العجينة السوداء ستجلب له رؤى ملونة ثم سينام طيلة بعد الظهر، ويتركهم ينتظرون. تمنّى عندما خطرت له الفكرة، سعيداً بعمل ذلك اليوم.

الفصل السادس والعشرون



استغرق بناء ستاريس من الحجارة والخشب لحماية أسلحة الحرب الكبيرة شهرين. كان قد تم بناء المنجنقات التي صممها ليان في الغابات إلى الشرق. بعوارضها الكبيرة التي كانت لا تزال دبكة بالصمغ، انتصبت مثل وحوش ساكنة على بعد ميل كامل عن أسوار المدينة. عندما ينتهي بناء المنصات، سيتم سحبها إليها لتكون في ظل حمايتها. كان عملاً بطيئاً ومجهداً، لكن بطريقة ما، كانت ثقة حشد المغول قد ارتفعت بمرور الوقت. لم يكن أي جيش قد خرج لمهاجمتهم، وكانت هناك بحيرة مياه عذبة إلى الشمال من المدينة وسواحلها مليئة بالطيور التي كانوا يستطيعون اصطيادها خلال شهور الشتاء. كانوا أمراء سهل تثن. على الرغم من ذلك، لم يكن هناك شيء يفعلونه سوى العيش على الرغم من أنهم كانوا معتادين على الغزو السريع وتحقيق الانتصارات، واكتشاف أرض جديدة كل يوم. كان التوقف فجأة قد بدأ يعطل الصداقة القوية بين القبائل. كانت هناك معارك بالسكاكين آنذاك تنتج عن ضغائن قديمة. تم العثور على رجلين وامرأة مقتولين على شاطئ البحيرة، من دون أن يعرف أحد من قتلهم.

انتظر الجيش بقلق أن تتصور المدينة جوعاً. لم يكن جنكيز يعرف ما إذا كان يمكن للمنصات الحجرية حماية المنجنقات الثقيلة، لكنه كان بحاجة إلى شيء بعيد قومه عن الكسل. على الأقل، كان دفعهم للعمل حتى يصابوا بالإرهاق يجعلهم رشيقي فيما بعدهم التعب عن الشجار. كان المستطلعون قد وجدوا تلاً من صخر الإردواز، على بعد مسيرة أقل من يوم من ينكينغ. تفحص المحاربون الصخر بالحماصة التي ينفذون بها أي مهمة، وكسروه بالأسافين والمطارق، ثم دفعوا الكتل الصخرية فوق العرصات. كانت خبرة ليان ضرورية هناك ولم يفاخر موقع المقلع إلا نادراً في تلك الأسابيع. علمهم كيف يصفون الصخور ببعضها ببعضينة من الجير المحروق، وكانت المنصات تكبر يوماً. لم يعد جنكيز يعرف كم ألف عربة كانت قد تجاوزت خيمته، إلا

أن تيموج احتفظ بسجل دقيق لما لديهم من مخطوطات حصلوا عليها في أثناء حروبهم.

كانت الآلات التي صممها ليان عبارة عن شبكات من الحبال تحمل حجارة ضخمة، والتي تنقل من رواقعها. كان هناك رجلان قد سحقا أبيههما في عملية البناء، وعانيا ألماً مبرحاً بينما كان كوكشو يبتز الأطراف المشوهة منهما. كان الكاهن العراف قد فرك عجينة كثيفة خشنة على لثتيهما للتخفيف من الألم، لكنهما على الرغم من ذلك بقيا بصرخان. معنى العمل قديماً، وكان دائماً محط أنظار أولئك الموجودين على أسوار بنكينغ. لم تكن لدى جنكيز حيلة لمنع أقواس الحرب الضخمة التي تتحرك أعلى السور من مواجهة أسلحته. بنت فرق تصيبت عرقاً من الحرس الإمبراطوري قواعد جديدة لها، وعملوا لساعات طويلة مثل المحاربين المغول تحتهم.

تطلب الأمر مئات الرجال الأقوياء لدفع المنجنيقات إلى أعلى المنصات أمام بنكينغ. مع تساقط ثلوج جديدة على السهل، وقف جنكيز محيطاً بينما كان مهندسو تشن يشدون أوتار سبعة أقواس كبيرة، والتي أرسلت أعمدة لها رؤوس حديدية اصطدمت بالمنصات. ردت المنجنيقات بصخرتين كبيرتين ارتطمتا بالأسوار، وشيبت بتطاير شظايا منها. بقيت أسلحة تشن سليمة من دون أن تمس.

استغرق الأمر وقتاً طويلاً لتزويد رواقع ليان الضخمة بالحجارة. في ذلك الوقت، دكت أقواس السور المنصات بالسهم مراراً وتكراراً. قبل أن تصبح المنجنيقات جاهزة لرمية ثانية على المدينة، ظهرت شقوق في المنصات التي كانت القبائل قد بنتها. بعد ذلك، حدث الدمار بسرعة. تطايرت الحجارة في الهواء مع كل ضربة، وأمطرت ليان ورجاله بشظاياها. سقط العديد منهم يسكون بأيديهم ووجوههم، وترنحوا إلى الخلف عندما استمر وابل القصف. بقي ليان نفسه سليماً ووقف يراقب بصمت كتيب منصاتاته تتمزق لرباً وآلاته تتحطم.

لبعض الوقت، بدا أن المنجنيقات نفسها ربما تتجو، لكن إصابة مباشرة بعد ذلك فرقت عبر السهل، وتبعها مباشرة تقريباً ثلاث أخرى. عندما أصيبت فرق السور بالتعب، تباطأ العمل، لكن كل ضربة كانت تتمتع بقوة مرعية. مات محاربون وهم يحاولون سحب الآلات إلى خارج مدى الأقواس. في لحظة واحدة، كانوا يصلون إلى هناك وهم يتصيبون عرقاً وبصرخون. في اللحظة التالية، يصبحون أشلاء ملطخة بالدماء على الخشب والهواء حولهم مليء بالثلج والغبار.

لم يكن ممكناً إنقاذ شيء. همهم جنكيز بلطف من حنجرته بينما كان ينظر فوق أشلاء الرجال وقطع الخشب المكسورة. كان قريباً بما يكفي من المدينة لسماع

الهتافات داخلها وأغضبه أن ليان كان محققاً. من دون حماية، لن يستطيعوا مجازاة مدى أسلحة السور وسيتم تحطيم كل ما ينولونه. كان جنكيز قد ناقش بناء أبراج عالية يتم دفعها على عجلات نحو المدينة، وربما تغليفها بالحديد، لكن السهام الثقيلة ستضربها مباشرة، تماماً كما تخرق سهامه الدروع الثقيلة. إذا صنع حذائوه أبراجاً قوية بما يكفي لتحمل الضربات، ستكون ثقيلة جداً على تحريكها. كان الأمر جنوبياً.

مشى جنكيز جينة وذهاباً فيما أرسل تسويدي محاربين شجعان لجلب الجرحى وإخراجهم من مدى الأسلحة. كان رجاله يعتقدون أنه يستطيع الاستيلاء على ينكنغ كما فعل مع مدن أخرى. لم تكن رؤية آلات ليان الاستثنائية تتحطم إلى قطع صغيرة لتساعد على رفع المعنويات في المعسكر.

فيما كان جنكيز يراقب الذئاب الفتية بخاطرون بحياتهم، اقترب كشيون وترجل. لم يكن التعبير على وجه شقيقه واضحاً، على الرغم من أن جنكيز اعتقد أنه يرى الغضب الشديد نفسه من الفشل.

قال كشيون: "مهما يكن الذي بنى هذه المدينة فقد فكر جيداً في دفاعاتها. لن نستولي عليها بالقوة".

قال جنكيز بحدة: "إذا، سيتضورون جوعاً. لقد نصبت الخيمة السوداء أمام ينكنغ. لن تكون هناك رحمة".

أولماً كشيون برأسه، يراقب شقيقه الأكبر عن كثب. لم يكن جنكيز في أفضل حالاته عندما يتم إرغامه على عدم فعل شيء. كانت تلك أوقاتاً يسير فيها قادة جيشه بحرص حوله. خلال الأيام الماضية، كان كشيون قد رأى جنكيز يفقد مزاجه السيئ عندما ارتفعت المنصات، وبدا قوياً بشكل مدهش. كانوا جميعاً يتمتعون بالثقة، لكن كان من الواضح أن قائد تشن قد انتظرهم فقط ليسحبوا الأسلحة الجديدة حتى تصبح ضمن مدى أسلحته. أيأ يكن، كان الرجل صبوراً، والأعداء الصبورون هم الأكثر خطورة.

كان كشيون يعرف أن جنكيز قد يندفع لاتخاذ قرارات متسارعة. نظراً للموقف آنذاك، كان لا يزال يستمع إلى قادة جيشه، لكن مع اقتراب الشتاء، ربما سيكون مغرباً لجنكيز أن يحاول تقريباً أي شيء وقد تعاني القبائل نتيجة لذلك.

سأل جنكيز، مردداً أفكار كشيون: "ما رأيك بإرسال رجال لتسلق الأسوار في الليل؟ خمسون أو مئة منهم، لإشغال حرائق في المدينة".

رد كشيون بحرص: "يمكن تسلق الأسوار. لكن دوريات تشن على القمة كثيفة، مثل الذئاب. قلت إن ذلك سيكون خسارة للرجال، من قبل".

من جنكيز كتفيه غاضباً.

لدينا المعجنيقات إذا، ربما لا يزال ممكناً تجربتها.

أدار جنكيز عينيه الشاحبتين إلى شقيقه، نظر إليه كشيون، وكان يعرف أن شقيقه يريد سماع الحقيقة.

قال كشيون: قال ليان إن لديهم أكثر من مليون في المدينة، سيتم اصطياذ كل من نرسلهم مثل كلاب برية ويصبح الأمر تسلية لجنودهم. تألف جنكيز رداً على ذلك، مكتئباً وياتساً. فكر كشيون في طريقة للتخفيف من حدة مزاجه.

ربما حان الوقت لإرسال قادة الجيش لشن غارات أخرى، كما قلت إنك ستفعل. لن نحقق انتصاراً سريعاً هنا وهناك مدن أخرى في هذه الأرض، دع أبناءك يذهبون معهم، حتى يتعلموا ما نقوم به.

رأى كشيون ارتياحاً يظهر على وجه جنكيز واعتقد أنه يفهم ما يريد. كان قادة الجيش رجلاً لا يثق جنكيز بأنهم سيتصرفون كما ينبغي من دون إشراف منه. كانوا موالين تماماً، لكن كان يتم خوض الحرب حتى تلك المرحلة تحت عيني جنكيز. كان إرسالهم بتلك الطريقة، وربما بعداً آلاف الأميال، أمراً لن يقره جنكيز بسهولة. كان قد وافق على الأمر أكثر من مرة، لكن على الرغم من ذلك وبطريقة ما، لم يكن الأمر الأخير قد صدر بعد.

سأل كشيون بلطف: هل تخاف الخيانة؟ من أين ستأتي؟ من أرسلان وابنه جيلم اللذين كانا معنا منذ البداية؟ من خاسار، أو تسويودي الذي لا يحب أحداً في هذه الدنيا أكثر منك؟ مني؟

ابتسم جنكيز قليلاً من الفكرة. رفع بصره إلى أسوار بنكينغ التي كانت لا تزال سليمة أمامه. بتعبه، أدرك أنه لا يستطيع إبقاء الكثير من الرجال النشيطين في ذلك السهل لمدة تصل إلى ثلاث سنوات. سينقضون بعضهم على بعض قبل ذلك بوقت طويل، وينفذون عمل إمبراطور تشن نيابة عنه.

هل ينبغي أن أرسل الجيش كله؟ ربما سأبقى هنا وحيداً وأتحدى جنود تشن أن يخرجوا إلي.

ضحك كشيون بصوت خافت من تلك الصورة.

رد: آسي الحقيقة، سيحتنون على الأرجح أنها مكيدة ويتركوك هنا. على الرغم من ذلك، إن كنت الإمبراطور، سأدرب كل رجل يستطيع أن يصبح محارباً، وأبني جيشاً من الداخل. لا يمكنك ترك عدد قليل لمراقبة بنكينغ، وإلا سيرون فرصة لشن هجوم. تألف جنكيز.

"لا يمكنك صنع محارب في بضعة شهور، ليكتريوا، هؤلاء الخبازون والتجار، سأرحب بفرصة أن أظهر لهم ما يعنيه أن يكون المرء محارباً بالولادة".
قال كثيرون بوجه صارم: "مع صوت مثل الرعد، وأشياء أخرى مثل البرق". بعد لحظة صمت، انفجر كلا الرجلين ضاحكين.

كان مزاج جنكيز السيئ الذي رافقه منذ تدمير المنجنبات قد تحسن، استطاع كثيرون تقريباً رؤية الطاقة تزداد فيه بينما كان يفكر بالمستقبل.
لقد قلت إنني سأرسلهم يا كثيرون، على الرغم من أن الوقت لا يزال مبكراً على ذلك، لا نعرف إن كانت مدن أخرى ستحاول إغاثة ينكينغ وربما نحتاج إلى كل رجل هنا. هن كتيه استخفاً، "إذا لم تسقط المدينة بحلول الربيع، سأرسل قادة الجيش للصيد".

كان زهي زهونغ مستغرقاً في أفكاره عندما وقف أمام نافذة عالية في حجرة استقبال القصر الصيفي، لم يكن قد تكلم كثيراً إلى الفتى الإمبراطور منذ قام بتتويجه. كان كسوان في مكان ما في مائة الأروقة والغرف التي كانت تشكل مكان إقامة والده الرسمي وكان زهي زهونغ نادراً ما يفكر فيه.

كان الجنود قد حيوا قائدهم عندما تم تدمير منجنبات المغول ذلك الصباح، كانوا يتطلعون إلى زهي زهونغ للحصول على استحسانه والذي أظهره بإيماءة قصيرة إلى ضابطه قبل أن ينزل الدرجات إلى المدينة. استطاع في خلوته فقط أن يشد قبضته بشوة نصر صامت. لم يكن ذلك كافياً لمحو ذكرى ممر بادر، لكنه كان نصراً من نوع ما وكان المواطنون الخائفون بحاجة إلى شيء ينتشلهم من أسهم. تألف زهي زهونغ عندما تذكر تقارير حالات الانتحار. كان قد تم العثور على أربع فتيات شريفات النسب ميتات في غرفهن حالما انتشرت أنباء هزيمة الجيش في ينكينغ. كانت الأربع يعرفن بعضهن وبدا أنهن فضلتن نهاية جلييلة على الاغتصاب والدمار الذي اعتبرن ألا مفر منه. كانت إحدى عشرة أخريات قد سلكن الدرب نفسه في الأسابيع التي تلت ذلك وأصيب زهي زهونغ بالقلق من انتشار الشكل الجديد للموت عبر المدينة. شبك يديه خلف ظهره، ونظر من فوق البحيرة إلى منازل النبلاء. كانت سنصلهم أنباء أفضل ذلك اليوم. ربما سيترددون بمسكانينهم العاجية وإداء سخرتهم من مهارته. كانت ينكينغ لا تزال تقاوم الغزاة.

أدرك الوصي أنه كان متعباً وجائعاً، لم يكن قد تناول الطعام منذ الصباح وأمضى النهار في عدد من الاجتماعات أكثر من أن يتذكره. بدا أن كل رجل سلطة في ينكينغ يحتاج إلى موافقته ونصيحته، كما لو أنه يعرف أكثر منهم ما سيحدث خلال

الشهور القادمة. تقطب حاجباه عندما فكر في إمدادات الطعام، وألقى نظرة على طاولة جانبية عليها لقائف من ورق البردي مثل هرم. كان مواطنو ينكينغ يستهلكون أنفسهم قبل الهزيمة. يمكن لذلك أن يجعل دفاعاته موضع سخرية، لكن زهي زهونغ نفسه كان قد جرد مخازن المدينة لإطعام الجيش. كان يغيظه التفكير في المغول يأكلون الإمدادات التي كان قد جمعها طيلة سنة عند المعمر، لكن لم تكن هناك فائدة من إعادة النظر في قرارات سيئة. بالمحصلة، كان والإمبراطور قد اعتقدا أنه يمكن إيقاف المغول قبل أن يصبحوا في مرمى نظر المدينة الإمبراطورية.

زم زهي زهونغ شفثيه. لم يكن تجار ينكينغ حمقى. كان توزيع حصص الطعام يتم بالقوة في المدينة. حتى السوق السوداء كانت قد انهارت عندما أتركوا أن الحصار ربما لن ينفك بسرعة. كان قلة فقط لا يزالون يبيعون الطعام بأرباح عالية. أما الباقون فكانوا يحصلون على المون لعائلاتهم. مثل كل طبقتهم، كانوا سيحاولون الانتظار حتى تمر العاصفة ثم يصبحون بدناء وأثرياء مجدداً بعد ذلك.

سجل زهي زهونغ ملاحظة ذهنية لجعل أعلى التجار يمثل أمامه. كان يعرف كيف يضغط عليه لكشف مخازنه السرية. من دونها، كان الفلاحون سيأكلون القطن والكلاب خلال شهر وبعد ذلك...؟ طمطق عنقه غاضباً. بعد ذلك، سيكون محاصراً في مكان مع مليون شخص جائع. ستكون تلك جحيماً على الأرض.

كان الأمل الوحيد ألا ينتظر المغول خارج الأسوار إلى الأبد. قال في قرارة نفسه إنهم سيتعبون من الحصار ويذهبون إلى مدن أخرى تكون دفاعاتها أقل تحصيناً. فكر زهي زهونغ عييه، سعيداً لعدم وجود أعدا العبيد لروية ضعفه. في الحقيقة، لم يكن قد عمل بجد في حياته مثلما فعل في دوره الجديد. لم يكن ينام كثيراً وعندما كان يرتاح فعلاً، كانت أحلامه مليئة بالخطط والخدع الحربية. لم يكن قد نام طيلة الليل قبل أن يقف مع فرق الأكواس.

ابتسم بتكلف عندما تذكر مجدداً تدمير آلات المغول. لو أنه استطاع فقط رؤية وجه الخان في تلك اللحظة. كان يرغب باستدعاء الوزراء لعقد اجتماع أخير قبل أن يستحم وينام. لا، ليس وهم ينظرون إليه بشيء أكثر من الهزيمة في عيونهم. سيركهم ينتظرون طيلة هذا اليوم، والذي كان قد حطم فيه صورة خان المغول الذي لا يقهر.

استدار زهي زهونغ مبتعداً عن النافذة وسلك طريقاً عبر أروقة مظلمة إلى حيث كان الإمبراطور وي يستحم كل مساء. تنهد بسعادة غامرة عندما وصل إلى الباب ودخل غرفة في وسطها حوض استحمام. كان العبيد قد سخنوا الماء استعداداً لحمامه وطمطق عنقه بينما كان يستعد للتخلص من أعباء النهار.

نزع العبيد ملابس زهي زهونغ بكفائهم المعتادة بينما كان ينظر إلى الفتاتين اللتين تنتظران أن تتركنا جلده بالزيت في حوض الاستحمام. بصمت، هنا الإمبراطور وي على حسن ذوقه. لم يكن ابنه ليستفيد من الجاريتين في البيت الإمبراطوري، على الأقل لبضع سنوات قادمة.

عازباً، غمر زهي زهونغ نفسه في الماء، مستمتعاً بالمساحة في غرفة عالية السقف. سكب الماء وترددت الأصدا في الغرفة وبدأ يسترخي فيما كانت الفتاتان تتركان جلده بالصابون بأيدٍ ناعمة. أنعشته لمساتهما...

بعد ثلاث ليالٍ من تدمير منجنيقات المغول، نزل رجلان خلسة عن أسوار ينكينغ، وهبطا المسافة القصيرة الأخيرة من دون صوت. اخفت الحبال فوق رأسيهما، وسحبها حراس العاهل الوصي.

في الظلام، نظر أحد الرجلين إلى الآخر، مسيطراً على أعصابه. لم يكن يحب رفقة القاتل وسيكون سعيداً عندما تفترق بينهما السبل. كان قد نفذ مثل مهمته من قبل للإمبراطور وي واستماع فكرة السرقعة من رعايا تشن الذين كانوا يعملون من دون كلل أو ملل لصالح خان المغول. بالنسبة لرجل، كان الخونة يستحقون الموت، لكنه سيبتسم لهم ويعمل بجد مثلهم فيما يجمع المعلومات. بطريقته الخاصة، كان يعرف أن مساهمته ستكون قيمة مثل أي جندي آخر على الأسوار. كان الوصي يحتاج إلى كل معلومة مهما كانت صغيرة عن القبائل ولم يقلل الجاسوس من أهميته لتحقيق ذلك.

لم يكن يعرف اسم القاتل، والذي ربما كان محمياً جيداً مثله تماماً. على الرغم من أنهما وفقاً معاً داخل السور، إلا أن الرجل الذي يرتدي ملابس سوداء لم ينطق بهفت شفة. لم يستطع الجاسوس مقاومة النظر إليه بينما كان الرجل يتفقد أسلحته، يربط ويؤمن النصال الصغيرة اللازمة لتحقيق مهمته فيما كانا ينتظران. لم يكن هناك شك بأن زهي زهونغ قد دفع ثروة من الذهب مقابل خدمته، والتي كانت تعني بالتأكيد موت القاتل نفسه.

كان من الغريب أن يريض بجانب رجل يتوقع أن يموت الليلة التالية، من دون أن تظهر عليه على الرغم من ذلك أي علامة على الخوف. هز الجاسوس كتفيه استخفافاً عمداً. لم يكن يرغب بأن يتبادل المواقع معه أو يفهم الطريقة التي يفكر فيها مثل ذلك الشخص. ما الدافع الذي يكمن خلف مثل ذلك الولاء الأعمى؟ على الرغم من أن مهمته خطيرة مثل أخرى قام بها في الماضي، إلا أنه كان يأمل بالعودة إلى أسراده، وإلى بيته.

بملايسمه الذاكنة، كان القاتل يشبه الظل. كان رفيقه يعرف أنه لن يرد حتى إذا تجرأ على الهمس بسؤال له. كان الرجل يركز على ما يفعله، وقد باع حياته. لم يكن يسمح لشيء بأن يشتت انتباهه. بصمت مطبق، صعدا قارباً خشبياً صغيراً واستعملا سارية ليبحرا الخندق الأسود. كان هناك جبل مربوط إلى طرفه الآخر لئيم سحبه وإخفاؤه، أو إغراقه. لن يكون هناك أثر للرجلين يثير الشبهات في ضوء النهار.

على الطرف الآخر، جثم الرجلان عندما سمعا جلبة جواد. كان المستطلعون المغول ماهرين، لكنهم لا يستطيعون التدقيق في كل بقعة مظلمة، وكانوا يراقبون ظهور أي علامة على وجود قوة، وليس رجلين ينتظران التسلل خلسة إلى معسكرهم. كان الجاسوس يعرف أين أقام رعيا تشن خيابهم، مقلّين بيوت أسياهم الجدد من دون خجل. كانت هناك فرصة بأن يكتشفوه وأن يلقى حتفه أيضاً، لكن تلك كانت مخاطرة تتعلق بمهارته ولم نحوه. أشاح بصره بعيداً، محرجاً. طيلة حياته، كان قد سمع بالقرفة، وهم رجال يتربون طيلة ساعات استيقاظهم على القتل. لم يكن لديهم شرف كجنود يفهمون الشرف. كان الجاسوس قد لعب دور جندي عدداً كافياً من المرات ليعرف عقيدتهم وشعر بالامتياز لدى التفكير برجل يعيش فقط ليقتل. كان قد رأى إخفاء قوارير السم التي بحوزة الرجل وسلك الخنق الذي كان قد لقّه بخبرة حول معصمه.

كان يقال إن ضحايا القتل يمتلئون قربانهم لألهة الظلام. كان موتهم الإثبات الأخير على إيمانهم ويضمن لهم مكاناً مرموقاً على عجلة الحياة. هزّ الجاسوس كتفيه غير مهال مجدداً، منزعاً من أن عمله جعله رفيقاً لمثل ذلك المدمر.

تلاشت أصوات مستطلمي المغول واهتز الجاسوس متفاجئاً عندما شعر باللمسة الخفيفة على ذراعه. دفع القاتل بجرة دقيقة بين يديه. كانت رائحتها كريهة من دهن الضأن الفاسد ولم يسمع الجاسوس سوى أن ينظر إليها بارتباك.

تمتم القاتل: 'ضعه على جلدك. من أجل الكلاب'.

عندما فهم الجاسوس الأمر، نظر إلى الأعلى، لكن الشكل الأسود كان يمشي مبتعداً آنذاك بخطوات صامتة، واختفى في الظلام. شكر الجاسوس أسلافه على الهدية وفرك الدهن فوق جلده. فكّر في البداية أن ذلك لطيف منه، على الرغم من أن القاتل علي الأرجح لم يكن يرغب بأن ينهض المعسكر فيما يقوم بتنفيذ مهمته. احمرّ وجهه إذلاً من الفكرة. لن تكون هناك مفاجآت أخرى تلك الليلة.

عندما استعاد رباطة جأشه، وقف وهرب عبر الظلام، متجهاً إلى المقصد الذي كان قد رافقه في أثناء النهار. من دون رفيقه المتجه، شعر بأن الثقة بدأت تعود إليه.

خلال وقت قصير، سيكون بين رعايا تشن، يندرش ويتكلم معهم كما لو أنه يعرفهم منذ سنين. كان قد فعل ذلك من قبل، عندما شك الإمبراطور بولاء حاكم أحد الأقاليم. وضع الفكرة جانباً، متذكراً أنه ينبغي أن يصل إلى المكان قبل أن ينفذ القاتل ضربته وإلا سيتم اعتقاله واستجوابه. مشى بهدوء عبر المعسكر النائم، وألقى التحية على محارب مغولي عندما خرج الرجل ليتبول في الليل. رد عليه الرجل نعتاً بلغته الخاصة من دون أن يتوقع أنه يفهمه. رفع كلب رأسه عندما مرّ به، لكنه همهم بصوت خافت فقط عندما شم رائحته. ابتسم الجاسوس غير المرئي في الظلام، وكان قد أصبح في الداخل.

اقترب القاتل من الخيمة الكبيرة للخان، وتحرك عبر المعسكر المظلم مثل شبح. كان قائد المغول أحمق لأنه كشف موقعه لكل شخص على أسوار ينكينغ. كان ذلك من نوع الأخطاء التي يقرؤها الإنسان مرة واحدة فقط، عندما لا يكون يعرف شيئاً عن الجمعية السوداء. لم يكن القاتل يعرف إن كان المغول سيعودون إلى جبالهم وسهولهم عندما يموت الخان. لم يكن يهتم لذلك. كان سيده قد منحه رقعة مربوطة بشريط حريري أسود في احتفال رسمي، ترهن حياته برباط الدم. بغض النظر عما يحدث، لن يعود إلى إخوانه. إذا فشل، سينتحر بدلاً من أن يتم إلقاء القبض عليه ويكشف ربما أسرار نظامه. زَمَ شفتيه بمتعة ظلامية؛ لن يقتل. كان المغول رعاة أغنام، ماهرين باستعمال القوس، لكنهم مثل الأطفال ضد رجل بمثل تدريبه. لم يكن هناك شرف كبير في اختياره لقتل خان رجال القبائل الننتين هؤلاء، لكنه لم يفكر في ذلك. كان الشرف يأتي من الطاعة والموت الكريم.

لم يَرَهُ أحد عندما وصل إلى الخيمة الكبيرة على عربتها، والتي تضيء بلون أبيض في الظلام. لاحظ فوقه بينما كان يزحف نحوها، وينظر بحثاً عن حراس. كان هناك رجلان بالقرب منها. استطاع سماع صوت أنفاسهما فيما كانا يقفان بثبات ممل، ينتظران الأوامر لينصرفا. من أسوار ينكينغ، كان مستحيلاً معرفة التفاصيل ولم يكن يعرف كم مرة يتم تبديلهم في الليل. كان ينبغي عليه التصرف بسرعة حالما ينقل الموت إلى ذلك المكان.

واقفاً بصمت كامل، راقب القاتل بينما كان أحد الرجلين يتحرك بعيداً ويطوف حول خيمة الخان. لم يكن المحارب متأهباً، وفي الوقت الذي شعر فيه بشخص يقف في الظلال، كان الوقت قد فات. شعر الحارس بشيء يحزّ عنقه ويقطع حنجرته، مما خلق صرخته. خرجت تنهيدة من هواء ملطخ بالدماء من رنثيه وهمس الحارس الآخر

بسؤال، ولم يكن متأهياً بعد. وضع القاتل الحارس الأول أرضاً واقترب من حافة العربة، وقضى على الثاني بسرعة عندما اقترب منه. مات الثاني أيضاً من دون صوت وتركه القاتل حيث سقط، وعبر بسرعة إلى الدرجات التي تقود إلى الأعلى. كان رجلاً صغيراً وبالكاد أصدر صوتاً تحت ثقله.

في الظلام الداخلي، استطاع سماع أنفاس بطيئة لرجل يغط في نومه. زحف القاتل ببطء على الأرضية، بتوازن تام، وصل إلى الشكل النائم وجثم بجانب السرير المنخفض. كانا وحدهما. سحب سكيناً حادة، وكان معدنها أسود من سخام زيتي حتى لا تلمع.

دفع يده إلى الأسفل نحو مصدر الأنفاس، وعثر على الفم. عندما اهتز النائم، أنزل السكين بسرعة إلى الحنجرة. وقد تم إخماد الأتئين بالسرعة التي بدأ بها واستلقى الجسم الذي كان يخلج ساكناً من دون حراك. انتظر القاتل حتى عاد الهدوء إلى المكان، وكان يتنفس بصعوبة من رائحة الأمعاء الممزقة. في الظلام، لم يستطع رؤية وجه الرجل الذي كان قد قتله واستعمل أصابعه ليعين المعالم، وتقطب حاجباه عيوساً. لم تكن رائحة الرجل مثل المحاربين في الخارج. ارتعشت يده قليلاً عندما كانتا تستكشfan الفم المفتوح والعينين، وتنقلان إلى الشعر.

لعن القاتل نفسه عندما من الضفائر المدهونة بالزيت لأحد أبناء قومه. كان بالتأكد خادماً، وشخصاً يستحق الموت شقاً لمساعدته المغول بتقديم خدماته لهم. جلس القاتل على عقيقه بينما كان يفكر في ما ينبغي القيام به. سيكون الخان قريباً بالتأكد، كما فكر. كان هناك عدد من الخيام المتناثرة حول الخيمة الكبيرة. كانت إحداها ستضم الرجل الذي يسعى خلفه. سيطر القاتل على نفسه، وتمتم كلمات من تدريبه كانت تجلب له السكينة مباشرة. لم يكن قد استحق الموت بعد.

الفصل السابع والعشرون



استطاع القاتل سماع أصوات تنفس عندما دخل خيمة أخرى. كان الظلام حالكاً، لكنه أغلق عينيه وركز على الأصوات. كان هناك خمسة أشخاص نائمين في تلك المساحة الصغيرة، غافلين جميعاً عن الرجل الواقف فوقهم. كان أربعة منهم يتنفسون بصعوبة وعين مجدداً لأنه أيقن أن النيام أطفال. وربما كانت القائمة الأخيرة والذتهم، على الرغم من أنه لم يستطع التأكد من ذلك من دون ضوء. شرارة واحدة من ضرب صوان بفولاذ ستكون كافية، لكن كان في الأمر مجازفة. إذا أفاقوا، لن يستطيع قتلهم جميعاً قبل أن يصرخوا. فأتخذ القرار بسرعة.

نجم عن ضربة سريعة واحدة وميض ضوء في الخيمة، وكان كافياً لإظهار خمسة أجساد نائمة. لم يكن أحدها كبيرة بما يكفي لرجل راشد. أين كان الخان؟ استدار القاتل ليفاندر، قلقاً من نفاد الوقت. لم يكن سينقضي وقت طويل قبل أن يتم اكتشاف الحارسين الميتين. عندما سيتم العثور عليهما، سيتحطم سكون الليل. شخر أحد الأطفال النائمين، وتغير إيقاع صوته. تجدد القاتل. انتظر وقتاً بدأ طويلاً حتى استعاد الطفل أنفاسه المعتادة، ثم تقدم بهدوء نحو باب الخيمة. كان قد دهن المفصلات بالشحم وفتح الباب من دون أن يصدر عنه صوت. شد قامته بينما كان يخلق الباب خلفه، وأدار رأسه ببطء ليختار الخيمة التالية. ما عدا الخيمة السوداء المميزة التي تواجه المدينة وتلك الموجودة على العربة، كانت كل الخيام تبدو مثل بعضها تماماً.

سمع القاتل صوتاً خلفه واتسعت عيناه عندما أدرك أنه صوت سحب نفس، من السلوع الذي يظهر قبل إطلاق صرخة أو صيحة. كان يتحرك حتى عندما انطلق الصوت، مبتعداً في الظلال الداكنة. لم يفهم الكلمات التي ترددت في الليل، لكن رد الفعل كان مباشراً تقريباً. خرج محاربون بسرعة من كل خيمة في مرمى النظر، وأقواسهم وسيوفهم جاهزة في أيديهم.

كان جوشي من صرخ وقد أيقظه من نومه وجود رجل صامت في بيته. كان
أشقاءه الثلاثة قد استفاقوا مرتعشين من صرخته وبدلوا معاً بطرحون أسئلة في الظلام.
سألت بورت بصوت أعلى من الضجيج، وهي ترمي البطانيات عنها: "ما
الأمر؟".

كان جوشي يقف آنذاك في الظلام.
قال: "كان هناك شخص هنا. أيها الحراس؟".
قالت بورت بحدّة: "ستوقظ المعسكر بأكمله. لم يكن سوى حلم سيئ".
لم تستطع رؤية وجهه عندما رد. "لا. لقد رأيته".
نهضت تشاغاتي ليقف بجانب شقيقه. صدحت أبواق التنير من بعيد وأطلقت
بورت لعنة بصوت خافت.

"تضرع أن تكون محقاً يا جوشي، وإلا سيسلخ والدك جلنك عن جسدك".
فتح جوشي الباب على مصراعيه وخرج من دون أن يزجج نفسه بالبرد. كان
المحاربون يستافعون حول الخيام، ويبحثون عن المتطفل حتى قبل أن يعرفوه. ابتلع
ريته بصعوبة ممثلياً ألا يكون قد حلم بالرجل.

جاء تشاغاتي إليه في الخارج، عاري الصدر لا يضع سوى طماقات اتقاء البرد.
كان هناك ضوء نجوم خافت في الخارج، لكن القوضى كانت عارمة وأمسك بهما
رجل مرتين وتركوهما يفلتان من قبضاتهم القوية فقط عندما عرفوهما.
رأى جوشي والده يمشي بخطوات واسعة بين الخيام، وقد شعر سيفه، لكنه كان
يحمّله كيفما اتفق بيد واحدة.

قال: "ما الذي يجري؟". توقفت نظراته عند جوشي، لاحظت عصبيته. ذبل الفتي
بتأثير النظرة القوية، وأدرك فجأة أنه قد أيقظهم جميعاً دونما سبب. على الرغم من
ذلك، واجه الأمر بتحدٍّ ورفض أن يكون موضع سخرية أمام والده.
كان هناك رجل في الخيمة. استيقظت ورأته يفتح الباب ليغادر.
تألف جنكيز، لكن قبل أن يرد، صرخت أصوات جديدة في الليل.
"رجلان مقتولان هنا".

لقد جنكيز اهتمامه بأبناؤه، وزمجر بصوت عالٍ من فكرة وجود عدو طليق في
المعسكر.

صرخ: "جنود". رأى كثيرون يأتي مسرعاً، وسيف طويل بين يديه. لم يكن خاسر
بعيداً خلفه ووقف الأشقاء الثلاثة معاً فيما كانوا يحاولون فهم سبب تلك القوضى.
قال كثيرون عندما توقف، وكان وجهه لا يزال منقطعاً من النوم: "آل لي".

هز جنكيز كتفيه استغافاً، مشدوداً مثل وتر قوس.

”راى جوشي رجلاً في خيمته وهناك حارسان مقتولان. هناك شخص بيننا وأريد العثور عليه.“
”جنكيز!“

سمع بورت تنادي باسمه واستدار نحوها. من طرف عينه، رأى شكلاً داكناً يتحرك لدى سماع الاسم.

استدار جنكيز حول نفسه ولمح القاتل يثب عليه. لوح بسيفه وتلخى الرجل جانباً، وتخرج مثل البهلوان ووقف يحمل سكينين في يديه. رأى جنكيز أنه سيرمي بهما قبل أن يستطيع ضربه مجدداً وقفز على الشكل الداكن، وأسقطه أرضاً. مست شرارة ألم حنجرته وأسرع شقيقاه بطعن القاتل، ودفعا سيفيهما عميقاً بقوة كبيرة حتى وصلا إلى الأرض تحته. ولم يصرخ الرجل.

حاول جنكيز النهوض، لكن العالم دار ببطء وأضحت رؤيته مشوشة بشكل غريب.

قال وهو يشعر بدوار ويقع على ركبتيه: ”لقد أصبت...“. استطاع سماع قنمي القاتل تسحب على الأرض ووضع شقيقاه ركبهما على صدره، وقاما بتحطيم أضلاعه. رفع جنكيز يده إلى عنقه وطرقت عيناه على الأشكال الملطخة بالدماء. كانت اليد ثقيلة جداً وسقط إلى الوراء على أرض جافة، وكان لا يزال مشوشاً.

رأى وجه جيلم يلوح فوقه، ويتحرك ببطء. حقق جنكيز إلى الأعلى، ولم يستطع سماع ما كان يقوله. رأى جيلم يمد يده ويمزق القماش الذي يغطي الجرح في عنقه. عندما تكلم مجدداً، بدا أن الصوت يدوي في أنفي جنكيز، والذي تحول إلى همسات متسارعة جعلته لا يسمع شيئاً. التقط جيلم سكين القاتل وأطلق لعنة عندما شاهد المادة الداكنة على طول الحافة.

قال جيلم، وانعكس خوفه على كشيون وخاسار اللذين كانا يققان مدهولين فوق شقيقهما: ”السكين مسمومة“. لم يتكلم القائد مجدداً، ووضع بدلاً من ذلك فمه على عنق جنكيز ومصّ الدم المتدفق منها. كان حاراً ولاذعاً جعله يتقيأ عندما بصقه إلى أحد الجانبين. لم يتوقف، على الرغم من أن يدي جنكيز لطمتا وجهه بضربات ضعيفة، وقد خارت قوته.

سمع جيلم أبناء الخان الصغار ينتحبون بأسى عندما شاهدوا والدهم يستلقي قريباً من الموت. التزم جوشي وتشاغاتي الصمت، وراقبا جيلم يبصق ملء فمه من الدماء حتى أصبحت مقدمة رداكه ملطخة به.

اندفع كوكشو عبر الحشد، وتوقف مصدوماً عندما رأى الخان على الأرض. جثا إلى جانب جيلم ومرّر يديه فوق صدر جنكيز متلفداً قلبه. كان يخلق بسرعة لا تصدق، وللبعض الوقت، لم يستطيع كوكشو تمييز ضرباته. كان العرق يتصبب من جسد الخان كله وكان جلده أحمر وحاراً.

مصص جيلم وبصق وتنفق الدم. كان القائد يشعر بأن شفثيه تصبحان خدرتين وتساءل إن كان السم سينقل إليه. لم يكن ذلك مهماً. فكر في الأمر كما لو أنه يشاهد شخصاً آخر. سال الدم على شفثيه بينما كان يلهث بين كل محاولة وأخرى.

حذرهم كشيون، وكانت يداه النحيلتان لا تزالان على الصدر: "ينبغي ألا تريق الكثير من الدماء، وإلا سيصبح ضعيفاً جداً ليقاوم السم الذي يبقى". نظر إليه جيلم بعينين مليئتين بالدموع قبل أن يومئ موافقاً ويدفع وجهه بالجلد الممزق مرة أخرى. كانت وجنتاه قد احمرتا نتيجة التماس مع مثل تلك الحرارة وتابع عمله لأن التوقف كان يعني رؤية خاتنه يموت.

شعر كوكشو بالقلب الذي يخلق بسرعة ينتفض وخشي أن يتوقف تحت يديه. كان بحاجة للرجل الذي كان قد منحه ذلك الاحترام بين القبائل، خاصة أن تيموج آنذاك قد تخطى عنه. بدأ كوكشو يتضرع بصوت عالٍ، مستحضراً الأرواح بأسمائها القديمة. نادى على سلالة جنكيز نفسها بأصوات متلاحقة. نادى ياسوجي، وحتى بكثر، الشقيق الذي كان جنكيز قد قتله. كان بحاجة إليهم جميعاً لإبعاد الخان عن مملكتهم. شعر كوكشو أنهم يجتمعون بينما كان يثشد بأسمائهم، ويحتشدون حوله حتى امتلأت أذنيه بالهمسات.

انتفض القلب مجدداً وشقيق جنكيز بصوت عالٍ، وعيناه المفتوحان تحدقان إلى غير هدى. شعر كوكشو بالنفض المتسارع يستقر، ونياطاً فجأة كما لو أن باباً أغلق في الداخل. ارتعش في البرد، وفكر للحظات قليلة أنه كان يمسك بمستقبل القبائل في يديه.

قال بصوت أجش: "يكفي الآن، لقد أصبح قلبه أقوى". تراجع جيلم إلى الخلف. مثمما كان سيفعل مع جواد مصاب بجرح بليغ، صنع القائد عجلة من التراب والبصاق وضغط بها على الجرح. انحنى كوكشو فوق جنكيز ليراقب العملية، وارتاح عندما رأى الدم يتساقط إلى وشل. لم تكن أي من الأوردة الرئيسية قد قطعت وبدأ كوكشو ينتهج لفكرة أن جنكيز لا يزال حياً.

مرة أخرى، بدأ كوكشو يتضرع بصوت عالٍ، مرغماً أرواح الموتى على العناية بالرجل الذي شكل أمة. لم يكونوا ليرغبوا بانضمام مثل ذلك الرجل إليهم فيما يقود

شعبه قديماً إلى الأمام. كان متأكداً من ذلك بشكل أخافه. كان رجال القبائل يراقبون بأسى عندما مرر كوكشو بديه فوق الجسد الممدد على ظهره، وأخذ يجمع خيوطاً غير مرئية كما لو أن الأصابع النحيلة تلف الخان شبكة من الأرواح والإيمان. نظر كوكشو إلى بورت التي كانت تقف محمرة العينين وتترنح من الصدمة. كانت هولن هناك أيضاً، شاحبة وبائسة وهي تتنكر موت خان آخر قبل سنوات عديدة. أشار إليهما كوكشو بأن تقتربا.

قال لهما، وعينه تلمعان: لقد تركته الأرواح هنا، الآن. يأسوجي هنا، مع والده بارتان. بكثر هنا لدعم الخان، شقيقه. ارتعش في البرد، ولمعت عيناه للحظة. لقد مصّ جيلم مقداراً كبيراً من السم، لكن قلبه ينتفض؛ ويكون أحياناً قوياً وأحياناً ضعيفاً. يحتاج إلى الراحة. إذا كان سيأكل، امنحوه دماً وحلياً ليسرجع قوته. لم يعد كوكشو يشعر آنذاك بالبرودة الشديدة للأرواح تتجمع حوله، لكنها كانت قد قامت بعملها. كان جنكيز لا يزال حياً. نادى شقيق الرجل ليحملاه إلى الخيمة. تنبه كشيون من غفلته ليأسر المعسكر بالبحث عن أي عدو آخر لا يزال مختبئاً. بعد ذلك، رفع جسد شقيقه الرخو على كتفه مع خاسار وحمل جنكيز إلى خيمة بورت.

تركوا جيلم جاثياً، بهز رأسه حزناً. مذ والده أرسلان يده إليه في اللحظة التي تقياً فيها القائد الشاب على الأرض المليئة بالدماء.

أمر أرسلان وهو يدفع ابنه للوقوف على قدميه: "ساعدوني". كان وجه جيلم كئيهاً وأرخی بكامل ثقله على والده قبل أن يتقدم محاربان ويضعان ذراعيه حول كتفهما. سأل أرسلان كوكشو: "ما خطبه؟". أثناح الكاهن العراف نظره عن خيمة جنكيز. استعمل أصابعه ليفتح عيني جيلم عن آخرهما، ويحقق فيهما. كان اليوبزان كبيرين وداكنين وأطلق كوكشو لعنة بصوت خافت.

"ربما يكون قد ابتلع الدم. لقد دخل إليه بعض السم أيضاً". دفع كوكشو بيده تحت رداء جيلم الرطب، متحمساً صدره.

ليس بالشيء الكثير وهو قوي. أبقه مستيقظاً إذا استطعت. اجعله يمشي. ساحضّر جرعة من فحم الخشب ليثربها.

أوماً أرسلان برأسه. أشار إلى أحد المحاربين اللذين يستندان جيلم وأخذ مكانه، ووضع ذراع ابنه حول عنقه كما لو أنهما يتعاقان. مع الرجل الآخر، دفع جيلم للمشي بين الخيام، وتكلم إليه في أثناء ذلك.

لم يتحرك الحشد المترابدين من المحاربين، النساء والأطفال. لم يكونوا ليعودوا إلى النوم حتى يتأكدوا أن خاتهم سيعيش. استدار كوكشو عنهم، وكان بحاجة لتحضير

عجينة من فحم الخشب يمكنها امتصاص السم الذي ابتلعه جيلم. إن تكون العجينة ذات رائحة كبيرة لجنكيز، لكنه سيجلب وعاءً ثانياً له أيضاً. عندما وصل إلى حلفة الوجوه التي تَحْتَق مراقبةً ما يجري، أفسحوا المجال له وعندها فقط كان تيموج يشق طريقه عبرهم إلى المقدمة. وأُتِد الحقد في عيني كوكشو.

قال كوكشو بهدوء عندما اقترب تيموج: لقد تأخرت كثيراً على مساعدة الخان. قتل شقيقاه القاتل وأبقته مع جيلم حياً.

هتف تيموج وهو يحرق حوله إلى الوجوه الكثيرة البائسة والخائفة: "قاتل؟". قال له كوكشو: "ينبغي معالجة بعض الأشياء بالوسائل القديمة. لا يمكن عذها أو وضعها على لوانك".

ردّ تيموج على إهانة الكاهن العراف كما لو أنها صغفته. قال: "كيف تجرؤ على التكلّم معي؟". هزّ كوكشو كتفيه استخفافاً ومشى مبتعداً. لم يستطع مقاومة إبداء ملاحظة جارحة، على الرغم من معرفته بأنه سيلدّم عليها. تلك الليلة، كان الموت قد طاف بالمعسكر ووقف كوكشو له بالمرصاد.

ازداد حجم الحشد بينما كان الوافدون الجدد يضغطون على أولئك الموجودين في المقدمة، متلهفين للأنياء. تمت إضاءة مشاعل في المعسكر فيما كانوا ينتظرون بزوغ الفجر. كان جسد القاتل ممدداً مسحوقاً على الأرض وحقنوا إليه برهبة بسيطة غير راغبين بالاقتراب كثيراً منه.

عندما عاد كوكشو مع وعائين من شراب أسود كثيف، اعتقد أنهم يشبهون قطيعاً من الثيران في يوم النحر، وكانوا يائسين وقد أضحت عيونهم دلّكة لكنهم لا يستطيعون فهم ما جرى. أمسك أرسلان بفك ابنه وأمال الرأس بينما كان كوكشو يدفع السائل المرير في فمه. غصن جيلم وسعل، وبصق قطرات سوداء على وجه والده. كان قد استعاد بعض وعيه في الوقت الذي استغرقه طحن فحم الخشب ولم يتردد كوكشو معه. دفع بوعاء نصف فارغ في يد أرسلان وتابع طريقه حاملاً الوعاء الآخر. لا يمكن لجنكيز أن يموت، ليس في ظل بنكينغ. شعر كوكشو برهبة وبرودة تسري في جسده عندما فكر بالمستقبل. تخلص عن خوفه بينما كان يدخل الخيمة الصغيرة، وخفض رأسه ليمر تحت الحافة العليا. كانت الثقة جزءاً من صنعه ولن يدعهم يروونه خائفاً جداً.

عندما اقترب بزوغ الفجر، خرج خاسار وكشيون، غير متبهين لألاف العيون التي تسعرت عليهما. استعاد خاسار سيفه من حيث كان عالقاً في صدر الرجل الميت وركل الرأس المتراخي قبل أن يغمده.

صرخ أحدهم: "هل الخان حي؟".

ألقي خاسار نظرة غاضبة عليهم، من دون أن يعرف من كان قد تكلم.

قال: "إنه حي". ثم تكرر كلماته همساً حتى سمعوها جميعاً.

التقط كثيرون سيفه من حيث كان قد وقع ورفع رأسه عندما سمع صوتاً. لم يكن يستطيع مساعدة شقيقه في الخيمة وربما لهذا السبب اتقد غضباً عندما راهم.

قال كثيرون بحدّة: "هل سينام أعداؤنا فيما نجتمع نحن هنا؟ لن يناموا. اذهبوا إلى خيامكم وانتظروا الأنباء". لدى رؤية نظراته الصارمة، استدار المحاربون مبتعدين أولاً، ومسروا عبر تجمع النساء والأطفال. بدأ هؤلاء أيضاً التحرك بعيداً، وحنقوا إلى الخلف كيما اتفق.

وقف كثيرون مع خاسار كما لو أنهما يحرسان الخيمة التي يستلقي فيها جنكيز. كانت زوجة الخان الثانية تشاكا هي قد جاءت، ووجهها قناع شاحب من الخوف. كان الرجال كلهم يتطلعون إلى بورت ليروا كيف ستصرف، لكنها أومات فقط إلى امرأة كزي كزيا بإشارة على قبول وجودها. في الصمت، استطاع كثيرون سماع نمتة إنشاد كوكشو في الخيمة. للحظة، لم يكن يرغب بالعودة إلى الداخل الكريه الرائحة، المزدهم بأولئك الذين يحبون شقيقه. كان يخفف من حزنه نوعاً ما وجود الآخرين. تنفس بعمق في الهواء البارد، وعمل على تنقية ذهنه.

قال: "لا يوجد شيء آخر يمكننا فعله. الفجر على وشك أن يبرز وهناك أشياء ينبغي أن نناقشها. تعال معي يا خاسار، لبعض الوقت".

تبعه خاسار إلى حيث لا يمكن سماعهما. كان قد مرّ وقت طويل قبل أن يخرجوا من المعسكر، وأقداسهما تطلّ أعشاباً متجمدة.

قال خاسار أخيراً، بعد أن أوقف شقيقه بأن وضع يداً على ذراعه: "ما الأمر؟ ماذا تريد؟".

استدار كثيرون إليه، ووجهه غاضب. "قتلنا الليلة. قتلنا في الحفاظ على أمن المعسكر. كان ينبغي أن أفكر بأن الإمبراطور سيرسل قتلّة. كان ينبغي أن أضع المزيد من الحراس لمراقبة الأسوار".

كان خاسار متعباً كثيراً لمناقشة ذلك الأمر.

قال: "لا يمكنك تغيير ذلك الآن. إن كنت أعرفك، لن يكرر ذلك مجدداً".

قال كثيرون بحدّة: "مرة واحدة قد تكون كافية. إذا مات جنكيز، ماذا سنفعل عندها؟".

هزّ خاسار رأسه. لم يكن يريد التفكير في ذلك. عندما تردّد، أمسك به كثيرون من كتفيه، وهزّه تقريباً.

رد خاسار: "لا أعرف! إذا مات، سنعود إلى الوطن عند جبال خيلتي ونقدمه للصقور والنسور. إنه خان، ماذا تتوقع مني أن أقول؟".
رفع كشيون يديه عنه.

"إذا فعلنا ذلك، سيُدعى الإمبراطور أنه حقق نصراً عظيماً ضدنا". بدا كما لو أنه يتكلم إلى نفسه ولم يقاطعه خاسار. لم يكن يستطيع أن يتخيل المستقبل إن لم يكن جنكيز موجوداً.

تابع كشيون بتجهم: "سيرى الإمبراطور جيشنا ينسحب. خلال سنة، ستعرف كل مدينة تشن أننا انسحبنا".
لم يقل خاسار شيئاً.

قال كشيون: "ألا ترى الأمر يا شقيقي؟ سنخسر كل شيء".
رد خاسار وهو يتتأعب: "يمكن أن نعود". هل نال قسطاً من النوم على الإطلاق.
لم يكن متأكداً من ذلك.
تألف كشيون.

"خلال سنتين، سوف يهاجمونا. لقد رأى الإمبراطور ما يمكننا فعله وإن نقترف الأخطاء نفسها مجدداً. إنها فرصة واحدة صنعناها بأنفسنا يا خاسار. لا يمكنك أن تجرح دماً ثم تهرب. سيلاحقك".

قال خاسار بعناد: "سيعيش جنكيز. إنه أقوى من أن يموت".
رد كشيون: "الفتح عليك يا شقيقي! يمكن أن يموت جنكيز مثل أي رجل آخر. إذا مات فعلاً، من سيقود القبائل، أم ستراهم يتمزقون مجدداً؟ كم سيكون الأمر سهلاً عندها على جيش تشن عندما يخرج للصيد؟".

رأى خاسار أول أضواء الفجر الوردية خلف ينكينغ من بعيد. رحب به في ليلة كان يعتقد أنها لن تنتهي أبداً. كان كشيون محقاً. إذا مات جنكيز، ستتخطم الأمة الجديدة إلى أشلاء. سوف يستعيد الزعماء القدماء سلطانهم على القبائل المتصارعة. هز رأسه ليصحو.

قال لكشيون: "لهم ما نقوله. لست أحمق. تريد مني أن أهلك كخان".
وقف كشيون متسماً لدى سماعه ذلك. لم تكن هناك طريقة أخرى، لكن إذا لم يكن خاسار يفهم الأمر، سيبدأ اليوم الجديد بلقطة دماء عندما تتقاتل القبائل لتزحل أو تبقى موالية لهم. كان جنكيز قد كتبها معاً. عند أول إشارة على الضعف، سيختير الزعماء الحرة ويقاوتون للاحتفاظ بها.
سحب كشيون نفساً عميقاً، وكان صوته هادئاً.

نعم يا شقيقتي. إذا مات جنكيز اليوم، ينبغي أن تشعر القبائل بيد قوية على أعناقها".

قال خاسار بلطف: "أنا أكبر منك. أقدو العدد نفسه من المحاربين".
لست من نوع الرجال الذين يقودون الأمة. تعرف ذلك". كان خفقان قلب كشيون يتسارع وهو يحاول جعل خاسار يفهم. "إذا كنت تعتقد أنك كذلك، سأقطع عهدي لك. سيتبع قادة الجيش ما أقوم به ويرغمون الزعماء على فعل ذلك. لن أقاتلك على هذا يا خاسار، ليس وكل شيء على المحك".

صرف خاسار التعب عن عينيه بينما كان يفكر في الأمر. كان يعرف ما تكبده كشيون ليقدم له ذلك العرض. كانت فكرة قيادة القبائل تجعله ينتشي، وهي شيء لم يكن قد حلم به من قبل. كانت الفكرة تغريه. على الرغم من ذلك، لم يكن الشخص الذي يرى المخاطر التي تحيط بالأمة الهشة. كانت تلك مثل شوكة في جسده تؤرقه. كان القادة يأتون إليه متوقعين أن يحل مشكلاتهم، والعتور على طريق عبر الصعاب التي لم يكونوا يستطيعون تخطيها. كان عليه حتى أن يضع خططاً للمعارك، وكان النصر أو الهزيمة متعلقين بكلمته.

كان اعتراف خاسار بنفسه مزوجاً بمعرفة أن شقيقه أفضل للقيادة. لم يكن يشك أن كشيون سيدعمه بالكامل إذا أصبح خائناً. كان سيحكم شعبه ولم يكن أحد ليعرف أبداً بشأن تلك المحادثة. كما كان جنكيز، سيكون أب كل شعبهم. سيكون مسؤولاً عن الحفاظ على حياتهم ضد إمبراطورية قديمة انحنت أمام جبروتهم.

أغلق عينيه، وسمح للأفكار اللامعة بالخروج من ذهنه.

"إذا مات جنكيز، سأقطع عهدي لك يا شقيقتي الأصغر. ستكون الخان".

تهد كشيون بارتياح بعد الإزهاق. كان مستقبل شعبه متعلقاً بثقة خاسار به.

قال كشيون: "إذا مات، سأحرص على تسمير كل مدينة تشن بالنار، وأبدأ من ينكيغ". نظر كلا الرجلين إلى أسوار المدينة التي تلوح أمامهما، وكانا موحدتين في رغبتهما بالنار.

وقف زهي زهونغ على منصة رماة، عالياً فوق السهل ومعسكر المغول. كان نسيم بارد يهب عليه وكانت يداه خدرتين على الحاجز الخشبي. كان يقف هناك منذ ساعات، يراقب القبائل بحثاً عن إشارة ما على أن القاتل نجح في مسعاه.

قيل وقت قصير فقط، كان سهرة قد أتى أكله. تحركت نقاط ضوء بين الخيام وكان زهي زهونغ قد أمسك بالحاجز بقوة أكبر، وابتضت مفاصله بينما كان ينظر إلى

البعيد. تسابقت أشكال داكنة عبر يقع الضوء المراقصة وارتفعت آمال زهي زهونغ،
وتخيل انتشار الذعر بينهم.
همس، وحيداً في برج المراقبة: "كن ميتاً".

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الثامن والعشرون



فتح جنكيز عينيه المحققتين، ووجد كلتا زوجتيه ووالدته إلى جانبه. شعر بضعف مروع وكان عنقه ينبض ألماً. رفع يده فأسرعت تشاكاهي وأمسكت بمعصمه قبل أن يفسد الضمادة. دارت أفكاره ببطء وحنق إليها، محاولاً أن يتذكر ما حدث. استعاد في ذهنه أنه كان يقف خارج الخيمة، ومحاربون يندفعون من حوله. كان الوقت ليلاً والظلام لا يزال حالكاً في الخيمة، مع مصباح صغير فقط يبعد الدجنة. كم مرّ من الوقت؟ طرقت عيناه ببطء، ضائعاً. كان وجه بورت شاحباً وقلعاً، وتبدو عليه دوائر سوداء تحت عينيه. ورأها تبسم له.

سأل: "لماذا... استلقي هنا؟". كان صوته واهناً ويلفظ الكلمات بصعوبة بالغة.

قالت هولن: لقد تسممت. جرحك قاتل من تشن ومصّ جيلم الدم الفاسد منك. لقد أنقذ حياتك". لم تذكر ما قام به كوكشو. كانت قد تحملت إنشاده، لكنها لم تسمح له بالبقاء، أو لأحد بدخول الخيمة. كان أولئك الذين سيدخلون سيتذكرون ابنها على تلك الحال مما سيضعف من سلطته. كونها زوجة ووالدة خان، كانت هولن تعرف حق المعرفة كيف يفكر الرجال وتترك أهمية ذلك.

بجهد كبير، كافح جنكيز للجلوس على مرفقيه. كما لو أنه كان ينتظر تلك اللحظة بالتحديد، شعر بصداق في رأسه.

تأوه وهو ينحني إلى الأمام: "دلوأ". كانت هولن سريعة بما يكفي لتتفح دلوأ جلدياً تحت رأسه بينما كان يتقيأ سائلاً أسود من معدته بسلسلة من التشنجات المؤلمة. جعل ذلك صداعه لا يحتمل تقريباً، لكنه لم يستطع التوقف، حتى عندما لم يبق شيء يخرج منه. أخيراً، استلقى على السرير، ووضع يداً فوق عينيه لحجب الضوء الخافت الذي كان يزعجه.

قالت هولن: "اشرب هذا يا بني. لا تزال ضعيفاً من الجرح".

نظر جنكيز إلى الوعاء الذي رفعته إلى شفثيه. كان مزيج الدم والحليب مرّاً على لسانه وابتلع منه مرتين قبل أن يدفعه بعيداً. شعر بأن عينيه تولمّانه وقلبه يخفق بقوة في صدره، لكن أفكاره كانت صافية على الأكل. "ساعدوني على النهوض وارثاء ملابسي. لا يمكنني الاستلقاء هنا، من دون أن أعرف شيئاً".

لغضبه، دفعته بورت للنوم على السرير بينما كان يحاول النهوض. كان يفكر للقوة ليدفعها بعيداً وفكر في استدعاء أحد شقيقه. لم يكن سعيداً بمعزّه وإن يتجاهل كشيون أو امره.

قال بصوت أجش: "لا أتذكر شيئاً. هل قبضنا على الرجل الذي فعل هذا بي؟". تبادلّت النساء الثلاث النظرات. كانت أمه من ردت.

"إنه ميت. لقد مرّ يومان يا بني. كنت قريباً من الموت طيلة ذلك الوقت". امتلأت عيناها بالدموع فيما كانت تتكلم ولم يسمع سوى التحديق إليها بارتباك. طفا الغضب من دون سابق إنذار في ذهنه. لقد كان سليماً ومعافى، ثم أفاق فجأة ليجد نفسه على تلك الحال. كان شخص ما قد سبب له الأذى: ذلك القاتل الذي ذكرته. تصاعد الغضب في نفسه مثل دخان وحاول النهوض مجدداً.

نادى: "كشيون؟"، لكنها كانت مجرد همسة في فمه. تحركت النساء حوله، ووضعن قطعة قماش رطبة باردة على جبينه بينما كان يخفض رأسه على البطانيات وهو لا يزال يحدق إليهن. لم يستطع أن يتذكر وجود كلتا زوجتيه في الخيمة نفسها من قبل. وجد أن الفكرة غير مريحة، كما لو أنهما ستيبالان الأراء بشأنه. كان بحاجة...

استولى عليه النوم مجدداً من دون إنذار واسترخت النساء الثلاث. كانت المرة الثالثة التي يستيقظ فيها خلال يومين، وفي كل مرة، كان يطرح الأسئلة نفسها. كن مستنات لأنه لم يتذكر أنهن ساعدنه على التبول في دلو، أو قمن بتغيير البطانيات عندما أفرغت أمعاؤه ما بداخلها من أوساخ سوداء والتي حملت السم خارج جسده. ربما كان ذلك فحم الخشب الذي أحضره كوكشو، لكن حتى لو ن بوله كان داكناً أكثر مما سبق لأي من النساء أن شاهدن من قبل. كان هناك ثور في الخيمة عندما امتلأ الدلو. لم تتحرك سواء بورت أو تشاكاوي لإفراغه، على الرغم من أنهما نظرتا باتجاهه وتحكّتا بعضهما بعيونهما. كانت إحداهما ابنة ملك والأخرى الزوجة الأولى لجنكيز نفسه. لم تتأزل أي منهما. في النهاية، كانت هولن من حملته إلى الخارج بمزاج سيئ وهي تحقّق إلى كليهما.

قالت تشاكاها: "بدا أقوى قليلاً هذه المرة. إن عينيه صافيتان".
لومات هولان برأسها، ومسحت جبينها بيدها. كن جميعاً مرهقات، لكنهن لم
يفقدن الخيمة سوى لقضاء حاجة أو إحضار أوعية جديدة من الدم والحليب.
"سينجو. وسيندم أولئك الذين هاجمونا. يمكن أن يكون ابني رحيماً، لكنه لن
يسامحهم على ذلك. كان من الأفضل لهم لو أنه مات".

تحرك الجاسوس بسرعة في الظلام. كان القمر قد اختفى خلف الغيوم ولم يكن
لديه سوى القليل من الوقت. كان قد عثر على مكانه بين آلاف رعايا تشن. كما كان
يأمل، لم يكن أحد يعرف إن كان الرجل من باوتو، أو لنهي أو أي مدينة أخرى. كان
يستطيع التحرك بصفة مقيم في أي منها. لم يكن هناك سوى بعض الضباط المغول
لتدريب رجال المدينة على أن يصبحوا محاربين ولم يكونوا يعتبرون أن في تلك
المهمة شرفاً عظيماً. كان في غاية السهولة بالنسبة إليه أن يتجول مع أي مجموعة
ويتابع عمله. كان الضابط المغولي بالكاد قد نظر إليه عندما كان يسلمه قوساً ويرسله
للتضمام إلى اثني عشر آخرين من رماة السهام.

عندما شاهد العلامات الخشبية تنتقل من شخص إلى آخر في المعسكر، انتابه
القلق من أن تكون دليلاً على إجراء إداري صارم. لم يكن ممكناً أن ينضم إلى
فوج من تشن بتلك الطريقة، أو حتى أن يقترب منه من دون أن يتم توجيه أسئلة له
عدة مرات. كان جنود تشن يفهمون خطر الجواسيس بينهم وطوروا تقنيات للإيقاع
بهم.

عبس الجاسوس عندما فكر في ذلك. لم تكن هناك كلمات سر أو رموز في ذلك
المكان. كانت الصعوبة الوحيدة التي يلاقيها تتمثل في إرغام نفسه على إظهار المقدار
نفسه من الجهل مثل الآخرين. كان قد ائترف خطأ في اليوم الأول عندما أطلق سهماً
أصاب به وسط الهدف مباشرة. في ذلك الوقت، لم تكن لديه فكرة عن مزارعي تشن
عديمي الفائدة الذين كان يعمل معهم، وعندما أطلقوا السهام خلفه، لم ينجح أحدهم في
إصابة الهدف. كان الجاسوس قد أخفى خوفه عندما مشى الضابط المغولي بخطوات
واسعة نحوه، وطلب منه إطلاق سهم آخر. كان حريصاً على إطلاق سهام طائشة بعد
ذلك وفقد الضابط الاهتمام به، ووجهه يخفي بالكاد اشمزازه من مهاراتهم.

على الرغم من أن الحراس كلهم قد تآمروا من المناوبة في منتصف الليل، إلا
أن القاتل الفاشل كان قد أحدث تأثيراً كبيراً في المعسكر كله. أصر الضباط المغول
على مراقبة المحيط الخارجي للمعسكر تحسباً من محاولة أخرى، حتى في قسم

المعسكر الذي يضم رعايا تشن. كان الجاسوس قد تطوع للحراسة في وقت متأخر، من منتصف الليل إلى الفجر. وضعه ذلك على حافة المعسكر وحيداً. حتى عندها، كان تُركز موقعه بنطوي على مخاطرة كبيرة، لكن كان عليه الاتصال بسوذه، وإلا ستضيع جهوده كلها. كان قد طُلب منه أن يجمع معلومات، وأن يكتشف كل ما يمكنه اكتشافه. كان يعود إليهم أن يفعلوا ما يرونه مناسباً بما يكتشفه.

جرى حافي القدمين في الظلام، وأبعد عن ذهنه فكرة قيام ضابط بتفقد حراسه. لم يكن يستطيع تقرير مصيره وكان بالتأكيد سيسمع الإنذار إن اكتشفوا أنه قد ذهب. كانت لديه بالفعل كلمة سر يمكنه استعمالها عند السور ولن تمر سوى لحظات قبل أن يرمي إليه قومه بحبل ويصل برّ الأمان مرة أخرى.

تحرك شيء إلى يمينه واستلقى على الأرض، وسيطر على أنفاسه وبقي ساكناً تماماً بينما كان يستنقر حواسه. منذ الهجوم على الخان، كان المستطلعون ينتشرون طيلة الليل، في مذابح، أكثر تاهياً مما كانوا عليه من قبل. كانت مراقبة المدينة المظلمة مهمة يائسة بالنسبة إليهم، لكنهم كانوا سريعين وصامتين، وفأكدوا إذا قبضوا عليه. بينما كان مستلقياً هناك، تسامع الجاسوس إن كان هناك قتلة آخرون سيأتون بحثاً عن الخان إذا نجا من الأول.

ألياً كان القارس، لم ير شيئاً. سمع الجاسوس الرجل يصدر صوتاً خافتاً لفرسه، لكن الأصوات ثلاثت ثم انطلق مجدداً مثل أرنب بري. كان كل شيء يعتمد على السرعة.

كانت أسوار المدينة سوداء تحت السحب واعتمد على ذاكرته للوصول إلى المكان المناسب. عذ عشرة أبراج مراقبة من الزاوية الجنوبية وركض مباشرة إلى الخندق المائي. زحف على بطنه ليتحسس ما يوجد على طول الحافة، وابتسم عندما شعر بخشونة زورق القصب الذي كان مربوطاً من أجله. حاول ألا يصاب بالبلل وكان حريصاً في الظلام عندما جثم في الزورق، وعبر الماء ببضع ضربات. في الظلام، كان يقوم بكل شيء باللمس، وخرج من الزورق وربط الحبل الرطب حول صخرة. لم يكن من المفيد أن يترك القارب الصغير يطفو بعيداً.

لم يكن الخندق المائي يصل إلى الأسوار التي تلوح فوقه. كان هناك ممر عريض من الحجارة يلتف حول المدينة، وكان رطباً وزلقاً من التعفن. في أيام الصيف، كان قد رأى النبلاء يتسابقون على الجياد على طولها، ويراهنون بمبالغ كبيرة على أول رجل يعود إلى البداية. عبره بسرعة وس مدينة ولائته، ووضع يده لوقت قصير على السور في إشارة إلى وصوله برّ الأمان في وطنه.

فوق رأسه، ربما كان هناك اثنا عشر رجلاً يجثمون على قمة السور بصمت. على الرغم من أنهم لن يتكلموا، إلا أنهم سيفهمونه، وفي تلك اللحظات القليلة، تضاعف التوتر الذي عاش معه حتى ثلاثي تماماً ولم يعد له وجود.

مرت يداه بسرعة على الأرض، يبحث عن حصاة. عالياً فوق رأسه، كانت المسحبة تمر بسرعة على المدينة. قفز موقع القمر بحرص شديد. ستكون هناك فتحة في الغيوم لوقت قصير فقط وينبغي أن يكون بعيداً عن السور بحلول ذلك الوقت. ضرب الحجر على السور، وكان الصوت عالياً في صمت الليل. سمع صوت الحبل ينزل إليه قبل أن يراه. بدأ يتسلق عليه، وفي الوقت نفسه، سحبوه عالياً مما جعله يرتفع بسرعة كبيرة.

بعد بضعة لحظات فقط، كان الجاسوس يقف على قمة أسوار ينكينغ. كان أحد أفراد فرق الأقواس يلف الحبل، ويستعد لإزالته مجدداً. وكان رجل آخر يقف هناك وانحنى الجاسوس أمامه.

قال الرجل وهو ينظر إلى معسكر المغول: "تكلم".

"لقد أصيب الخان. لم أستطع الاقتراب كثيراً، لكنه لا يزال حياً. المعسكر مليء بالإشاعات ولا أحد يعرف من سيتولى القيادة إذا مات".

رد الرجل بهدوء: "أحد أشقائه"، وتوقف الجاسوس متسائلاً عن عدد الرجال الذين يقدمون تقاريرهم لهذا الشخص.

"ربما، أو سينقرض عقد القبائل ليعود حكم الزعماء القدامى. إنه وقت الهجوم".

أطلق سيده صوتاً خافتاً من الغضب.

"لا أريد سماع استنتاجاتك، وإنما ما نعرفه فقط. لو أن لدينا جيشاً، هل كنت تعتقد أن الوصي كان سيقنع بالجلوس داخل الأسوار؟".

رد الجاسوس: "أنا أسف. لديهم مؤن تكفيهم عدة سنوات، مع ما حصلوا عليه من مخازن الجيش في ممر بادغر. كنت قد اكتشفت أشخاصاً يتمنون أن يحاولوا مجدداً استعمال المنجنيقات ضد الأسوار، لكنهم قلة فقط وليس لأحدهم نفوذ".

قال سيده، وهو يمسك بكففه بإحكام: "ماذا أيضاً؟ زدوني بشيء ألقاه الوصي".

"إذا مات الخان، سيعودون إلى الجبال. كل الرجال يقولون ذلك. إذا عاش، يمكنهم البقاء هنا لسنوات".

أطلق سيده لعنة بصوت خافت، وشمته. تحمل الجاسوس ذلك، ونظر إلى قدميه. كان يعرف أنه لم يقتل. كانت مهمته نقل ما يعرف بصدق وكان قد قام بها.

"أعثر لي على شخص يمكننا الوصول إليه. بالذهب، بالخوف، بأي شيء. أعثر لي على شخص في هذا المعسكر يمكنه أن يجعل الخان يفكك الخيمة السوداء. إذا بقيت على حالها، لا يمكننا فعل شيء".

رد الجاسوس: "حاضر يا سيدي". استدار الرجل مبتعداً عنه وأذن له بالانصراف، وكان الحبل يتكلى آنذاك من أعلى السور. نزل بالسرعة نفسها تقريباً التي صعد بها وبعد لحظات كان يربط الزورق الصغير على الطرف الثاني ويجري مسرعاً عبر الأعشاب إلى موقعه. كان شخص آخر سينتقل بالأمر ولن يعرف المغول شيئاً.

كان من الصعب مراقبة الغيوم والانتباه في الوقت نفسه للأرض التي حوله. كان الجاسوس ماهراً في عمله، وإلا لما كان الاختيار قد وقع عليه. تابع الجري وعندما ظهر القمر من بين الغيوم وأضاء السهل، كان قد استلقى على الأرض آنذاك مخبئاً بين الشجيرات خارج المعسكر الرئيسي. في الضوء القمضي، فكّر في الرجال حول الخان. ليس خاسار أو كثيرون. ليس أحد قادة جيشه. لم يكونوا يرغبون بشيء أكثر من رؤية تدمير ينكيغ، حجراً إثر آخر. فكّر في تيموج للحظة. لم يكن على الأقل محارباً. لم يكن الجاسوس يعرف الكثير عن سيد التجارة. جعلت الغيوم الأرض داكنة مرة أخرى واندفع إلى الحلقة الخارجية لنقاط الحراسة. عاد إلى موقعه كما لو أنه لم يفتأه أبداً، وأمسك بقوسه وسكبه واتعل خلفين مصنوعين من الحبال. تسمر فجأة عندما سمع شخصاً يقترب منه، وقف منتصباً مثل أي حارس آخر.

صرخ تسوبودي في الظلام بلغة تشن: "هل لديك ما تبّلع عنه يا ما تشن؟".

تطلب الأمر منه جهداً كبيراً ليسيطر على نفسه ويرد.

"لا شيء أبها القائد. إنها ليلة هادئة". عندها، تنفس الجاسوس عبر أنفه بصمت، وانتظر إشارة تدل على اكتشاف غيابه.

تسوء تسوبودي بكلام غير مفهوم، ومشى مبتعداً لتفقد الرجل التالي في الصف. بقي الجاسوس وحيداً، وتصيب العرق على جلده. كان المغولي قد استعمل الاسم الذي زودهم به. هل كان مشبوهاً؟ لم يكن يعتقد ذلك. لا شك أن القائد الشاب كان قد تفقد الأوضاع مع ضابطه قبل أن يبدأ جولاته. سيشعر الحراس الآخرون بالدهشة من تلك الذاكرة القوية، لكن الجاسوس ابتسم فقط في الظلام. كان يعرف الجيوش جيداً ولا يمكن أن يتأثر بخدع الضباط.

فيما كان يقف في مناوبته ويسمح لخفتان قلبه بأن يهدأ، فكّر في السبب الذي يكمن خلف ذلك الأمر. لا يمكن أن يكون سوى الاستسلام. ما الذي قد يريده الوصي

من تفكيك الخيمة السوداء إذا لم يكن عرض الجزية عن ينكنغ؟ على الرغم من ذلك، إذا سمع الخان، فسيعرف أنهم قريبون من تحقيق اختراق ويتهج لأن الحصار اقترب من نهايته. هز الجاسوس رأسه خائفاً عندما فكر في الأمر. كان الجيش قد استولى على مخازن المدينة وخسرها جميعها للعدو عند المرور. كانت ينكنغ جائعة منذ البداية تقريباً وكان زهي زهونغ أكثر يأساً من أي شخص عرفه.

ظهر كيريلوفا عندها. كان قد تم اختياره لتلك المهمة لأنه كان ماهراً مثل أي قاتل أو جاسدي، وأكثر فائدة من أي منهما. كان لديه وقت للثبور على شخص يحب الذهاب أكثر من خائنه. لطالما كان ذلك الشخص موجوداً. خلال بضعة أيام فقط، كان الجاسوس قد عرف بأمر الزعماء الساخطين الذين تم تجريدهم من السلطة. ربما يمكن دفع أحدهم ليعتبر أن الجزية أفضل من التدمير. فكر في تموج مرة أخرى، متسائلاً لماذا تشير أحاسيسه إلى الرجل. أوما لنفسه في الظلام، مستيقظاً للتحدث وواضعا مهارته على المحك.

عندما استفاق جنكيز مجدداً في اليوم الثالث، كانت هولن في الخارج تجلب الطعام. طرح الأسئلة نفسها، لكنه لم يستلق على ظهره هذه المرة. كانت مثاقفه ملينة إلى حد الألم وأخرج ساقيه من تحت البطانيات، وثبت قدميه على الأرض قبل أن يحاول الوقوف. ساعدته تشاكاكي وبورت في الوصول إلى العمود المركزي للخيمة، ولف أصابعه حوله حتى تأكدوا أنه لن يقع. وضعوا النلو حيث سيصل بوله وترجعوا إلى الخلف. طرقت عيناه على زوجته مستغرباً رؤيتهما معاً.

قال: "هل سترقباني أنتم الاثنان؟". لسبب ما كان بجهله، ابتسمت كلتا المرأتين. قال لهما: "أخرجاً"، وبقي متمسكاً بالعمود حتى غادرتا الخيمة واستطاع إفراغ مثاقفه. تغصن أنفه من رائحة البول الكريهة، والذي لم يكن لونه طبيعياً أبداً. نادى فجأة: "كشيون! تعال إلي!". سمع صرخة فرح وابتسم. لا شك أن الزعماء كانوا يراقبون الموقف تحسباً لموته. أمسك بالعمود الخشبي بإحكام بينما كان يفكر بالفضل الخطط للسيطرة على المعسكر مرة أخرى. كان هناك الكثير مما ينبغي فعله. فتح الباب على مصراعيه عندما دخل كشيون الخيمة على الرغم من احتجاجات زوجته شقيقه.

كان كشيون يقول وهو يندفع بينهما بلطف: "سمعت يناديني". صمت عندما رأى شقيقه واقفاً أخيراً. لم يكن جنكيز يضع سوى طماقات وسخة وكان شاحباً ونحلاً أكثر مما سبق ورأه من قبل.

سأل جنكيز: "هل تساعدني على ارتداء ملابسك يا كشيون؟ يداي أضعف من أن تفعل ذلك لوحدهما".

امتلأت عينا كشيون بالدموع ونظر جنكيز إليه.

سأل بذهول: "أنت تبكي؟ بحق الأرواح، أنا محاط بالنساء".

ضحك كشيون، ومسح عينيه قبل أن تراه تشاكاهي أو يورت.

"جيد أن أراك واقعاً يا شقيقي. كنت أصاب باليأس مما أصابك".

تألف جنكيز. كان لا يزال ضعيفاً ولم يترك العمود تحسباً لأن يشيب بالعار نفسه ويقع.

"أرسل شخصاً يجلب لي درعي وطعاماً. لقد جعلتني زوجتي أتضور جوعاً بإهمالهما".

في الخارج، كانوا جميعاً يستطيعون سماع الأثباء تتنقل عبر المعسكر، والأصوات تملأ شيئاً فشيئاً. لقد أفاق. إنه حي. تعالت الأصوات حتى تحولت إلى صرخات وصلت إلى أسوار بنكينغ وقاطعت زهي زهونغ في مجلسه مع الوزراء.

تجمد قائد الجيش في وسط النقاش عندما سمع الصوت وشعر بكثرة باردة تستقر في معدته.

عندما خرج جنكيز أخيراً من خيمة مرضه، اجتمعت القبائل لتحيته، وضرب المحاربون بأقواسهم على دروعهم. بقي كوكشو خلفه تحسباً لعتله، لكن جنكيز مشى بثبات إلى الخيمة الكبيرة على عربتها، وصعد الدرجات من دون إشارة على أي ضعف.

حالما أصبح في الداخل، كاد يقع عندما أفلت قبضة إرأنته عن جسده الواهن. جمع كشيون قادة الجيش بينما كان شقيقه يجلس منتصباً بشكل مؤلم لوحده.

حالما أخذوا مواقعهم، رأى كشيون أن جنكيز لا يزال شاحباً بشكل غير طبيعي، والعرق يتصبب من جبينه على الرغم من البرد. كان عرق جنكيز ملفوفاً بضمادات جديدة، مثل طوق. على الرغم من أن وجهه كان نحيلاً بما يكفي لرؤية شكل جمجمته، إلا أن عينيه كانتا ثلعتان بسطوح متقد بينما كان يرحب بكل رجل.

ابتنسم خاسار لرؤية تعبير الصقر بينما كان يأخذ مكانه إلى جانب أرسلان وتسوبودي. كان جيلم آخر من وصل وأشار إليه جنكيز بأن يقترب منه. لم يكن يعتقد أن قدميه ستحملانه إذا نهض، لكن جيلم جثا على ركبة واحدة أمامه وأمسك به جنكيز من كتفه.

قال جنكيز: "قال كثيرون إنك عانيت من السم الذي أخرجه مني".
هزّ جيلم رأسه وقال: "لم يكن شيئاً ذا أهمية".

لم يتسم جنكيز لذلك، على الرغم من أن خاسار فعل.

قال: "لقد اشتركنا بالدم، أنت وأنا. هذا يجعلك شقيقي، مثل خاسار أو كثيرون أو تيموج".

لم يرد جيلم. وارتعشت اليد على كتفه ورأى كيف تتقد عيناه خائفة، غائرتين في الجمجمة. على الرغم من ذلك، كان حياً.

"سأأخذ خمس قطعاني، مئة قطعة من الحرير واثنى عشر قوساً وسيفاً رائعاً. سأكرمك في القبائل يا جيلم، لما قمت به".

أحنى جيلم رأسه، وشعر بنظرة أرسلان الفخورة به. رد جنكيز بده إليه ونظر حوله إلى الرجال الذين كانوا قد اجتمعوا لديه.

لو أنني مت، من منكم كان سيؤدي القبائل؟ استدارت العيون إلى كثيرون وأوماً له شقيقه. ابتسم جنكيز، مستثلاً عن الأحاديث التي فوّتها بينما كان نائماً مثل الميت. كان يعتقد أنه ربما يكون خاسار، لكن لم يكن هناك خزي في نظراته. كان كثيرون قد تعامل معه كما ينبغي.

قال لهم جنكيز: "لقد كنا حمقى لأننا لم نخطط لشيء من هذا القبيل. اعتبروا ما حدث إضراراً. يمكن لأي منا أن يسقط، وإذا حدث ذلك، سيشر جنود تشن بضعفنا ويهاجمونا. ينبغي بكل منكم أن يسمي رجلاً يثق به ليأخذ مكانه. ورجلاً آخر يأخذ مكان من اخترتم. سنقوم بإنشاء هيكلية للقيادة حتى أصغر جندي ليعرف كل رجل من يفوده، بغض النظر عن عدد الأشخاص الذين يموتون حوله. لن نقع في هذا مجدداً".

توقفت قليلاً ليسمح بمرور موجة من الضعف سرت في جسده. ينبغي بالاجتماع أن يكون قصيراً.

"بالنسبة لي، سأقبل إرانتكم وأعين كثيرون خليفة لي، حتى يكبر أبنائي. سيتبعه خاسار في ذلك. إذا متنا، سيحكم جيلم القبائل ويضرب باسمنا".

واحدًا إثر آخر، أحنى الرجال الذين ذكروهم رؤوسهم في إشارة على قبولهم النظام الجديد وراحتهم له. لم يكن جنكيز يعرف مدى الفوضى التي كانوا قريبين منها عندما كان يستلقي مصاباً. كان كل رجل من الزعماء القدامى قد جمع رجاله حوله، وكان الولاء القديم قد تقدم على الضباط وقادتهم. بضربة واحدة، كان القاتل قد أعادهم إلى صلات الدم القديمة.

على الرغم من أن جسده تعرض لإصابة، إلا أن جنكيز كان لا يزال يفهم القبال. كان يستطيع تسمية خمسين رجلاً سيرحبون بالحرية من حكمه إذا مات. لم يتكلم أحد بينما كان يفكر بالمستقبل، وكان يعرف أن عليه إعادة بناء هيكلية الجيش الذي كان قد منحهم مدن تثن. أي شيء آخر سيجعلهم يتفوقون ويتعرضون للدمار في نهاية المطاف.

كثفت وكثيرون قد ناقشنا إرسالكم بعيداً من هنا عدة مرات. لقد كنت مفرداً من قبل، لكن ينبغي أن لفصل القبال الآن. سيكون بعضهم قد نسي العهد الذي قطعوه لي ولقائتهم. ينبغي تذكيرهم به. نظر حوله إلى وجوه قادة جيشه. لم يكن أحدهم ضعيفاً، لكنهم كانوا لا يزالون بحاجة إليه لقيادتهم، ومنحهم سلطته. ربما كان كثيرون يستطيع إقناعهم معاً إن كان قد لقي حقه، لكنه لا يستطيع أن يكون واثقاً من ذلك.

"عندما تغادرون هذا المكان، شكّلوا الأفواج في السهل، على مرأى من الأسوار. لنجعلهم يشاهدون قوتنا ثم لزدربنا لهم عندما ترحلون. اجعلوهم يخافون مما ستحققونه عندما تستولون على مدن أخرى". استدار إلى تسوبودي، ورأى إثارة واضحة في عينيه.

"ستأخذ جوشي يا تسوبودي. إنه يحترمك". فكر جنكيز للحظة. "لا أريد أن يُعامل كأمر. إنه فتى حساس ومتفطرس وينبغي نزع ذلك منه. لا تخف من معاقبته باسمي". رد تسوبودي: "كما تشاء يا مولاي".

سأل جنكيز بفضول: "إلى أين ستذهب؟".

لم يتردد تسوبودي. كان قد فكر في الجواب عدة مرات منذ معركة ممر بادغر. "شمالاً يا مولاي. سأقطع أرض صيد قبيلتي القديمة، يوريانخي، وأرى ما يوجد خلفها".

"حسناً. كثيرون؟".

رد كثيرون: "سأبقى هنا يا شقيقتي. سأرى هذه المدينة تسقط". ابتسم جنكيز من التعبير الصارم على وجه شقيقه. "رفقتك موضع ترحيب، جيلم؟".

رد جيلم: "شرفاً يا مولاي. لم أر المحيط أبداً ولا نعرف شيئاً عن تلك الأراضي". تنهد جنكيز من تلك الفكرة. كان قد ولد أيضاً في بحر من الأعشاب وكانت الفكرة مغربة. على الرغم من ذلك، كان سيري تدمير ينكينغ أولاً.

"خذ ابني تشاغاتي يا جيلم. إنه فتى رائع وربما يصبح خاتماً عندما يكبر". أوما القائد بوقار، وكان لا يزال متأثراً بالشرف الذي أصبغه عليه جنكيز. قبل يوم واحد

فقط، كانوا جميعاً متوترين، ينتظرون رؤية ما سيحدث في القبائل عندما تصل الأنباء بأن جنكيز قد مات. أعاد سماعهم لأوامره الثقة إلى نفوسهم. كما كانت القبائل تهمس، كان من الواضح أن جنكيز محبوب من الأرواح. شعر جيلم بكبريائه يتعاضد وفشل في محاولته في عدم إظهار أي تعبير على وجهه عندما ابتسم.

تابع جنكيز قائلاً: "أريدك هنا معي يا أرسلان عندما تتصور المدينة جوعاً وتسلم. ربما بعدها سنسلك طريقك ببطء إلى وطنك ونستمتع لعدة سنوات بالتجوال في السهول بسلام".

استهجن خاسار الأمر بصوت خافت.

"ذلك كلام رجل مريض يا شقيقى. عندما تصبح بصحة جيدة سترغب بأن تلحق بي جنوباً وتستولي على مدن تشن مثل فاكية ناضجة، واحدة إثر الأخرى. هل تتذكر السفير وين تشاو؟ سأنتجه نحو كيلونغ والجنوب. سأود رؤية وجهه عندما يراني مجدداً".

"إلى الجنوب يا خاسار. عمر ابني أوجيدي عشر سنوات، لكنه سيتعلم منك أكثر مما إذا بقي هنا وحقق إلى الأموار. سيبقى تولى الصغير فقط معي. إنه يحب الراهب البوذي الذي أحضرته مع هو سا وتيموج".

رد خاسار: "إذاً، سأخذ هو سا أيضاً. في الواقع، يمكنني أخذ تيموج معي حتى لا يتسبب بأي مشكلات أخرى".

فكر جنكيز في الفكرة. لم يكن أصمّ كما كان يدعي بشأن الشكاوى التي تطال شقيقه الأصغر.

"لا. إنه مفيد بما فيه الكفاية. إنه يقف بيني وبين ألف سؤال من حمقى ويستحق ذلك شيئاً بالمقابل". تألف خاسار عندها، وكانت مشاعره واضحة. تابع جنكيز وهو مستغرق بالتفكير، وكان يختبر أفكاراً جديدة كما لو أن مرضه قد حوّر ذهنه.

لطالما أراد تيموج إرسال مجموعات صغيرة لمعرفة ما يوجد في أراضٍ أخرى. ربما كان محقاً بأن المعلومات التي سيجلبونها ستكون مفيدة. انتظار عودتهم ستخفف على الأقل من رثابة موقعه اللعين". أوما لنفسه. "سأختار الرجال وسيفادرون أيضاً عندما يرحلون. سننتشر في كل الاتجاهات". عندها، شعر بأنه قد استفد طاقته فجأة كما جاءت، وأغلق عينيه عندما شعر بموجة نوار.

"أتركوني الآن، ما عدا كشيون. شكّلوا أفواجكم وودعوا زوجاتكم وخليّلكم. سيكونن بأمان معي، إلا إن كن جذابات للغاية".

ابتسم بضعف عندما نهضوا، وكان سعيداً لرؤيتهم أكثر ثقة مما كانوا عليه عندما وصلوا. عندما وقف كثيرون وحيداً في الخيمة الكبيرة، فقد جنكيز حيوبته، وبدأ فجأةً لكبر عسراً.

"يذهبني أن ارتاح يا كثيرون، على الرغم من أنني لا أريد العودة إلى تلك الخيمة التي تعقب بروائح المرض. هل يمكنك وضع حارس على الباب حتى أستطيع النوم والأكل هنا؟ لا أريد أن يراني أحد."

"سأفعل يا شقيقي. هل يمكنكني إرسال بورت لتتزع عنك ملابسك وتطعمك؟ لقد رأت الأسوأ حتى الآن."

هز جنكيز كتفيه استخفافاً، وكان صوته ضعيفاً.

"ربما من الأفضل أن ترسل كلنا زوجتي. لن يستمر الهدوء الذي عاشنا فيه إذا فضلت واحدة على الأخرى." كانت عيناه مشوشتين آنذاك. كان الجهد الذي بذله في ذلك الاجتماع الوحيد قد أوصله إلى حافة الإجهاد، واعتزت بداء عندما وضعهما في حجره. واستدار كثيرون ليغادر.

تمتم جنكيز من خلفه: "كيف جعلت خاسار يقبل بأن تخلفني؟"

رد كثيرون: "قلت له إن بمقدوره أن يكون الخان. أعتقد أن ذلك قد أزعجه."

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

الفصل التاسع والعشرون



استغرق الأمر من القادة ستة أيام أخرى لجمع رجالهم في ساحات ضمت كل منها عشرة آلاف محارب، مستعدين للرحيل. في الجوهر، كان كل فوج فرقة غزو على نطاق واسع، وهو شيء يعرفه جميعهم جيداً. على الرغم من ذلك، كان ذلك الحشد يتطلب تنظيماً وكان تيموج وكادره من الرجال المشوهين مشغولين بالإمدادات، الجياد، الأسلحة ولوانهم. مرة فقط، لم يتذمر الضباط من التخل. كانت تقع أمامهم أرض لم يرها أحد من شعبهم. كان حب السفر قوياً في الرجال فيما كانوا يحذقون إلى الاتجاهات التي كان قادتهم قد اختاروها.

كان أولئك الذين تخلفوا أقل ابتهاجاً واعتمد جنكيز على كشيون للحفاظ على الانضباط حتى يستعيد عافيته. حقق ذلك التكتيك نجاحاً مذهلاً ولم يكن على شقيقه سوى أن ينظر إلى خيمة الخان الكبيرة حتى بصمت الرجال المتخاصمون. لم يكن أحد يرغب بإزعاج جنكيز في الوقت الذي يستعيد فيه قوته. كانت الحقيقة البسيطة بأنه لا يزال حياً قد قضت على القوة المتزايدة للزعاء القدامى في المعسكر. حتى عندها، كان والد وبلا الشخص الذي طلب رؤية جنكيز، غافلاً عن العواقب. كان كشيون قد زار الرجل في خيمته، وبعد ذلك، لم ينس خان وبلا ببنت شفة لأحد. كان أبناؤه سيتجهون جنوباً مع خاسار وسيتركونه وحيداً مع خدمه فقط لحمله كل يوم.

كان الثلج قد تساقط في الليلة السابقة، لكن الصباح كان مشرقاً والسماء زرقاء صافية فوق بنگكغ. في الساحات الضخمة على السهل المتجمد، تنتظر المحاربون الأواسر، ووقفوا جاهزين لاستطاء جيادهم التي كانت ترعى في الثلج. كان ضباطهم مشغولين بتفقد الصفوف والمعدات على الرغم من أنه لم يكن هناك مهمون كثر ليتركوا شيئاً خلفهم، ليس وحياتهم تعتمد على ذلك. ضحك الكثير من الرجال وتبادلوا الدعابات مع بعضهم. كانوا قد تحركوا فوق سطح الأرض طيلة حياتهم ولم يكن التوقف الإلزامي عند بنگكغ طبيعياً بالنسبة إليهم. ستكون هناك مدن أقل تحصيناً على طريق رحلتهم، وكان كل فوج يسافر

مع منجنبيقات في اثنتي عشرة عربة ورجال متربين على استعمالها. كانت العربات متجعلهم بطيئين، بالطبع، لكن كل رجل هناك كان يتنكر بنشوان في مملكة كزي كزيا. لم يكونوا مضطرين للصراخ خارج أسوار بعنة. بدلاً من ذلك، كانوا سيحطمون بوابات المدينة ويلتقون بملوك صغار من ارتفاعات عالية. كان ذلك احتمالاً بهيجاً وغمرتهم السعادة كما لو أنهم في يوم وليلة صيفية.

كانت المواد الأخيرة التي قدمها تيموج ليستعملها كل قائد خياماً بيضاء، حمراء وسوداء. استمد المحاربون الشجاعة من رؤيتها تطوى ويتم تحميلها، وتربط بحبال طويلة. كان وجود الخيام يدل على نيّتهم في قهر كل أولئك الذين يقفون ضدهم. كانت قوتهم تمنحهم الحق في ذلك.

إضافة إلى الألواح، كان جنكيز قد جمع عشر مجموعات تتألف كل واحدة منها من عشرين محارباً لاستطلاع أراضي جديدة. في البداية، فكّر فيهم كمجموعات غزو، لكن تيموج كان قد حثّه على منحهم حمولة عربات من الذهب والهدايا. كان تيموج قد تكلم إلى ضابط كل مجموعة، وتأكد من أن الرجل يفهم بأن مهمته المراقبة والتعلم، وحتى تقديم الرشى. كان تيموج قد دعاهم دبلوماسيين، وهي كلمة كان قد تعلمها من وبن تشاو، قبل عدة سنوات. في ما يتعلق بذلك، كما هي حال كل شيء آخر، كان تيموج قد ابتكر شيئاً جديداً للقبائل. كان يعرف قيمتهم على الرغم من أنهم أنفسهم لم يكونوا يعرفونها. كان أولئك الرجال أقل ابتهاجاً بكثير من الذين عرفوا أنهم سيفتحون المدن التي تقع في طريقهم.

كان جنكيز قد أزال الضمادات عن عنقه، وظهرت خثرة سميكة فوق كدمات صفراء وسوداء. تنفس بعمق في الهواء البارد، وسعل في يده عندما شعر بموجة ضعف. لم يكن قريباً من تمام عاقبته، لكنه تمنى أيضاً أن يكون مع الآخرين، حتى أولئك الذين يتوقع منهم أن يتكلموا ويتجسّسوا لا أن يقوموا بالغزو. ألقي نظرة غاضبة على يتكنف عندما خاطرت له تلك الفكرة، وكانت المدينة تجثم مثل ضفدع على السهل. لم يكن هناك شك بأن إمبراطور تشن كان على الأسوار في تلك اللحظة، يراقب تلك الحركة الغريبة للرجال والخيول. بصق جنكيز على الأرض باتجاه المدينة. كانوا قد اختبأوا خلف الجنود عند ممر بادغر وأضحوا يختبئون آنذاك خلف الأسوار. تساعل عن عدد المواسم التي يمكنهم فيها تحمل ذلك وأصبح مزاجه أفضل.

قال كشيون، بعد أن اقترب على صهوة جواده وترجل عنه: "الرجال جاهزون. لا يستطيع تيموج التفكير في شيء آخر لإثارة غضبهم، شكراً للأرواح. هل ستفخ في البوق بنفسك؟".

نظر جنكيز إلى بوق الاستطلاع اللامع الذي يتدلى من عنق شقيقه. هز رأسه. قال: 'سأودع أبنائي أولاً. أحضرهم إلي'. أشار إلى بطانية كبيرة على الأرض، مع قارورة من الشراب اللاذع الأسود وأربعة أكواب على القماش.

أحلى كشيون رأسه ووثب عائداً إلى السرج، وركل الحيوان ليعود بأقصى سرعته عبر الساحات المليئة بالرجال المنتظرين. كان الطريق طويلاً للوصول إلى أبناء شقيقه. كان كل محارب هناك يمتلك جوادين آخرين ما شكل قطعاً ضخماً من الجياد وكان الصباح مليئاً بضوضاء صهيلها.

انتظر جنكيز بصبر حتى عاد كشيون مع جوشي، تشاغاتي، وأوجيدي لتخى شقيقه جانباً للسماح للأبناء بالاقتراب. راقب كشيون من طرف عينه بينما كان جنكيز يجلس وقد وضع ساقاً على ساق والأبناء الثلاثة يواجهونه على بطانية خشنة. بصمت، سكب لكل واحد منهم كوباً من الشراب الناري فتناول كل منهم كوبه بشكل رسمي باليد اليمنى، وأمسكوا مرافقهم بأيديهم اليسرى لإظهار أنهم لا يحملون أسلحة.

لم يستطع جنكيز العثور على شيء ينتقده في سلوكهم بينما كان ينظر إليهم. كان جوشي يرتدي درعاً جديداً، أكبر قليلاً من جسده. كان لا يزال لدى تشاغاتي الدرع الذي كان قد منحه إياه. وحده أوجيدي كان يرتدي الثوب المبطن التقليدي، وكان صغيراً جداً بعمر العاشرة على ارتداء درع رجل، حتى مع ما كانوا قد كسبوه عند مرور بادشهر. كان الفتى الصغير ينظر إلى كوب الشراب بشيء من الريبة، لكنه ارتشف منه مع الآخرين، ولم يظهر على وجهه أي تعبير.

قال جنكيز مبتسماً: 'ثناي الصغار. ستكونون جميعاً رجالاً عندما أراكم مجدداً. هل تكلمتم إلي والدنكم؟'.

رد جوشي: 'قلنا ذلك'. نظر إليه جنكيز وتساءل عن عمق الخصومة في عيني الفتى. ما الذي كان قد فعله ليستحق ذلك؟

رداً على نظرة جوشي العابسة، تكلم جنكيز إليهم جميعاً.

'لن تكونوا أمراء بعيداً عن هذا المعسكر. كنت قد أوضحت ذلك لقادنتكم. لن تكون هناك معاملة خاصة لأبنائي. ستسافرون مثل أي محارب آخر من الشعب وعندما تدعون للقتال، لن يكون هناك أحد لإنقاذكم بسبب من تكونون. هل تفهمون؟'.

لقد بدا أن كلماته قد نزعت الإثارة منهم، وثلاثت ابتساماتهم. واحداً إثر الآخر، أحنوا رؤوسهم. وأفرغ جوشي كوبه ووضعه على البطانية.

تابع جنكيز: "إذا رقيتم إلى رتبة ضابط، سيكون ذلك فقط لأنكم أظهرتم بأنكم سريعو التفكير، ماهرون وشجعان أكثر من الرجال حولكم. لا أحد يرغب بأن يقوده لحيق، حتى وإن كان ذلك الأحقق ابني".

توقف قليلاً، وسمح لذلك بأن يتغلغل فيهم فيما كانت نظراته تستقر على تشاغاتي. "بأي حال، أنتم أبنائي والتوقع أن أرى دمائي تجري في كل منكم. سيفكر المحاربون الآخرون في المعركة التالية، أو الأخيرة. أنتم ستفكرون في الأمة التي يمكنكم قيادتها. أتوقع منكم العثور على رجال يمكنكم أن تثقوا بهم وأن يرتبطوا بكم. أتوقع منكم أن تضغطوا على أنفسكم وتقسوا عليها أكثر مما يفعله أي شخص آخر. عندما تشعررون بالخوف، أخفوه. لن يعرف أحد غيركم بذلك، ومهما كان السبب، سيزول. سيتذكر الجميع كيف تحتفظون برباطة جأشكم".

كان هناك الكثير ليقوله لهم. كان من المفروح أن حتى جوشي انتبه لكل كلمة، لكن من يمكنه أن يقول لهم كيف يحكمون إذا لم يكن والدهم؟ كانت تلك مهمته الأخيرة للفتية قبل أن يصبحوا رجالاً.

"عندما تتعمسون، لا تتكلموا عن ذلك أبداً وسيعتقد الآخرون أنكم من حديد. لا تسمحوا لمحارب آخر أن يسخر منكم، حتى على سبيل المزاح. إنه شيء يفعله الرجال ليروا من يمتلك القوة ليقف ضدهم. أظهروا لهم أنكم لن تخافوا وإذا كان ذلك يعني أن تقاتلوا، حسناً، هذا ما ينبغي عليكم فعله".

قال جوشي بهنو: "ماذا إن قام أحد الضباط بالسخرية منا؟".

نظر إليه جنكيز بحدّة.

"لقد رأيت رجالاً يحاولون تقادي مثل تلك الأمور بابتسامة، أو بخفض رؤوسهم، أو حتى المزاح لجعل الآخرين يضحكون بقوة أكبر. إذا فعلتم ذلك، لن تقودوا أبداً، نفذوا الأوامر التي تصدر إليكم، لكن حافظوا على كرامتكم". فكر للحظة.

"منذ هذا اليوم، لم تعودوا أطفالاً. أنت أيضاً يا أوجيدي. إذا كان عليكم أن تقاتلوا، حتى إذا كان صديقاً، اطرحوه أرضاً بأسرع وأقوى ما تستطيعون. اقتلوه إذا كنتم مضطرين لذلك، أو اصفحوا عنه. لكن، احذروا من ترك دين لأي رجل في أعناقكم. من بين كل الأشياء، يثير ذلك الاستياء. ينبغي أن يعرف أي محارب يرفع قبضته لكم أنه يخامر بحياته وأنه سيفقدّها. إذا لم تستطيعوا تحقيق النصر في البداية، اثأروا إذا كان ذلك آخر شيء تفعلونه. ستسافرون مع رجال لا يحترمون سوى الأقوى منهم، رجال أفسى منهم. إضافة إلى كل شيء آخر، هم يحترمون النجاح. تذكروا ذلك".

جال ببصره الحاد عليهم وارتمش أوجيدي بعد أن شعر ببرودة الكلمات. لم يتنسم جنكيز لروية ذلك عندما تابع كلامه.

"لا تسمحوا لأنفسكم أبداً بأن تصبحوا رقيقين، وإلا سيأتي رجل يوماً ما ويأخذ كل شيء منكم. استمعوا إلي أولئك الذين يعرفون أكثر منكم وكونوا آخر من يتكلم في كل محادثة، حتى ينتظروا منكم أن ترشدوهم إلى الطريق. واحذروا الرجال الضعفاء الذين يأتون إليكم بسبب اسمكم. اختاروا أولئك الذين يتبعونكم بغاية مثل الزوجات. إذا كنت أتمتع بمهارة واحدة جعلتني أحكم شعباً، ستكون تلك. يمكنني أن أرى الفرق بين محارب متبحر ورجل مثل شوبودي، أو جيلم، أو خاسار."

لاحظ علامات سخرية على فم جوشي قبل أن ينظر بعيداً ورفض جنكيز السماح لغضبه بالظهور.

"شيء واحد بعد قبل أن تغفروا. احرصوا على عدم إراقة بنورككم". احمرّ وجه جوشي خجلاً عندها وفغر تشاغاتاي فمه دهشة. وحده أوجيدي بدا مرثكاً. تابع جنكيز الكلام.

"يصبح الفتية الذين يقضون كل ليلة يلعبون بأعضائهم ضعفاء، مهوسين بحاجيات أجسادهم. أبعدوا أيديكم عنها وعاملوا الرغبة مثل أي نقطة ضعف أخرى. ستجعلكم العفة أقوياء. ستكون لديكم زوجات وخطبات في الوقت المناسب."

فيما كان الفتية الثلاثة يجلسون هناك بصمت مخرجين، وضع سيفه في غمده. لم يكن قد خطط لذلك، لكن الأمر بدا صحيحاً وأراد أن يفعل شيئاً يتذكرونه.

قال: "خذ يا تشاغاتاي". رمى الغمد بين يدي ابنه. تحصّنه تشاغاتاي بسعادة ممزوجة بالدهشة. راقب جنكيز الفتى بينما كان يرفع قبضة رأس الذئب لتلمع في الشمس، ثم شعر السيف الذي كان والده قد حمّله طفلة شبابه. كانت عيون الآخرين على المعدن اللامع، ممتلئة حسداً.

قال جنكيز بهدوء: "كان والذي بأسوجي يحمله معه في اليوم الذي مات فيه. كان والده قد أمر بصنعه في وقت كانت فيه الذئاب عدواً لكل قبيلة أخرى. لقد أزهق أرواحاً وشهد ولادة أمة. احرص على عدم تنبيهه."

أحنى تشاغاتاي رأسه حيث كان جالساً، وقد غمرته السعادة.
رد: "نأفعل يا مولاي".

لم ينظر جنكيز إلى وجه جوشي الأبيض.
"انهبوا الآن. عندما تعودون إلى قادتكم، سأنفخ في البوق. سنرى بعضنا مجدداً عندما تصبحون رجالاً ويمكننا الالتقاء كأنداد."

قال جوشي فجأة: "نطلع قتماً إلى ذلك اليوم يا أبي".

رفع جنكيز بصره الشاحب إليه، لكنه لم يقل شيئاً. لم يتكلم الفتية بعضهم مع بعض عندما انطلقوا مبتعدين على الأرض القاسية ولم ينظروا إلى الخلف. عندما أصبح جنكيز لوحده مرة أخرى مع كشيون، شعر بشقيقه يحنق إليه. سأل كشيون: لماذا لم تمنح السيف لجوشي؟

قال جنكيز بحدّة: "لو غدت تاري. أرى والده ينظر إلي كلما التقينا". هزّ كشيون رأسه، وأحزنه أن يكون جنكيز أصم في تلك المسألة وبصيراً في كل ما سواها.

قال: "نحن عائلة غريبة يا شقيقي. إذا تركتنا وحدنا، نصبح ضعفاء ورقيقين. إذا تحدثنا، نجعلنا نكره، ونصبح أقوىاء بما يكفي لتزد الضربة". نظر إليه جنكيز مستفسراً وتهبّد كشيون.

قال كشيون: "إذا أردت حقاً إضعاف جوشي، كان ينبغي أن تمنحه السيف. سيحترك الآن عدواً ويجعل نفسه حديداً، تماماً كما فعلت. هل ذلك ما تريده؟". طرقت عيناً جنكيز، منهشاً من الفكرة. كان كشيون يرى الأشياء بوضوح مؤلم ولم يستطع الحصول على رد.

تخلّص كشيون وقال: "كانت تلك نصيحة مثيرة للاهتمام، خاصة الجزء المتعلق بإقامة بذورهم". تجاهله جنكيز، وراقب الأشكال التي تبثد للانضمام إلى ساحات المحاربين.

قال كشيون: "لا يبدو أن ذلك تسبب بالأذى لخاسار أبداً". ضحك جنكيز بصوت خافت، ومدّ يده طلباً لبوق كشيون. نهض على قدميه ونفخ نغمة عسيفة طويلة عبر السمبل. قبل أن تتلاشى، ففقت الأفواج وهي تتحرك، وكان شعبه يتجه نحو النصر. كان يتوق للتواجد معهم، لكن كان عليه رؤية بنكينغ تسقط أولاً.

تأوه نيموج عندما ذلك خادمه كفتيه مزيلاً عنهما هوم اليوم. بدا أن شعب تشن يمتلك فكرة عن الحضارة لا يمكن لأحد في القبائل أن يجاريها. ابتسم نيموج من فكرة الطلب إلى محارب أن يدهن عضلاته بالزيت. كان إما سيحتبرها إهانة له، أو يعمل عليها مثل جزّ الصوف.

في البداية، كان قد ندم على خسارة خادمه الأول. نادراً ما كان الرجل يتكلم ولم يكن يعرف حقاً شيئاً من لغة المغول. على الرغم من ذلك، كان قد عمل على تنظيم يوم نيموج، حتى بدت الأحداث تجري بسلاسة حوله من دون توتر. كان نيموج قد

أضحى معتاداً على الاستيقاظ بعد الفجر والاستحمام. كان خادمه يقوم بعد ذلك بإلباسه وتحضير إفطار خفيف له. كان يقرأ التقارير من رجاله حتى ينقضي الصباح، ثم يبدأ العمل المناسب لذلك اليوم. بدت خسارة مثل ذلك الرجل بفعل سكن قاتل مأساة في البداية.

تهدد تيموج سعادة بينما كان الخادم الجديد يعمل على العضلات، وإيهاماء تفركان بقوة. ربما لم تكن بالخسارة الكبيرة، بالمحصلة. لم يكن من العجوز يعرف شيئاً عن الزيوت والتعليك، وعلى الرغم من أن وجوده كان مريحاً، إلا أن الرجل الجديد كان يتكلم كلما سمح له تيموج بذلك، ويشرح له أي مظهر يلفت انتباهه في مجتمع تشن.

تتم: "ذلك جيد جداً يا ما تشن. كاد الوهن يختفي".

رد الجاسوس: "على الرحب والسعة يا مولاي". لم يكن يستمتع بفرك ظهر الرجل، لكنه كان قد أمضى مرة حوالى السنة كحارس دورية ويعرف كيف تجعل الفتات زبائنهن يسترخون.

قال بلطف: "رأيت الجيوش تتحرك بعيداً هذا الصباح يا سيدي. لم يسبق أن رأيت مثل ذلك العدد الكبير من الجياد والرجال في مكان واحد".

تأفف تيموج.

"لنعودهم يجعل حياتي أبسط. لقد اكتفيت من شكاوهم وشجارهم. أعتقد أن شقيقي اكتفى منهم أيضاً".

تابع الجاسوس كلامه: "سيجلبون الذهب للخان عندما يعودون. لا أشك بذلك". بدأ يربت على عضلات ظهر تيموج الثقيلة، قبل أن يجد عقدة أخرى يعمل عليها بأصابع قوية.

تتم تيموج: "لنأخذ بحاجة للمزيد منه. لدينا عربات من النقود ووحدهم رعايا تشن يبدون مهتمين بها".

توقف الجاسوس للحظة. كانت تلك إحدى سمات ذهنية المغول التي تربكه. كان تيموج مسترخياً آنذاك، لكنه تابع العمل، محاولاً أن يفهم.

سأل: "هل صحيح إذاً أنك لا تسعى لتكديس ثروة؟ لقد سمعت مثل ذلك القول".

"ماذا سنفعل بها؟ لقد جمع شقيقي الذهب والفضة لأن هناك بعض الأشخاص الذين ينظرون بجشع إلى مثل تلك الأشياء. لكن ما فائدتها؟ الثروة الحقيقية لا توجد في المعادن".

تابع الجاسوس: "يمكنك شراء جياد بها، وحتى أسلحة لو أراض". تحت يديه، شعر تيموج بهز كفيف لا مبالياً.

"ممن؟ إذا كانت كومة من النقود ستجعل رجلاً آخر يعطينا جواده، يمكننا أخذها منه. إذا كانت لديه أرض، ستكون لنا بأي حال، لنجول فيها كما يحلو لنا".

طرفت عينا الجاسوس غضباً. لم يكن لدى تيموج سبب ليكتب عليه، لكن الرشوة لن تكون سهلة إذا تكلم الصدق. حاول مجدداً، معتقداً بأن الأمر ميؤوس منه.

قسي مدن نشن، يمكن للذهب شراء بيوت كبيرة إلى جانب بحيرة، طعام شهى، وحتى آلاف الخدم. كافح لتقديم المزيد من الأمثلة. بالنسبة إلى شخص كان قد ولد في مجتمع يستعمل النقود، كان من الصعب أن يفسر الماء بالماء. "يمكنه حتى شراء النفوذ والتعاطف من رجال أقرباء يا مولاي. قطع فنية نادرة، وربما هدايا لزوجاتك، يجعل كل شيء ممكناً".

رد تيموج غاضباً: "أفهم ذلك. أصبحت الآن".

استسلم الجاسوس تقريباً. لم يستطع شقيق الخان استيعاب المفهوم. في الحقيقة، جعله ذلك يدرك الطبيعة المزيفة لعالمه. كان الذهب ليناً جداً على أي استعمال حقيقي. لماذا كان يعتبره قيماً؟

"ماذا إن أردت جواد رجل في القبائل يا سيدي؟ لنقل إنه جواد أفضل من كل الجياد الأخرى".

قال تيموج بحدّة: "إذا كنت تقدر يدك، لن تتكلم مجدداً". عمل الجاسوس بصمت لبعض الوقت وتهد تيموج. "سأمنحه خمسة جياد من سلالة أتنى، أو عشرين، أو مئة أكواس، أو سيفاً صنعه رجل ماهر، أي شيء يريده وفقاً لما احتاجه". ضحك تيموج بصوت خافت، وهو يكاد ينام. "إذا قلت له إن لدي حقيبة من معدن نفيس سيشتري له جواداً آخر، سيقول لي أن أحاول مع أحقق آخر".

جلس تيموج عندها. كانت سماء المساء صافية وتناوب. كان يوماً حافلاً بترتيب مغادرة ذلك العدد الكبير من الرجال.

"أعتقد أنني سأتناول جرعات من دوائي الليلة يا ما تسن، لتساعدني على النوم".

ساعد الجاسوس تيموج على ارتداء ثوب حريري. كانت خيلاء الرجل تسليه، لكنه لم يستطع التخلص من الإحباط الذي شعر به. كانت سلطة الزعماء الصغار قد انتهت عندما أصدر جنكيز الأمر بتشكيل الأفواج. لم تكن تلك خسارة. لم يكن لأحدهم نفوذ حقيقي في المعسكر. كان الجاسوس قد خلف من خسائره وعمل بسرعة ليحل محل الخادم الذي لقي حتفه على يدي القاتل. كان التحرك يمثل تلك السرعة يجلب مخاطر عديدة وشعر بأن الجهد الذي يبذله يزداد يومياً. كان لا يزال يعتقد أن تيموج رجل فاضل وسطي، لكنه لم يكن قد وجد شيئاً ربما يغريه على الخيانة، كما لم يجد

مرشحاً أفضل منه. كان ينبغي تفكيك الخيمة السوداء، لكن ينبغي ألا يعرف جنكيز بالصراع المرير في بنكينغ. فكر الجاسوس في أن الوصي قد أرسله لتنفيذ مهمة شبه مستحيلة.

ضائعاً في أفكاره الخاصة، حضر الجاسوس الشراب الساخن اللاذع الطعم وأضاف ملعقة من عجينة الكاهن العراف السوداء، بعد أن كشطها من قدر. عندما لم يكن تيموج ينظر إليه، شم رائحتها، متسائلاً إن كانت مخدراً. كان النبلاء يدخلون الأقبون في المدن ويبدون متعلقين بمشاربهم، تماماً كما يبدو تيموج متعلقاً بشرايه.

قال: "كانت الكمية تنفذ لدينا يا مولاي".

تهد تيموج. "إذا، ينبغي أن أطلب المزيد من الكاهن العراف".

"سأذهب إليه يا سيدي. لا ينبغي أن ترعج نفسك بأشياء صغيرة".

رد تيموج مسعداً: "ذلك صحيح". تناول الكوب ولرشف منه، وأغلق عينيه بسعادة. "الذهب إليه، لكن لا تخبره شيئاً عما تقطعه لي. ليس كوكشو رجلاً لطيفاً. تأكد من عدم إخباره بأي شيء كنت قد رأيته أو سمعته في هذه الخيمة".

قال الجاسوس: "سيكون الأمر أسهل إن استطعت شراء العجينة منه بالنقود الذهبية يا سيدي".

"لا يريد كوكشو ذهبك. أعتقد أنه مهتم بالسلطة فقط". أفرغ الكوب، وكثر من الرواسب المرة، لكنه استمر في تحريكه لشرب كل قطرة. كانت فكرة الوعاء الفارغ ترعجه بشكل غريب. كان يحتاجه مجدداً في الصباح.

قابله الليلة يا ما تسن. إذا استطعت، حاول اكتشاف كيف يصنع العجينة، حتى تتمكن من تحضيرها بنفسك. لقد سألته من قبل، لكنه أخفى الأمر عني. أعتقد أنه يستمتع بحقيقة أنه ما زالت لدي حاجة عنده. إذا استطعت العثور على السر، فلن ألسي ذلك".

رد الجاسوس: "كما تشاء يا مولاي". كان ينبغي به العودة إلى السور تلك الليلة، لتقديم تقريره. كان هناك وقت لروية الكاهن العراف قبل أن يذهب إلى هناك. أي شيء وكل شيء يمكن أن يكون مفيداً، ونظراً لطبيعة الموقف، لم يكن قد حقق الكثير في المعسكر، فيما كانت بنكينغ تتضور جوعاً.

الفصل الثلاثون



كان ذلك الصيف الأكثر هدوءاً وفقاً لذاكرة جنكيز. لولا الحضور الطاعى للمدينة الذي يملأ العين كل يوم، لكان ذلك الوقت مخصصاً للراحة. أعاق محاولات الخان لاستعادة لياقته سعال متواصل كان يتركه يلهث وقتاً طويلاً، والذي أضحي أسوأ من ذي قبل عندما أصبحت السنة أكثر برودة. كان كوكشوفد أصبح زائراً منتظماً لخييمته، يحضر معه أشربة من العسل والأعشاب المرة جداً التي لم يكن جنكيز يستطيع بلعها إلا بصعوبة بالغة. كانت تجعله يشعر براحة مؤقتة فقط وخسر جنكيز وزناً بشكل يندّر بالخطر، وظهرت عظامه بوضوح تحت الجلد الذي بدا شاحباً وعليلاً.

خلال شهور البرد، جمعت ينكينغ في مرمى بصره مقبلة على حالها، وتسخر من حضوره في تلك الأرض. كانت قد انقضت سنة تقريباً منذ انتصر في معركة ممر بادغر. مرت عليه أوقات كان فيها على استعداد للتخلي عن أي شيء للسفر إلى الوطن واستعادة قوته في التلال والجدول النظيف.

في قبضة الخمول الذي أثر فيهم جميعاً، بالكاد نظر جنكيز إلى الأعلى عندما سَدَّ كشيون باب الخيمة الكبيرة. عندما رأى تعبير وجه شقيقه، أرغم نفسه على الاعتدال في جلسته.

"أنت محمل بالأنباء يا كشيون. قل لي إن شيئاً مهماً قد حدث".

رد كشيون: "أعتقد ذلك. يقول المستطلعون من الجنوب إن هناك رتل إغاثة يتجه نحونا. يبلغ عدد رجاله حوالي خمسين ألف جندي ومعهم قطع كبير من الماشية".

رد جنكيز وقد ارتفعت معنوياته: "لم يقابلهم خاسار إذاً. أو جالوا من مكان ما ليس على طريقه". كان كلا الرجلين يعرفان أن الجيوش يمكن أن تتجاوز بعضها فقط إذا كان هناك واد يفصلها. كانت الأرض شاسعة بما يفوق الخيال، وتلون أحلام رجال اضطروا للبقاء في مكان واحد لمدة أطول مما فعلوا من قبل.

ارتاح كشيون لرؤية شرارة السعادة القديمة في جنكيز. كان شقيقه الأكبر قد عانى من الضعف نتيجة السم الذي سرى في دمه، وكان بمقدور أي شخص رؤية ذلك. حتى عندما حاول أن يرد، تقطع صوته بنوبة سعال جعلت لون وجهه أحمر وتثبت بالعمود المركزي للخيمة.

قال كشيون بصوت غطى على السعال: "ستكون المدينة بأمن الحاجة إلى دخولهم. أتساءل إن كنا سنندم على إرسال نصف رجالنا بعيداً من هنا؟".

هز جنكيز رأسه بصمت قبل أن يسحب نفساً عميقاً في النهاية. مشى متجاوزاً كشيون إلى الباب وبعق كمية من البلغم على الأرض، وفزع عندما حاول أن يتلحج. قال بصوت أجش وهو يتناول أحد أقواس تشن التي كانوا قد حصلوا عليها عند معمر بادغر: "انظر إلى هذا". تبع كشيون نظرة أخيه إلى هدف من القش على بعد ثلاثمئة يارد في أحد الطرقات. كان جنكيز يطلق سهاماً طيلة ساعات النهار لاستعادة قوته وكان مندهشاً من تقنيات أسلحة تشن. بينما كان كشيون يراقب، سدد بحرص وسحب القوس، وأطلق سهماً أسود بطن في الهواء. وقع قبل أن يصل إلى هدفه، وابتسم كشيون وقد فهم مباشرة. من دون كلمة، التقط أحد أقواس شقيقه واختار سهماً من كنانة، سحبه إلى الخلف نحو أنفه قبل أن يطلقه بشكل لا يخطئ إلى مركز الترس المصنوع من القش.

كان الدم قد اختفى من وجنتي جنكيز وأوما لشقيقه. "سيكونون بطيئين بالإمدادات إلى المدينة. خذ رجالك وقم بإسغالهم، ولا تقرب منهم بما يكفي ليصلوا إليك. أنهمكم قليلاً وسأتكفل بالباقي عندما يصلون".

فيما كان كشيون يدفع جواده للجري بأقصى سرعة عبر المسكر، كان النبا من المستسلمين قد انتشر بسرعة أكبر. كان كل محارب هناك مستعداً خلال بضع لحظات تكفي للوصول إلى جواده والنقاط أسلحته من على جدران خيمته.

أصدر كشيون أوامره لكبار ضباطه الذين نقلوا كلامه، واصطدموا بالعديد من الرجال في طريقهم. كان التشكيل الجديد للعمليات الحربية لا يزال موضع تجريب من قبل الفرق المختلفة، لكن هيكلية القيادة كانت متينة لتتلقى المجموعات العشر تعليماتها. كان على الكثيرين العودة إلى خيامهم لجلب كنانة أخرى تتسع لخمسين سهماً بناءً على أمر كشيون قبل أن يتسابقوا للوقوف في تشكيل الساحة الكبيرة التي تضم عشرة آلاف محارب. تلقى كشيون بنفسه الصف الأبعد وقاد جواده جبلة وزهاياً أمامه، وكانت راية حرب طويلة من الحرير الذهبي ترفرف خلفه.

اجتمع مرة أخرى مع المستطلعين الذين كانوا قد رأوا جيش الإغاثة ومرر الراية التي تخفق إلى المبعوث في الصف الأمامي، وكان فتى لا يتجاوز الثانية عشرة من العمر. نظر كثيرون على طول الصفوف فيما كانت تتشكل وكان راضياً عما يراه. كان كل رجل يحمل كنانتين ثقيلتين مربوطتين إلى كتفيه. لم يكونوا بحاجة إلى مؤن من أجل غارة سريعة، ولم يكن هناك سوى أقواس وسيوف على أفخاذهم وسروجهم. جأر، وهو يدير جواده في مكانه: "إذا سمحنا لهم بالوصول إلى المدينة، سننتظر سنة أخرى لنراها تسقط. أوقوهم وستكون جيادهم وأسلحتهم لكم، بعد عشر الخان". صرخ أولئك الذين استطاعوا سماعه إعجاباً بذلك ورفع كثيرون ذراعه اليمنى وأنزلها، أسراً بالتقدم. تحركت الصفوف إلى الأمام بتشكيل رافع، وكان ذلك نتاج شهور من التدريب على السهل أمام المدينة عندما لم يكن هناك أعداء يقاتلونهم. أصغر الضباط أوامره على غير العادة، لكن في الواقع، لم يكن هناك أخطاء في الصفوف. كانوا قد أطلقوا أخيراً العنان لحماسهم للحرب، حتى بعد انتظار طويل.

كان الرتل على بعد أربعين ميلاً إلى الجنوب من ينكينغ عندما رآه المستطلعون. في الوقت الذي استغرقه كثيرون للتحرك، كان الحشد البطيء من الرجال والحيوانات قد قصر المسافة إلى اثني عشر ميلاً فقط. بعد أن عرفوا أن المغول رأوهم، كانوا قد دفعوا القطعان للسير بأسرع ما يمكن، لكن لم يكن هناك الكثير مما يستطيعون فعله قبل أن يشاهدوا سحابة غبار المحاربين الذين يقتربون منهم.

هسّ الضابط القائد، سونغ لي سن، بصوت خافت استهجاناً عندما رأى العدو للمرة الأولى. كان قد قاد حوالي خمسين ألف محارب شمالاً وشرقاً من كيفنغ لإفقاذ مدينة الإمبراطور. كان الرتل ضخماً وثقيلاً، مع عربات وثيران تمتد على طول الطريق. جال ببصره على تشكيلات الفرسان التي تحمي خاصرته وأوما لقائهم من فوق رؤوس الرجال. كانت تلك معركة متوقعة منذ وقت طويل.

قال بحدة، وتكرر أمره عبر الصفوف التي تمشي مجهدة: "التشكيل الأول!". كانت الأوامر التي صدرت واضحة تماماً. لن يتوقف حتى يصل إلى ينكينغ. إذا اشبك معه العدو، كان عليه أن يخوض معركة استنزاف على طول الطريق وصولاً إلى المدينة ويتفادى التأخير في المناوشات. تقطّب حاجباه عبوساً من تلك الفكرة. كان سيفضل إصدار أمر شامل بسحق رجال القبائل ويقلق بشأن ينكينغ بعد أن يصبحوا عظاماً.

على طول الأفعى الممتدة من الرجال، رفع الجنود رماحاً طويلة مثل الشعر المنتصب. قام ألف جندي بتحضير أقواسهم وأوما سونغ لي سن لنفسه. كان يرى

صافوف الغزاة المغول بوضوح أكبر آنذاك واستجمع قواء على السراج، وكان يعرف أن الرجال ينظرون إليه كمثل على الشجاعة. لم يكن الكثيرون منهم قد سافروا تلك المسافة شمالاً من قبل وكل ما يعرفونه عن رجال القبائل الهمجيين هؤلاء يتعلق بطلب الإمبراطور الدعم من مدنه الجنوبية. شعر سونغ لي من بفضوله يتعاطف عندما غيّر الفرسان اتجاههم على طول خط ظاهر للعيان، كما لو أن رتلته كان رأس رمح لا يجروون على الاقتراب منه. رأى أنهم سيمزّون من أحد جانبيه وابتسم بتكلف. كان قيامهم بذلك يناسب أوامره. كان الطريق مفتوحاً إلى ينكيغ ولن يتوقف.

قام كثيرون بتأخير الانطلاق بأقصى سرعة حتى اللحظة الأخيرة الممكنة قبل أن ينحني في الريح ويصرخ لدفع الجياد للجري عدواً. كان يحب صوت الرعد الذي يمتلئ من حوله عندما يقف على الركاب. من مثل تلك المسافة، بدا أنهم يقتربون ببطء، ثم اندفع كل شيء فجأة نحوه. خفق قلبه بقوة عندما وصل إلى رتل تشن، وأطلق أول سهامه بطن في الهواء. شاهد سهام رماة تشن تنطلق نحوه، وتقع دونما فائدة على الحشب. كانت قيادة الجياد على طول ذلك الصف الذي لا ينتهي تعني أنهم لن يتعرضوا لخطر، وضحك كثيرون عالياً فرحاً بذلك، وهو يرسل سهاماً إثر الآخر. لم يكن عليه أن يسدد بدقة مع وجود خمسة آلاف رجل على الطرف الآخر من الرتل، وكان يطلق سهامه عليهم بضربات سريعة.

لم يستطع فرسان تشن دفع جيادهم للانطلاق بأقصى سرعتها قبل أن يتعرضوا للهجوم، ويلقوا حتفهم على متن جيادهم. ابتسم كثيرون عندما رأى أن جياد العدو كلها بقيت سليمة. كان رجاله حريصين، خاصة بعد أن شاهدوا أنذاك العدد القليل من الفرسان الذين كان تشن قد أحضرهم إلى الميدان.

عندما تم سحق الفرسان، اختار كثيرون أهدافه بدقة، وسدد على أي ضابط استطاع رؤيته. خلال ستين دقة قلب، أطلق لوجه مئة ألف سهم على الرتل. على الرغم من دروع تشن المصقولة، سقط الآلاف على الدرب، وتضر بهم أولئك الذين كانوا خلفهم.

استطاع كثيرون سماع الأبقار نخور بأسى وذعر، ولسماعته، رأى القطيع يفر بشكل جماعي، ويسحق أكثر من مئة جندي من تشن، ويفتح ثغرة في الرتل قبل أن يتجمع بعيداً. كان قد وصل إلى نهاية الذيل وقطع مسافة أبعد عنه استعداداً للهجوم من جديد. قعقت سهام الأقواس على صدره، وهي تكاد تقع من تلقاء نفسها. بعد شهر من التدريب المضني، كان من الرائع أن يشنوا هجوماً على عدو، وأفضل من ذلك،

أنه لم يكن يستطيع المساس بهم وإنما الموت فحسب. ثماني لو أنه كان يعرف ذلك لإحضار المزيد من الكائنات. كانت أصابعه الجشعة قد وجدت الكدانة الأولى فارغة وبدأ يسحب من سهامه الخمسين الأخيرة، وأسقط حامل راية تشن بالسهم الأول.

طرفت عينا كثيرون وخرجت النموع التي تسببت بها الرياح خارجهما. كان قد أثنى الرتل بما يكفي ليستهدف خمسة آلاف رجل الآخرين على الجانب الشرقي. كانوا يقودون خيولهم بشكل أخرق أيضاً، ويطلقون سهامهم كلما اتفق. ستون ضربة قلب أخرى وطار مدة ألف سهم نحو القرمسان الباقين. لم يستطع فرسان تشن الاختباء وبدأ الرتل المنضبط بالتفكك. ألقى الرجال الذين كانوا يشنون مجهدين قرب العربات أنفسهم تحثها طلباً للحماية بينما كان زملائهم يموتون من حولهم. صدر عويل خوف من الرماحين ولم يكن هناك ضباط على قيد الحياة لتجميعهم أو إيقاظهم على الدرب إلى بنكينغ.

بدأ كثيرون جولته الثانية، ولم يكن بعيداً جداً هذه المرة عن الرتل لينضيع سهاماً. هاجمت الصفوف مطمئنة نتيجة ساعات متواصلة من التكريب وتم إفراغ الكائنات الجديدة بسرعة. قاد كثيرون جواده للتطلاق بأقصى سرعة على طول الصفوف، ونظر إلى الخلف إلى القتلى الذين تركهم خلفه بينما كان الرتل يندفع إلى الأمام عبر العاصفة. كان الجنود قد حافظوا على انضباطهم، على الرغم من أن الحركة تباطأت. أصدر رجل آخرون الأوامر مكن الضباط الموتى، وكانوا يعرفون أن نقشي الذعر يعني دماراً كاملاً.

همهم كثيرون لنفسه بإعجاب ممزوج بالضعفينة. كان قد رأى قوات كثيرة تتفكك قبل ذلك. وصل إلى رأس الرتل وانعطف عائداً إلى الصف الداخلي مرة أخرى، وشعر بكتفيه تؤلمانه عندما شد القوس مجدداً وجواده يعنو بأقصى سرعته. تخيل وجه شقيقه عندما يصل الباقون إلى مكان الترحيب الذي كانوا قد أعدوه لهم عند بنكينغ. أطلق كثيرون ضحكة عندما فكر في ذلك، وكانت أصابعه متفرجة عندما تحسنت الكدانة التي كانت تفرغ بسرعة. كان هناك عشرة سهام على الأكثر، لكن الرتل بدا يترنج عندما انتشر الذعر بين صفوفه. لم تكن سهام أقواس العدو قد توقفت وكان على كثيرون أن يتخذ قراراً. كان يشعر برجاله ينظرون إليه بانتظار الأمر الذي سيجعلهم يشبهون سيوفهم ويمزقون الرتل إلى أشلاء. كانت السهام قد بدأت تنفذ منهم جميعاً وعندما يتم إطلاق آخر وابل منها، يكون عملهم قد انتهى. كانوا يعرفون الأوامر مثله، لكنهم على الرغم من ذلك أبقوا عيونهم عليه، على أمل.

تحسس كثيرون فكه. كانت بنكينغ بعيدة جداً وسيسامحه جنكيز بالتأكيد إذا قضى على الرتل لوحده. كان يشعر بمدى اقترابهم من الانتهاء. كان كل شيء تعلمه خلال سنوات الحرب قد جعل ذلك شيئاً يكاد يتحسسه.

عيس وهو يعنى التفكير فيما كانت اللحظة تطول حوله. أخيراً، هز رأسه ورسم دائرة واسعة في الهواء بقبضته. كرر كل ضابط في الموقع الإشارة وتراجعت الصفوف عن بقايا الرتل المبعثرة.

شاهد كثيرون رجاله يشكلون صفوفاً وهم يلهثون، مبهجين. أولئك الذين كان لا يزال لديهم سهام أطلقوها بعناية كبيرة، وقضوا على رجال كيفما أرادوا. استطاع كثيرون رؤية إحباطهم فيما كانوا يكبحون جماح جيادهم خلف الرتل ويراقبونه يتحرك مبتعداً عنهم. ربت العديد منهم على أعناق جيادهم وحذقوا إلى ضباطهم، غاضبين لمنعهم من القتل. لم يكن ذلك يبدو منطقياً وكان على كثيرون أن يسمّ أذنيه عن صرخات الشكوى الصادرة من كل الاتجاهات.

عندما ابتعد الرتل عنهم، نظر العديد من الجنود إلى الوراء خائفين، مقتنعين بأنهم سيتعرضون لهجوم من الخلف. ترك كثيرون الفجوة تتسع، ثم دفع جواده للسير إلى الأمام. أصدر أمراً للجناحين الأيمن والأيسر بالسير قدماً، حتى يستطيعوا محاصرة الرتل وسوقه إلى الأمام نحو ينكينغ.

خلفهم، تركوا أثراً من الرجال القتل يمتد أكثر من ميل، مع رايات خفاقة ورماح في أكسوام. أرسل كثيرون مئة محارب لسلب الجثث والإجهاز على الجرحى، لكن نظرته لم تغادر الرتل بينما كان يشق طريقه إلى شقيقه الذي ينتظره.

استغرق الأمر من الرتل المثخن بالجروح حتى بعد الظهيرة ليرى المدينة التي كان قد جاء لإغاثتها. في ذلك الوقت، كان جنود تشن الذين نجوا من المذبحة يسرون ورؤوسهم مطاطاة إلى الأسفل، وقد تحطمت معنوياتهم من الموت الذي خلفوه وراءهم. عندما رأوا عشرة آلاف آخرين يسكنون طريقهم، وكانوا رجالاً نشيطين يحملون حراياً وأقواساً، تأوهوا بهوس مطلق. اضطرب الرتل مجدداً عندما ترددوا، وكانوا يعرفون أنهم لا يستطيعون شق طريقهم بالقتال. من دون إشارة، توقفوا أخيراً ورفع كثيرون قبضة لإيقاف رجاله الذين كانوا يتبعونهم عن قرب. في الظلمة المتزايدة، انتظر أن يقترب منه شقيقه. كان سعيداً لأنه لم يسلب جنكيز هذه اللحظة عندما رآه يقود جواده لوحده بعيداً عن فوج المحاربين ويدفعه للجري خبيماً فوق العشب.

راقبه جنود تشن بعيون باهتة، وهم يلهثون مرهقين من طريقة السير التي تم إرغامهم على اتباعها. كانت عربات السلع قد تراجعت إلى الخلف عبر الصفوف التي تسير مسرعة وتركوها خلفهم، وقام كثيرون بالقضاء على الرجال الذين يحرسونها للتفريق في محتوياتها.

بتفكير متأني، عرف جنكيز مزاج الرتل واقتررب مباشرة من حافته. سمع كشيون رجاله يتمتعون بسعادة لعرض الشجاعة الذي يقدمه الخان. ربما كان لا يزال هناك خطر من إصابته بسهام وإيقاعه عن السرج، لكن جنكيز لم ينظر إلى جنود تشن عندما مرّ بهم، ولم يكن يبدو أنه يكثرث لآلاف الرجال الذين استداروا ليراقبوه من تحت جباههم التي أحنوها خنوعاً.

قال جنكيز: "لم تترك لي الكثير يا شقيقي". رأى كشيون أنه كان شاحباً ويتعرق من ركوب الجواد. فجأة، ثرجل كشيون وجعل رأسه يمسّ قدم شقيقه. رد كشيون: "تمسّيت لو أنك كنت هناك لترى وجوه الضباط. كنا ذئاباً حقاً في عالم من الأغنام يا شقيقي".

أوما جنكيز برأسه، وكان تعبته يمنعه من مشاركة كشيون مزاجه الطيب. قال: "لا أرى أي إمدادات هنا". "لقد تركوها كلها خلفهم، تركوا بما في ذلك قطعاً رائعاً من الثيران كما ستري".

انتعش جنكيز عندما سمع ذلك. "لم أكل لحم بقر منذ وقت طويل. سنشويها أمام بنكينغ ونطلق رائحة اللحم فوق الأسوار. لقد أبليت حسناً يا شقيقي. هل نجهز عليهم؟". نظر كلا الرجلين إلى رتل الجنود المتجهين، والذي لم يبق منه أكثر من نصف حجمه الأصلي. "هز كشيون كتفيه غير مبالي. "هناك الكثير من الأقواء التي ينبغي إطعامها، إلا إن منحتهم الإمدادات التي جاؤوا بها إلى هذا المكان، دعني أحاول نزع أسلحتهم أولاً، أو يمكنهم الاستمرار في القتال".

سأل جنكيز: "هل تعتقد أنهم سوف يستسلمون؟". تألقت عيناه من اقتراح شقيقه، وتأثّر بكبرياء كشيون الواضح. من بين كل الأشياء، كانت القبائل توفّر فائدة يمكنها تحقيق النصر معه من دون استعمال العنف. "هز كشيون كتفيه غير مبالي. "لنرى".

استدعى اثني عشر رجلاً يمكنهم تكلم لغة تشن وأرسلهم لقيادة جيادهم على طول الرتل وقربين منه، مثل جنكيز نفسه، لعرض شروط سلام إذا تخلوا عن أسلحتهم. لا شك أن ما كان ذا فائدة أن الرجال كانوا قريبين من الإجهاد بعد يوم من مطاردتهم من قبل عدو يضربهم بقوة مرعبة من دون أن يمسّه سوء. كانت معنوياتهم قد تذبذبت في المسير وابتسم جنكيز عندما سمع صوت الأسلحة التي كان يتم إلغاؤها أرضاً.

كان الظلام قد بدأ يحل عندما تم نزع الرماح، والأكواش، والسيوف من الصفوف الصامتة. كان جنكيز قد أرسل كتائب جديدة إلى كشيون والمغول الذين ينتظرون بترقب هادئ فيما كانت الشمس تصبغ السهول بلون ذهبي.

قبل أن يتلاشى آخر أضواء النهار، صدح بوق عبر السهل وشدَّ عشرون ألف قوس. صرخ جنود تشن برعب من الغدر الذي حاق بهم، واختلقت الأصوات عندما انهزم وابل السهام مراراً وتكراراً حتى لم يعد ممكناً الرؤية في الظلمة.

عندما ارتفع القمر، تم ذبح مئات الثيران وشويها على السهل؛ وعلى أسوار المدينة، تذوق زهي زهونغ لعابه المر، وكان اليأس يملكه. في ينكبنغ، كانوا يأكلون الموتى.

عندما كانت الوليمة في ذروتها، شاهد الجاسوس الكاهن العراف ينهض ويمشي مترحلاً وثملاً بين الخيام. نهض مثل ظل ليلحق به، وترك تيموج لينام بعد أن تناول فخذاً من لحم الثيران المملح بالدماء. كان المحاربون ينشدون ويرقصون حول الثيران وقتيان الطبول يقرعون أنغاماً قوية أخفت وقع خطواته. أبقى الجاسوس الرجل الأكبر سناً في مرمى بصره عندما توقف كوكشو ليتبول على الدرب، وفقد السيطرة على نفسه وأطلق لعنة في الظلام عندما أصاب بوله قدميه.

لم يعد الجاسوس يرى طريقته عندما انسل الرجل في الظلام الدامس بين عربتين. لم يسرع الخطي، وظن أن الرجل كان عائداً إلى فناء تشن التي يحتفظ بها كجارية في بيته. بينما كان يمشي، فكر في ما يمكن أن يقوله للكاهن العراف. في رحلته الأخيرة إلى الأسوار، سمع أن الوصي كان قد أطلق مسابقة موت في المدينة، وكان يتم إرغام فلاح من كل عائلة على مذبحه في وعاء طين بعقم ذراعه. كان يتم قتل أولئك الذين كانوا يسحبون قطعة أجر أبيض لإطعام الآخرين. كان كل يوم يحفل بمشاهد ألم وأسى لا يمكن تخيلها.

مستغرقاً في الأفكار، شاهد ظلاً يتحرك عندما اقترب من إحدى الخيام وأطلق صرخة صدمة وألم عندما تلقى ضربة جعلته يتراجع إلى الخلف على جدارها. صرَّ الباب عندما تم إغلاقه خلفه وشعر بنصل بارد على حنجرته أعاق تنفسه.

عندما تكلم كوكشو، كان صوته خافتاً وحازماً، من دون أي إشارة على شمالة كان الجاسوس قد لاحظها من قبل.

لقد كنت تراقبني طيلة الليل أبها العبد. وتبعثني الآن إلى بيتي. صه! أطلق كوكشو الصوت بينما كان الجاسوس يرفع يديه تلقائياً من الخوف.

همس كوكشو في أذنه: "إذا تحركت، سأجزّ عنقك. قف مثل تمثال أيها العبد فيما أقوم بتفتيشك". فعل الجاسوس ما طُلب منه، وتحمل البدين النحيلتين اللتين كانتا تمرّان فوق جسده. لم تستطع يدا الكاهن العراف الوصول إلى كاحليه وكان لا يزال يضع السكين على عنقه. وجد بالفعل سكيناً صغيرة وألقى بها بعيداً في الظلام من دون أن ينظر إليها. لم ينيّه للسكين الموجودة في الحذاء وأطلق الجاسوس تهديداً لرياح بيضاء. وقفنا في ظلمة حالكة بين الخيام، متواريين عن القمر والمحاربين الذين يحتفلون. لماذا سيبتغي عبيد، أسماعل؟ جئت إلى طلباً لعجينة سيدك وكانت عندها تجولان في كل مكان، وأسئلتك بريئة جداً. هل أنت جاسوس لتيموج، أم قاتل آخر؟ إذا كنت كذلك، ستكون خياراً سيئاً".

لم يرد الجاسوس، على الرغم من أنه أسك بفكه حتى لا تظهر الدهشة على وجهه. كان يعرف أنه لم ينظر إلى الكاهن العراف كثيراً ذلك المساء ولم يسمعه سوى أن يتسماعل عن تلك الذهنية التي تساورها مثل تلك الشكوك المستمرة. شعر بالسكين تضغط بقوة أكبر على عنقه وتقوّه بأولى الكلمات التي خرجت من بين شفتيه. قال: "إذا قُتلتني، لن تعرف شيئاً".

بقي كوكشو صامتاً لوقت طويل، يحاول استيعاب ذلك. حرك الجاسوس عينيه في رأسه لرؤية تعبير وجه الرجل ووجد أن فضوله يمتزج بالضغينة. سأل كوكشو: "ما الذي ينبغي أن أعرفه أيها العبد؟".

رد الجاسوس: "لا شيء سترغب بأن يسمعه غيرك". تجاهل حذره المعتاد، وكان يعرف أن حياته على المحك تلك اللحظة. كان كوكشو يستطيع أن يقتله فقط ليحرم تيموج من نصير. "دعني أتكلم ولن تقدم".

شعر بدفعة وتعرّض إلى الأمام. حتى في الظلام، أحس بأن كوكشو خلفه. فكّر الجاسوس في وسيلة لنزع سلاح الرجل من دون أن يقتله، لكنه أرغم نفسه على الاسترخاء. وضع يديه على رأسه، وسمح لكوكشو بأن يقوده إلى خيمته.

تطلب الأمر شجاعة ليلفّض رأسه عند الباب والكاهن العراف يحمل سكيناً وراءه، لكن الجاسوس كان قد قطع شوطاً طويلاً ليعتبر كلماته دعابة سيئة. كان يعرف العرض الذي عليه أن يقدمه. كان الوصي نفسه قد التقى به على السور في أثناء تقديم تقريره الأخير. سحب نفساً عميقاً ودفع الباب الصغير ليفتحه.

كانت فتاة فاتكة الجمال تجثو على الأرض عند الباب المفتوح. كشف الضوء معالمها عندما رفعت بصرها إليه وشعر الجاسوس بصدره يشتد لأن مثل تلك الفتاة الرقيقة كانت مرعوبة على انتظار الكاهن العراف مثل كلب. أخفى غضبه عندما أشار

كوكشو إليها لتتركهما وحدهما. تبادلت نظرة واحدة أخيرة مع مواطنها عندما كانت تغلق الباب وضحك كوكشو بصوت خافت.

"أعتقد أنك أعجبتها أيها العبد. لقد بدأت أتعب منها. ربما سأمنحها لضباط تشين. يمكن أن تحصل على نور عندما ينتهون من تعليمها التواضع". تجاهل الجاسوس الكلمات، وجلس على السرير المنخفض، ونزلت يداه بشكل طبيعي قرب كاحليه. إذا لم يجبر الاجتماع على ما يرام، فيمكنه قتل الكاهن العراف والعودة إلى الأسوار قبل أن يشعر به أحد. منحتة تلك الفكرة ثقة شعر بها كوكشو الذي تقطب حاجباه عصباً.

"نحن وحدنا أيها العبد. لست بحاجة إليك، أو إلى أي شيء تقوله لي. تكلم بسرعة، أو سأطعمك للكلاب غداً صباحاً".

محبب الجاسوس نفساً طويلاً وبطيناً، وجهز الكلمات التي ربما كانت تعني الموت تعذيراً قبل أن تشرق الشمس. لم يكن قد اختار تلك اللحظة. كانت الجثث في ينكينغ قد فعلت ذلك. آنذاك، كان إما محققاً بشأن الكاهن العراف، أو ميتاً.

شد من قامته ووضع يداً على ركبته، ونظر بجفاء إلى كوكشو وكان الاستكثار بادياً على محياه. حلق الكاهن العراف في التغيير الذي أصاب الرجل، وتحوله من عبد خائف إلى محارب موافق خلال لحظة فقط.

قال الرجل بهدوء: "أنا رجل من ينكينغ. رجل الإمبراطور".

انسمت عينا كوكشو. أو ما الجاسوس له.

"حياتي بين يديك حقاً الآن". دفعه شعور مفاجئ لإخراج الخنجر من حذائه ووضعته على الأرض عند قدميه. أو ما كوكشو موافقاً على تصرفه، لكنه لم يضع سكينه جانباً.

قال كوكشو بهدوء: "لا بد أن الإمبراطور يائس، أو مجنون من الجوع".

"الإمبراطور فتي في السابعة من العمر. القائد الذي هزمه خاتكم يحكم المدينة الآن".

سأله كوكشو بفضول كبير: "هل أرسلك إلى هنا؟ لماذا؟"، قبل أن ينطق بحرف، أجاب كوكشو عن سؤاله. "لأن القاتل فشل. لأنه يريد أن تغادر القيانل قبل أن يتضور شعبه جوعاً حتى الموت، أو يتم حرق المدينة في أعمال شغب".

أكد الجاسوس: "الأمر كما تقول. حتى إذا كان القائد يريد دفع الجزية عن المدينة، إلا أن الخيمة السوداء تنتصب أمام الأسوار. ما الخيارات التي لديه سوى الصمود لسنتين أخريين، أو حتى لوقت أطول؟". لم يظهر أثر على كذبة بانسة على وجه الجاسوس. كانت ينكينغ مستقط بعد شهر، أو ثلاثة على أبعد تقدير.

أخيراً، وضع كوكشو سكوته جانباً. لم يعرف الجاسوس كيف يسر ذلك. كان الوصي قد ألقى به إلى الذئاب لتقديم العرض. كان لديه جنس بأن كوكشو كان في القبائل لكنه ليس منها، وأنه رجل منفصل عنها. كان مثل هؤلاء الرجال ناضجين للقطاف، لكنه كان يعرف أن حياته لا تزال على الرغم من ذلك على المحك. نوبة وفاة واحدة من الكاهن العراف، وصخرة واحدة قد تنهي كل شيء. كان جنكيز سيعرف أنه قد حطم بنكينغ وستضيع جوهرة الإمبراطورية إلى الأبد. شعر الجاسوس بالعرق يتصبب على جلده على الرغم من الهواء المتجمد. تابع كلامه قبل أن يستطيع كوكشو الرد.

"إذا قاموا بنصب الخيمة البيضاء مرة أخرى، سيدفع إمبراطوري جزية تجعل سنة ملك بيكي. حرير بيكي لتغطية الطرقات إلى وطنكم، جواهر، عبيد، أعمال مكتوبة عن سحر عظيم، علم وطب، عاج، حديد، خشب..." كان قد رأى عيني كوكشو تشعان لذكر السحر، لكنه لم يتعلم في أثناء العذ. "... ورق، جيد، آلاف العريت المحملة. ما بيكي لبناء مدن خاصة به".

تمتم كوكشو: "سيحصل على كل ذلك بأي حال عندما تسقط المدينة".

هزّ الجاسوس رأسه بحزم. في نهاية المطاف، عندما تكون الهزيمة محتومة، ستحرق المدينة من الداخل. أعرف أنني أتكلم الحقيقة عندما أقول إن خاتك لن يحصل سوى على رماد وستين آخرين من الانتظار في هذا السهل. توقف قليلاً، محاولاً أن يرى تأثير كلماته فشل. وقف كوكشو مثل تمثال، وبالكاد كان يتنفس في أثناء سماعه ذلك.

سأل كوكشو: "ماذا لم تقدم هذا العرض للخان نفسه؟".

هزّ ما سن رأسه، وقد انتابه القلق فجأة.

لما طفلين أيها الكاهن العراف، أنت وأنا. دعني أتكلم بصراحة. كان جنكيز قد نصب خيمته السوداء وكل رجاله يعرفون أنها تعني الموت. سيكلفه القول بجزية الإمبراطور كبرياء، ومما كنت قد رأيت، سيدع بنكينغ تحترق أولاً. لكن إذا استطاع رجل آخر، رجل يثق به، نقل الثبا إليه في خلوة؟ قد يقترح إظهار الرحمة، ربما، لـهؤلاء الأبرياء في المدينة الذين يعتنون؟.

لدهشته، أطلق كوكشو ضحكة عندما سمع تلك الفكرة.

"رحمة؟ سيعتبر جنكيز ذلك ضعفاً. لن تقابل أبداً رجالاً يفهم الخوف في الحرب مثل الخان الذي أتبعه. لن تستطيع إغراءه بمثل ذلك العرض".

رغماً عن أنفه، شعر الجاسوس بالغضب يعتدل في نفسه من فيرة الكاهن العراف الساخرة. "إذا أخبرني كيف يمكن رؤى عن بنكينغ، أو اقتلني هنا وارمني لكلايك. لقد أخبرتك بكل ما أعرفه".

قال كوكشو بهنو: "يمكنني رده عنها، لقد أظهرت له ما يمكنني القيام به".
رد الجاسوس بسرعة، وهو يمسك بذراعه النخيلة: "أنت مهاب الجانب في المعسكر. هل أنت الرجل الذي أحضارته؟".

رد كوكشو: "أنا كذلك". تلوّن وجهه عندما رأى وجه الرجل الآخر يرتاح. كل ما يتبقى هو أن تضع سحراً لمساعدتي على هذا الشيء الصغير. أتسامل، كم تساوي مدينتك لإمبراطورك؟ ما السعر الذي ينبغي أن أضعه مقابل حياته؟".

رد الجاسوس: "أي شيء تريده سيكون جزءاً من الجزية التي سيتم دفعها للخان".
لم يكن يجرؤ على الاعتقاد بأن الرجل يتلاعب به. ما الخيار الذي كان يملكه سوى الوصول إلى حيث يفوده الكاهن العراف؟

كان كوكشو عندها صامناً لبعض الوقت، يتأمل الرجل الذي جلس منتصباً على السرير.

قال أخيراً: "هناك سحر حقيقي في العالم أبها العبد. لقد شعرت به واستعملته. إذا كان شعبك يعرف شيئاً عن ذلك الفن، سيكون لدى إمبراطورك الفتى في مدينته الثمينة. لا يمكن لرجل أن يتعلم ما يكفي في مئة حياة. أريد أن أعرف كل سر كان شعبك قد اكتشفه".

"هناك العديد من الأسرار أبها الكاهن العراف: من صنع الورق والحبر إلى المسحوق الذي يحرق البوصلة، والزيت الذي لا ينفذ. ماذا ترغب بأن تعرف؟".
تألف كوكشو. "لا تسامني. أريد كل شيء. هل لديك رجال يعملون بهذه الفنون في المدن؟".

أوما الجاسوس برأسه.
"كهنة وأطباء من كل المراتب".

"اجعلهم يجهزون أسرارهم لي، كهنية بين زملاء. قل لهم ألا ينسوا شيئاً أو سائل لخاتي رؤية مليئة بالدماء وسيعود ليحرق أراضيكم كل الطريق إلى البحر. هل تفهم؟".

تحرّرت عقدة لسان الجاسوس وأجاب، واهناً ومرتاحاً. كان يسمع أصواتاً مرتفعة في مكان ما قريب واندفع بكلامه، وكان بأسس الحاجة إلى قول كل ما لديه.
همس: "سأجعلهم يفعلون ذلك. عندما ترتفع الخيمة البيضاء، سوف يستسلم الإمبراطور". ففكر للحظة، ثم تكلم مجدداً. كانت الأصوات في الخارج عالية.

"إذا كانت هناك خيانة أبها الكاهن العراف، سيحرق كل ما ترغب بمعرفته في السنة الذهب. هناك ما يكفي من المسحوق الحارق في المدينة لتحويل الحجارة إلى غبار".

رد كوكشو ساخرًا: تهديد شجاع. أتساءل إن كان شعبك يتمتع بالإرادة حقاً لفعل مثل ذلك الشيء. لقد سمعتك أيها العبد. لقد قمت بملك. الآن، عد إلى مدينتك وانتظر الخيمة البيضاء مع إمبراطورك. سيحدث ذلك في الوقت المناسب.^١

كان الجاسوس يرغب بمواصلة الجدل مع الكاهن العراف، لجعله يفهم أن عليه التحرك بسرعة. أوقف الحذر فيه وفكر أن ذلك سيؤدي فقط إلى إضعاف موقفه. لم يكن الكاهن العراف ببساطة يهتم إن كان شعب المدينة يموت كل يوم.

قال كوكشو بحدّة، منزعجاً من الصراخ والنداء خارج خيمته: "ما الذي يحدث في الخارج؟". أشار للجاسوس بأن يغادر ولحق به إلى ضوء القمر في الخارج. كان كل من حولهم يحدث إلى المدينة وأدار كلا الرجلين ناظرهما إلى الأسوار.

كانت الشابات يصعدن الدرجات الحجرية ببطء، وكن يرتدين الأبيض، لون الموت. كن نحيلات مثل الهياكل العظمية وحافيات الأقدام، لكنهن لم يكن يرتعشن. لم يكن يبدو أن البرد يؤثر فيهنّ على الإطلاق. تراجع الجنود عن الأسوار برهبة وتطير ولم يلف أحد في طريقهن. بالآلاف، تجتمعن فوق المدينة. بعشرات الآلاف. حتى الريح تحولت إلى نسيم فوق بنكينغ وأطبق الصمت على المكان.

كان المسر حول المدينة أبيض منجمداً، تحت المكان الذي يقفن عليه بخمسين قدماً. كشخص واحد تقريباً، تقدمت شابات بنكينغ إلى طرف الحافة. كانت كلّ واحدة منهنّ تمسك بيدي من ثفان بجوارها، فيما وقفت أخريات لوحدهن، يحدثن في الظلام. على امتداد أميال السور، كن يقفن هناك، ينظرن إلى الأسفل على ضوء القمر.

التقط الجاسوس أنفاسه، وهمس بابتهال لم يكن قد تذكره منذ سنوات، من قبل أن يكون قد نسي اسمه الحقيقي. انفطر قلبه على شعبه ومدينته.

على طول السور، كانت أشكال بملابس بيضاء قد صعدت إليه مثل صف من الأشباح. رأى المحاربون المغول أنهم كن نساء واندوهنّ بأصوات جشّة، وكانوا يضحكون ويسفرون من الأشكال البعيدة. هزّ الجاسوس رأسه لإبعاد الأصوات الفظة، وكانت التمسوح تنهمر من عينيه. أمسكت العديد من الفتيات بأيدي بعضهن فيما كن يحدثن إلى الأسفل إلى العدو الذي كان قد وصل إلى بوابات مدينة الإمبراطور.

فيما كان الجاسوس يراقب ما يجري بأسى، تقدمن إلى الأمام في الهواء. صمت المحاربون الذين كانوا يراقبون مندهشين مما يجري. من بعيد، كن يشاقطن مثل تويجات بيضاء وحتى كوكشو هزّ رأسه، مندهشاً. أخذت آلاف غيرهنّ مواقعهن على

المور والقيين بأنفسهن إلى حتفهن من دون أي صرخة، وكانت أجسادهن تتحطم على الصخور القاسية في الأسفل.
همس الجاسوس للكهان العراف، وكان صوته أجشّ من الأسى: "إذا كانت هناك خيانة، فسيتمّ تدمير المدينة وكل ما فيها بالنار".
لم يعد كوكشو يشك بذلك.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الحادي والثلاثون



عندما حل فصل الشتاء، ولد أطفال في الخيام، وكان العديد منهم أبناء لرجال بعينين مع قادة الجيش أو إحدى المجموعات الدبلوماسية التي كان نيموج قد أرسلها. كان الطعام متوفراً بكثرة بعد الاستيلاء على رتل الإمدادات واستمتع المعسكر الشاسع بمدة من السلام والأزدهار لم يعرفها من قبل. حافظ كثيرون على لياقة المحاربين بالتدريب المستمر في السهل حول ينكينغ، لكنه كان سلاماً زائفاً وكان قليل من الرجال لا يشخصون بأبصارهم إلى المدينة عدة مرات كل يوم، ينتظرون.

عانى جنكيز من البرد للمرة الأولى في حياته. لم تكن لديه شهية كبيرة على الطعام، لكنه كان قد أضاف طبقة من الدهن إلى جسده بإرغام نفسه على تناول لحم البقر والأرز. على الرغم من أنه أضفى أقل نكهة، إلا أن سعائه استمر، وكان يخطف أنفاسه ويجعله يشعر بالحنق. بالنسبة إلى رجل لم يكن قد عرف المرض من قبل، كان من المحبط للغاية أن يخونه جسده. من بين كل الرجال في المعسكر، كان أكثر من يحنق إلى المدينة، ويرغب بأن تسقط.

جاءه كوكشو في منتصف ليلة عاصفة بالثلج. لسبب ما، كان السعال أسوأ في الليل وقد اعتاد جنكيز على قيام الكاهن العراف بزيارته قبل الفجر بحمل شرباً ساخناً. نظراً لاقتراب الخيام بعضها من بعض، كان يمكن لكل أولئك الذين حولهم سماع نوبات سعاله.

جلس جنكيز عندما سمع الحراس يعترضون كوكشو. لن يكون هناك تكرار لمحاولة الاغتيال بعد وضع ستة رجال حول الخيمة الكبيرة في مناوبات طيلة الليل. حذق إلى الدجينة بينما كان كوكشو يدخل ويضيء مصباحاً يتكلى من السقف. لم يستطع جنكيز أن يتكلم معه للحظة. كان البلغم قد أرقى صدره حتى أصبح وجهه أحمر اللون. انقضى ذلك، كما هي العادة، تاركاً آياه يلهث لالتقاط أنفاسه.

هسب بإرهاق: أهلاً بك في بيئي يا كوكشو. ما هي الأعشاب الجديدة التي ستجربها الليلة؟

ربما كان ذلك من نسج خياله، لكن الكاهن العراف بدا عصبياً بشكل غريب. كان جبين كوكشو يلمع من العرق وتساءل جنكيز إن كان يشعر بالمرض أيضاً.

قال: "لا شيء لدي سيجعلك أفضل يا مولاي. لقد جرّبت كل شيء أعرفه. كنت أتساءل إن كان هناك شيء آخر يمنع عنك المرض مجدداً".

سأل جنكيز: "شيء آخر؟". شعر بحنجرته تدغدغه بشكل أعظمه وابتلع ريقه بصعوبة، وكان قد اعتاد على ذلك الشيء، وبغصن بشكل مستمر.

"تقد أرسل الإمبراطور قاتلاً يا مولاي. ربما لديه وسائل أخرى لمهاجمتك، وسائل لا يمكن رؤيتها والتخلص منها".

فكر جنكيز في ذلك باهتمام. "هل تعتقد أن لديه سحرة في مدينته؟ إذا كان أفضل ما يستطيعون فعله هو السعال، لن أخشاهم".

هز كوكشو رأسه. "يمكن للجنة أن تقتلك يا مولاي. كان ينبغي أن أفكر بذلك من قبل".

تراجع جنكيز على سريره مرهقاً. "ماذا يدور في ذهنك؟".

أشار كوكشو لخاله بأن يقف وأتاح بنظرة بعيداً بدلاً من أن يرى جنكيز يعاني.

"إذا جئت إلى خيمتي يا مولاي، سأستدعي الأرواح ولري إن كنت هدفًا لعمل شرير من المدينة".

ضابت عينا جنكيز، لكنه أوما برأسه.

"حسناً، أرسل أحد حراسي إلى تيموج لينضم إلينا".

"ذلك ليس ضرورياً يا مولاي. شقيقك ليس معتاداً على هذه الأمور...".

سعل جنكيز بصوت حوله إلى مهمة غاضبة من جسده الضعيف.

قال: "افعل ما أقوله لك أيها الكاهن العراف، أو اخرج". زم كوكشو شفّته وانحلى قليلاً.

تبع جنكيز كوكشو إلى الخيمة الصغيرة، وانتظر في الثلج والريح فيما ولج الكاهن العراف إلى الداخل. لم يتأخر تيموج في الوصول، برافقه المحارب الذي كان قد أيقظه من نومه. نحى جنكيز شقيقه جانباً حيث لا يمكن لكوكشو سماعهما.

"يبدو أنني مضطر لتحمل دخله وطقوسه يا تيموج. هل تتق بالرجل؟".

قال تيموج بحدّة، وكان لا يزال غاضباً من إيقافه: "لا".

ابتسم جنكيز من نرق شقيقه في ضوء القمر. "كنت أعتقد أنك ربما لا تتق به، ولهذا السبب أنت هنا. سترافقتي يا شقيقي، وترافقه طيلة الوقت الذي أكون فيه داخل خيمته". أشار إلى المحارب الذي يقف بالقرب منهما وجاء الرجل بسرعة.

استمرس خيمته يا كيوك ضد كل من يحاول إزعاجنا".

رد المحارب وهو يحني رأسه: "كما تشاء يا مولاي".

قال جنكيز: "وإذا لم أخرج أو تيموج، ستكون مهمتك قتل الكاهن العراف". شعر بنظرة تيموج إليه وهز كتفيه غير مبالي. "أست رجلاً يثق بالآخرين يا شقيقي".

سحب تيموج نفساً صعباً من الهواء المتجمد، وسيطر جنكيز على حنجرته التي ترتعش بقوة ودخل خيمة الكاهن العراف، وشقيقه خلفه. كانت هناك بالكاد مساحة لثلاثة أشخاص في ذلك المكان الصغير، لكنهما جلسا على الأرض المكسوة بالحريير وركبتهما متلاصقتان، ينتظران لمشاهدة ما يمكن لكوكشو أن يفعله.

أشعل كوكشو مساحيق في أطباق ذهبية على الأرض والتي أطلقت شرارات، وفتح عنها سحابة كثيفة من دخان مختر. عندما وصلت أولى الخيوط الرفيعة من الدخان إلى جنكيز، تكوّم على نفسه في نوبة سعال. كان كل لهات يجعل الأمر أسوأ وانتاب كوكشو قلق شديد من أن ينهار الخان. أخيراً، سحب جنكيز نفساً صعباً وشعر بحنجرته المجروحة تهدأ، وكان الأمر مثل ماء جنول في يوم حار. سحب نفساً آخر وآخر، مبتهجا من الخدر الذي سرى في جسده.

أقرّ وهو يحذق إلى الكاهن العراف بعينين محتقنتين: "هذا الفضل".

كان كوكشو في محيطه الخاص به، على الرغم من نظرة تيموج القاسية إليه. حضر وعاء من عجينة سوداء ومدّ يده إلى قم جنكيز. اهتز عندما أمسكت يد جنكيز بمعصمه. قال جنكيز، متشككاً: "ما هذا؟".

استلح كوكشو ريقه. لم يكن قد رآه يتحرك. "سيماعدك على كسر حواجز الجسد يا مولاي. من نونه، لا يمكنني اصطحابك على الدروب".

قال تيموج فجأة، وعينه تلمعان أكثر من ذي قبل: "لقد تناولته، إنه غير مؤذ".

رد جنكيز، متجاهلاً خيبة أمل شقيقه: "إن تفعل التيلة. أريدك أن تراقب ما يجري يا تيموج، وهذا كل ما ستفعله".

فتح جنكيز فمه وتحمل أصابع الكاهن العراف ذات الأطافر السوداء وهي تفرك العجينة على لثته. في البداية، لم يكن هناك تأثير، لكن عندما بدأ جنكيز يشعر به، لاحظ أن الضوء الخافت لمصباح الكاهن العراف قد أصبح أكثر سطوعاً. حتى إليه باستغراب وانتشر الضوء حتى ملأ الخيمة الصغيرة، وغمرهم جميعاً بلون ذهبي.

همس كوكشو: "خذ يدي، وسر معي".

راقب تيموج بعدم ثقة فيما كانت عينا شقيقه تدوران في رأسه ويسقط فجأة. كان كوكشو قد أغلق عينيه وشعر تيموج بأنه لوحده. فزع عندما فغر جنكيز فمه، والذي

أضحي أسود من العجينة. طال الصمت وفقد تيموج بعضاً من ثورته عندما تذكر رؤاه الخاصة في تلك الخيمة الصغيرة. انتفع بصره إلى وعاء العجينة السوداء، ومع وجود رجلين مغشياً عليهما، استبدل الوعاء وأخفاه داخل ردائه. كان خادمه ما تمن يجلب له بانتظام كمية منه قبل أن يختفي. كان تيموج قد توقف منذ وقت طويل عن التساؤل إلى أين ذهب، على الرغم من أنه كان يشك بأن كوكشو له يد في ذلك. كان هناك خدم آخرون يمكن العثور عليهم بين جنود تشن الذين أسره جنكيز، على الرغم من ألا أحد منهم كان يمثل مهارته.

لم يكن لدى تيموج طريقة لتقدير مرور الوقت. جلس وقتاً طويلاً ساكناً من دون حراك، ثم صعداً من أحلام يقظته على صوت كوكشو، المتعب والبعيد. ملأت الكلمات الخيمة ثم تبيّه تيموج لتتدفق المقاطع الصوتية غير المفهومة. استفاق جنكيز أيضاً على الصوت، وفتح عينين لامعتين بينما كان كوكشو يتكلم بصوت أعلى وأسرع.

ومن دون سابق إنذار، انهار الكاهن العراف، وسقط جسده بين يدي جنكيز. شعر جنكيز بالأصابع تتسلل بعيداً وطرفت عيناه ببطء، وكان لا يزال متأثراً بعقق بالأفيون. استلقى كوكشو إلى جانبه، يهبط لعاباً من فمه. حثق إليه تيموج من بعيد. من دون إنذار، هدا هذان الكلمات الغريبة وتكلم كوكشو من دون أن يفتح عينيه بصوت خافت وحاسم.

"أرى خيمة بيضاء ترتفع أمام الأسوار. أرى الإمبراطور يتكلم إلى جنوده. رجال يشيرون وينادون. إنه فتى صغير وهناك دموع في وجهه."

صمت الكاهن العراف وانحنى تيموج مقترباً منه، قلقاً من أن يكون سكوته يعني أن قلب الرجل قد توقف. من كثف الكاهن العراف بلطف، وعندما فعل ذلك، اهتز كوكشو، تلوّى، وأصدر أصواتاً لم يكن لها معنى. مرة أخرى، صمت وتكلم الصوت الخافت مجدداً.

"أرى كنوزاً، جزية. آلاف العربات والعبيد. حريراً، أسلحة، عاجاً. جياداً بالآلاف، تكفي لتملأ السماء. ما يكفي لبناء إمبراطورية. إنها تلمع!"

انتظر تيموج المزيد، لكنه لم يأت. كان شقيقه قد أسند نفسه مجدداً على جدار الخيمة المصنوع من أغصان الصفصاف وكان يشخر بهدوء. هدأت أنفاس كوكشو واسترخت قبضته القويّتان عندما نام هو أيضاً. مرة أخرى، كان تيموج وحيداً ومدهشاً مما كان قد سمعه. هل سيتذكر أي من الرجلين الكلمات؟ كانت مجموعة رؤاه الخاصة مشوشة بأفضل الحالات، لكنه تذكر أن كوكشو لم يكن قد وضع العجينة السوداء داخل فمه. لا شك أنه سيخبر الخان بكل ما رآه.

كان تيموج يعرف أنه لا يستطيع إيقاف شقيقه. كان سينام عدة ساعات تمتد إلى ما بعد استيقاظ المعسكر بكثير. هز تيموج رأسه متعباً. كان جنكيز منزعاً من الحصار مع اقتراب السنة الثانية من نهايتها. ربما ينشبت بأي فرصة. ابتسم تيموج. إذا كانت رؤية كوكشو صحيحة، سيلجأ جنكيز إليه في المستقبل، في كل الأشياء.

فكر تيموج في قطع عنق كوكشو في أثناء نومه. بالنسبة إلى رجل يعمل بالسحر الأسود، لن يكون تفسير ذلك صعباً للغاية. تخيل تيموج أنه يقول لجنكيز كيف ظهر خط أحمر على حنجرة كوكشو بينما كان يراقب ما يجري مذعوراً. سيكون تيموج من خير جنكيز عما كان الكاهن العراف قد رآه.

سحب تيموج سكينه ببطء، من دون أن يصدر صوتاً. اهتزت يده قليلاً، حتى عندما كان يثبت نفسه على القيام بذلك. انحنى فوق الكاهن العراف، وفي تلك اللحظة، فتح كوكشو عينيه بسرعة، متنبهاً بطريقة ما. هز ذراعه لوضع السكين جانباً، وأخفاها بين طيات ردائه.

تكلم تيموج بسرعة. "أنت حي إذاً يا كوكشو؟ اعتقدت للحظة أن شيئاً قد نملكك. كنت مستعداً لقتل الروح التي كانت قد سلبت من جسدك."

جلس كوكشو، يقطاً وعيناه حادتان. ظهر تعبير ساخر على وجهه. تخاف كثيراً يا تيموج. ليست هناك روح يمكنها أن تؤذي. كان كلا الرجلين يعرفان الحقيقة تلك اللحظة، لكن لأسباب تتعلق بكل منهما، لم يكن أحدهما يرغب بأن يفصح عنها علانية. حدكا بعضهما إلى بعض مثل عدوين، وأخيراً، أوماً تيموج برأسه.

قال: "سأجعل الحارس يحمل شقيقي إلى خيمته. هل سيتوقف سعاله، برأيك؟". هز كوكشو رأسه. ليست هناك لعنة يمكنني العثور عليها. خذ، كما تشاء. ينبغي أن أفكر بما كشفته الأرواح لي."

كان تيموج يريد أن يحطم غرور الرجل بملاحظة جارحة، لكنه لم يستطع التفكير بواحدة وخرج زحفاً من الباب ليجلب الحارس لشقيقه. كان الثلج يعصف حوله عندما دفع المحارب الضخم جنكيز فوق كتفيه وكانت المرارة تبدو على وجه تيموج. كان واقعاً ألا فائدة ترجى من ازدياد نفوذ كوكشو.

نهض زهي زهونغ فجأة على وقع أصوات أحمية على الأرض القاسية. هز رأسه ليصحو من النوم وتجاهل تشنجات الجوع التي تتدبى عليه الوقت. حتى بلاط الإمبراطور كان يعاني من المجاعة. قبل يوم، كان زهي زهونغ قد تناول الطعام مرة واحدة فقط، طبقاً من الحساء. كان قد قال لنفسه إن قطع اللحم الصغيرة كانت من آخر

جساد الإمبراطور، التي تم ذبحها قبل عدة شهور. كان يأمل بأن يكون ذلك صحيحاً. كهندي، كان قد تعلم ألا يرفض وجبة أبداً، حتى إذا كان اللحم فاسداً. وقف، ورمى جانباً بطاياته ومذابه إلى سيفه عندما دخل خادم.

سأل زهي زهونغ: "من أنت لترعجني في هذه الساعة؟". كان الظلام لا يزال حالكاً في الخارج وكان لا يزال مجهداً من النوم المتقطع. أخفض سيفه عندما رمى الخادم نفسه على الأرض، ووضع رأسه على الحجارة.

قال الرجل من دون أن ينظر إلى الأعلى: "مولاي الوصي، يستدعك ابن السماء للمثول بين يديه". تقطب حاجبا زهي زهونغ دهشة. لم يكن الفتى الإمبراطور كسوان قد تجرأ على استدعائه من قبل. كبت الغضب الذي شعر به حتى يعرف المزيد، ونادى عبيده لتجهيز ملابسه وحماته.

ارتعش الخادم بشكل ظاهر للعيان عندما سمع النداء. "يا مولاي، طلب الإمبراطور أن تأتي حالا". قال زهي زهونغ بحدة زائت من خوف الرجل: "سينتظر كسوان مسروراً! انتظرنني في الخارج". زحف الخادم على قدميه وفكر زهي زهونغ بأن يجعله يسرع بركلة على قفاه.

دخل عبيده، وعلى الرغم من ذلك الجواب، إلا أن زهي زهونغ جعلهم يسرعون. قرر ألا يستحم وعند فقط شعره الطويل خلف رأسه بمشبك برونزي حتى تلتصق على ظهره فوق درعه. كان يشم رائحة عرقه وتعتكر مزاجه أكثر بينما كان يتسامل إن كان وزراء الإمبراطور خلف ذلك الاجتماع.

عندما غادر غرفته، هروا خائمه أمامه، واستطاع رؤية خيوط الفجر الأولى من كل نافذة مفتوحة. كان ذلك الوقت المفضل لديه من النهار، وإن كانت معدته قد تقلصت.

وجد الإمبراطور في حجرة الاستقبال حيث كان زهي زهونغ قد قتل والده. بينما كان الوصي يمر بين الحراس، تسامل إن كان أحد قد أبلغ الفتى أنه يجلس على الكرسي نفسه.

كان الوزراء حاضرين مثل سرب من الطيور الملونة. كان روين تشو، الأول بينهم، واقفاً إلى يمين كسوان فيما الفتى جالس على العرش الذي يبدو كبيراً على جمده الصغير. بدا الوزير الأول متوتراً وجريئاً في الوقت نفسه وانتاب زهي زهونغ الفضول بينما كان يقترب ويجثو على ركبة واحدة.

قال بوضوح في الصمت: "استدعاني ابن السماء وقد أثبت". رأى عيني كسوان تستقران على السيف الذي يضعه على ردفه وظن أن الفتى يعرف جيداً ما كان قد

حدث لوالده. إذا كان الأمر كذلك، لا بد أن اختار الحجرة كان متعمداً وسيطر زهي زهونغ على نفاد صبره حتى يعرف ما منح طيور الإمبراطور تلك الثقة الجديدة البادية على وجوههم.

لدهشته، كان كسوان نفسه من تكلم. قال: "مدينتي تتصور جوعاً أبها العاهل الوصي". ارتعش صوته قليلاً، لكنه أصبح حازماً عندما تابع. "مع الانقضاء العشوائي، ربما يكون الخمس قد ماتوا، بما في ذلك أولئك اللواتي رمين أنفسهن عن الأسوار".

كاد زهي زهونغ يتفوه بجواب لدى تذكره بتلك الحادثة المؤسفة، لكنه كان يعرف أنه لا بد من وجود المزيد حتى يتجرأ كسوان على استدعائه للمثول بين يديه.

تابع الإمبراطور: "لم يتم دفن الموتى، بوجود الكثير من الأقواء التي ينبغي إطفائها. بدلاً من ذلك، ينبغي أن نتحمل عار تناول لحومهم، أو الانضمام إليهم".

قال زهي زهونغ فجأة، متعباً من كلام الفتى: "ماذا تم استدعائي إلى هنا؟". شقيق روين تشو لولاحته في مقاطعة الإمبراطور. ألقى زهي زهونغ نظرة متعالية باتجاه الرجل، من دون أن يهتم به.

انحنى الفتى على العرش إلى الأمام، مستجمعاً شجاعته.

لقد رفع خان المغول خيمة بيضاء مرة أخرى على السهل. حقق الجاسوس الذي أرسلته النجاح ويمكننا دفع جزية أخيراً".

شد زهي زهونغ قبضته اليمنى، مندهشاً. لم يكن ذلك النصر الذي أراد، لكن المدينة سرعان ما ستصبح قيراً لهم جميعاً. على الرغم من ذلك، تتطلب الأمر جهداً وإرادة كبيرين لدفع ابتسامة على وجهه.

"إذا، سينجو جلائكه. سأذهب إلى الأسوار وأرى تلك الخيمة البيضاء، ثم أبعث برسالة إلى الخان. يمكننا أن نتكلم مجدداً".

رأى ازدياداً على وجوه الوزراء وكرههم لأجل ذلك. كرجل، كانوا ينظرون إليه كمهندس الكارثة التي حلت ببلكنيغ. كان خزي الاستسلام سينتشر عبر المدينة إلى جانب الشعور بالراحة. من البلاط الأعلى مرتبة إلى الصيادين الأدنى طبقة، سيعرفون أنه تم إرغام الإمبراطور على دفع جزية. على الرغم من ذلك، سيعيشون وينجون من مصيدة الجردان التي أضحت عليها بنكنيغ. حالما يتم دفع النقود للعبوة للمغول، يمكن للبلاط السفر جنوباً وجمع قوة واستدعاء حلفاء في المدن الجنوبية. ربما سيلتقون الدعم حتى من إمبراطورية سونغ في أقصى الجنوب، ويدعونهم برباط الدم لسحق الغازي. ستكون هناك معارك أخرى مع حشد المغول، لكنهم لن يسمحو أبداً بأن يُحاصر الإمبراطور مجدداً. بكلتا الحالتين، سوف يعيشون.

كانت غرفة الاستقبال باردة وارتعش زهي زهونغ، مدركاً أنه كان يقف بصمت فيما الإمبراطور والوزراء ينظرون إليه. لم تكن لديه كلمات يمكنها تهدئة الألم المريع لما ينبغي أن يقوم به وحاول الاستخفاف من فداحة الأمر. لم تكن هناك فائدة من رؤية المدينة كلها تتصور جوعاً حتى الموت، ويمكن عندها للمغول تسلق الأسوار والعتور فقط على رجال موئي. في الوقت المناسب، سيكون جنود تشن أقوىاء مجدداً. رفعت فكرة الوصول إلى طرف الجنوب معنوياته قليلاً. سيجدون طعاماً وجيشاً هناك.

قال وهو ينحني كثيراً قبل أن يغادر الغرفة: "إنه القرار الصائب يا ابن السماء". عندما غادر، تقدم أحد العبيد الذين كانوا يقفون عند الجدار إلى الأمام. أشار الإمبراطور الفنى له بعينه وكان الحقد والغضب ظاهرين آنذاك حيث كان التوتر فقط من قبل.

شد العبد قامته، وبذل الطريقة التي كان يقف بها. لم يكن على رأسه شعر أبداً، حتى الحاجبان والرموش، وكان يلمع من مرهم كثيف عليه. حتى الرجل خلف العاهل الوصي كما لو أنه يستطيع الرؤية عبر الأبواب الكبيرة للحجرة. قال كسوان: "تركه يعيش حتى يتم دفع الجزية. بعد ذلك، ينبغي أن يموت ميتة مؤلمة للغاية. من أجل فضله ومن أجل والدي".

انحنى سيد الجمعية السرية السوداء احتراماً للفنى الذي يحكم الإمبراطورية. "سيكون الأمر كذلك يا مولاي الإمبراطور".

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

الفصل الثاني والثلاثون



كان من الغريب رؤية بوابات ينكينغ تفتح أخيراً. شد جنكيز قامته فوق السراج بينما كان يشاهد أول عربة محملة تخرج نحوه. أظهرت حقيقة أن رجالاً كانوا يسحبونها وليس حيوانات جر حالة المدينة من الداخل. كان من الصعب ألا يضرب يعقبيه على ردفي جواده ويهاجم. بعد أن قضى شهوراً عديدة يحلم بتلك اللحظة. قال لنفسه إنه كان قد اتخذ القرار الصائب، ونظر إلى كوكشو إلى يمينه، يمتطي جواداً من أفضل السلالات الموجودة في القبائل.

لم يستطع كوكشو إخفاء ابتسامة بينما كان توقعه يصبح حقيقة واقعة. كان قد أخبر جنكيز عن تفاصيل رؤيته، عندما كانت الخيمة السوداء لا تزال تنصب أمام المدينة، ووعدته جنكيز أن ينتقي من الجزية ما يشاء إذا تحقق ذلك. لم تكن قد ازدادت سلطته ونفوذه في القبائل فحسب، وإنما سيصبح أغنى مما كان يحلم. كان ضميئه مرتاحاً بينما كان يراقب كنز الإمبراطورية يخرج من المدينة. كان قد كذب على خاتمه وربما حرمه من تحقيق نصر نموي، لكن ينكينغ قد سقطت وكان كوكشو مهندس انتصار المغول. هتف ثلاثون ألف محارب للعربات التي تقرب منهم حتى نحت أصواتهم. كانوا يعرفون أنهم سيرتدون حريراً أخضر قبل أن ينتهي اليوم، وبالنسبة لرجال عاشوا لكسب الغنائم، كان ذلك شيئاً بقولونه لأحفادهم. كان قد تم إرغام الإمبراطور على الخضوع لهم ولم يكن بمقدور المدينة الحصينة سوى أن تلفظ ثروتها بعد هزيمتها.

بعد فتح الأبواب، كان بمقدور قادة الجيش إلقاء نظرة خاطفة على ما يوجد داخل المدينة للمرة الأولى، وشاهدوا طريقاً يمتد إلى ما لا نهاية. سئل جنكيز في قبضته فيما كانت الجزية تخرج مثل لسان، مع رجال يتهايمسون حول الرتل بينما كان يشبه عملية عسكرية. كان الكثير منهم يدون مثل هياكل عظمية بسبب الجوع. ترنحوا في أنساء عملهم، وعندما حاولوا أخذ قسط من الراحة، ضربهم ضباط تشن بوحشية حتى تحركوا أو ماتوا.

تم إخراج مئات العربات إلى السهل، ووضعها في صف أنيق فيما عادت فرقها التي كانت تنصيب عرقاً إلى المدينة لجلب المزيد. كان تيموج قد عين محاربين لحساب العدد الإجمالي، لكن الفوضى كانت عارمة آنذاك وضحك جنكيز بصوت خافت عندما رآه يهرول في الأتواء أحمر الوجه، يصدر الأوامر وهو يسير على طول شوارع جديدة من الثروة.

سأل كشيون إلى جانبه: "ماذا ستفعل بالجزية؟"
رفع جنكيز بصره بعد أن كان مستغرقاً في أفكاره. "هزّ كتفيه استخفافاً. "كم يمكن للرجل أن يحمل من دون أن يكون بطيئاً في القتال؟".
ضحك كشيون. "يريدنا تيموج أن نبني عاصمة خاصة بنا، هل أخبرك بذلك؟ إنه يرسم خططاً للمكان الذي يشبه كثيراً مدينة تشن".
تألف جنكيز من ذلك، ثم انحنى إلى الأمام فوق سرجه في نوبة من السعال تركته يلهث طلباً للهواء. تكلم كشيون مجدداً كما لو أنه لم ير ضعفه.
"لا يمكننا دفن الذهب فحصب يا شقيقي. ينبغي أن نفعل به شيئاً".
عندما أصبح جنكيز قادراً على الرد، كان قد أضاع الجواب الحاد الذي كان سيقوله.

لقد مشيت معك في شوارع تشن يا كشيون. هل تتذكر الرائحة؟ عندما أفكر في البيت، أفكر في جداول نظيفة وأودية مليئة بالأعشاب النضرة، وليس في فرصة للتظاهر بأننا نبلاء تشن خلف أسوار. ألم نثبت أن الأسوار تجعل الآخرين ضعفاء؟. أشار إلى رتل من العربات كان لا يزال يخرج من يكتينغ لتوضيح مقصده. كانت أكثر من ألف عربة قد غادرت المدينة وكان لا يزال يرى الصف يمتد على طول الطريق في الداخل.
قال كشيون: "إنّ، لن نبني أسواراً. ستكون أسوارنا المحاربين الذين تراهم حولك، وهم أقوى من أي بناء من الصخر والحجر الكلسي".
نظر إليه جنكيز ساخراً وقال: "أرى أن تيموج كان مقنعاً".
أشاح كشيون بنظره بعيداً، محرجاً.

"لا أهتم لرؤاه عن ساحات الأسواق والحمامات. أتكلم عن أماكن للتعليم، وعن رجال طيب يستربون لمدواة جروح المحاربين. إنه يتطلع إلى وقت لا تكون فيه في حرب. لم يسبق أن كانت لدينا مثل تلك الأشياء من قبل، لكن هذا لا يعني أنه لا ينبغي بنا ذلك".
حدق كلا الرجلين إلى صفوف العربات لبعض الوقت. بالاستفادة من كل جواد متوفر من الأقواج، كان من الصعب للغاية حتى تحريك مثل تلك الأشياء. كان من الطبيعي أن يحلموا بالاحتمالات.

قال جنكيز: "لا يمكنني أن أتخيل السلام. لم أعرفه أبداً. كل ما أريده هو العودة إلى الوطن والتعافي من هذا المرض الذي أصابني. أن أقود حصاتي طيلة اليوم وأصبح قوياً مجدداً. هل تريد مني بناء مدن على سهولي؟".

هزّ كشيون رأسه. "ليس مدناً. نحن فرسان يا شقيقي. سنكون كذلك دائماً. لكن ربما عاصمة، مدينة واحدة للأمة التي صنعناها. بالطريقة التي أخبرني عنها تيموج، يمكننا أن نتخيل ساحات تدريب رائعة لرجالنا، مكاناً يعيش فيه أولادنا ولا يعرفون أبداً الخوف الذي عرفناه".

قال جنكيز: "سيكبرون رقيقين. سيجعلهم ذلك ضعفاء وعديمي الفائدة مثل جنود تشن أنفسهم، ويوماً ما، سيأتي شخص على صهوة جواده، ويكون قاسياً ونحياً وخطيراً. عندها، أين سيكون شعبنا؟".

نظر كشيون إلى العشرة آلاف محارب الذين يمشون أو يقودون جيادهم عبر المعسكر الشاسع. ابتسم وهزّ رأسه. "نحن نذاب يا شقيقي، لكن حتى النذاب بحاجة إلى مكان تنام فيه. لا أريد شوارع تيموج الحجرية، لكن ربما يمكننا صنع مدينة من الخيام، مدينة يمكننا نقلها كلما أردنا إلى مراعي جديدة".

أصغى جنكيز باهتمام. "هذا أفضل. سأفكر بالأمر يا كشيون. سيكون هناك وقت كافٍ في رحلة العودة إلى الوطن، وكما تقول، لا يمكننا دفن كل هذا الذهب".

كان آلاف العبيد قد خرجوا مع العربات في أثناء ذلك، ووقفوا بانسين في صفوف. كان الكثير منهم شباباً يافعين، والذين منحهم الإمبراطور الشاب للخان المنتصر.

قال كشيون، وهو يشير إليهم بهزة من يده: "يمكن أن يبنوها لنا. وعندما نطمعن أنا وأنت في السن، سيكون لدينا مكان هادئ نموت فيه".

لقد قلت إنني سأفكر بالأمر يا شقيقي. من يعرف الأراضي التي اكتشفها وفتحها تسوبودي، جيل أو خامس؟ ربما سنذهب معهم ولا نحتاج أبداً إلى مكان ننام فيه. ابتسم كشيون من كلمات شقيقه، وعرف أن عليه ألا يضغط عليه أكثر.

قال: "انظر إلى هذا كله. هل نتذكر عندما كنا لوجدنا؟". لم يكن بحاجة إلى إضافة تفاصيل. كان هناك وقت بالنسبة إلى كليهما لم يكن الموت بعيداً أكثر من خطوة وكان كل رجل عدواً.

قال جنكيز: "لنذكر". مقارنةً بصور طفولتهما، كان منظر السهل بعرباته وبالمحاربين المحتشدين فيه مثيراً للدهشة. بينما كان يحدّق إلى المشهد الذي أمامه، رأى جنكيز شكل وزير الإمبراطور الأول يهرول نحوه. تنهد لنفسه من فكرة الدخول

في حديث مجهد آخر مع الرجل. كان ممثل الإمبراطور يتظاهر بالود، لكن كرهه للقبائل كان واضحاً في كل نظرة مرتعشة. كان يشعر أيضاً بالتوتر من التواجد بجانب الجياد وهو كان يصيبها بالتوتر بالمقابل.

فيما كان جنكيز يراقبه، انحنى وزير تشن كثيراً له قبل أن ينشر رقعة. سأل جنكيز بلغة تشن قبل أن يستطيع روين تشو الكلام: "ما هذا؟". كانت تشاكاهي قد علمته، وكافأت تقدمه بوسائل مبتكرة. بدا الوزير مرتبكاً، لكنه استعاد السيطرة على نفسه بسرعة. "إنها لائحة الجزية يا مولاي الخان".

"سلمها لشقيقي تيموج. سيعرف ماذا يفعل بها". احمر وجه الوزير وبدأ يلف الرقعة بشكل محكم. قال: "كنت أعتقد أنك ستزعب بتفقد الجزية يا مولاي".

تقطب حاجبا جنكيز عيوساً منه. لم أكن أعتقد أن أي شخص سيكون أحق بما يكفي حتى لا يفي بما وعد به يا روين تشو. هل تقول إن شعبك لا يتمتع بالشرف؟". تمتم روين تشو: "لا يا مولاي...".

لوح جنكيز بيده لإسكاته. "إذا، سينظر فيها شقيقي". فكر للحظة، وهو يحق من فوق رأس الوزير إلى صف العربات المحملة. ثم أُر سيدك بعد لعرض الاستسلام الرسمي يا روين تشو. أين هو؟".

أضحى لون وجه روين تشو أكثر احمراراً بينما كان يفكر كيف سيحبب. لم يكن القائد زهي زهونغ قد نجا تلك الليلة وقد تم استدعاء الوزير الجليل إلى مقره عند الفجر. ارتعش عندما تذكر الجروح والعلامات على جسده. لم يكن ذلك موتاً سهلاً.

قال أخيراً: لم ينج القائد زهي زهونغ من تلك الأوقات الصعبة يا مولاي. نظر إليه جنكيز دونما أي انفعال. لماذا سألهم بأي من جنودكم الآخرين؟ لم أر إمبراطورك. هل يعتقد أنني سأخذ هذا الذهب وأبعد من هنا من دون حتى أن أنظر إليه؟".

زم روين تشو فمه، على الرغم من أنه لم يخرج منه أي صوت. تقدم جنكيز منه. "عد إلى ينكينغ أيها الوزير، واجعله يخرج. إذا لم يكن هنا بحلول الظهيرة، كل كنوز العالم لن تنفذ مدينتكم".

ابتلع روين تشو ريقه بصعوبة، وكان من الواضح أنه خائف. كان قد نمتى بالأا يطلب خان المغول رؤية الفتى البالغ من العمر سبع سنوات. هل سينجو كسوان

الصغير من الاجتماع؟ لم يكن روين تشو واثقاً من ذلك. كان المغول قساة ولم يكونوا يهتمون بشيء. على الرغم من ذلك، لم يكن هناك خيار فالتحني أكثر من ذي قبل. كما تشاء يا مولاي".

عندما ارتفعت الشمس في السماء، تم إيقاف قطار الكنوز العظيم للسماح بخروج محمل الإمبراطور إلى السهل. جاء معه مئة رجل يرتدون دروعاً، ويمشون إلى جانبي المحمل الذي يحمله عبيد. جاؤوا صامتين متجهين وصمت المغول أيضاً عندما شاهدوهم، وبدلوا يندفعون وراء المجموعة فيما كانت تشق طريقها إلى حيث كان جنكيز ينتظر مع قادة جيشه. لم يتم نصب خيمة خاصة للإمبراطور، وعلى الرغم من ذلك، لم يسمع جنكيز سوى أن يشعر بالأسى فيما كانت الصفوف تتحرك نحوه. كان من الصحيح أن الفتى لم يكن قد لعب دوراً في تاريخ القبائل. على الرغم من ذلك، كان الرمز الوحيد لكل ما اجتماعوا لمقاومته. أزل جنكيز يده إلى قبضة أحد سيوف أرسلان على خصره. عندما تم صنعه، كان خائفاً لأقل من خمسين رجلاً في معسكر من الثلج والجليد. لم يكن ليجرؤ على الحلم حينها بأن يخرج إمبراطور تشن لملاقاة بناءً على أمر منه.

لمع المحمل في الشمس بينما كان يتم إنزاله على الأرض بلطف كبير. شد العبيد قاماتهم، يحدقون أمامهم مباشرة. راقب جنكيز بذهول بينما كان روين تشو يفتح ستائر صغيرة جانبية وفتى صغير يخطو على العشب. كان يرتدي ستره خضراء طويلة مرصعة بالجواهر، فوق طماقات سوداء. كانت باقة عالية قد جعلت الفتى يرفع رأسه عالياً. لم تكن عيناه خائفتين عندما التقت بعيني الخان وشعر جنكيز بالإعجاب من شجاعة الفتى.

تقدم جنكيز خطوة إلى الأمام وشعر بنظرة الجنود القاسية إليه.

قال بلطف: "اجعل هؤلاء الرجال يتراجعون إلى الخلف يا روين تشو". أحنى الوزير رأسه وأصدر الأمر. وقف جنكيز بثبات بينما كان الضباط يحدقون إليه قبل أن يتراجعوا مسافة قصيرة. كانت فكرة قيامهم بحماية الفتى الصغير في قلب معسكر المغول مثيرة للسخرية، لكن جنكيز شعر بولائم الشديد. لم يكن يرغب بإفزازهم وجعلهم يشنون هجوماً عليه. حالما تحركوا، لم يعد يفكر في وجودهم واقترب من الإمبراطور.

قال بلغة تشن: "أهلاً بك في معسكري".

حدق إليه الفتى الصغير من دون أن يرد، ورأى جنكيز أن يديه ترتعشان.

قال كسوان فجأة بصوت عالٍ وحاد: "حصلت على كل ما تريده".
رد جنكيز: "كنت أريد وضع حدٍّ للحصار. هذه نهاية واحدة". رفع الفتى رأسه
أكثر، وكان يقف مثل تمثال عرض يلمع في الشمس.
"هل ستهاجمنا الآن؟".

هزَّ جنكيز رأسه. لقد قلت إن كلمتي حديد أيها الشاب. أعتقد ربما أنه إذا كان
والدك والقساُ أمامي الآن، كنت سأفكر بالأمر. هناك كثيرون بين شعبي سوف
يستحسنون هذه الاستراتيجية". توقف ليبتلع ريقه عندما ألمته حنجرته ولم يستطع منع
نوبة سعال انتابته حينها. لغضبه، بقي صغير مسموع عندما تابع كلامه.
"لقد قتلت ذئباً. لن أصطاد الأرانب".

رد الفتى الصغير: "لن أبقى صغيراً دائماً يا مولاي الخان. ربما تندم على الإبقاء
على حياتي".

ابتسم جنكيز من عرض التحدي المبكر، حتى عندما فزع روين تشو. بحركة
ملسة، شمر جنكيز سيفه ووضع مقدمة اللصل على كتف الفتى، ومس بها ياقته.
"كل الرجال العظماء لديهم أعداء أيها الإمبراطور. سيسمع أعداؤك أنك وقفت
وسيفي على عنقك من دون أن تكون كل جيوش ومدن تشن قاذرة على رفعه. في
السوقت المناسب، ستهم لماذا يجعلني ذلك راضياً أكثر من قتلك". تسبب سعال آخر
بجعل حنجرته تتقبض ومسح فمه بيده الحرة.

لقد عرضت عليك السلام أيها الفتى. لا يمكنني القول إنني لن أعود، أو أن
أبنائي وقادة جيشهم لن يبقوا هنا في السنوات القادمة. لقد اشتريت السلام لسنة، وربما
لستين أو ثلاث. هذا أكثر مما كان شعبك قد ملحه لي على الإطلاق". مع تهيدة،
أغمد سيفه.

"شيء واحد أخير أيها الفتى، قبل أن أعود إلى الوطن حيث أراضي طفولتي".
رد كسوان: "ما الذي تريده بعد؟". كان قد أصبح شاحباً آنذاك بعد أن تم رفع
السيف عن عنقه، لكن عينيه كانتا باردتين.

قال جنكيز: "اجث لي أيها الإمبراطور، وسأعادر". لدهشته، امتلأت عينا الفتى
بدموع غاضبة.
"لن أفعل ذلك!".

اقترب روين تشو، يتحرك بعصية وراء الإمبراطور.
همس: "لن السماء، ينبغي أن تفعل ذلك". لم يتكلم جنكيز مجدداً، وأخيراً، استرخت
كتفا الفتى دلالة على الهزيمة. حتى من دون أي أفعال بينما كان يجثو أمام الخان.

وقف جنكيز في النسيم واستمتع بلحظة طويلة من الصمت قبل أن يشير إلى روين تشو ليساعد الفتى على النهوض على قدميه.

قال جنكيز بهدوء: "لا تنسَ هذا اليوم أيها الإمبراطور، عندما تكبر". لم يرد الفتى بينما كان روين تشو يقود خطواته عائدين إلى المحمل ويراه بأمان في الداخل. تشكل الرتل حوله وبدأ السير عائداً إلى المدينة.

راقبهم جنكيز يذهبون. كان قد تم دفع الجزية وجيشه ينتظر أمره بالتحرك. لم يكن هناك شيء يربطه بالسهل اللعين الذي سبب له الضعف والإحباط من اللحظة التي وطلته فيها قنماء.

قال لكشيون: "لنذهب إلى الوطن". صدحت الأبواق عبر السهل وبدأ الحشد الضخم لشعبه بالتحرك.

ساء المرض في صدر جنكيز في الأسابيع الأولى من السفر. كان جلده حاراً عند مسه ويتعرق بشكل مستمر، ويعاني من طفح جلدي عند فخذيه وإبطيه، حيثما كان الشعر ينمو بكثافة. كانت أنفاسه تخرج مجعدة، حتى إنه كان يصفر كل ليلة ولا يستطيع أن يتنحنج. كان يحن إلى الرياح الباردة النظيفة في جبال وطنه، وبخلاف المنطق، كان يقضي كل يوم على السرج، ينظر إلى الأفق.

كان قد مضى شهر منذ غادروا ينكينغ، وكانت ضواحي مملكة الصحراء في مرمى النظر وتوقفت القبال عند نهر للتزود بالماء اللازم للرحلة. هناك، جاء آخر المستسلمين الذين كان جنكيز قد تركهم خلفه إلى المعسكر. لم ينضم اثنان منهم إلى زملائهم حول نيران المعسكر، وبدلاً من ذلك، قادا جواندهما مباشرة إلى خيمة الخان على العربة.

كان لكشيون وأرسلان هناك مع جنكيز وخرج الرجال الثلاثة لسماع التقرير النهائي. راقبوا بينما كان المستسلمان يترجلان عن فرسهما. كان كلاهما مغطين بالغبار والتراب وتبادل جنكيز نظرة مع شقيقه، وابتلع ريقه ليخفف من وخز حنجرته المجروحة.

شرع أحد المستسلمين يقول: "مولاي الخان". ترنح بينما كان واقفاً وتساعل جنكيز عما يكون قد دفع الرجل لإجهاد نفسه.

لقد ترك الإمبراطور ينكينغ يا مولاي، ويتجه جنوباً. خرج أكثر من ألف معه.

سأل جنكيز غير مصدق: "هل هرب؟".

"جنوباً يا مولاي. لقد تركوا المدينة مفتوحة، وهجروها خلفهم. لم أبقَ لأرى كم عدد الأشخاص الذين نجوا في الداخل. أخذ الإمبراطور العديد من العربات والعبيد، وكل وزرائه".

لم يستكلم أحد آخر بينما كان جنكيز يسعى في قبضته المغلفة، ويحاول جاهداً
التقاط أنفاسه.

قال جنكيز أخيراً: لقد منحتك السلام. على الرغم من ذلك، يصرخ للعالم أن
كلمتي لا تعني شيئاً له".

قال كشيون: "ماذا يهمنا من ذلك يا شقيقي؟ خاسار في الجنوب. لن تجرو أي
مدينة على منحه ملاذاً...".

أسكنه جنكيز بإيماءة غاضبة. لن أعود إلى ذلك المكان يا كشيون. لكن هناك
ثمن لكل شيء. لقد خرق السلام الذي منحتك إياه بهربه إلى جيوشه في الجنوب.
سأريه الآن النتيجة".

سأل كشيون: "شقيقي؟".

"لا يا كشيون! لقد اكتفيت من الألعاب. عد برجالك إلى ذلك السهل واحرق
بنكينغ عن آخرها. ذلك هو الثمن الذي سأأخذه منه".

نظراً لغضب شقيقه، لم يستطع كشيون سوى أن يحني رأسه.

قال: "كما تشاء يا مولاي".

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

ملاحظات تاريخية



كانت الطبيعة قد تركت هذه السمة في الدم،
بأن كل الرجال سيصبحون طفافة إذا استطاعوا".

- دانييل ديفو

لا يمكن سوى تقدير تاريخ ولادة جنكيز. نظراً للطبيعة البدوية لقبائل المغول، لم يتم تحديد سنة وموقع ولادته أبداً. إضافة إلى ذلك، كانت القبائل الصغيرة تتوزع السنوات وفقاً لأحداث محلية، مما يجعل توافقها مع التقويم السائد اليوم صعباً. لم تصبح الأوقات معروفة على وجه الدقة سوى عندما أضحي جنكيز على احتكاك بالعالم الخارجي. غزا منطقة كزى كزيا جنوب غربي سنة 1206 ميلادية ونودي به خاتماً لكل القبائل في السنة نفسها. بحسب التقويم الصيني، كانت تلك سنة النار والنمر، في نهاية حقبة تيهي. ربما كان آنذاك بعمر الخامسة والعشرين، أو كان قد بلغ الثامنة والثلاثين عندما وجد شعبه. لم أسهب في تقديم سنوات الحرب والتحالفات بينما كان يوحد القبائل معاً تحت قيادته. المثير للاهتمام أن لقصته دائماً مجالاً واسعاً. أوصي بقراءة التاريخ السري للمغول *The Secret History of Mongols*، ترجمة آرثر ويلي، لكل من يطمح معرفة المزيد عن تلك الحقبة.

كان تحالف النيمنز آخر ائتلاف رئيسي يقاوم تشكيل الأمة الجديدة. صعد خان النيمنز بالفعل جبل ناخو، وصعد المتحدرات مبتعداً عن جيش جنكيز الذي كان يتقدم نحوه. عرض جنكيز الإبقاء على فرسانه، لكنهم رفضوا وقتلهم حتى آخر رجل. تم استيعاب باقي المحاربين والعائلات ضمن قواته.

كان كوكشو كاهناً عرافاً قوياً، ومعروفاً أيضاً باسم تب-تجري. لا يُعرف الكثير بشأن كيف أصبح نافذاً. اشتكت هولن وبورت إلى جنكيز عدة مرات بشأن الكاهن

العراف. أصبحت قدرة تأثيره على جنكيز مصدراً كبيراً لقلق أولئك الذين كانوا حول الخان. كان جنكيز نفسه يعتقد بأب سماء واحد؛ الذات الواحدة المؤيدة بعالم أرواح الكهنة. بقي كوكشو شخصاً غامضاً. كان أحد قوتين القبائل يحظر إرفاق دم ملكي أو دم الكهنة. لم أنته بعد من سرد قصته.

فيما كانت القبائل تجتمع استجابة لنداء جنكيز، كتب خان اليوغو إعلان ولاء مطابقاً تقريباً لما أوردته هنا. بأي حال، كانت حادثة تعرض خاسار للضرب وإرغام تموج على الجو مع أبناء عشيرة خونغوتان وليس ويلا.

قام جنكيز بالفعل بغمر سهل كزي كزيا بالماء واضطر للانسحاب أمام المياه التي ارتفع منسوبها. على الرغم من أن ذلك كان محرّجاً، إلا أن تدمير المحاصيل أرغم الملك على الحضور إلى طاولة المفاوضات وحصل جنكيز أخيراً على أراضي للشعب المغولي. لم تكن تلك أول مواجهة لجنكيز مع فكرة دفع جزية. كان معروفاً عن القبائل المغولية إجراؤها المفاوضات بتلك الطريقة. على الرغم من أن ذلك لم يكن على نطاق واسع. من المثير للاهتمام التفكير بينما كان جنكيز قد فعله بثروات كزي كزيا، ولاحقاً، مديسة الإمبراطور. لم يكن يستفيد من الممتلكات الشخصية التي لا يستطيع حملها على حصانه. لا بد أن الجزية أثرت في القبائل وأكّدت هيمنته، لكن بخلاف ذلك لم يكن لها فائدة عملية كبيرة.

ربما كان مصير كزي كزيا مختلفاً لو أن الأمير وي من إمبراطورية تشن قد أجاب نداء الاستغاثة. كانت رسالته مترجمة: "إن من مصلحتنا أن يهاجم أعداؤنا بعضهم. أين يكمن الخطر في ذلك علينا؟".

عندما دار جنكيز حول سور الصين العظيم، فعل ذلك صدفة فقط. ابتعد دربه إلى ينكينغ عبر أراضي كزي كزيا عن السور. بأي حال، من المهم أن نفهم أن السور كان عقبة صلبة فقط في الجبال حول ينكينغ التي عُرفت لاحقاً باسم بكين، ثم بيجين اليوم. في أماكن أخرى، كان السور مهتماً، أو ليس أكثر من متراس من الأرض مع نقطة حراسة عادية. في قرون لاحقة، تم بناء السور بأكمله ليصبح فاصلاً متواصلاً ضد الغزو.

من المهم ملاحظة أن لفظ أسماء الأماكن باللغة الصينية تقريبي دائماً، ويتم استعمال أبجدية غربية لكتابة الحرف نفسه. لهذا، تلفظ كزي كزيا أحياناً نسي-شيا، أو

همي-هسيا، وتُكتب تشن أحياناً جن أو حتى كن. تُكتب سونغ سنغ في بعض النصوص. كنت قد استطعت العثور على واحد وعشرين لفظاً لجنكيز، من الاسم الغريب جنتشيسكان وتشن-كس إلى الاعتيادي مثل جنجيز، تشنكيز، جنكز، وجنجر. الكلمة المغولية لوربدو أو لردو تعني المعسكر أو مقر القيادة العامة. اشتقنا من هذه الكلمة كلمة الحشد. نقول بعض المعاجم إن العرّاف كلمة من أصل مغولي، وإن غوركاس نيبال ربما اشتقوا اسمهم من غورخان أو خان الخانات.

كان لجنكيز أربعة أبناء شرعيين. كما هي حال كل الأسماء المغولية، هناك اختلاقات في التهجئة، تماماً كما تُكتب كلمة شكسبير أحياناً شكسبر، أو بواديسيا بونيكيا. يكون اسم جوشي أحياناً جوجي، وتشاغاتاي جاغاتاي، وأوجيدي أوجادي. كان آخر أبنائه تولي، والذي يُكتب أحياناً تول. إضافة إلى أميرة كزي كزيا، كان جنكيز يتزوج غالباً من أعدائه الذين يهزمهم. جعل أحد آخر قراراته كل الأبناء شرعيين، على الرغم من أن ذلك لم يكن له تأثير في حق الميراث بين أبنائه.

لطالما كانت المدن المسورة مشكلة لجنكيز. في الوقت الذي هاجم فيه ينكبنغ، كانت المدينة محاطة بقرى محصنة تحتوي صوامع وترسانات أسلحة. كانت هناك خنادق مائية حول أسوار المدينة وكان عرض الأسوار نفسها حوالي خمسين قدماً عند القاعدة، ومثل ذلك ارتفاعاً. كان للمدينة ثلاث عشرة بوابة مبنية بإحكام وما كان يعد أطول قناة في العالم، والتي تمتد أكثر من ألف ميل جنوباً وشرقاً إلى هانغزو. كانت معظم عواصم العالم قد نشأت على ضفاف نهر عظيم. تم بناء بيجين حول ثلاث بحيرات كبيرة؛ يهي إلى الشمال، زهونغهي (أو سونغهي) في الوسط ونانهي إلى الجنوب. ربما تكون أقدم مستعمرة مأهولة في العالم، لأنه تم العثور على دلائل تثبت وجود بشر فيها قبل نصف مليون سنة مضت؛ إنسان بكين، كما يُعرف أحياناً.

في الوقت الذي شن فيه جنكيز هجومه عبر ممر بادغر، كانت ينكبنغ قد شهدت مدة من النمو نجم عنها بناء أسوار قطرها خمسة أميال وزيادة عدد سكانها إلى ربع مليون أسرة، أو ما يقارب المليون شخص. من الممكن أن تتخيل نصف مليون آخرين لم يكونوا يظهرون في أي سجل رسمي. حتى عندها، لم يكن قد تم بعد بناء المدينة المحرمة الشهيرة داخل الأسوار وقصر الإمبراطور الصيني (نمره الجنود البريطانيون والفرنسيون سنة 1860). اليوم، يبلغ عدد سكان المدينة حوالي خمسين مليون نسمة

ويمكن قيادة سيارة في العمر الذي كان مرة مسرّحاً لواحدة من أشهر المعارك في التاريخ. تاريخ ذلك معروف أيضاً: سنة 1211 ميلادية. كان جنكيز قائد شعبه منذ خمس سنوات في ذلك التاريخ. كان في لُوج قوته الجسدية وقَاتِل مع رجاله. من غير المحتمل أن يكون عمره آنذاك أكثر من أربعين سنة، لكن ربما يكون شاباً بعمر الثلاثين، كما كنت قد كتبت هنا.

تعد معركة مر بادغر واحدة من أعظم انتصارات جنكيز. كان رجاله أقل عدداً ولم يكن قادراً على المناورة، لكنه أرسل محاربين لتطويق العدو، وتسلقوا جبلاً اعتقد أبناء تشن أنها غير سالكة. ثم إرغام فرسان تشن على التراجع نحو خطوطهم من قبل الخيالة المغول، وحتى بعد عشر سنوات، كانت الهياكل العظمية تملأ الأرض حول ذلك المكان لمسافة ثلاثين ميلاً. نتيجة المشكلات المتعددة تلفظ الكلمات الصينية باللغة الإنكليزية، كان الممر معروفاً في أعمال سابقة باسم يوهونغ، والذي يُترجم إلى بادغر. بعد خسارته المعركة، عاد القائد زهي زهونغ بالفعل أدراجه ونجح الإمبراطور الشاب، وعين آخر بينما كان يحكم كوصي.

كان قد تم بناء مدينة ينكينغ لتكون منيعة وكان هناك ما يقارب ألف برج حراسة على الأسوار. كان كل منها مزوداً بأقواس ضخمة يمكنها إطلاق سهام كبيرة مسافة ثلاثي الميل. إضافة إلى ذلك، كان لديها منجنيقات يمكنها إطلاق حمولات ثقيلة مئات الباردات من فوق الأسوار. كان لديها بارود وقد بدأت استعماله للتو في الحرب، على الرغم من أنه كان في ذلك الوقت يشكل جزءاً من الدفاعات. كانت منجنيقاتها تستطيع إطلاق أوعية فخارية مليئة بزييت معالج؛ بنزين. كان الهجوم على مثل تلك المدينة المحصنة سيقصم ظهر جيش المغول، لهذا اختاروا تدمير الأراضي حولها وجعل ينكينغ تتضور جوعاً حتى تسلم.

استغرق الأمر أربع سنوات وكان سكان ينكينغ يأكلون موتاهم في الوقت الذي فتحوا فيه البوابات واستسلموا سنة 1215. قبل جنكيز الاستسلام مقابل جزية لا يمكن تخيلها. سافر بعدها عائداً إلى مراعي شبابه، كما كان يفعل طيلة حياته. مع انتهاء الحصار، هرب الإمبراطور جنوباً. على الرغم من أنه لم يعد بنفسه، إلا أن جنكيز أرسل جيشاً إلى المدينة لينار منه. احترقت أجزاء من ينكينغ طيلة شهر.

على الرغم من كراهيته لتشن، إلا أن جنكيز لم يكن الشخص الذي أنهى احتلال أراضيهم وإخضاعهم أخيراً. سيق ذلك على عاتق أبنائه وحفيده كوبلا. في ذروة

نجاحه، غادر الصين واتجه غرباً. صحيح أن الحكام المسلمين رفضوا الاعتراف بسلطته، لكن جنكيز كان صاحب رؤية ولم يكن يتصرف من دون تفكير. إنها حقيقة غربية، والتي غالباً ما تكون غائبة عن التاريخ، لقد غادر الصين عندما كانت جاهزة لتسقط عند قدميه.

كان يفهم فكرة الأمم والقوانين، وطوّر ببطء نظامه الخاص، المعروف باسم *ياسا*.

"إذا لم يتقيد العظيم، قادة الجيش والقادة من سلالة الحاكم الذين سيولدون في المستقبل بياسا، عندها ستتحطم قوة الدولة وتنتهي. بغض النظر عن الطريقة التي يبحثون فيها عن جنكيز خان، لن يجدوه". جنكيز خان.

نرى في هذا النص رؤية الشخص الذي شكّل أمة من قبائل متناثرة وفهم ما يتطلبه الأمر ليحكم أرضاً شاسعة.

استعمل جنكيز نظام الخيمة البيضاء، والخيمة الحمراء، والخيمة السوداء كما وصفت. كانت دعاية من نوع ما، مصممة لجعل المدن تسقط بسرعة من الخوف. نظراً إلى أن الرعي كان دائماً قضية تشغل القبائل المغولية، كان ينبغي نقادي الحصار المطول متى كان ذلك ممكناً. لم يكن ذلك يناسب سواء مزاجهم أو أسلوب جنكيز في العمليات القتالية التي كانت فيها السرعة والحركة عاملين رئيسيين. بطريقة مشابهة، كان دفع عدو نحو مدينة لاستنفاد موارده أمراً قاسياً شائعاً. بطريقة ما، كان جنكيز عالياً جداً، لكن هناك ميزة لحروب المغول تستحق أن أذكرها هنا: النار. كان يتم استعمال جملة لقد خسروا الكثير من الرجال الطيبين لتبرير شن هجوم شامل بعد الهزيمة.

كان أيضاً مستعداً لتجريب تقنيات وأسلحة جديدة، مثل الحربة الطويلة. كان القوس دائماً السلاح الذي يختاره الفرسان المغول، لكنهم استعملوا الحراب بأسلوب فرسان العصور الوسطى بالضبط، كسلاح هجومي ناجح ثقيل ضد المشاة والخيالة الآخرين.

الخداع ميزة رئيسية أخرى لفهم العديد من الانتصارات التي حققها المغول. كان جنكيز والرجال الذين يعملون تحت قيادته يعتبرون أن القتال المباشر يضر بسمعتهم.

كانت الانتصارات التي يتم تحقيقها بالدهاء تجلب شرفاً أكبر لهم وكانوا دائماً يبحثون عن طريقة لخداع العدو الذي يواجهونه، سواء أكان ذلك انسحاباً زائفاً، أم قوات احتياطية متوارية عن الأنظار أو حتى دمي مصنوعة من القش موضوعة على جبال إضافية للإيهام بالاحتياطيات لم يكونوا يمتلكونها عادة. ربما يهم البعض أن يفكر بأن بادن-هاول اعتمد المقاربة ذاتها تماماً في دفاعه عن مالفكينغ بعد سبعة قرون، مع حقول الغمام وهمية، وإرسال رجال لوضع أسلاك شائكة ظاهرة للعيان وكل أنواع الخدع والحيل. بعض الأشياء لا تتغير.

حادثة قيام جيلم بمص الدم من عنق جنكيز مثيرة للاهتمام. لم يكن معروفاً أن أحداً قد نجا من السم من قبل، لكن كيف يمكن تفسير ذلك؟ ليس ضرورياً مص الدم المتخثر من جرح في العنق. لا يساعد ذلك على الشفاء، وفي الحقيقة، يمكن لذلك الفعل أن يضر بالشرابين الضعيفة أساساً من الجرح. وقعت الحادثة تاريخياً في وقت أبكر مما ذكرته هنا، لكنها كانت استثنائية للغاية حتى إنني لم أستطع التفاوضي عنها. إنها من نوع الأحداث التي تتم إعادة كتابتها في التاريخ، إذا كانت محاولة الاغتيال الناجحة جزئياً تعزّ ربما شائكة.

هناك حادثة تاريخية لم أوردتها وتتعلق بقيام أحد رجال القبائل المنفيين والجائعين بالإمساك بأصغر أبناء جنكيز تولى وتهديده بسكين. لا يمكننا أن نعرف ما كان ينويه لأن جيلم وآخرون قتلوه على الفور.

لم يكن جنكيز ذلك الرجل الذي لا يقهر وأصيب بجروح عدة مرات في المعارك. على الرغم من ذلك، كان الحظ دائماً إلى جانيه ونجا مراراً وتكراراً. ربما يستحق ما كان رجاله يعتقدون بشأنه من أنه كان مباركاً والنصر حليفه.

ملاحظة عن مسافات السفر: كانت إحدى الميزات الرئيسية لجيش المغول أنه كان يستطيع التحول إلى أي مكان تقريباً بهجوم مفاجئ. هناك سجلات مؤكدة عن قطعه مسافة ستمئة ميل في تسعة أيام، أي بمعدل سبعين ميلاً في اليوم، أو رحلات أطول مسافة قطعوا فيها مسافة 140 ميلاً في اليوم وكان لا يزال بمقدور الفارس متابعة الطريق. كانت أعظم الرحلات تتضمن تغيير الجياد، لكن ماركو بولو سجل أن المبعوثين المغول كانوا يقطعون مسافة 250 ميلاً بين شروق الشمس وحلول الظلام. في الشتاء، كان يتم إطلاق سراح الجياد المرهقة. كانت تأكل ما يكفي من الثلج لإرواء عطشها وتبحث فيه للعثور على الأعشاب تحتها. عندما عبر الراهب الفرنسيكاني

جون دو بلان كارينلي السهول لزيارة كوبلا خان، ثم إلى كراكورم، نصحه المغول باستبدال جياده بجياد مغولية، وإلا سيراهما تتضور جوعاً حتى الموت. لم تكن لديهم مثل أسباب القلق تلك بشأن الجياد. كان يتم تربية الجياد الغربية من سلالات تتمتع إما بقوة كبيرة مثل جواد مقاطعة سوفولك بنش، أو لسرعتها في السباقات. لم يتم تربيتها أبداً لقدرتها على التحمل.

حادثة سقوط التويجات صحيحة. ألقت ما يصل إلى ستين ألف شابة أنفسهن عن أسوار ينكينغ بدلاً من رؤيتها تسقط في يدي الغزاة.

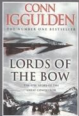
«أنا الأرض وعظام القتال. أنا الشتاء».

تحول تيموجن الذئب إلى جنكيز خان، رجل عليه توحيد أكثر القبائل فرقة وأشدّها تعطشاً للحرب على الأرض. عقد العزم على تشكيل أمة جديدة من براري وجبال منغوليا المقفرة. ستكون ولادة دموية تجعل قارة بأسرها تجثو على ركبتها.

طيلة آلاف السنين، أبقت إمبراطورية تشن القوية والمسيطرة، والتي تمتلك أرضاً ثرية وجيوشاً جزّارة شعبه ممزقاً ومشتتاً. لم يكن لدى محاربيه سوى القوس، والحصان، وانضباط شديد جاء من أرض الجليد، والجوع، والموت. كانت الجدران الحجرية تلقي بظلالها على المحاربين المغول، فتوجّب على جنكيز إما تحطيم جيش الامبراطورية المهيمن أو رؤية شعبه يتبعثر وأحلامه تتحطم.

إضافة إلى همّ التعاطي مع العدو التاريخي، كان على جنكيز تسوية الخلافات المستمرة بين جنراته، والتوفيق بين أشقائه الطموحين، والتأقلم مع ردّات فعل أبنائه الذين اشتد ساعدتهم. وهكذا تحول المحارب الشاب إلى قائد عسكري مظفر: وقد آن الاوان لتحقيق المجد لشعبه.

«سادة البراري» قصة رائعة ملحمية في مدامها، مقنعة ومذهلة في سردها. الأهم من ذلك، استمرار جنكيز خان في الهيمنة على المشهد فيما يتحول من شاب يافع في «ذئب السهول» إلى قاهر للأمم.



اقرأ للمؤلف أيضاً:
الجزء الأول من هذه
السلسلة التاريخية

ISBN 978-9953-87-575-0



9 789953 875750

جميع كتبنا متوفرة على
شبكة الإنترنت

نيل وفرات كوم
www.neelwafurat.com

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbbooks.com

ص. ب. 13-5574 شوران 2050-1102 بيروت - لبنان
هاتف: 785107/8 (+961-1) فاكس: 786230 (+961-1)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

